

الجمهورية العربية السورية

وزارة التعليم العالي - جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - قسم التاريخ

بدر محمد لنيل درجة الماجستير

بمختار

مدن الساحل الشمالي ما بين أنطاكية وطرابلس
خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر للميلاد
(٤٨٨-٥٩١هـ / ١٠٩٥-١١٩٥ م)



إشراف الدكتورة

وفاء جوني

إهداء

إلى الدكتورّة وفاء جوني التي كانت مثلاً
للأستاذة الكريمة والأم الحنونة بنصيحها
إرشادها إليك أقدم هذه الرسالة ثمرة التعب
والجهد والسهر عريون شكر وعرفان محبة

ولله الحمد أولاً وأخيراً

مدن الساحل الشامي ما بين أنطاكية وطرابلس

(خلال القرن ٥٦ - ١٢م)

(٤٨٨ - ٥٩١ هجري / ١٠٩٥ - ١١٩٥ ميلادي)

مقدمة:

دراسة لأهم المصادر والمراجع المستخدمة في البحث.

الفصل الأول : عرض جغرافي للمنطقة الساحلية:

١- الموقع والحدود والتقسيمات الإدارية.

٢- البنية الجغرافية والتضاريسية.

٣- موارد المنطقة الاقتصادية ومنها:

- الزراعة

- الحرف

- التجارة

- المياه

٤- السكان.

٥- النشاط الثقافي والعمراني.

الفصل الثاني : الاحتلال الصليبي للساحل الشامي:

١- الأوضاع العامة للساحل الشامي قبيل الاحتلال.

٢- وصول الحملة الصليبية الأولى إلى المنطقة واحتلال الساحل.

٣- الأوضاع الإدارية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية للساحل

تحت الاحتلال.

٤- دور المدن الإيطالية التجارية.

الفصل الثالث (مرحلة المقاومة والاسترداد):

الجهاد الإسلامي ضد الفرنجة على يد كل من:

١- عماد الدين زنكي ٥٢١-٥٤١ هـ / ١١٢٧-١١٤٦ م.

٢- نور الدين محمود بن زنكي ٥٤١-٥٦٩ هـ / ١١٤٦-١١٧٣ م.

٣- صلاح الدين الأيوبي ٥٦٩-٥٨٩ هـ / ١١٧٣-١١٩٣ م.

الفصل الرابع : (التحرير)

تحرير الساحل الشامي في عهد صلاح الدين ولغاية سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م.

٢- أعمال التحرير :

- أ - تحرير حصن الأكراد وبقية الحصون المجاورة له (صافيتا -
العريمة - يحمور).
- ب - تحرير أرواد.
- ج - تحرير طرطوس وبانياس وما حولها.
- د - تحرير جبلة.
- و - تحرير اللاذقية.
- هـ - تحرير بقية حصون الساحل الشامي (بلاطنوس، العيدو، الشغر
وبكاس، حصن سرمانية (سرمين) دريساك، بغراس.
- ز - الهدنة بين صلاح الدين وبوهمند حاكم أنطاكية.

الفصل الخامس (القلاع والحصون)

لمحة تاريخية عن بناء القلاع والحصون حتى القرن ٦هـ / ١٢م وأهميتها:

- ١- قلعة صهيون (أو صلاح الدين الأيوبي).
- ٢- قلعة المرقب.
- ٣- حصن الأكراد (قلعة الحصن).
- ٤- حصن يحمور.
- ٥- حصن المهالبة.
- ٦- حصن العريمة.
- ٧- بني قحطان.
- ٨- قلعة أرواد.
- ٩- برج صافيتا.

خاتمة: نتائج عامة عن البحث.

— خرائط.

— أهم المصادر والمراجع المستخدمة.

تقديم:

بلادنا العربية كانت وما زالت محط أنظار واهتمام القوى الاستعمارية قديماً وحديثاً، نظراً لما تتمتع به من موقع استراتيجي هام في قلب هذا العالم، ولما فيها من خيرات طبيعية وثروات باطنية، ففي أواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي تعرض المشرق العربي لحركة استعمارية من قبل الغرب لم يشهد لها التاريخ مثيلاً في العصور الوسطى متخذة من الدين ستاراً لإخفاء ما انطوت عليه مطامعها التوسعية والتي عرفت باسم " الحروب الصليبية".

لقد أحدثت هذه الحروب تبديلاً ملموساً في الأوضاع العامة للمنطقة بشكل لم تعرفه من قبل، فالسلاجقة مسلمون غرباء، أما الفرنجة الصليبيون فهم أجنب معتمدون هذا الشعور دفع كل قوة سياسية إلى بناء أماكن حصينة منيعة ممثلة بالقلاع والحصون، ومنذ ظهور المسلمين على مسرح حوض البحر الأبيض المتوسط كقوة سياسية وحربية غزت العالم المسيحي وقوضت بعض أركانه، وأهالي أوربة لا يألون جهداً في صد المسلمين ومحاربتهم.

حينما جاء الصليبيون إلى الشرق لم يواجهوا كتلة واحدة مترامية، بل واجهوا خليطاً مبرقشاً من كيانات السلاجقة المسلمين الذين لا لحمه بينهم، فالسلاجقة لم يجدوا لغة مشتركة مع الخلافة الفاطمية التي استطاعت السيطرة على جنوب بلاد الشام، لا بل كان الصراع محتكماً بدوره في صفوف الفاطميين أنفسهم، ناهيك عن ذلك وجود الإمبراطورية البيزنطية المتربصة بالجوار التي كانت تتحين الفرص المناسبة للإنقضاض على المسلمين، والأمل في هذا خلقته الفوضى السائدة في الدولة السلجوقية المقسمة إلى إقطاعات شبه مستقلة خصوصاً في المنطقة الساحلية لهذا كان من اليسير على الفرنجة التوطن سنين طويلة في الأراضي الشامية الساحلية الغنية التي كان امتلاكها هدفاً استراتيجياً سعى إليه الفرنجة منذ البداية فكان الاستيلاء عليها مليئاً للمطامع التوسعية للإقطاعيين المدنيين والكنسيين في أوربة الغربية.

وهنا يتساءل المرء لماذا اختار الفرنجة الصليبيون احتلال المنطقة الساحلية دون سواها؟ وما هي الأهداف المبتغاة من ذلك؟ وهل تطابقت أهدافهم مع النتائج العملية لاحتلالهم الساحل الشامي؟ ولماذا أخفق العرب في الاحتفاظ بهذا الشريط؟

وفي التصدي للغزاة الصليبيين إلا بعد حقبة طويلة الأمد؟!..

إن الإجابة عن مثل هذه التساؤلات وعن كثير منها تواجه حتماً كل المهتمين بدراسة التاريخ والعلاقات المتبادلة بين الشرق والغرب في حقبة الحروب الصليبية، وبما أن الساحل الشامي كان هدفاً أساسياً من أهداف هذه الحروب المباشرة كما أسلفنا الحديث فإن تاريخ هذه الحروب قد اجتذب إليه الكثير من العلماء والساساة والدبلوماسيين.. وجميع الذين ساعدوا الاحتكارات بكل قواهم من أجل إبقاء شعوب المشرق العربي تحت ربة النير الاستعماري، وهكذا يتشابك علم التاريخ مع السياسة في دراسة هذه الحقبة.

وأمام هذا التحدي الكبير الذي واجهه العرب المسلمون كان لا بد من دحر هذه القوى المحنة بتوحيد الصفوف وحمل راية الجهاد إلى أن تمكنوا في عهد صلاح الدين الأيوبي بتتويج هذا النصر في معركة حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م، فكانت نقطة انعطاف تاريخي هام للوجود الصليبي في المنطقة.

من هذا المفهوم الأساسي العام كان اختيار هذا العنوان عن مدن الساحل الشامي الأعلى وتسلط الضوء عليها في الحقبة الواقعة ما بين (٤٨٨ - ٥٩١هـ/ ١٠٩٥ - ١١٩٥م) أي خلال قرن من الزمان تفيد الباحث في التاريخ سيما وأن هذا الإقليم لم يحظ بدراسة مفردة وافية إنما اقتصر ذكره ضمن سياق الحدث العام هذا من ناحية. أما من الناحية الأخرى، فلقد كان اختيار دراسة هذا الشريط الساحلي يعود لأهميته وأهمية الدور الذي شغلته تلك المدن الساحلية في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والعلمية خصوصاً وأن البحر الأبيض المتوسط الذي هو النافذة على العالم الخارجي. كان وما زال يتمتع بأهمية خاصة كونه مركزاً للحضارات القديمة الكبرى: بالإضافة إلى كونه أداة وصل بين الشرق والغرب، من هنا كان تركيز الفرنجة على تلك المدن الساحلية التي شكلت منافذ للمشرق على البحر المتوسط. وبالتالي على أوربة لذلك كانت أولى المهمات التي تقوم على عاتق الجيوش الصليبية هي الاستيلاء على تلك المدن لضمان حرية المواصلات من جهة، وتأمين إمداد جيوشهم بالمؤن والذخائر والجند، وكذلك لتأمين وصول الفرنجة الحجاج والمسافرين المشبعين بمعتقدات دينية خاصة بهم.

ويجب ألا يغرب عن بالنا نشاط الأساطيل الأوروبية القوية، وعلى رأسها الأسطول الفرنسي والانجليزي والصقلي والإيطالي...، والدور الهام الذي شغلته الدويلات التجارية خاصة (الجنوية والبيزية- والبندقية) والنشاط التجاري الذي أبدته تلك الدويلات مدعومة بأساطيل بلادها في الوقت الذي كان فيه أسطول المسلمين ضعيفاً عند قيام الدولة الأيوبية، وزاد من ضعفه استيلاء الفرنجة على معظم موانئ بلاد الشام الهامة. هذا ما تنبّه إليه القائد صلاح الدين الأيوبي مما جعله يصبّ اهتمامه لبناء أسطول قوي. مزود بكل ما يلزم، وسرعان ما أصبح هذا الأسطول قوة ضاربة في البحر المتوسط منذ سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م.

وأمام هذا الموضوع الغني بتشعباته القليل بمعلوماته وعلى الرغم من الجهد كله والبحث المتواصل الذي قمت به وجدت نفسي أمام صورة غير مكتملة تماماً، ومع أنني اعتمدت على الكثير من المصادر العربية الإسلامية. وإن كانت أساسية لا غنى لنا عنها إلا أنها لم تسعفني في الحصول على المادة العلمية الكافية مما سبب لي عناء كبيراً في محاولة البحث واستقراء ما بين السطور. واللجوء أحياناً إلى المقايسة التي يمكن أن تفيد في هذا الموضوع، فكان علي تعويض النقص وسد الفراغ. وذلك عن طريق الاستفادة من المعلومة الصغيرة وإبراز أهميتها. والتعليل بأن محصور الأحداث في تلك الحقبة كان مركزاً على دمشق ومصر لذلك لم تكن تغطي منطقة الساحل السوري باهتمام المؤرخين. إلا عندما يدق ناقوس خطر عن أنباء حملة صليبية جديدة، فعند ذلك يتفقدونها و يهتمون بتحصيلها وبالتالي يتحدثون عنها كونها الممر الأساسي للحملة بعد اجتياز الأراضي البيزنطية براً. وعن طريق البحر عبر هذه المدن.

كذلك وجدت صعوبة أثناء عملية البحث عن المدن الساحلية وعن الأنهار أو الجبال بسبب اختلاف تسمياتها عما هي عليه اليوم، فاللادقية دعاها الفرنجة لاليش، وبانياس كانت تسمى بلنياس. هذا الاسم حملته أيضاً مدينة بانياس الداخل التابعة لدمشق فالتمييز بينهما أصبح ضرورة يقع على مهمة الباحث أو حسب تطور الأحداث وأماكنها، أما بالنسبة للأنهار فالعاصي على سبيل المثال لم يكن يحمل الاسم نفسه قديماً؛ بل أطلق عليه الأرند، أو الأرنت، والأورنت، وأحياناً أخرى النهر المقلوب .. الخ. وهناك الكثير الكثير من الأمثلة في الرسالة.

أما بالنسبة للمصادر الغربية فهي قليلة على العموم، وقد واجهت صعوبات في الحصول عليها في المكتبات أو غيرها، وتيسر جل ذلك لي عن طريق الدراسات المترجمة مثل ما ترجمته أنا كومينا في الالكسياد والمؤرخ المجهول ووليم الصوري.. كما أنني عدت إلى ما توفر لي من مراجع أجنبية ومصادر مترجمة إلى اللغة العربية. وردت أخبارهم ضمن الموسوعة الشامية للأستاذ الدكتور سهيل زكار. واستفدت منها خير استفادة لتغطية الجوانب المفقودة في المصادر العربية خصوصاً وأنها تمثل وجهة النظر الغربية. ومقارنتها ببعضها البعض. مع إيضاح وجهات النظر إن وجدت بين الطرفين، وبينت رأيي وملاحظاتي حول الحدث هذا ولا بد من الإشارة هنا إلى أمر هام هو استخدامي لبعض الكتب بأكثر من طبعة والسبب يعود في ذلك إلى الصعوبات التي واجهتها في نظام المكتبة من التقيد بالزمن وبعده الكتب المطلوبة حتى ينتهي الوقت ولا أستطيع إكمال المعلومة فأضطر عندها إلى طلب الكتاب نفسه في يوم آخر هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى عندما أكرر طلبني للكتاب أجد نفسي أمام الكتاب نفسه لكن بطبعه مختلفة أو بتحقيق مؤلف آخر..

وأخيراً أقول: إن للتاريخ قوانينه وإن الحق لا بد أن يعود شريطه اقتترانه بقوة داعمة، وهذا ما يعطينا الأمل كشعب عربي وشعوب إسلامية بأن حقوقنا المغتصبة ستعود لنا. ولكن ما ينقصنا هو القوة الداعمة لهذا الحق، وخير مثال على ذلك أيام الزنكيين والأيوبيين بقيادة صلاح الدين الأيوبي الذي استطاع تحويل تلك الدويلات الصغيرة إلى وحدة وقوة وقفت في وجه الفرنجة الصليبيين وانتصرت على الأعداء وأعادت بيت المقدس مرة أخرى للعرب، وأتمنى من هذه الدراسة أن تضيء لنا ولو جانباً بسيطاً من جوانب التاريخ نحن أحوج ما نكون لاستنكاره عليه يفيدنا فيما نحن فيه اليوم. فما أشبه اليوم بالأمس، وهذا ما دفعني لاختيار هذا الموضوع علني أضيف إضافة متواضعة إلى ذلك الفيض الذي حظيت به حقبة الحروب الصليبية من دراسات وأبحاث تاريخية تغني مكتبتنا العربية. مراعية أن أكون علمية. وموضوعية في بحثي قدر المستطاع لتحقيق الغاية العلمية المرجوة منه.

مضمون البحث:

يشتمل البحث على خمسة فصول تسبقها مقدمة ودراسة تحليلية مقارنة لأهم المصادر والمراجع.

وفي المقدمة تحدثت عن أهمية الموضوع وحدوده الزمنية وسبب اختياري

ثم انتقلت إلى الدراسة التحليلية والتعريف بأهم مصادر البحث المعتمدة عربية كانت أم أجنبية، ومدى إفادتي منها، وبعد هذا المدخل جاء الفصل الأول من الرسالة تحت عنوان:

"عرض جغرافي للمنطقة الساحلية"، وقد قسمت هذا الفصل إلى عدة أقسام الأول: تحدثت فيه عن الموقع والحدود الجغرافية والتقسيمات الإدارية لهذا الإقليم قبل الاحتلال الفرنسي الصليبي. ثم فيه توضيح الوضع الإداري وتقسيماته حتى قدوم هؤلاء المحتلين أما القسم الثاني من هذا الفصل فتحدثت فيه عن البنية الجغرافية والتضاريسية للمنطقة لأنه وكما يقال: التاريخ والجغرافية علمان متعاونان مكملان لبعضهما البعض. فلا بد من هذه الدراسة وأثر ذلك على الإنسان، وفي القسم الثالث تناولت دراسة عن الموارد الاقتصادية للمنطقة، وعالجت فيه عدة موضوعات رئيسة أهمها:

٦٠٤٩٨٦

مسألة المياه، الزراعة، الحرف، التجارة، وأنهيت هذا القسم بالحديث عن السكان وأصولهم الأولى تركيبهم ومذاهبهم على اختلافها، كما تحدثت عن النشاط العمراني والثقافي للمدن الساحلية الذي تمثل في الأبنية والأسواق والمساجد والكنائس والجسور. بالإضافة إلى النواحي الثقافية والفكرية الأخرى آنذاك.

أما الفصل الثاني من الرسالة فقد حمل عنوان الاحتلال الصليبي للساحل الشامي. تحدثت فيه عن الأوضاع العامة للمنطقة قبل مجيء الفرنجة إليها، وكيفية احتلالهم لمدن الساحل الشامي الواحدة تلو الأخرى، كما تناولت في البحث الثاني الأوضاع الإدارية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية للساحل تحت الاحتلال ومدى التغيير الذي حدث إبان ذلك.

أما القسم الثالث من الفصل فدار حول العلاقات التي تمت بين الفرنجة والأطراف القائمة آنذاك، وعن الدور الهام للمدن والأساطيل البحرية الإيطالية قبل وأثناء الحروب الصليبية، والأسباب التي دفعت مثل هذه الدويلات إلى تقديم المساعدة للفرنجة.

هذا وقد حمل الفصل الثالث من الرسالة عنوان: "مرحلة المقاومة والاسترداد" على يد كل من عماد الدين الزنكي ٥٢١-٥٤١هـ / ١١٢٧-١١٤٦م.

وابنه نور الدين محمود ٥٤١-٥٦٩هـ / ١١٤٦-١١٧٣م.

وصلاح الدين الأيوبي ٥٦٩-٥٨٩هـ / ١١٧٣-١١٩٣م.

تم توضيح دور كل واحد منهم وأهم الإنجازات التي حققوها في المنطقة، وجعلت الفصل الرابع تحت عنوان "التحرير" تحدثت فيه عن أهم الانتصارات التي حققها صلاح الدين . وتوجها بمعركة حطين ٥٨٣هـ - ١١٨٧م عروس المعارك التي قررت مصير الوجود اللاتيني كله في الشرق، وإكماله أعمال التحرير وصولاً إلى الشمال (أي إلى المدن الساحلية)، ودور قاضي جبلة في هذه العملية وقوفاً عند أنطاكية والهندسة التي عقدت بين صلاح الدين وبوهمند حاكمها، وأهم مجريات الأحداث حتى منا بعد وفاه صلاح الدين بعامين تقريباً حيث تنتهي المدة الزمنية المحددة للبحث.

ويشور الفصل الخامس وهو الفصل الأخير حول أهم قلاع المنطقة الساحلية، وحصونها التابعة لها مع وصف لكل منها بشكل مختصر بعد إعطاء لمحة تاريخية عن بناء هذه القلاع وصولاً إلى هذا القرن ٦هـ / ١٢م.

أما النهاية التي ختمت بها البحث وضمنها خلاصة جهدي وعملي وأهم النتائج التي استخلصتها وتوصلت إليها بشكل عام.

كما أنني ألحقت دراستي بجريدة ذكرت فيها أسماء أهم المصادر والمراجع التي اعتمدتها.

وفي النهاية أرجو أن يكون جهدي المتواضع قد وصل إلى درجة الرضى والقبول، وختاماً لا يسعني إلا أن أقدم شكري وجزيل امتناني وعرفاني بالجميل لأستاذتي الأم الفاضلة التي رعتني خير رعاية وأشرفت على رسالتي طوال هذه

المدة ، وتشجيعها المستمر لي في مواصلة الدرب، وتزويدي بتوجيهاتها الكريمة
فجزاها الله عني كل الخير.

كما أنني أخص بالشكر الجزيل والكبير لأستاذنا الجليل الدكتور سهيل زكار
الذي قدم لي المعلومات الهامة وفتح مكتبته أمامي، وأعضاء اللجنة الكرام،
ولكل من ساهم في تقديم المساعدة العلمية لي.

والله ولي التوفيق

دراسة لمصادر البحث:

لما كان موضوع البحث يتناول طرفاً من العلاقات بين الشرق والغرب في حقبة زمنية محددة في تاريخ الحروب الصليبية لذا تحتم الرجوع إلى مصادره الغربية والشرقية على قدم المساواة، ثم اللجوء إلى المراجع التاريخية المعاصرة لهذه الحقبة لضبط الأحداث وسد الثغرات والرد على كافة التساؤلات التي فرضت نفسها على هذه الدراسة سعياً وراء الحقيقة أولاً وأخيراً.

ولما جذبت الحركة الصليبية أطرافاً متعددة الصراع على المنطقة، فقد استتبع ذلك الرجوع إلى المصادر الأجنبية المتنوعة والغنية من بيزنطية ولاتينية وسريانية وغيرها هذا بالإضافة إلى المنابع العربية الهامة واستناداً على تلك المصادر فأول ما نلاحظه هو ما يلي:

أن مصادر الحروب الصليبية كتبت بأكثر من لغة، وهي تنتمي إلى عدة آداب وديانات الأمر الذي يؤدي إلى وجود خلاقات في المعلومات أو نقص فيها، لكن في الوقت نفسه هناك عملية تكامل بين هذه الوثائق، فمن المستحيل أن يؤرخ الإنسان الحروب اعتماداً على نوع واحد من المصادر في التاريخ الحديث، لا سيما في هذه الدراسة لأن المعلومات التي وجدت في المصادر العربية كانت شبيهة إلى حد كبير ببعضها البعض، ولم أجد زيادة أو تمييزاً في هذه الناحية عند المؤرخين العرب، وهنا على سبيل المثال أفاضت المصادر العربية الإسلامية بأعمال تحرير وفتوحات صلاح الدين الأيوبي على خلاف بقية المصادر الأجنبية الأخرى التي ركزت على الاحتلال والأمور التجارية. والنواحي الدينية الكنسية أكثر هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى فإن الكثير من المؤرخين من جميع الاتجاهات الذين عاصروا أحداث الحروب الصليبية أو بعضها حين كتبوا بمثابة شهود عيان كابن الأثير، ابن شداد، والأصفهاني، أما بعضهم الآخر فكانوا رواة عن شهود عيان المهم أن المواد التي كتبت بجميع اللغات بعضها حمل سمات الصنعة التاريخية الأصفهاني وهذه المصادر مفيدة على الرغم من قلة المواد الإخبارية التي تحتويها، كما نلاحظ إلى حد بعيد أن المؤرخين العرب عالجوا أحداث الحروب الصليبية ضمن مجريات التاريخ الإسلامي العام ووفق

فنونه أي أنهم لم يفردوا دراسة خاصة لكل منطقة على حدة فمعظمهم عالج الأحداث ضمن حوليات تاريخ الإسلام كابن الأثير، وأبو شامة، وغيرهم. أما بقية المؤرخين فقد عالجوها ضمن تواريخ الدول، أو تواريخ المدن مثل "تاريخ دمشق" لابن القلانسي، "وتاريخ حلب" لابن العديم بشكل أساسي، وبعض هذه المصادر شديد الصلة بالموضوع مثل التحرير، أما بعضها الآخر تم استنتاجه من طريق المقايضة الأمر الذي أوقعني في العموميات أكثر من التخصص، وبعضها الآخر تم جمعي للمعلومة ضمن المعلومات المبعثرة هنا وهناك، وبالرغم من ذلك كله تمكنت من الإمام بمعظم جوانب الموضوع لأن كل عمل يبقى ناقصاً مهما حاول الباحث إكماله.

وسأبدأ بعرض المصادر العربية التي قمت بترتيبها وفقاً للترتيب الزمني.

ابن القلانسي (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م)

من أهم المصادر الشامية كتاب "تاريخ دمشق" لأبي يعلى حمزة بن أسد بن علي التميمي المعروف بابن القلانسي، صاحب أقدم تاريخ وصل إلينا لمدينة دمشق، وابن القلانسي كان مؤرخاً دمشقياً اهتم بالدرجة الأولى بدمشق ثم بسواها، عاش في الحقبة الممتدة ما بين (٤٧٠ - ٥٥٥هـ / ١٠٧٧ - ١١٦٠م) في دمشق، وكان من كبار شخصياتها وأعيانها، شغل العديد من المناصب الإدارية الهامة مثل رئيس لديوان الإنشاء وربما ديوان الخراج أيضاً زمن الاحتلال الصليبي^(١) وخص بكتابه تاريخ مدينة دمشق، واستكمل به كتاب "الهلل الصابي" عن تاريخ دمشق الذي تنتهي أحداثه بعام ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م.

هذا وقد جاءت معلوماته على درجة عالية من الأهمية، وكثيراً ما استعان في كتابتها بالوثائق الهامة المتوفرة لديه مما جعل كتابه من المصادر الأساسية لهذه الحقبة التاريخية تعامل خلالها ابن القلانسي مع الأحداث والوقائع الجارية في كل عام وفق تاريخ حدوثها لذلك نلاحظ انقطاع أخبار الأحداث بأخبار أحداث

(١) د. سهيل زكار: الموسوعة الشامية، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٩٧م، ج ١١، ص ب.

أخرى، ومع ذلك كله فالكتاب تاريخ دمشق بالغ الأهمية بالنسبة لعصر الأتابكة بالإضافة إلى ما حواه من معلومات غنية عن كبار رجال الدولة والأعيان بالإضافة إلى أنه مصدر أساسي لدراسة الدولة النورية في دمشق وحياة نور الدين محمود في مراحلها الأولى^(١)، ولكن يؤخذ عليه أنه لم يؤرخ بدقة تفصيل أحداث الحملة الثانية كما عهدناه في الحوادث الهامة بالرغم من أهميتها وخطورتها، وقد تفوق عليه في هذا الأمر ولیم الصوري الذي أفاض الحديث عنها بالرغم من أن الإخفاق كان من نصيب شعبة في النهاية، وبشكل عام لا غنى لأي باحث في التاريخ وفي زمن الحروب الصليبية بالذات عن كتابه ومواده الهامة التي ترجمت إلى كل من الإنكليزية والفرنسية.

أفدت منه في عدة مواضع أهمها ما تعلق ببيزنطة منها مواقف بيزنطة ومصالحتها المشتركة مع الفرنجة

— الهدنة مع الإمبراطور البيزنطي والتعهد بإطلاق سراح جميع الأسرى الصليبيين.

— مهاجمة بيزنطة المستمرة للسواحل الشامية.

كما تحدث عن الامتيازات التي حظيت بها جنوة، وعن المعاهدات التي عقدتها مع الفرنجة التي كفلت للجاليات التجارية لا سيما الصقلية بأحياء وأسواق بكاملها هذا عدا عن الاحتلال الفرنجي للمنطقة الذي بدأ بحصار أنطاكية بالإضافة إلى معلومات متفرقة استفدت منها في المجال الإداري، ومثالها مدينة جبلة وكيف استتبعت لأتابكية دمشق وأسباب انتقال تبعيتها إلى بني عمار في طرابلس، كما أشار إلى المساعدات المستمرة للفرنجة من الغرب وأمور أخرى وظفت في الرسالة وإلى جانب ابن القلانسي كان هناك العماد الأصفهاني كاتب صلاح الدين الأيوبي.

(١) د. وفاء جوني: دمشق والمملكة اللاتينية في القدس، دار الفكر، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م،

العماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م)

عماد الدين الأصفهاني هو محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني، ولد في أصفهان ٥١٨هـ / ١٢٥٠م وتوفي في دمشق وهو شاهد عيان للقرن السادس الهجري الثاني عشر للميلاد.

انحدر من أسرة مشهورة رفيعة المكانة واسعة الثقافة عمل رجال منها بالإدارة، وكان العماد قد نشأ في أصفهان وفيها تلقى علومه وفي سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م، التحق ببغداد حيث تولى بعض الأعمال الإدارية، وتمتع بالسلطة وعانى من تقلباتها وكان على معرفة بنجم الدين أيوب وبعده شخصيات في دولة نور الدين مما هيا له السبل للعمل في خدمة الأخير وفي سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م تسلم ديوان الإنشاء في دمشق وظل كذلك إلى ما بعد وفاة نور الدين محمود بأمد وجيز واستخدمه صلاح الدين وظل مرافقاً لهذا السلطان العظيم. وقريباً منه حتى وفاته مما أتاح له مشاهدة الأحداث والوقائع عن كثب والإطلاع على حقائق ومجريات أمور الدولة بأدق التفاصيل^(١).

كان العماد الأصفهاني خصب الإنتاج في ميدان الأدب والتاريخ. فإلى جانب "خريدة القصر وخريدة العصر" الذي وضعه عام ٥٧١هـ / ١١٧٥م وتضمن تراجم عصره من الأدباء والشعراء حسب مناطقهم الجغرافية^(٢)، فقد كتب خمسة أعمال تاريخية بدأ أولها بتاريخ الدولة السلجوقية بعنوان "نصرة الفطرة وأسرة الفترة" ثم وضع العماد كتاب "الفتح القسي في الفتح القدسي"، وتلاه بكتابة "البرق الشامي" الذي يعد أوسع من الأول، وترجع أهمية هذين المصدرين إلى أهمية صاحبهما كونه من رجال الإدارة في عهد صلاح وأحد المقربين إليه والمطلعين على مراسلاته ووثائقه، فقد كانت أعمال الأصفهاني وابن شداد جزءاً كبيراً من أعمال سبط ابن الجوزي وأبي شامة بصفة خاصة وفي الحقيقة رجعت في هذا البحث في المقام الأول إلى كتاب - الفتح القسي - لما يتمتع به من

(١) عصام شبارو: تاريخ المشرق لعربي الإسلامي، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط ١٩٩٩م، ص ٥٨.

(٢) زكار: الموسوعة، ج ١٣ ص ٤٠٣-٤٠٤.

أهمية بالنسبة لصلاح الدين وعلاقته بإمارة أنطاكية، كما تحدث فيه عن حطين وتحرير القدس ومواجهة صلاح الدين للحملة الثالثة، وهو على درجة كبيرة من الأهمية لأنه يمثل وجهة نظر رسمية ولأنه يؤرخ لمرحلة حطين حتى وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م.

لم يكن من السهل التعامل مع كتاب العماد نظراً لصعوبة لغته، فقد تغيبت المعاني وتبددت أخبار الوقائع داخل صيغ السجع الممل مما جعل هذه الكتابات صعبة الفهم وقليلة التحصيل لكن لا يستغنى عنها لما تحتويه من أخبار ووثائق هامة، ومع هذا استفدت من المصدر كل الاستفادة أثناء الحديث عن مراحل التحرير وتطهير البلاد والتعريف بأهم المدن الساحلية وقلاعها ومواقعها الاستراتيجية بوصف تعبيري جميل بالإضافة إلى بعض المعلومات الصغيرة التي تم توظيفها حسب مكانها من الرسالة.

ياقوت الحموي (ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٨م):

هو شهاب الدين أبو عبد الله جغرافي، رحالة، مؤرخ، وأديب، له مؤلفات عدة أهمها معجم البلدان وهو "معجم جغرافي" طبع في خمسة مجلدات تحدث فيه عن المناطق والمدن والقرى والجبال والوديان والأنهار في البلدان العربية والإسلامية^(١) وأهم الأحداث التاريخية منها، وقد أفادني في هذا الكتاب لا سيما فيما تعلق بالتعريف بالمدن الساحلية، جغرافيتها ووضعها إبان القرن السادس الهجري/ الثاني عشر للميلاد، أنهارها احتلالها، كما تعرفنا على التقسيم الإداري، وكيف آلت تبعية المدن أو القلاع من مدينة إلى أخرى، وأشار إلى المساكن والمباني والطواحين والجسور، وعن أهم طرق المواصلات التي تربط مدن الساحل فيما بينها أو مع غيرها من البلاد، كما تحدث عن الجماعات الرهبانية (الداوية) وأماكن تركزها، وعرف بمدينة جبلة وتحدث عن قاضيها ابن صليحة وعن أسرته بشيء من التفصيل.

(١) د. جوني: المرجع المتقدم، ص ٢٦.

ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م):

يأتي على رأس المصادر العربي الإسلامية ما كتبه عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد عبد الكريم بن واحد الشيباني المعروف بابن الأثير فقد ولد في جزيرة ابن عمر من أعمال الموصل من أسرة عملت في خدمة الملوك، وعاش في البلاط الزنكي، نشأ نشأة علمية أرسقراطية وتقل بين المدن الإسلامية الكبرى مثل الموصل وبغداد ودمشق والقدس فكان لنشأته وتقلاته الأثر العلمي الكبير على كتاباته، اعتمد ابن الأثير في تدوين تاريخه على الثقة من الرجال ورواة الأخبار، لكن ما يميزه عن غيره من المؤرخين هو تعليقه الكثير من الأمور الغامضة وشرح أحداث لم ترد عند البقية من الكتاب أو من المؤرخين ويعد كتابه المشهور "الكامل في التاريخ" مصدراً رئيساً غنياً ذا قيمة عظيمة حتى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م، ويتميز الكتاب بشمول النظرة وعمق التفكير وموازنة بين تاريخ الأقطار الإسلامية وبالرغم من أن عواطفه وميوله كانت مع الأتابكية الأمر الذي أدى إلى عداؤه لصالح الدين وبالرغم من ذلك أبدى تقديره وإعجابه به وإن لم يخل من تعرضه له بالنقد في كثير من الأحيان، وكتابه الكامل - حولي - مؤلف من عدد كبير من الأجزاء بدأها منذ أول الخليفة حتى الحقبة التي سبقت وفاته. يعد هذا الكتاب من أهم المصادر التاريخية عن الحروب الصليبية لأن مؤلفه عاصر حقبة منها^(١)، وشهد أحداثها فسجلها تسجيلاً علمياً دقيقاً صادقاً، وقد حوى هذا الكتاب معلومات غنية جداً في أجزائه الأخيرة عن الحملتين الأولى والثانية، وعن العلاقات التي كانت قائمة بين المسلمين والصليبيين والمعاهدات التي أبرمت بين الطرفين، كما وجدت فيه مادة جيدة عن مرحلة المقاومة والاسترداد بدءاً من عهد عماد الدين الزنكي وانتهاء بتحرير صلاح الدين لمدن الساحل وكتاب ابن الأثير خير ما ألف في الحوليات من حيث غزارة مادته وجمعه أخبار الشرق والغرب معاً، هذا بالإضافة إلى

(١) د. حسين محمد عطية: إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، دار المعرفة الجامعية، ط ١٩٨٩م، ص ٧٥-٧٦.

تبويبه الجيد وأسلوبه الشيق. ولغته الواضحة، أما الكتاب الآخر الهام فهو
 "التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية" وقد أرخ هذا الكتاب من وجهة نظر الأتابكة
 بداه بذكر قسيم الدولة أفسنقر والد عماد الدين، ثم نور الدين محمود وصولاً إلى
 بدء ولاية القاهرة مسعود (٤٤٧-٦٠٧هـ/١٠٨٤-١٢١١م). وأهم الأعمال التي
 قام بها ورتب الأحداث والوقائع بحسب السنين، ويعد هذا الكتاب من أعظم
 تصنيفات ابن الأثير أيضاً وعلى ما يبدو أن ابن الأثير صنف كتابه الكامل أولاً
 عندما أراد أن يؤرخ للدولة الأتابكية انتزع كتابه "الكامل" أولاً، وعندما أراد أن
 يؤرخ للدولة الأتابكية انتزع من كتابه "الكامل" ما كتبه عن تاريخ هذه الدولة فزاد
 عليه، ثم أطلق عليه اسم "التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية" وقد ضغط معلوماته
 فيه ضغطاً كبيراً فجاءت قليلة التفاسير، وعمل أحياناً على إحالة القارئ إلى كتابه
 الآخر "الكامل" وكان هذان الكتابان خير عون لي في معظم مراحل الرسالة
 تقريباً. سواء في أخبار عماد الدين زنكي مع أخبار نور الدين، أو الأعمال الهامة
 التي قام بها وصولاً إلى صلاح الدين وأعمال التحرير، كما أشار ابن الأثير إلى
 الأوضاع العامة للإقليم قبل الاحتلال وأهم الأسر الحاكمة آنذاك، وقد أفاض ابن
 الأثير حول هذا الأمر، كما استفدت منه في أمور أخرى اجتماعية مثل هروب
 الأهالي إلى الجبال خوفاً من بطش الفرنج بهم، وعرف لنا أجناس الفرنجة
 المتعددة مع وصف دقيق للألمان هذا إلى جانب الأمراض المتفشية والأوبئة
 حسب السنوات، وأمور طبيعية واقتصادية متعددة لم يتطرق إليها غيره من
 المؤرخين الآخرين، وهكذا غطت المعلومات التي استفدت منها من الكتابين
 وعلى وجه الخصوص كتابه الكامل معظم فصول الدراسة.

ابن شداد (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٩م):

بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم أصله من الموصل ولد فيها سنة ٥٣٩
 هـ/١١٤٥م ودرس بها وببغداد، تعرف إلى صلاح الدين أثناء حروبه مع
 الموصل، ثم إنه بعد حطين زار القدس وتوطدت معرفته بصلاح الدين الأيوبي
 الذي رغب بإقامته لديه وأوكل إليه وظيفة قاضي عسكر فصار بمثابة وزير

لدى صلاح الدين وظل مرافقاً له في أغلب معاركه ضد الصليبيين^(١) بعدها التحق بطلب وتعاون مع الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي عاصر الصراعات الأيوبية آنذاك، شغل دوراً كبيراً في التقريب بين الأخوة وأولاد السلطان فكانوا جميعهم يرجعون إلى رأيهم ويستمعون إلى نصيحته وظل حياً حتى ما بعد وفاة الظاهر غازي، كان شاهداً بنفسه على الأحداث فقد روى معظمها عن مشاهدة ابن لم يكن كذلك فإن الأمانة العلمية التي اتصف بها كتابه جعلته أوثق المراجع لتأريخ هذه الحقبة الزمنية المليئة بالنضال ضد الصليبيين حيث وصف فيه الكثير من الأوضاع الاجتماعية والإدارية في المجتمعين الإسلامي والصليبي، فأشار إلى بعض التقاليد عند الصليبيين وكيف كان المسلمون المقيمون في الأراضي الخاضعة للصليبيين يرجعون في خصوماتهم إلى قاض منهم، وهذا ما حدث في اللاذقية^(٢).

كتب ابن شداد عدة كتب في الجهاد أهمها كتابه لصلاح الدين لدى التحاقه به في منطقة القدس والأهم من هذا كتابه "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" أرخ فيه لسيرة صلاح الدين بدءاً من سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م ، أنهاء سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م. أي بعد وفاة صلاح الدين. وضع فيه ترتيباً خاصاً في عرض حياة السلطان وفق منهج خاص، قال ابن شداد في هذا الكتاب إنه أودع فيه من الأخبار ما رآه أو سمعه من ثقافت الذين حضروا الواقعة لذلك يعد الكتاب على درجة عالية جداً من الأهمية، وهو من أوثق المصادر الإسلامية التي تناولت العلاقات بين الصليبيين والمسلمين لذلك ترجم إلى عدة لغات أوروبية (فرنسية - إنكليزية) أفرغ فيه خلاصة انطباعاته ومشاهداته، وقد أفدت من هذا الكتاب فيما حواه من معلومات هامة منذ الحملة النورية الثانية إلى مصر، وما قام به صلاح الدين من أعمال بعد استلامه الوزارة في مصر ثم العلاقة بينه وبين نور الدين كما أشار إلى أمور هامة في الرسالة، فهو الوحيد الذي انفرد بتسمية الساحل

(١) شبارو: المرجع المتقدم، ص ١٥٩.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، تحقيق د. جمال الشيال، ط ١، ١٩٦٤م، ص ٣.

الشامي السوري الساحل الفوقاني وإلى تعلم التجار العربية واهتمامهم بدراسة آدابها وأمر أخرى أسلفت الحديث عنها في باقي المصادر.

ابن واصل (ت ٦٥٩هـ/١٢٦١م):

ولد ٦٠٤هـ/١٢٠٨م في حماة. وتوفي ٦٥٩هـ/١٢٦١م، وهو من المصادر الأساسية لدراسة تاريخ بني أيوب بصفة خاصة ودراسة تاريخ الشرق الأدنى ودوله جميعاً في القرنين ٦-٧هـ/١٢-١٣م بصفة عامة وهما قرنان حافلان بالأحداث وخاصة فيما يتعلق بالحروب الصليبية، وفيه أرخ للدولة الأيوبية منذ قيامها إلى نهايتها في تفصيل واف وتحقيق شامل، ولا غرو أنه اتصل بمعظم ملوك الشام ومصر ومعظم رجال الدولة وعلمائها في القطرين، فالحوادث التي رواها كان مشاركاً في الأحداث أي شاهد عليها من جهة أخرى^(١).

له مؤلفات عديدة منها "التاريخ الصالح" الذي بدأه بعهد آدم عليه السلام، وأنهاه بذكر مناقب الملك الصالح نجم الدين أيوب، لكن أهم مؤلفاته "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" الذي اعتمده في هذه الدراسة، وترجع أهمية كتابه إلى أنه عاصر العصر الأيوبي كله وعاش متنقلاً بين بلدان الشرق الأدنى الإسلامي وعواصمه وخاصة التي كان لها علاقات مباشرة مع الصليبيين، فلم يكن بذلك شاهداً فقط بل مشاركاً في الكثير من الأحداث لهذا كان كتابه الأصل الذي أخذ عنه كل من المؤرخين اللاحقين له عند تاريخهم الدولة الأيوبية، هذا وقد انفرد ابن واصل بذكر عدة أمور تتعلق بموضوع البحث بصورة مباشرة منها على سبيل المثال محاولة بوهمند الثالث استرداد جبلة واللاذقية من أيدي المسلمين عام ٥٨٧هـ/١١٩١م، واستفدت منه بشكل خاص في عملية التحرير لمدن الساحل الشامي والتقاء الجيوش الإسلامية من أجل هذا الهدف.

(١) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب تحقيق د. جمال الدين الشيال، مطبوعات دار الإحياء التراث القديم، مطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٤٣.

ابن العديم (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م):

كمال الدين عمر بن أحمد مؤرخ حلب الأول، وولد فيها في ذي الحجة سنة ٥٨٨هـ/ كانون الأول ١١٩٢م في وقت كانت فيه المدينة تغص بالعلماء. هو المدرس في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، ويقف على رأس المصادر الشامية الشمالية كتابان هاما لابن العديم هما "زبدة الحلب في تاريخ حلب" و"بغية الطالب في تاريخ حلب" من أهم المصادر الإسلامية المتعلقة بتاريخ الحروب الصليبية، فقد أمدنا بمعلومات لم ترد في كتب من نقل عنهم من المؤرخين، لا سيما بالنسبة للعلاقات الصليبية الإسلامية خلال النصف الأول من القرن ٦هـ/ ١٢م، وكذلك عن علاقات أمراء أنطاكية وعن الداوية والاستبارية أما كتابه "البغية" فصنفه وزاد عليه تلبية لرغبة الملك العزيز الظاهر الأيوبي سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦م^(١). غير أن كتابه "الزبدة" يختلف عنه في نهجه فهو يشبه في بعض الوجوه تاريخ دمشق لابن القلانسي وكتب الحوليات. ولا شك في أنه أهم مصدر ظهر فيه ابن العديم بمظهر المؤرخ الأصيل، كان ابن العديم متقناً لعلوم عصره مشاركاً في الحياة السياسية والعلمية في حلب إلى أن ارتفعت مكانته إلى مرتبة الوزير ومع ذلك فقد استمر في النظر والبحث العلمي، فقد كان تحت تصرفه المحتويات الغنية للمكتبات الخاصة، والعامة مع سجلات الدولة في حلب، كما مكنته رحلاته من مراجعه محتويات معظم مكتبات بلاد الشام والعراق ومصر والاتصال بعلماء هذه البلاد، ويمكننا أن نشاهد برهانا على ما تجمع لديه من معلومات وتجارب في كتابه "بغية الطالب" الذي قيل إنه حوى أربعين مجلد في كل منها ما لا يقل عن ثلاثمائة ورقة، وفيه مادة غنية جداً استقاهها من الكتاب الجغرافيين المسلمين على طريقة الحوليات، كما حوى على ترجمة لشخصيات الشام الشمالي. ولزواره من العلماء والأدباء ورجال الحكم والسياسة وذلك حسب الترتيب الأبجدي المعجمي، ومع ذلك فإن كتابه "بغية الطالب" هو منجم من المعلومات ليس بالنسبة لتاريخ شمال بلاد الشام الإسلامي بل بالنسبة للتاريخ

(١) عطية: المرجع المتقدم، ص ٧٧-٧٨.

الإسلامي أجمع، وبالإضافة إلى بغية الطلب كتب ابن العديم كتباً أخرى تناولت
 موضوعات مختلفة لكن التاريخ كان مسيطراً عليها، وكتاب "زبدة الحلب" الذي
 هو مختصر للمواد الإخبارية الواردة في كتابه الأول، وابن العديم في كتابه هذا
 لا يفصل كثيراً في سرد الحوادث وشرحها إنما عبر عنها أوضح تعبير وبأقل
 كلام، ومع هذا فهو واحد من المصادر الأساسية لهذه الرسالة استفدت منه في
 الخطية بعض جوانبها، لا سيما فيما يتعلق بالأوضاع السائدة في المناطق الشمالية
 لبلاد الشام قبل قدوم الفرنجة وبعد مجيئهم، وعن أنواع الأسلحة المستخدمة في
 المعارك لدى المسلمين، وعن إمارة طرابلس وحكم آل عمار وسقوطها بيد
 الفرنجة، كما نلمح نواحي اقتصادية وجغرافية طبيعية صورة عن تربية الحيوان
 وعن الكوارث الطبيعية التي حدثت بالمنطقة لا سيما الزلازل التي تسببت في
 حدوث تخريبات وأضرار جمة، ونواحي زراعية هامة مثل طريقة صناعة الزيت
 من الزيتون وكيف قسمت البلاد عنده إلى شامات وليس إلى سوريات عند
 البعض الآخر، كما أعطانا صورة عن حال الشام قبل مجيء الصليبيين إليها وبدء
 محاولات التخلص من هؤلاء الغرباء على يد عماد الدين زنكي وصولاً إلى
 تحرير السلطان لمدن الساحل.

أبو شامة (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م):

عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، عالم كبير من أهل
 دمشق أصله من المقدسة الذين جاؤوا إلى دمشق واستقروا في حي الصالحية،
 كان متقناً للقراءات واللغة والفقه، حافظاً للحديث عالماً بأخبار الناس ومعرفة
 الرجال، عاصر بدايات قيام الحروب الصليبية وتطوراتها اللاحقة، وله تصانيف
 كثيرة جلها في علوم الدين، وقد صنف كتابه "الروضتين في أخبار الدولتين
 النورية والصلاحية" حسب طريقة الحوليات بدأها بأحداث سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م
 أي سنة وفاة القائد سنة وفاة القائد صلاح الدين الأيوبي وكتابته تأريخ محلي
 إقليمي تحدث فيه عن سيرة نور الدين محمود بن زنكي وصلاح الدين يوسف
 أيوب، والأحداث التي جرت في عهدهما، وبخاصة محاولتهما في تحرير البلاد

من أيدي الغزاة الصليبيين^(١) الموضوع الذي شكل جانباً هاماً من البحث، كما احتوى الكتاب على تراجم الوفيات لكبار الدولة والأعيان من العلماء في كل عام، ويحتل كتاب الروضتين منزلة مرموقة، كمصدر موثوق نظراً لقرب عهد أبي شامة من الحقبة الزمنية التي أرخ لها واعتماده على مصنفات المؤرخين الذين عاشوا في خضم تلك الأحداث أي كانوا شهود عيان لها من جهة أخرى مثل ابن القلانسي وابن عساكر ويتضمن كتابه عدداً كبيراً من رسائل القاضي الفاضل العماد الكاتب بحيث يعد هذا الكتاب من أكثر الكتب اعتماداً في مواده على الوثائق الرسمية وقد التزم فيه أبو شامة جانب الحياد، إذ كان حذراً جداً في نقله عن ابن الأثير لا سيما فيما يتعلق بسيرة صلاح الدين، وقد أفدت من كتابه فائدة جلى لا سيما فيما يخص الأعمال والمنجزات التي أحرزها عماد الدين، وفي أمور تجارية أخرى قدمها بمزيد من التفاصيل منها على سبيل المثال ما ذكره عندما صادر الفرنج سفينتين تجاريتين إسلاميتين محملتين بمختلف أنواع البضائع كما أشار إلى وجود الرخام في اللاذقية، وتحدث عن المساعدات المستمرة التي كانت تأتي إلى الفرنج من الغرب.

أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م):

كان من بين المصادر الهامة أيضاً ما كتبه المؤرخ أبو الفداء إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه وابن أيوب الملك المؤيد صاحب حماة مؤرخ جغرافي ولد في دمشق سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣م، فقد حضر هذا الأمير وهو في الثانية عشرة من عمره صحبة أبيه وابن عمه المظفر أمير حماة حصار المرقب سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٥م، وشارك في الحملات التي شنت ضد الصليبيين أيضاً، رحل إلى مصر فاتصل هناك بالملك الناصر فأحبه وجعله سلطاناً على حماة سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م وفيها قرب إليه العلماء ورتب لبعضهم مرتبات حسنة، وحسنت سيرته إلى أن توفي في حماة سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م ألف

(١) زكار: المرجع المتقدم، ج ١١، ص ب.

في حياته كتباً قيمة تعد من أفضل المصادر التاريخية والجغرافية^(١).

له كتاب مشهور في التاريخ هو "المختصر في أخبار البشر" تناول فيه تاريخ الإسلام حتى سنة ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م، وقد ظل هذا الكتاب زمناً طويلاً من المصادر الهامة المعتمدة للمستشرقين وسواهم، وقد أخذت منه معلومات أفادتني في مواضع عدة من الرسالة، أما كتابه الآخر "تقويم البلدان" فهو كتاب جغرافي ومعجم بلداني تميز بالوضوح في عرض المادة، فذكر التقسيمات الجغرافية لكل بلد وما تشتهر به مياهها وطرق تجميعها، أنهارها، سكانها لذا يعد مصدراً غنياً عن التعريف، وقد اعتمدت عليه في عدة فصول من رسالتي لتثبيت بعض المواقع الجغرافية، وفي الحديث عن المياه، وطرق تجميعها عبر أقنية أو صهاريج، أضف إلى ذلك حديثه عن نهر العاصي وتسمياته المختلفة، كما نجد معلومات زراعية وأهم المزروعات التي تشتهر بها هذه المدن الساحلية لا سيما زراعة العنب التي تلائمها تربة البحر المتوسط، هذا عدا عن بعض النواحي الاجتماعية حينما تحدث عن مدينة جبلة وأهلها من الروم النصارى.

النويري (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٣م):

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي النيمي البكري، أما شهرته بالنويري فتعود إلى نويرة وهي قرية من قرى بني سويف في مصر، تميز بثقافة عالية، عمل في الوراقة بحيث كان ينسخ الكتب ويبيعها.

يأتي النويري على رأس الموسوعيين العرب من خلال كتابه العملاق "نهاية الأرب في فنون الأدب" ويقع هذا الكتاب في ثلاثين مجلداً ويعد كتابه موسوعة ضمت مناحي اقتصادية واجتماعية هامة^(٢) وقد أفدت مما ذكره من معلومات في عدة مواضع من الرسالة جغرافياً في تحديده بعض مواقع المدن والتعريف بها،

(١) زكار: الموسوعة، ج ٢٢، ص ٥٤ / منير الخوري: تاريخ حمص، نشر في مطرانية حمص

الأرثوذكسية، ط ١، ١٩٨٤م، ج ٢، ص ٢٦٢.

(٢) زكار: المرجع نفسه، ج ٢٢، ص ٤.

وعن بحيرة أقامية ووجود الأسماك فيها وامتداد الإمارة المنقذية لتشمل بعض المدن الساحلية مثل اللاذقية، كما تحدث من احتلال الفرنجة لأنطاكية ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م، وكذلك عن حصار صنجيل لطرابلس وملكه لطرطوس سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م بعد قتله لأهاليها من المسلمين وصولاً إلى أيام صنجيل الأخيرة، كما تطرق إلى رد الفعل الإسلامي تجاه هؤلاء وتوجه نور الدين إلى أنطاكية، كما أشار إلى بعض النواحي التجارية.

البغدادى (ت ٧٣٩هـ/ ١٣٤٠م):

صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى، كتب كتابه "مراصد الإطلاع على أسماء الأماكن والبقاع" في ثلاثة مجلدات، هذا الكتاب مختصر وملخص لمعجم البلدان الذي ألفه الحموي وزيادة في الأخبار وكتب المغازي والفتوح بحيث يتمكن القارئ من ضبط الأسماء والتكلم فيها بشكل صحيح، ومعرفة جهاتها ومواقعها ومعرفة أسماء الأماكن والبقاع على الربع المسكون من الأرض سواء أكانت عربية أم أعجمية، وعن نشاط بيزنطية ومهاجمتها المستمرة على السواحل الشامية.

ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م):

شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، ولد بدمشق سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠٢م شب وتعلم في مصر واحترف مهنة أسرته التي كانت تعمل في مصر والشام في ديوان الإنشاء، فعندما ولي والده كتابه السر في دمشق عمل في ديوان الإنشاء، ولما انتقل والده إلى مصر صار ابنه أحمد هو الذي يقرأ رسائل البريد على الملك الناصر محمد بن قلاوون نال ابن فضل الله معارف جمة مما توفر في عصره، وحقق مهارة واسعة في كتابه الإنشاء والأعمال الدنيوية الأمر الذي أكسبه مهارة واسعة ومعلومات موسوعية حول عصره^(١) ولحسن الحظ أنه أودع معلوماته الغنية في عدد من المصنفات، من أعظم آثاره كتاب

(١) زكار: المرجع المتقدم، ج ٢٣، ص ٤٣-٤٤/ خوري: المرجع المتقدم، ص ٢٦٢، ٢٦٣.

"مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" من عشرين مجلداً في قسمين الأول في الأرض والثاني في السكان، عنيت هذه الموسوعة بالجغرافية والتاريخ، وما نشر عنها حتى الآن هو قليل، ونجد أن الجانب الجغرافي فيها متفوق على الجانب التاريخي، وله كتاب آخر "التعريف بالمصطلح الشريف" وهذان المصنفان من أهم ما كتب في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر للميلاد تحدث في المسالك عن عدد من المدن الساحلية ومنها طرطوس.

كما تحدث عن بني منقذ وإمارتهم التي ضمت بعض المدن الساحلية، ثم فقدانهم لمعظمها وعن قلاع الدعوة الإسماعيلية وعن التقسيم الإداري للمدن الساحلية وتبعيتها هذا بالإضافة إلى بعض المعلومات الجغرافية لا سيما الأنهار.

القلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م):

أبو العباس أحمد بن علي من أصل عربي ولد بقلقشندة بالديار المصرية، وقد تلمذ بالقاهرة والإسكندرية على يد أكابر شيوخ العصر آنذاك، فتولى بعض الوظائف الإدارية وبدأت براعته في الكتابة والإنشاء تستقطب إليه أنظار رجال البلاط^(١) ومهدت له على سبيل الاضطلاع بالنصب الذي شغله.

التحق القلقشندي بخدمة الديوان سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م في عهد السلطان الظاهر برقوق، من أشهر مؤلفاته "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" صنفه فور التحاقه بالعمل بديوان الإنشاء في مصر، وهو موسوعة علمية في التاريخ والجغرافية والسياسة والأدب والعلوم ويقع في أربعة عشر مجلداً وله كتاب آخر سماه "قلند الجمال في التعريف بقبائل عرب الزمان" لكنني اعتمدت في دراستي هذه على كتابه الأول الموسوعي، تميز القلقشندي في عمله الموسوعي بكثرة مصادره وتنوعها واتباعه طريقة علمية في إسناد كل ما يورد إلى مصدره، أفادني في البحث في أمور كثيرة لا سيما في الجزء الرابع من هذا

(١) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ١، ص ٨٧.

الكتاب في المجال الإداري وتقسيماته الدقيقة لبلاد الشام أيام الحروب الصليبية،
وأمر جغرافية واجتماعية وغيرها مثل حديثه عن أنواع الحيوانات الموجودة
في المنطقة، وأهم البحيرات والأسماك الموجودة، وأشار إلى بعض المزروعات
التي تشتهر بها تربية البحر المتوسط لاسيما زراعة الزيتون. والحمضيات
أمر أخرى كثيرة أفادتني في البحث على الرغم من أن كتابة مصدر متأخر
بعض الشيء عن الحقبة الزمنية المدروسة.

المصادر غير العربية:

إنها كثيرة جداً، وهي لا تقل أهمية مطلقاً عن المصادر العربية بل إن عدداً كبيراً من الكتاب الأوروبيين يرجحها على المصادر العربية ذلك أن المصادر غير العربية أوقف مؤلفوها كتباً عن تاريخ الحروب الصليبية على عكس المؤرخين العرب الذين عالجوا هذه المسألة في إطار التاريخ الإسلامي العام، فالمصادر غير العربية كتبت من قبل كتاب غير مسلمين وهذا جعلها بالتالي تبتلعون بلون معاد للعرب والمسلمين وتمثل وجهة النظر لدى الغزاة الفرنجة إنما تدرجات بحسب انتماءات كل كاتب سواء أكانت الانتماءات كنسية أم انتمائية إقليمية، كما أن عملية الارتحال إلى فلسطين لم تتوقف منذ انتشار المسيحية نتيجة لأسباب عدة على رأسها الأسباب الدينية وازدياد الإقبال على الحج إلى فلسطين ولزيارة الآثار المقدسة، وكذلك من أجل الأعمال التجارية حتى أن الفرنجة الذي شاركوا في الحروب عدوا أنفسهم حاجاجاً وليسوا غزاة بل عمل بعضهم في ميدان التجارة هذا ما جعل عدداً كبيراً من هؤلاء الحاجاج يدونون أخبار رحلاتهم لا سيما إلى مدينة القدس التي حظيت بالنصيب الأكبر من الاهتمام لكن الأوصاف التي وصلتنا عن بقية أجزاء الشام وفلسطين هامة جداً، ومن خلال كتب الرحلات على اختلاف جنسيات مؤلفيها أمكننا التعرف إلى الكثير من المدن والكنائس والتقسيمات الإدارية أو الكنسية التابعة لها، وكذلك الأسواق وجوانب أخرى، كما حوت هذه الرحلات على مواد هامة عند التعامل معها من حيث الأوصاف وضبط الأسماء للمدن وتحديد المواقع لكن الشيء الأهم والملفت للنظر هو تشابه المعلومات التي وردت في معظم هذه المصادر باستثناء ولیم الصوري الذي انفرد في سرد لمعلومات بمزيد من التفاصيل والدقة وأمور أخرى لم تأت عند غيره من المؤرخين الأجانب.

وأهم هذه المصادر المتنوعة التي تحدثت عنها:

١- المصادر البيزنطية: ١- الألكسياد - أناكوميثا

٢- أعمال يوحنا كينا موس - يوحنا كينا موس

٢- المصادر اللاتينية وعلى رأسها:

١- المؤرخ المجهول صاحب "يوميات أعمال الفرنجة"

٢- الأعمال المنجزة فيما وراء البحار لـ وليم الصوري

٣- المصادر السريانية: ١- المؤرخ الرهاوي المجهول

٢- ميخائيل السوري الكبير

٣- أبو الفرح بن العبري

أما كتب الرحلات فهي متنوعة وعلى رأسها:

١- فولتشرأوف تشارترز

٢- بورشارد

٣- بيبير دوبوا

٤- جاك دي فترى

٥- جون أوف وورزبيرغ

٦- مارينو سانونو

٧- فليكس فابري

أنا كومينا (٤٧٥-٥٤٣هـ/١٠٨٣-١١٤٨م):

من أهم المصادر غير العربية أقدمها ماروي باللغة الإغريقية وأشهرها ما كتبه أنا كومينا ابنه الإمبراطور الكسيوس كومينوس امبرطور بيزنطة.

ولدت أنا في الغرفة الأرجوانية أميرة حقيقية وفي هذا القصر نشأت وترعزت فحصلت على معارف عصرها وخبرت العمل السياسي، كانت قوية الملاحظة، دقيقة الوصف، عميقة الأحاسيس، وهذه المزايا مع المعلومات التي وقعت عليها بحكم مركزها الرفيع، قد جعلت من الكتاب التي دونت فيه سيره أبيها الإمبراطور وسمته "الألكسياد" كتاباً فريداً من نوعه، حوى على مواد

وثائقية مهمة جداً يفيد الباحث من الجوانب كافة لذلك فهو مصدر أساسي بالنسبة للحروب الصليبية، فمن هذا الكتاب نستقي معلومات عن محاولة بيزنطة إعادة أمجادها واسترجاع بعض المدن التي فقدتها، ومعلومات هامة عن وصول الحملة الأولى وعما صنعه أفراد الحملة الأولى في الأراضي البيزنطية من أفعال مشينة وعما حدث لهؤلاء في آسية الصغرى، وأهم شيء كان أوصافها للأمرء بقيادة الحملة (أخلاقهم - طباعهم - وكيفية دخولهم إلى العاصمة البيزنطية، وكيف تعامل الامبراطور معهم بشيء من الحذر والخوف الأميرة أنا كانت أرثوذكسية. ودوماً مثلت وجهة نظر الكنيسة الأرثوذكسية، ولا يمكن لباحث في الحملة الأولى وبعض الثانية الاستغناء عن مواد كتابها، فهو أهم مصدر بيزنطي يمكن أن يعود إليه المرء، ومادة الكتاب غنية وفيرة تكشف عن العوامل المختلفة العميقة والتي أدت إلى قيام شرخ كبير في أسس العلاقات البيزنطية الفرنجية، والاتجاهات العدوانية للحركة الصليبية وجشع الصليبيين بأسلوب ممنوع وشيق، وقد استفدت من ذلك كله أثناء دراسة مقدمات الحملة الصليبية الأولى (الاحتلال) وموقف الإمبراطور البيزنطي منها، وكذلك السياسة البيزنطية وعلاقاتها مع الفرنجة ومع المسلمين. وأسباب تغير موقفها من الصليبيين وأمور أخرى هامة.

٢. يوحنا كينا موس:

ولد يوحنا كيناموس بعد سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م من أبوين ذوي مركز اجتماعي مرموق، وكان يوحنا سكرتيراً للإمبراطور البيزنطي مانويل ودون كتابه "مختصر التاريخ" بعد موت الإمبراطور، فكان الكتاب إطراء وتمجيذاً للإمبراطورية البيزنطية لا سيما لمانويل لكنه لم يخل من التهجيم على اللاتين، فما عرف عن يوحنا أنه كان شديد العداء لللاتين^(١).

قام يوحنا بمتابعة التاريخ لبيزنطة من حيث توقفت أنا ومكملاً لها. لذلك يعد على درجة عالية من الأهمية التاريخية، وكتابه مصدر بيزنطي هام لهذه الحقبة

(١) د. سهيل زكار: الموسوعة، ج ٢٩، ص ١٣ / عطية: المرجع المتقدم، ص ٦٠-٦١.

المدرسة، ويبدو أنه استقى موادّه الأساسيّة من مصادر حصل عليها من بعض الأفراد، لكنه بدءاً من سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م اعتمد على ملاحظاته الشخصية^(١)، ورغم قلة المادة العلميّة التي تخصه الموجودة في الموسوعة الشامية تحت عنوان "أعمال يوحنا كيناموس" إلا أنني استفدت منها كل الاستفادة في عدة مجالات، فقد تحدث عن امتلاك بيزنطة لأنطاكية ومن ثم استيلاء الفرنج عليها، وبين بوضوح الحجج الواهية التي ادعاها الأوروبيون إبان الحملة الأولى عند اجتيازهم من أوربة إلى آسية الصغرى بقصد حماية الأماكن المقدسة، واسترداد القدس لم يكن إلا حجة زائفة أمام هدفهم الأساسي ألا وهو اغتصاب بلاد الرومان (بيزنطة) وسحق كل شيء أمامهم.

كما تحدث عن المراتب الكهنوتية وعن أعمال العنف التي ارتكبتها الفرنج لاسيما الألمان منهم ووصف جيشهم وصفاً دقيقاً وبين الفرق بينهم وبين الجيش الفرنسي، كما تطرق إلى الحديث عن جرائم ولیم الصقلي ضد بيزنطة.

المؤرخ المجهول صاحب يوميات أعمال الفرنجة:

اختلف المؤرخون حول تحديد شخصيته وكان برفقه الأمير النورمندي بوهمند وقد كتب يوميات عن أعمال الفرنجة، ويرجح أنه كان إنساناً عادياً، مشى في ركاب الأمير بوهمند وأعجب به، لهذا نراه يطريه في كل موضع ومناسبة، ويهتم بأخباره أكثر من أخبار غيره من قادة الفرنجة، وقد روى أخباره بكل بساطة، ودونما تصنع وذلك تناسب مع ثقافته ووضعه كجندي عادي، زحف مع الحملة المتوجهة نحو القدس ورافق الأمير تتركيد نحو القدس حتى سنة ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م، ولا ندري سبب توقفه عند هذا التاريخ ولا حتى مصيره الشخصي وانتشر كتابه في القدس سنة ٤٩٤هـ / ١١٠٠م^(٢) وقد حمله بوهمند معه إلى أوربة فسعى هناك إلى نشره والترويج له^(٣) وربما لاعتقاده أنه الأطراء له ولأن أوقف صاحب

(١) عطية: المرجع المتقدم، ص ٥٠.

(٢) د. زكار: الموسوعة، ج ٦، ص ٥.

(٣) د. زكار: المرجع نفسه، ص ٦.

اليوميّات جل مواده على بوهمند وتُنكر يد ورغم ذلك فقد أُنبت منه في أثناء الاحتلال وكيف قدم الشيزيين التسهيلات والهدايا والأدلاء لهذه الحملة وكذلك موقف أمير طرابلس من قدوم الفرنجة ومصانعه هؤلاء بتقديم العديد من الأموال والهدايا كما بين لنا موقف الأهالي وهروبهم من وجه الصليبيين.

وليم الصوري (٥٢٦.٥٨١هـ/١١٣٠.١١٨٥م):

يتصدر المصادر الأجنبية التي عدت لها كتاب "الحروب الصليبية" أو "تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار" صاحب هذا الكتاب هو وليم الصوري رئيس أساقفه مدينه صور وقد ولد كما هو مرجح في القدس سنة ٥٢٦هـ/١١٣٠م من أبوين أوروبيين نزحاً إلى الأراضي المقدسة في ركاب الصليبيين وقد عاش سني حياته الأولى في القدس، وتعلم في مدراسها اللاتينية والعربية واليونانية والعبرية والفارسية ودخل في خدمة الكنيسة وتلقى التدريب الكهنوتي كما سافر إلى فرنسا لمتابعة تحصيله العلمي وزار القسطنطينية وفي سنة ٥٦٠هـ/١١٦٣م رسم وليم قساً في كنيسة صور، وكان ملك مملكة المقدس اللاتينية آنذاك عموري الأول، وقد عاصر هذا الملك نور الدين محمود بن زنكي وخطط للاستيلاء على مصر لكنه رأى حين شرع في تنفيذ مخططه أن أخذ مصر لا يقل أهمية عن أخذ الصليبيين للقدس لذلك أراد أن يؤرخ لهذا الحدث الخطير^(١)، فوقع الاختيار على وليم. وعهد إليه بوظيفته التأريخ مما أدى إلى قيام علاقة وثيقة بين وليم وبلاط القدس ومشاكله السياسية وسواها، مواد هذا الكتاب يقسم إلى قسمين: قسم استقى وليم معلوماته فيه من مصادر مختلفة بعضها عربي وجلها لاتيني حيث أنه عمد إلى جمع كتابات المؤرخين اللاتين الذين سبقوه وأدخلها في كتابه أما معلومات القسم الثاني فقد عاصر وليم أحداثها وقام برواية أخبارها عن شهود عيان إن لم يكن هو قد شارك فيها وهذه هي حقبة مهمة للبحث المدروس، وبذلك

(١) زكار: الحروب الصليبية، دار حسان للطباعة ط١، ١٩٨٤م، ج١، ص ٩١-٩٥ / نويرة الحلاق: حوران والسود منذ بداية الحروب الصليبية حتى حطين ٤٩١-٥٨٣هـ/١٠٩٨-١١٨٧م رسالة ماجستير دمشق ١٤٢٤هـ/٢٠٠١م ص ٢٠.

يرقى إلى درجة الوثائقية من وجهة نظر خاصة، كما أن تاريخ ولیم السوري هو أفضل لا بل أكمل مصدر لاتيني أرخ للحروب الصليبية إذ أرسى فيه أسس أو ادب التاريخ لهذه الحروب حتى قبل حطين لذلك لاقى هذا الكتاب عناية كبيرة وترجم إلى لغات أوروبية عدة، وكتاب ولیم مؤلف من جزئين قام الدكتور سهيل زكار بنقله إلى اللغة العربية، ولا غنى لأي باحث تاريخي عن المعلومات ومحتويات الكتاب التي قدمت لي العون الكبير والفائدة القصوى طيلة مراحل البحث منذ البداية حتى النهاية، ووجدت عند ولیم ما كنت أبحث عنه من معلومات هامة أو شواهد غنية، لا سيما في مرحلة الاحتلال فهو المصدر الوحيد الذي وصف لنا بدقة الآلية التي سار عليها المحتلون في كل مدينة كما إفادني كثيراً في بعض المعلومات الاقتصادية والاجتماعية الهامة، فنجد أنه تحدث عن مواقع بعض المدن وعلل أهميتها تاريخياً، وكذلك النواحي الإدارية وتقسيمات سورية وامتدادها الجغرافي، كما تحدث عن أهم المرافئ التجارية الهامة على طول الساحل الشامي لا سيما أرواد أضف إلى ذلك الحديث عن الأسطول الفاطمي ودوره في المنطقة.

المؤرخ الرهاوي المجهول:

من المرجح أن هذا المؤلف هو باسيل المطران السوري لمدينة الرها، وقد كتب حولية عالج فيها أخبار هذه المدينة، وما يحيط بها خلال النصف الأول من القرن ١٢هـ/١٢م، وقد صنفه بالسريانية^(١) وتأتي أهمية هذه الحولية في أن المؤلف كان معاصراً للأحداث. وربما كان شاهداً عياناً لبعضها، وبالرغم من ضآلة المعلومات التي استفدت منها من كتابه في مجال البحث، فقد أمدني عند الحديث عن الاحتلال الفرنجي الصليبي وتوسعة بدءاً من حصار أنطاكية وصولاً إلى عرقة والتفات الفرنجة مجدداً لاحتلال بقية المدن في الساحل الأعلى. كما أشار إلى احتلال تكريد لجبله وحصاره اللاذقية.

(١) زكار: الحروب، ج ١، ص ٩٣-٩٤

ميخائيل السوري الكبير:

نشأ نشأة دينية صارمة ومتعصبة كان بطريركاً لأنطاكية سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م، وظل محتفظاً بمنصبه مدة ثلاثين عاماً وقد كتب لنا كتاباً كبيراً في التاريخ منذ بدء الخليقة حتى أيامه^(١) قسمه إلى قسمين: قسم عرض فيه تاريخ الدول غير العربية، أما القسم الثاني فكان عن تاريخ الإسلام.

عرض أخباره بشكل حولي وبالرغم من أن مواده فيها شيء من الاضطراب والتداخل والأخطاء التي تتعلق بالسنوات، لكن أهم ما حواه كتابه هو مواده المتعلقة بالحروب الصليبية التي عاصرها لذلك تعد مواده على درجة عالية من الأهمية، وقد أفدت منه في مواضع عدة من الرسالة خصوصاً فيما يتعلق بالحملة الثانية وأعمال نور الدين حتى وفاته وقد وم السلطان صلاح الدين الأيوبي، كما تحدث عن الأضرار والكوارث الطبيعية التي لحقت بالمدن الساحلية مثل جبلة واللاذقية وغيرها. بالإضافة إلى حديثه عن تعرض بيزنطة لهجوم مسيحي عليهم من قبل نورمان صقلية.

أبو الفرج بن العبري:

من المؤرخين السريان كتب بالسريانية كتاباً أسماه "تاريخ الزمان" حولي، وسبقه مؤلفان آخران مباشرة هما بطريرك أنطاكية ميخائيل السوري الأول، وقد وصل حتى سنة ١٩٦م والرهزي المجهول ثم أكمل هو تاريخ المنطقة حتى عام وفاته سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م، ولد سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٦م، وترهب في أنطاكية حتى أصبح أسقفاً ثم رقي إلى منصب كبير رئيس الأساقفة وهو نائب بطريرك أنطاكية لبلاد المشرق، تعددت مؤلفاته التي لا تشمل العلوم الدينية فقط بل شملت العلوم اللغوية والفلسفة والشعر والعلوم، ونضيف إلى تلك المعلومات ملاحظاته الشخصية الهامة، كما أنه عاصر الغزو المغولي^(٢)، وتكاد تكون

(١) زكار: الموسوعة الشامية، ج ٥، ص ١٤.

(٢) زكار: المرجع نفسه، ج ٥، ص ١٧-١٨.

روايات ابن العبري عن أحداث الحروب الصليبية مجرد تكرار مختصر لما كتبه سلفه ميخائيل الكبير. لهذا عدت مواد ميخائيل أعظم وأعلى مكانة منه، وقد أخذت منه معلومات أفادتني في ميادين شتى من الرسالة اجتماعية وتجارية وإدارية، فقد قسم بلاد الشام إلى شامات وليس إلى سوريات كما تحدث عن الأوضاع العامة قبل مجيء الفرنجة، وتحدث عن مشكلة أنطاكية التي كانت رأس المشاكل السياسية لبيزنطة في المنطقة لأنها لم تستطع أن تتناسى حقوقها في البلاد، وأشار ابن العبري إلى الخدمات التي قدمها الأسطول الإيطالي للفرنجة ومساعداته لهم أضف إلى ذلك إشارته إلى أهم الكنائس الموجودة في هذه المدن الساحلية لاسيما في طرطوس واللاذقية... الخ

فولتشر أوف تشارترز:

فرنسي الأصل ولد في تشارترز سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٨م، أو في سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٩م كان من المشاركين في الحملة الأولى والمهتمين بها. لذلك اهتم بتدوين أخبارها وبكل ما شاهده أو سمع به، كما كان فولتشر كاهن بلدوين ومستشاره الخاص يرافقه في حروبه وأسفاره جمع معلوماته الغنية في كتاب سماه "تاريخ الحملة إلى القدس" وهذا لم يرد عند غيره، أو لم يسجله غيره بتفاصيل الأحداث كما فعل هو، ووقع هذا التاريخ في ثلاثة أقسام بدأ أولها بأخبار البابا أوربان الثاني ومجمع كليرمونت وانتهى بموت غودفري ملك القدس، كما أنه غطى أخبار حكم بلدوين الأول حتى وفاته في العرش، أما الثالث فتضمن أخبار بلدوين الثاني حتى سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م^(١) وقد أمدنا هذا الكتاب بمعلومات عن زحف ريموند الصنجيلي على اللاذقية واستيلائه على طرطوس وبعض الأزمات الاقتصادية.

(١) زكار: الموسوعة الشامية، ج ٩، ص ٨٧.

بورتشارد ٥٨٢هـ / ١١٨٧م:

كان بورتشارد راهب دير جبل صهيون ألمانياً، إما من أهالي مدينة ستراسبورغ أو مدينة مجد يبورغ. وقد عاش في القرن ٧هـ / ١٣م، وصار راهباً فنان رهبان طائفة الدومنيكان، ذهب إلى الشرق سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣٢م زار خلالها مصر وسورية وكذلك أرمينية التي كانت تعرف قديماً باسم مملكة كيليكية، قيل بأنه أمضى عشر سنوات في دير جبل صهيون في القدس، ولم يعد إلى أوروبا حتى تقدمت به السن كثيراً هذا وتاريخ وفاته غير معروف^(١).

عاش بورتشارد في عصر تسامح دل عليه لهجة كتابته. وعد أعظم الحجاج في جميع العصور الوسطى وأشهرهم. ومع هذا يلاحظ أن شهرته دفعت إلى تحقيق كتابه أكثر من عشرين مرة.

كان بورتشارد مخلصاً تقياً ومساعداً لجميع الطوائف الأخرى دون استثناء، ويبدو أن قراءاته كانت ضخمة أظهر فيها كثيراً من الذكاء في تعلمه ما أمكنه أثناء رحلاته، وكذلك في استيعاب المعلومات التي تلقاها، وقد أظهر أكثر من أي كاتب معاصر له مزيجاً غريباً من الشجاعة والتواضع وحب المعرفة، كما كان قادراً على زيارة الكثير من البلدان والمدن التي كانت مزدهرة قديماً، لذلك قام بمزج الحكايات الخارقة وردد أصداء الملاحم في كتاباته واعتماداً على بورتشارد قام الجغرافيون باستقاء المعلومات حول التقسيم الجغرافي لفلسطين وسورية وغيرها من المدن الهامة في التاريخ كما أشار إلى وجود الجمال وكثرتها في هذه السهول، وإلى أنماط السكان الذين يقطنون، وإلى نواحي زراعية هامة مثل إشارته إلى زراعة التين والزيتون في سهول طرطوس.

(١) زكار: الموسوعة الشامية، ج ٣٧، ص ١٣٥، وما بعدها.

بيردوبوا Peirre dubois

لا تزال المعلومات عن حياته وأعماله قليلة جداً ونستطيع أن نقول ما أخبرنا به عن نفسه في أوراقه.

ولد في شمال فرنسا وربما في أو على مقربة من كوتانسيز في نورماندي، حقيقة أن سكان كوتانسيز الذين كانوا أبناء منطقته قد عبروا عن ثقتهم به مرتين لتمثيلهم في مجلس الأعيان العام، ويرجح أنه كان من أصل برجوازي وأن تاريخ ميلاده كان فيما بين ٦٤٧-٦٥٢هـ / ١٢٥٠-١٢٥٥م حين جرى تنظيم جامعة باريس أممياً.

ساعدته معرفته وصداقته للأعيان من التعرف بقضايا الدولة. لذلك احتل منصب (المحامي الملكي) في منطقة مسقط رأسه الأمر الذي لفت إليه الانتباه لنشر أفكاره الإصلاحية^(١).

كتابه الرئيسي هو "استرداد الأرض المقدسة" كتبه في وقت ما بين تنويع كلمت الخامس ووفاء إدوار الأول. لذا يرجح أن السنة التي ألف فيها كتاب الاسترداد كانت سنة ٧٠٥هـ / ١٣٠٦م تحدث في الاسترداد عن الخلافات والخصومات بين الدويلات الإيطالية جنوه - البندقية - بيزه، كما تحدث عن التنظيمات الرهبانية الداوية، الاسبتارية ومساعداتهم للفرنجة لا سيما في تقديم السلاح، وعن بعض الترتيبات الكنسية، ومصطلح الملك وواجبات كل واحد منهم.

وقد استفدت منه في المجال التجاري وأهم ما حملته السفن الإيطالية للفرنجة وتحديثه عن دور الإيطاليين في البحر المتوسط ومنافستهم للقسطنطينية من أجل السيطرة الدولية على الأسواق.

(١) زكار: الموسوعة الشامية، ج ٣٧، ص ١١-١٢-١٣.

جاك دي فتري:

ولد في مدينة فيتري - سورسين في فرنسا سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م وأصبح كاهناً شماساً سنة ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م وتدرج في المناصب الكهنوتية إلى أن أصبح كاهناً من كهنة أوستن فيلا برول في برابانت، وما لبث جاك أن صار واحداً من الرجال البارزين بشهادة معاصريه بدليل تأثيره على الحركة الصليبية في القرن ٧هـ/ ١٣م كان لا يقل عن تأثير بطرس الناسك عليها في القرن ٦هـ/ ١٢م، وقد أوقف جاك دي فتري حياته على العمل من أجل استرداد الضريح المقدس، وقد كان مؤلفه "المنتقى من تاريخ القدس" كبيراً ضاع جزء كبير منه بالإضافة إلى وصول بعض الفصول المبتورة لكن ما ضاع لم يفقده قيمته، أما تاريخه فقد اعتمد فيه على تاريخ وليم الصوري لذلك وقع في أخطاء كثيرة أثناء نقله للمادة نتيجة لفقدانه القدرة على التدقيق والنقد لأنه كتب تاريخه في الغرب وقد تقدمت به السن يضاف إلى هذا عقلية الخاصة وتكوينه اللاهوتي^(١).

الأمر الذي أثر في كتابته ومع هذا ظل الكتاب وثيقة من أهم وثائق القرن ٧هـ/ ١٣م، أما بالنسبة لموضوع الرسالة فقد أفادني عند الحديث عن الأمالفيين وتجاراتهم في البحر وكذلك عن احتلال الفرنج لمعظم القلاع الساحلية ودور القلاع وأهميتها كمراكز للقوات الفرنجية من أجل محاصرة المدن، وعن تجارة بعض المدن الإيطالية الأخرى بالإضافة إلى بعض المعلومات الإدارية مثل الأوضاع الإدارية والتقسيمات في ظل الاحتلال وعند قدوم الفرنجة بمزيد من التفصيل، والمعلومات الاقتصادية فقد أشار إلى صناعة تعلمها الفرنجة من المنطقة ومنها عملية استخراج السكر من القصب، وهو الوحيد الذي أشار إلى نصارى شمالي الشام بأن معظمهم من الأرثوذكس.

(١) زكار: الموسوعة، ج ٣٤، ص ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦/ عطية: المرجع المتقدم، هامش ص ٢١.

جون أوف وورزيرغ:

كان جون كاهناً في الكنيسة في وورزيرغ، وشرع بكتابة ما رآه في القرن ٧هـ/١٣م زار القدس وقد كانت هذه الزيارة قد تمت في أثناء وجود المملكة الفرنجية فيها.

ألف كتابه "وصف الأرض المقدسة" وخاصة مدينة القدس، لذلك يعد شاهداً بياناً لبعض الأحداث في حين نقل بعضها الآخر عن الآخرين^(١) وصف في كتابه الكثير من الأماكن التي زارها لكنه افتقر إلى الجدة والحدثة التي يأتي بها شاهد عيان لا بل زاد الأمر على ذلك فقد نسخ بشكل مصطنع أوصافها عن الآخرين، وهو مع ذلك أفادني وأمدني كتابه بمعلومات هامة عن نهر العاصي (نهر فرفر) وعن تسمياته المختلفة.

مارينو سانوتو:

كاتب مؤرخ وسياسي صليبي امتاز عن غيره أنه لم يضع تاريخه بناء على رغبة أحد الملوك أو الحكام أو حتى لتمجيد شخص بعينه وتسجيل أعماله، بل كانت لديه دوافع صليبية بحثة وأهم ما كتب عن الحروب الصليبية كتاب "الأسرار" تميز فيه بالموضوعية والدقة وزاد من أهميته غزارة المعلومات التاريخية الجغرافية التي وردت فيه عن الشرق اللاتيني، فلم يترك مصدر معلومات عن الأحداث السالفة إلا ورجع إليه ونقل عنه^(٢) بل زاد على ذلك في تفصيل عن أحوال الصليبيين والمسلمين على حد سواء، أما بالنسبة لموضوع الرسالة فقد أمدني سانوتو بمعلومات إدارية هامة حيث أشار إلى تقسيم سورية إلى سوريات مع تحديد لإمارة أنطاكية من بدايتها حتى نهايتها، كما أشار إلى مدينة اللاذقية بأنها المدينة الوحيدة التي تبعت لسيطرة بيزنطة.

(١) زكار: الموسوعة، ج ٣٤، ص ٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٤.

(٢) عطية: المرجع المتقدم ص ٤٥، ٤٦.

— معلومات اقتصادية أشار إلى وجود الجمال واستخداماتها في عملية النقل وحمل البضائع.

— اجتماعية: تحدث عن بعض الفئات السكانية "النصيرية" وعن استقرار البدو في سهول طرطوس.

— تجارية: أشار إلى العملية التجارية في المنطقة ومن يقوم بنقل البضائع، أهم الضرائب المفروضة عليها، كما أنه بين أسباب تناقص ثروة الفرنج في المناطق الخاضعة لهم، ومدى التنافس القائم بين الدول الإيطالية.

فليكس فابري جولات للراهب الدومنيكاني ورحلاته:

كان راهباً ألمانياً متعصباً جداً، قام برحلتين إلى فلسطين: أولهما قصيرة جرت في سنة ٨٨٤هـ/١٤٨٠م أما الثانية فطويلة تمت في سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٣م، وأودع في كتاباته جميع مشاهداته مع ما قرأه وسمعه من رحلة فابري هامة جداً حيث أنها تمت في أواخر العصر المملوكي، وتعد رحلاته من أوسع الرحلات الأوروبية جاءت في أربعة مجلدات^(١) فكانت أشبه بالعمل الموسوعي استفدت من عمله في معلومات هامة جداً لا سيما فيما يتعلق بأهمية البحر المتوسط، حدوده وتسمياته تمايزه عن غيره من البحار، ومن الغريب أنه أطلق عليه اسم "بحرنا" مع العلم أن الروم هم الذين سموه بحرنا أي بحر الروم، وعرف لنا الغلايين^(٢) التي كانت تحمل للفرنجة مختلف أنواع البضائع.

(١) زكار: الموسوعة، ج ٣٤، ص ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٤.

(٢) الغلايين أو الغليون: اسم أطلق على نوع من المراكب المتوسطة الحجم، العاملة في البحر، وعلى كل حال أطلق عامة الناس سواء من الألمان أو الطليان اسم غليون، ومنحت هذه السفينة هذا الاسم لأن مقدمتها لها شكل الخوذة من الأمام ولأنها تواجه الأمواج مثل رجل مسلح، والغليون هو مركب مستطيل الشكل يتحرك بواسطة المجاديف والأشرعة.

انظر حول ذلك: فابري (فليكس) جولات الراهب الدومنيكاني ورحلاته من خلال الموسوعة الشامية دار الفكر دمشق ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج ٣، ص ٢٣٢، ٢٣٣/دي فري (جلك): المنقلى من تاريخ القدس من خلال الموسوعة ج ٣٣، دار الفكر للطباعة دمشق ١٤١٢هـ/١٩٩٨م، ص ٢٣١.

هذه دراسة لأهم منابع الرسالة وأصولها من مصادر عربية وأخرى أجنبية بالإضافة إلى ذلك فقد أفدت من الكثير من المراجع العربية والأجنبية المترجمة في مقدمتها:

- ١- الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية للأستاذ الدكتور سهيل زكار التي تعد الأولى من نوعها، فقد وضعت تحت تصرف القارئ العربي هذا الكم الكبير من النصوص فساعدت بذلك على رسم صورة حية للأحداث والوقائع التاريخية، تحدث في الأجزاء الأولى عن أحداث الحروب الصليبية من وجهة نظر عربية إسلامية، ثم ألحقها بأجزاء أخرى حوت أعداد كبيرة جداً من المصادر الأصلية لتاريخ هذه الحروب بعد تحقيق بعضها وترجمة بعضها الآخر، وهي في تزايد مستمر لذا كانت هذه الموسوعة عوناً وذخراً لكامل الرسالة دون استثناء، كما عدت إلى كتاب.
- ٢- الحروب الصليبية للدكتور زكار أيضاً.
- ٣- "الحروب الصليبية" لسعيد عبد الفتاح عاشور، وكذلك كتابه "تاريخ سورية في العصور الوسطى".
- ٤- كتاب الدكتورة وفاء جوني "مشرق والمملكة اللاتينية في القدس منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلادي".
- ٥- كتاب محمد سهيل طقوش الذي حمل عنوان "تاريخ الزنكيين في الموصل".
- ٦- محمد كرد علي "خطط الشام" وكذلك كتابه "غرائب الغرب".
- ٧- زكي النقاش "العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج".
- ٨- كما اعتمدت على بعض الدراسات الحديثة التي تخص الساحل منها:
- "جزيرة أرواد والجذور الفينيقية على ضوء الاكتشافات الجديدة" لحسين حجازي.

- "الموسوعة السياحية للساحل السوري" مالك حبيب — إبراهيم شعبان.
- كتاب "تاريخ اللاذقية" لهاشم عثمان، وكذلك كتاب "المختصر في تاريخ اللاذقية" لسعادة جبرائيل.
- أما بالنسبة للمراجع المترجمة فقد عدت إلى كتاب ستيفن رنسيما "تاريخ الحروب الصليبية" في أجزاءه الثلاثة.
- أرنست باركر "الحروب الصليبية"
- ر. سي. سميل: "فن الحرب عند الصليبيين"
- سميث (جوناثان رايلي): "الاستبصار في فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص"
- فولفغانغ — مولر — فينر: "القلاع أيام الحروب الصليبية"
- فيشر: "الأراضي الساحلية للشرق الأدنى"
- هايد (ف) "تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى". هذا بالإضافة إلى كتب أخرى كثيرة سيتم ذكرها في آخر الرسالة.

الفصل الأول

عرض جغرافي للمنطقة الساحلية

- ١ - الموقع والحدود والتقسيمات الإدارية.
- ٢ - البنية الجغرافية والتضاريسية.
- ٣ - موارد المنطقة الاقتصادية.
- ٤ - السكان.
- ٥ - النشاط الثقافي والعمراني.

الموقع والحدود:

تأتي أهمية بلاد الشام بسبب موقعها الجغرافي والاستراتيجي بين القارات الثلاث القديمة فكانت جسر ارتكاز لنقل المؤثرات الحضارية منها وإليها عبر نافذتها المشرفة على الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وكان لهذا الإقليم شهرته الواسعة لأسباب عديدة منها موقعه المتوسطي وغنى أرضه. وحضارة سكانه مما جعله يتمتع بأهمية خاصة إلى جانب كونه طريق اتصال بري وبحري لذلك عد من أنشط المسطحات المائية الملاحية مما أضاف ميزة جديدة إلى ميزاته السالفة الذكر.

يشكل البحر المتوسط الحد الطبيعي لبلاد الشام من الغرب، وعليه تقع مدن الساحل الشامي الأعلى الذي يقع في الإقليم الرابع^(١) الذي هو إقليم الشام^(٢) وفي الحقيقة عرف هذا الساحل باسم البحر الشامي أو باسم البحر المتوسط^(٣)

(١) عمد المصنفون الأوائل إلى تقسيم العالم إلى أقاليم جعلوها في أربعة عشر إقليم ست منها عربية أما الثمانية المتبقية فهي غير عربية كما أنهم قسموا الإقليم إلى كور والكور إلى قصبة ولكل قصبة مدن إلا الجزيرة انظر:

المقدس: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، د. محمد مخزوم، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٥٤.

ويعد كل من المقدسي والبكري بأن إقليم الشام يقع في الإقليم الرابع

انظر المقدسي: المصدر نفسه، ص ٦٨.

البكري: المسالك الممالك، حققه وقدم له أدريان فان ليوفن وأندري، الدار العربية للكتاب، ١٩٩٢م، ج ١، ص ١٨٤.

في حين يختلف عن هذا التقسيم ابن الجوزي الذي يعد أن إقليم الشام واقع في الإقليم الثالث

سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، حققه د. إحسان عباس، دار الشروق، ط ١، ١٩٨٥م، ص ٦٣.

(٢) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ط ١ ١٩٨٩ مجلد (٢)، ص ٦٤٣.

القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ١٤٦.

(٣) للبحر المتوسط أسماء عدة، فهو يستقي أسماؤه أحياناً من البلدان، وأحياناً أخرى من الجزر (البحر الآسيوي، البحر الأييري، أو البحر الصقلي... الخ).

فايري فليكس: المصدر المتقدم، ص ٢٢٠.

وقديماً عرف باسم بحر الروم^(١) أما تسميته بالبحر الشامي فتعود لوقوع سواحل الشام عليه من شرقه^(٢) كما سمي البحر المتوسط بالبحر الكبير^(٣) ويعلل لنا فليكس فابري سبب تمايز هذا البحر عن غيره وتسميته قائلًا:

"يطلق عليه اسم بحرنا لأنه بالمقارنة مع بقية البحار الأخرى الأصغر منه أمام بحرنا * لأنه معروف من قبلنا وقريب منا ويستخدم من قبلنا أما تسميته بالميتوسط فهي عائدة إلى وجود وسط الأرض أي بين آسية وإفريقية وأوربة ويفصل فيما بينهم يرسم الحدود بين كل واحدة منهن بنفسه وبفروعه... الخ"^(٤) ونتيجة حتمية لهذا الموقع الاستراتيجي صار البحر المتوسط محور صراع طويل منذ أقدم العصور حتى أيامنا هذه، فمن يستطيع فرض وجوده على المدن الواقعة على سواحه وبالتالي الوصول إلى مراكز النقل الحضاري للمنطقة آنذاك. مما يفسر لنا السبب الذي جعل الفرنجة يوجهون أنظارهم لذاك البحر في مخططاتهم وعملياتهم تمهيداً للسيطرة على المنطقة بأكملها.

الحدود:

والساحل الشامي لدى الجغرافيين العزب هو ذلك الصقع الواقع في الجهة الغربية لبلاد الشام التي تمتد من الفرات إلى العريش وعرضاً بين جبلي طيء وإلى البحر المتوسط^(٥) وقامت عليه مدن عديدة أهمها وابتداء من طرابلس

- (١) الإدريسي المصدر المتقدم، مجلد ٢، ص ١٤٥ / البكري: المصدر المتقدم، ج ١، ص ١٩١.
- لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية بشير فرسيس، مطبعة الرابطة، بغداد، ١٩٥٤م، ص ١٥٩.
- (٢) القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٣، ص ٢٣٩.
- (٣) يعلل أحد المؤرخين الفرنجة سبب تغير أسماء المدن والأماكن بشكل تدريجي أنه عائد إلى تغير الأمم التي سكنت البلاد في أوقات مختلفة.
- حاج مجهول قبل سنة ١١٧٨ من خلال الموسوعة الشامية ج ٣٧، دار الفكر، دمشق ١٩٩٥م، ص ٤٣.
- * ملاحظة: الروم هم من سمو البحر المتوسط بحرنا (بحر الروم).
- (٤) فليكس فابري: المصدر المتقدم، ص ٢٢٠.
- (٥) البغدادي: مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد الجاوي، ط ٦، ١٩٥٤م، ص ٧٧٥ / القزويني: أثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت ١٩٦٠، ص ٢٠٧ / سبط ابن الجوزي: المصدر المتقدم، ص ٦٣.

الشام باتجاه الشمال طرطوس، مرقية^(١) (بين بانياس وطرطوس) وهي اليوم نبع حسان قرب الرمال الذهبية خارج طرطوس^(٢) والمدينة الفينيقية الأولى بالنسبة للقدام من الشمال^(٣) أطلق عليها في العصر الفينيقي ماراكاس وسميت بعد ذلك بخراب مرقية^(٤) نسبة إلى الخراب الذي حل بها ويسمى حصنها اليوم بالشرفة وقد أخذت مرقية في حقبة الحروب الصليبية أسماء متعددة منها كرنة ومرتقة كانت المدينة مرفأً فينيقياً وتأتي أهميتها بسبب موقعها وتوزعها على التلال وسفوح الجبال، ومع هذه الأهمية نجد أنه لم يتم التركيز عليها بشكل كبير وهذا ما سنلمحه فيما سيراد من تسلسل للأحداث التاريخية، يلي مرقية بلنياس^(٥) أو بانياس الساحل.

(١) عرفها الأنطاكي على أنها مدينة على ساحل البحر وكانت خراباً.

يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتياخ، حققه عمر عبد السلام التدمري، طرابلس لبنان، ١٩٩٠م، ص ٣٥٢.

ابن حوقل: صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩م، ص ١٥٣. وللمزيد عن مرقية انظر إلى:

إلياس يعقوب: مرقية عكاك الساحل، حمص ط ١٩٩٩م، ص ٢١.

(٢) جاك دي فترى: تاريخ القدم من خلال الموسوعة، ج ٣٣، ص ١٣٨.

(٣) وليم الصوري: الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، تحقيق سهيل زكار، ج ١ ص ٣٩١.

(٤) الأنطاكي: المصدر نفسه، ص ٣٥٢ / يعقوب: المرجع نفسه، ص ٢١.

(٥) بلنياس أو بانياس الساحل: كانت أول تسمية لها بلانيا وبلنياس بالضم لتمييزها عن بلنياس الداخل التي هي من أعمال دمشق.

ابن الأثير: الكامل في التاريخ، حققه د. عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، ط بيروت ١٩٩٧م، ج ٩، ص ٣٩٨.

النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، حققه محمد أمين، القاهرة ١٩٩٤م ج ٢٨، ص ٢٦٧.

وتختلف بانياس الساحل عن الداخل رغم أنهما حملتا الاسم ذاته لكن الموقع والمعنى اختلفا فبانياس الداخل (دمشق) تبعد عنها مسافة أربعة وعشرين ميلاً وذلك عند سفوح لبنان باتجاه الجنوب وهي مدينة عظيمة الشأن تدعى باسم بلنياس المشتق من كلمة بيلينا - Bilina - بسبب جمال الموقع وبلانيا باليونانية تعني الحمامات العامة.

الواقعة تحت قلعة المرقب أطلق عليها الصليبيون اسم فاليني وهي عند ياقوت الحموي (بانياس) حصن بسواحل حمص على البحر المتوسط ولعلها سميت بهذا الاسم نسبة إلى حكيم يدعى بانياس^(١) يلي بانياس المرقب ثم بلدة على بعد فرسخين* من جبلة (وهي بلدة خراب)^(٢) ويلي بلدة جبلة^(٣) ثم اللاذقية^(٤) وصولاً إلى السويدية شمال سورية وغربي

- مالك حبيب - إبراهيم شعبان (الموسوعة السياحية للساحل السوري)، دار المثارة، اللاذقية، ص ١٤٨.
- وتعرف أيضاً باسم قيصرية فيليب، حيث تلتقت من القيصر فيليب اسمها وكان فيليب أخاً لبيروندو الذي أمر بقتل يوحنا المعمدان.
- أرنولد: رواية أرنولد عن فلسطين من خلال الموسوعة الشامية، تأليف د. سهيل زكار، دار الفكر، ج ٣٧، ص ٤٤.
- فيتلوس: رسالة فيتلوس في وصف الأراضي المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، دار الفكر، دمشق ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨، ج ٣١، ص ٣٦٢.
- رحلة الراهب الروسي دانيال من خلال الموسوعة الشامية، دار الفكر للطباعة، دمشق ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨ م، ج ٣١، ص ٣٩٣.
- (١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، تحقيق زيد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٥٥، ج ٢، ص ٥٨٠.
- الفرسخ: وحدة لقياس الأطوال يساوي ثلاثة أميال انظر ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ١٨١.
- (٢) الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القسمي، تحقيق محمد محمود صبيح، دار القومية، ص ٢٣٣/ الحموي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٧٢.
- بلدة: عرفها الحموي على أنها من مدن الشام قرية من جبلة فتحها عبادة بن الصامت ثم خربت وجلا أهلها عنها.
- (٣) أنشأها معاوية وكانت حصناً للروم الحموي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٧٢.
- (٤) اللاذقية: كانت قرية صغيرة تتبع لمملكة أوعاريت حملت اسم ياريموتا وذلك حوالي ١٦٠٠-٢٠٠ ق.م ثم عرفت باسم راميتا، وحملت اسم لوكية لكنه بمعنى الشاطئ الأبيض باليونانية وحملت اسم لاوذكية على يدي مؤسس الأسرة الملوكية ملوقس الأول أما الصليبيون فقد أطلقوا عليها اسم لاليش - ولم تأخذ تسميتها الحالية إلا عند دخول العرب المسلمين إليها مع الفتح الإسلامي سنة ٦٣٧ م.
- الموسوعة السياحية: المرجع نفسه، ص ٥٠.
- وللمزيد من التسميات المتعددة للاذقية انظر إلى:
- رحلة الراهب حج سيولف إلى القدس من خلال الموسوعة ج ٣١، ص ٢٤٨/ ورحلة حج دانيال: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣١٣.

أنطاكية^(١) التي ينتهي عندها البحر ثم يغير مساره غرباً وشمالاً حتى يتجاوز البلاد الإسلامية.

إلى الحد الفاصل بين بلاد المسلمين والأرمن المعروف بباب اسكندرونة^(٢) وجميع هذه المدن متقاربة الأطوال ولكنها متفاوتة في العرض.

التقسيمات الإدارية

التقسيمات الإدارية قبل الاحتلال الفرنسي

شكلت سورية وحدة جغرافية متميزة لها شخصيتها المستقلة بالرغم من تقسيماتها المختلفة المرتبطة بالتبدلات الجغرافية والسياسية لبلاد الشام بشكل خاص وللمنطقة بشكل عام.

وفي الحقيقة وجدت تصانيف كثيرة لسورية، فمنهم من يقسمها إلى سوريات أو إلى شامات... الخ وكل منها حمل اسماً مختلفاً عن متقدميه ومع هذا فإن "مجلد البلاد الواقعة فيما بين نهر دجلة ومصر دعيّت بشكل عام اسم سورية"^(٣) اعتمد ذلك المؤرخون الأجانب الغربياء وكذلك العرب فقسمت إلى سوريات بلغ تعدادها حوالي العشرة أولها عرف باسم:

(١) الحموي: المعجم، ج ١، ص ٣١٨/ ابن حوقل: المصدر المتقدم، ص ١٥٣.

ستيفن رنسيمن: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د. أنبار العريني ط ١٩٨١م، ج ١، ص ٣٨٠.

(٢) الكرخي: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، دار القلم، وزارة الثقافة، دمشق، ط ١،

١٩٩٧م، ص ٤٣/ التلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٣، ص ٢٤.

(٣) بورتشارد: وصف بورتشارد راهب جبل صهيون للأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، د.

سهيل زكار، ج ٣٧، دار الفكر - دمشق ١٩٩٩، ص ١٤٥.

١- سورية الأولى أو سورية الجزرية (١).

٢- سورية الثانية أو سورية المجوفة (البقاع) ومدينتها الرئيسية أنطاكية (٢) تبدأ عند نهر الفرات لتنتهي عند بانياس (٣) وفيها من المدن أنطاكية مع ملحقاتها مثل اللاذقية - وجبله .

٣- سورية الثالثة وهي (سورية الفينيقية) تبدأ من الشمال عند نهر بانياس وتمتد جنوباً حتى بئرا عند سفوح جبل الكرمل وتدعى اليوم باسم قلعة الحجاج عثليت التي كانت من أملاك فرسان الداوية ويوجد بها المرقب وجزيرة أرواد (٤) وطرطوس وكذلك مرقية (٥) وتمتد نحو الشرق وصولاً إلى طرابلس لكن المدينة الرئيسية فيها هي صور (٦).

٤- سورية الرابعة ومدينتها الرئيسية (دمشق) (٧) تتصل سورية هذه بسورية الثالثة من الجهة الشرقية.

وبمقارنة هذه التقسيمات عند مؤرخينا العرب كابن العديم مثلاً نجد أنه قد ذكر هذه التقسيمات التي كانت إلى حد ما شبيهة بما ذكر سالفاً، غير أنه عزاها

(١) سورية الجزرية: وهي أكبرها وسميت بذلك لأنها تقوم وسط المياه تمتد حتى البحر الأحمر جنوباً أما شمالاً فتمتد نحو الجزيرة السورية وفيها تقوم مدينة الرها.

(٢) سانوتو (مارينو): الأسرار من خلال الموسوعة الشامية، ج٣٦، دار الفكر، دمشق ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م ص ٢٥٥.

(٣) بورتشارد: المصدر المتقدم، ص ١٤٥ / جون بولونير: وصف الأرض المقدمة من خلال سهيل زكار في الموسوعة الشامية، ج ٤٠، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م ص ٨٧ / ثيوديريك وصف ثيوديريك للأماكن المقدمة ١١٧٢م من خلال د. سهيل زكار، ج ٣٤، دار الفكر، دمشق، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ص ٣٧١.

(٤) وليم الصوري: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٤٨.

(٥) وليم الصوري: المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٦) بورتشارد: المصدر نفسه، ص ١٤٥ / سانوتو: المصدر نفسه، ص ٢٥٥ / بولونير: المصدر المتقدم، ص ٨٧.

(٧) سانوتو المصدر نفسه، ص ٢٥٥.

إلى حقبة زمنية مبكرة تعود إلى ما قبل الفتح الإسلامي، إذ قسم سورية إلى سوريتين الأولى ومركزها أنطاكية ومن مدنها اللاذقية وجبلة أما سورية الثانية فهي أفامية ومدينتها حمص... الخ كما أنه قسم منطقة فينيقية إلى قسمين:

أ - فينيقية الأولى ومركزها صور يتبع لها طرابلس وأرواد.

ب - فينيقية الثانية: هي دمشق لكنه تم قوله معللاً ما ذكره بأن العرب قاموا بإعادة النظر لهذا التقسيمات في ضوء التبدلات الجغرافية والسياسية لبلاد الشام^(١) كما نجد تقسيماً آخر مغايراً عند كل من ابن الجوزي والبكري فالأول اعتمد في تقسيمه الشام إلى شامات مبتدأ بها من الشمال إلى الجنوب بدأها بالشام الأولى وهي قنسرين ومدينتها حلب وأنهاها بالشام الخامسة الرملة ومدينتها فلسطين^(٢) في حين نجد أن البكري اتفق مع مقدمه بالتقسيمات إلا أنه اختلف معه بالاتجاهات حيث يعد الشام الأولى فلسطين أما الأخيرة فهي قنسرين ومدينتها حلب وهكذا أي أنه بدأ بتقسيمه من الجنوب إلى الشمال^(٣).

وفي زمن لاحق قسمت بلاد الشام إلى ستة أقسام أو نيابات هي (دمشق، حلب، طرابلس، حماة، صفد، الكرك) وهذا التقسيم اعتمده الأيوبيون سنة (٥٨٩ هـ/١١٩٣ م) وكذلك المماليك فيما بعد^(٤).

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، حققه د. سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق ط ١٩٩٧ م، ج ١، ص ٣٨.

(٢) الشام الثانية هي حمص وأعمالها

الشام الثالثة الغوطة ومدينتها دمشق

الشام الرابعة الأردن ومدينتها طبرية

الشام الخامسة الرملة ومدينتها فلسطين

انظر سبط ابن الجوزي: المرآة، ص ٦٣ - ٦٤ - ٧١

(٣) للمزيد انظر إلى:

ابن الجوزي: المصدر نفسه، ص ٦٣ - ٦٤ - ٧١ / البكري: المسالك، ج ١، ص ٤٦١، ١٨٤.

(٤) للمزيد من المعلومات حول التقسيم الإداري إلى نيابات انظر إلى الفلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص

وفي الحقيقة لم تكن التقسيمات الإدارية ثابتة ولا حتى التسميات واحدة فنجدهم يطلقون عبارات متعددة مثل قاعدة^(١) حاضرة ولاية أو عمل^(٢) وغالباً ما استخدمت عبارة منطقة أما أجزاءها فقد أطلق عليها اسم العمل والعمل بدوره يضم مجموع من المدن والقرى وعلى هذا يبدو جلياً لنا أن حدود في هذه التقسيمات لم تكن ثابتة ولم تخضع لقاعدة معينة، فأحياناً نلاحظ أن مدينة ما أو قلعة أو ربما عدد من المدن تتبع لمدينة رئيسة معينة ثم تلحق بأخرى أي يصحبها تعديل في بعض الأحيان^(٣) فقد تضاف الأعمال إلى عمل آخر أو يفصل العمل الواحد إلى عمليْن... الخ ومثال ذلك مدينة اللاذقية التي عدت من أعمال حمص^(٤) ثم أصبحت تابعة لحلب^(٥) وكذلك مدينة جبلة من أعمال اللاذقية^(٦) التي كانت تابعة لحمص^(٧) ثم أصبحت لحلب^(٨) ثم استتبعت لطرابلس أما طرطوس فكانت من أعمال حمص أيضاً ثم أصبحت من أعمال

(١) القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ١٤٦.

(٢) اليعقوبي: البلدان، دار إحياء التراث، ط ١ ١٩٨٨م، ص ٨٩.

ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ حلب، دار الكتاب العربي في سورية، ١٩٨٤م، ص ٦٧.

(٣) عد بعض المصنفين قديماً أن اللاذقية وجبلة وبانياس وطرطوس ومرقية من سواحل حمص أي تتبع لها انظر حول ذلك:

ابن الفقيه الهمداني: البلدان، عالم الكتب، ط ١ ١٩٩٦م، ص ١٦١.

ابن خرداذبة: المسالك والممالك، مطبعة بريل لندن، ١٨٨٩، ص ٣٥٥/ المقدسي: المصدر المتقدم، ص ٦٢.

(٤) ابن الشحنة: المصدر نفسه، ص ٢٣٢/ المقدسي: المصدر نفسه، ص ٦٢/ ابن خرداذبة: المصدر نفسه، ص ٧٦.

(٥) الحموي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٦/ البغدادي: المصدر المتقدم، مجلد (٣) ص ١١٩٣/ المقدسي: المصدر نفسه، ص ٦٢.

(٦) ابن الشحنة: المصدر نفسه، ص ٢٣٢/ البغدادي: المصدر نفسه، ص ٣١٢.

(٧) ابن العديم: زبدة الطلب، ج ١، ص ٥٤/ ابن الشحنة: المصدر نفسه، ص ٢٦٧/ المقدسي: المصدر نفسه، ص ٢٦٢.

(٨) الحموي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٢.

طرابلس^(١) كما أن عدد الكور^(٢) والأعمال خضع للزيادة أو النقصان تبعاً للتغيرات الإدارية التي يستدعيها نمو السكان وحالة الأعمال من احتلال أو غيره^(٣) وبدءاً من النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد كانت المنطقة الساحلية مقسمة إلى عدد من الإدارات والإقطاعات يتزعمها أفراد لأسر محلية عاشت في حالة من الفوضى السياسية والاقتصادية والعقائدية وهي على الشكل الآتي:

١- أجزاء في شمالي الشام وسواحلها خضعت للإدارة البيزنطية المتمركزة في أنطاكية ومثالها مدينة اللاذقية "المدينة الوحيدة بالشام الخاضعة لسيادة الإمبراطور الإغريقي"^(٤).

٢- دولة شبه مستقلة في طرابلس^(٥) تحكم من قبل أسرة بني عمار هذه الأسرة التي أسسها القاضي أبو طالب (الحسن بن عمار) تبع لها إدارياً بقية المدن وبعض القلاع الساحلية مثل بانياس والمرقب وطرطوس وكذلك مرقية.

(١) الحموي: المصدر المتقدم، ج ١ ص ٦/ البغدادى: المصدر المتقدم، مجلد ١، ص ١٢٥.
(٢) الكورة: وتعني الجماعة الكثيرة وهي الزيادة في كل شيء وهنا تعني البقعة التي تجمع عدة قرى ووردت عند ابن شداد بأنها تعبير مستعار عن اليونانية وتعني المنطقة وهي كل صقع يشتمل على عدة قرى.
البلاذري: فتوح البلدان، دار ابن خلدون، الاسكندرية، لم يرد تاريخ الطبع، ص ١٥٦.
ابن شداد: الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، حققه دومنيك مورديل، وزاده الثقافة، دمشق، ج ١، ١٩٥٣، ص ٤٢.

(٣) أحمد رائف: أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة، ط ١٩٨٧، ص ٣٢٢.
ملاحظة: لم تقتصر التعديلات على المدن بل شملت القلاع أيضاً وهذا ما كان على سبيل المثال لا الحصر من قلعة بلاطنس التي كانت من أعمال حلب ثم تبعت لنيابة طرابلس في زمن متأخر.

ياقوت الحموي: المصدر نفسه ج ٢، ص ٥٦٦ / القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ١٤٩.

(٤) وليم الصوري: المصدر المتقدم، ج ٢ ص ٥١ / سائوتو: المصدر المتقدم، ج ٣٦، ص ٢٥٥.

(٥) طرابلس مدينة من مدن الشام الكبرى المستقلة عرفت باسم طرابلس الشام تميزاً لها لأنها واقعة على البحر الشامي وقد سميت بدار العلم نسبة إلى مدرسة بناها فخر الملك بن عمار وقد أنشأ فيها مكتبة قيل أنها كانت تحوي مئة ألف مجلد كما عرف عن قضائتها اهتمامهم بالعلم والعلماء حتى بلغت الذروة من الشهرة العلمية.

ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق دوريتا كرافولسكي، بيروت ط ١/ ١٩٨٦، ص ٢٠٢.

٣- إضافة إلى عدد من الاقطاعات والإدارات شبه المستقلة في الساحل الشامي الأعلى خاصة في جيلة^(١) وفي منطقتها الجبلية^(٢)، ومن الملاحظ أنه وجد في بعض القلاع المنيعة بسواحل الشام كان لها وضعاً خاصاً ومثالها قلعة بلاطنس (المهيلة) مقابل اللاذقية فقد تبعت بداية لحلب^(٣) لكنها عدت لدى بعض المصادر الأخرى بأنها مضافة من مضافات جيلة^(٤) أما قلاع الدعوة التي تقع على جبال النصيرية تبعت اسماً لطرابلس^(٥) لكنها خضعت فعلياً لسيطرة القوى الإسماعيلية عليها وهي سبع قلاع عظيمة الشأن منيعة أهمها:

- ١- مصياف وقديماً مصليات^(٦) قاعدة هذه القلاع تقع غربي حماة على منحدر شديد أما قلعتها فقد وجدت منذ العصر البيزنطي.
- ٢- الرصافة: الرصافة قلعة قريبة من مصياف^(٧).
- ٣- الخوابي (حصن في جبل بهراء)^(٨) شمالي طرابلس على نحو

(١) ذكرت بعض المصادر أن جيلة امتلكها بنو عمار سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م من يد الإتابكيين في دمشق أما عند أبو الفداء كان ذلك سنة ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م.

انظر ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، تحقيق د. سهيل زكار، مطبعة الديار السبعين، بيروت، ط ١، ١٩٨٣م، ص ٢٢٦ / أبو الفداء: المختصر، مجلد ١، ص ١٢٩.

(٢) ولیم الصوري: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٣٢ / د. جوني: دمشق والمملكة اللاتينية، ص ١٨.

(٣) الحموي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٥٦٦ / ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ٢٦٧.

(٤) كان لجيلة مضافات تابعة لها مثل بلاطنس وصهيون والمرقب كما كان لأنطاكية مضافات منها بغراس ويبدو حسب رأي أن هذه المضافات كانت تتعلق بالحصون والقلاع.

انظر ابن الشحنة: المصدر نفسه، ص ٢٦٧ - ٢٠٦.

(٥) ابن بطوطة: المصدر المتقدم، ص ٢٨٦.

(٦) الأنطاكي: المصدر المتقدم، ص ٢٤٤.

(٧) ابن فضل الله العمري: المصدر المتقدم، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ / القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص

١٥٢، ١٥١.

(٨) الأنطاكي: المصدر نفسه، ص ٣٥٢.

مرحلتين^(١) تبعد عن طرطوس من جهة الجنوب ١٥ ميلاً^(٢) استخدمت لأغراض حربية.

٤- القدموس: اسمها بالرومية (فالانتوان)^(٣) وقد موث نسبة إلى ملك فنيقي يدعى قدموث^(٤) تقع وسط سورية بين بانياس ومصيف^(٥).

٥- الكهف: تقع في وسط الجبال الساحلية وآثارها تعود إلى القرن ٥ هـ/ ١١م فوق صخرة بأعلى واد سحيق تبعد عن القدموس حوالي عشرين كيلو متراً^(٦).

٦- العليقة: قلعة على الجبل شمال بلدة القدموس وشرقي بانياس، بناها المسلمون وهذا ما أكده الأنطاكي حينما قال (عمر المسلمون في طرف عملهم المجاور للروم حصن العليقة)^(٧) في سنة ٤١٥ هـ/ ١٠٢٥م أقيمت لتؤمن قدرات دفاعية.

٧- المنيقة: هي قلعة بالقرب من قلعة الكهف السالفة على نحو ساعة تقع فوق جبل مرتفع.

هذا ما كان عليه الوضع حينما قدم الفرنجة الصليبيون إلى البلاد محتلين له.

(١) المرحلة هي المسافة التي يقطعها السائر نحو يوم.

انظر إلى حواشي القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤ ص ٧٩.

(٢) الميل: هو مقياس للطول كان يقاس قديماً على انتهاء مد البصر أما حديثاً فالميل يساوي ١,٦٠٩ كم أما الميل البحري فيقدر بـ ١,٨٥٢ من الأمتار.

ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ١٨١ / محمد خير أبو حرب: المعجم المدرسي، إصدار وزارة التربية، ١٩٨٥ ص ١٠١٥.

(٣) الإدريسي: المصدر المتقدم، مجلد (١)، ص ٣٧٥.

(٤) ابن الشحنة: المصدر نفسه، ص ٢٦٥.

(٥) الموسوعة السياحية: المرجع المتقدم، ص ١٤٣.

(٦) أجفان الصغير: القلاع في فترة الحروب الصليبية ودورها الاقتصادي والاجتماعي والإداري عند المسلمين في بلاد الشام، دار كنعان، دمشق ١٩٩٥م، ص ١٤٤.

(٧) الأنطاكي: المصدر المتقدم، ص ٣٨٧ - ٣٨٨.

البنية الجغرافية

البنية الجغرافية والتضريسية للساحل الشامي:

اعتاد المؤرخون عند كتابتهم لتاريخ منطقة ما أن يقدموا عليها كلاماً موجزاً في تخومها وجبالها وسهولها وبحيراتها وأنهارها وأشهر مدنها، فالتاريخ والجغرافية علمان متعاونان مكملان لبعضهما بعضاً لذلك كان لابد من دراسة هذا الشريط الساحلي جغرافياً وتضريسياً وأثر ذلك على الإنسان وكيفية تفاعله معه، وهذا الشريط يتباين مظاهر سطحه بشكل ملحوظ حيث تميز ثلاث وحدات تضريسية هامة أولها:

أولاً - الساحل:

يشكل الساحل الشامي^(١) من البحر المتوسط وحدة تضريسية في المنطقة ذات ميزات طبيعية وبشرية تجعله ذا أهمية بالغة، ويقسم الساحل إلى قسمين. شمالي متعرج تربته خصبة ومناخه دافئ ومياهه متوفرة^(٢) يبتدئ من الشمال باتجاه الجنوب من لواء اسكندرونة، وهي حصن على ساحل البحر المتوسط^(٣)، وكانت تسمى بالاسكندرية الصغرى وفي مختصر البلدان هي مدينة شرقي أنطاكية على بعد ثمانية فراسخ^(٤)، وأهم ما يميز هذا الساحل هو تعاقب الرؤوس والخلجان من ناحية الجنوب مع تعرجات واضحة كبيرة في وسط الساحل تبدو خلالها الرؤوس على شكل محدبات كما في محدب جبلة، أما الخلجان فأبرزها خليج السويدية في موضع صخري على البحر في لحف جبل^(٥) والسويدية في أكثر مناحيها عبارة عن منحدرات من الشرق إلى

- (١) يشكل الساحل الشامي الأعلى اليوم الساحل السوري فقط، وتطل سورية اليوم على ساحل يصل طوله حوالي ١٥٠ كم بدون خليج اسكندرونة بعد أن استولت تركية عليه بمساعدة انجلترا وفرنسة. فيليب رفل: الدول العربية اقتصادياتها وجغرافيتها، سعد الدين للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٨٥، ص ٤٤.
- (٢) المعجم الجغرافي لسوريا: مركز الدراسات العسكرية، ط١، ١٩٩٢م، ٤ مج، ص ٤٦٣.
- (٣) الإدريسي: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٦٥٦.
- (٤) ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ١٨٧.
- (٥) الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب، مطبعة الصباح، ١٩٩١ ص ٣١٤.

الغرب^(١)، مما ساعد على نشوء الموانئ، ورأس ابن هاني في شمال اللاذقية وتقع اللاذقية على شاطئ البحر شمال غرب سورية^(٢)، وإلى الشمال من محذب جبلة وتقعر بانياس تقع بانياس وسط جبال اللاذقية في بقعة تأثرت بحركة الصدوع المجاورة. حيث بني القسم الجنوبي منها فوق طبقة من أصل بركاني يعود إلى عصر الباستوسن (العصر الجليدي). أما القسم الشمالي منها فهو مبني فوق توضعات رسوبية أكثر حداثة^(٣)، ومما يميز الأجزاء المقعرة والخلجان هو امتداد الأرضة القارية الساحلية بعمق متدرج يصل إلى مئات الأمتار ماعدا مناطق الرؤوس والمحدبات فإنها لا تمتد سوى بضعة أمتار فقط^(٤) أما القسم الجنوبي من هذا الساحل فهو رملي قليل التعاريج لابتعاد الجبال عن البحر، ويشكل قوساً مقعرة تنتهي في خليج عكار (المشترك بين سورية ولبنان). وقبالة هذا الساحل توجد مجموعة من الجزر الصغيرة البارزة فوق سطح المياه أهمها جزيرة أرواد. وهي جزيرة صخرية في أعماق البحر^(٥) قاحلة (لا تغطيها التربة)^(٦) تبعد عن الشاطئ حوالي ٢,٥ كم^(٧)، ويحيط بها من الشمال والغرب والجنوب جزر صغيرة^(٨) أما مياه البحر المتوسط فهي دافئة نسبياً تتراوح

(١) الغزي: المصدر المتقدم، ص ٣١٧.

(٢) أثناسيو: سوريا الشمالية، مكتبة النيل، دمشق، ط ١، ١٩٩٧، ص ٥٢٧ / المطران يوسف الدبس: تاريخ سوريا القديسة، مراجعة دمارون رعد، دار نظير عبود، ١٩٩٤م، ص ٢٢٧، ٢٢٦.

(٣) الدبس: المرجع نفسه، ص ٢٢٧.

(٤) علي موسى: في ربوع سوريا (جغرافياً وسياحياً)، مطبعة الشام دمشق، ١٩٩٥م، ص ٢٩٨.

(٥) بورشارد: المصدر المتقدم، ص ١٥٧-١٥٨ / وليم الصوري: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٣٧٨، دي فكري: المصدر المتقدم، ص ١٥٠.

(٦) يقال أن تسمية أرواد تعود إلى مؤسسها أراديوس وهو ابن كنعان وكان ذلك بعد الطوفان.

انظر:

بورشارد: المصدر نفسه، ص ١٥٨.

(٧) موسى: المرجع نفسه، ص ٢٩٨.

(٨) جان بول ري كوكيد: كتابة جديدة من أرواد، تعريب عدنان البني، مجلة الحوليات الأثرية، مجلد (٨)، ط ١٩٦٨م، ص ٢٥٤.

حرارتها بين ١٧-١٨ درجة مئوية، كما أن حركة المد والجزر ضعيفة حيث يسود تيار بحري ساحلي مساير للساحل من الجنوب إلى الشمال^(١).

ثانياً السهل الساحلي :

تمتد السهول الساحلية على طول الساحل من الشمال إلى الجنوب مثل سهل اسكندرونة وسهول اللاذقية وجبلة وطرطوس مشكلة من الحت والترسيب ومن لحقيات الأنهار، وهي سهول خصبة على العموم تلي الساحل مباشرة على شكل أشرطة متقطعة نسبياً بينما تتسع في مناطق الخلجان والتعمرات، كما هو الحال في سهول اللاذقية وجبلة وطرطوس^(٢)، ويعد سهل جبلة أعرض هذه السهول وأكثرها خصوبة وأهمية يبلغ طوله حوالي ٤٣ كم. يروي نبع السن قسماً منه، أما القسم الثاني من هذا السهل فيبدأ من جنوب بانياس حتى مشارف طرطوس ويصل طوله إلى ١٨ كم. يبدأ بالتلال البركانية التي تصل إلى شاطئ البحر غرب المرقب حيث ينعدم الشريط الساحلي هنا، ثم يعود للظهور جنوباً على شكل شريط لا يتجاوز عرضه ٢ كم^(٣)، وإلى الجنوب من طرطوس يشق هذا السهل عدداً من الأدوية النهرية القادمة من السفح الغربي للجبال الساحلية مثل النهر الكبير الشمالي ونهر السن ونهر بانياس ونهر مرقية^(٤) ونهر حصين والكبير الجنوبي^(٥)، وبعد خمسة أميال تقريباً باتجاه الداخل من السهل الساحلي، نلاحظ وبشكل بادي للعيان تفسيراً في التضريس فنجد الجبال العالية.

ثالثاً الجبال الساحلية :

وهي جبال التوائية قديمة تعرضت لعوامل التعرية، ثم لحركات التصدع

(١) عادل عبد السلام: الأقاليم الجغرافية السورية، مطبعة الاتحاد، دمشق ١٩٩٠، ١٩٨٩م، ص ١٩٨.

(٢) أبو الفداء: (تقويم البلدان)، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠، ص ٣٥٧.

(٣) المعجم الجغرافي لسوريا: مركز الدراسات العسكرية، ط ١، ١٩٩٢م، ٤ مجلدات، ص ٤٦٣-٤٦٤.

(٤) نهر مرقية: نسبة إلى مدينة مرقية (مرق القديمة) شمالي طرطوس وتسمى اليوم بالشرفة. ولم يعد لتلك المدينة شأن يذكر سوى بعض الخراب المتراكم الذي حل بها- وتحصينها.

(٥) البغدادي: المصدر المتقدم، ج ٣، ص ١٢٦٠.

والانكسار، وتمتد بموازاة البحر على شكل نطاق متقطع من الشمال إلى الجنوب، وتتألف من عدة كتل يطغى على معظم أجزائها الصخور الكلسية، وبدءاً من الشمال يلاحظ أن سطحها الغربي ينحدر تدريجياً نحو السهول الساحلية. في حين ينحدر سفحها الشرقي نحو الأودية وقد قطعت الممرات والفتحات الجبلية وأودية الأنهار هذه السلاسل إلى أقسام هي:

جبل اللكام (الآمانوس):

وقد سماه اليونان قديماً بالآمانوس، ويبتدئ من آخر جبل طوروس في آسيا الصغرى وينتهي في الشمال عند مصب نهر العاصي على مقربة من السويدية^(١) ثم ينقطع هناك مقابل جبال الأرمن^(٢)، ويذكره ابن الشحنة في الدر المنتخب باسم الجبل الأسود، أما تسميته باللكام فهي تسمية قديمة وردت في الكتب القديمة^(٣)، ويقول ابن الجوزي بأن جبل اللكام هو تسمية الجبل حتى الهارونية^(٤) وبعد أن يتجاوز اللاذقية يسمى جبل بهراء وتنوخ حتى حمص وهو الحد الفاصل بين النغور الشامية والنغور الجزرية^(٥) نهايته حتى بحر القلزم (الأحمر)^(٦)، وهذه الجبال من أكثر جبال المنطقة ارتفاعاً وأشدّها وعورة. تتجه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي تضيق في الوسط، كما أن انحداراتها الغربية شديدة نحو البحر وخاصة في أقصى الجنوب^(٧)، وفي الجنوب يبتدئ من مصب نهر العاصي جبل شامخ آخر يسمى جبل الأقرع.

(١) القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ٨٠، ٨٤/ ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ٢٢١.

(٢) القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٨٩.

(٣) ابن الشحنة: المصدر نفسه، ص ٢٢١/ الكرخي: المصدر المتقدم، ص ٤٣/ سانوتو: المصدر المتقدم،

ص ٢٥٧/ ابن العديم، المصدر المتقدم، ص ٣٠٠.

المقدمي: المصدر المتقدم، ص ١٦٣.

(٤) الإنريسي: المصدر المتقدم ص ٦٥٢/ ابن الشحنة: المصدر نفسه ص ١٨٦/ لسترنج: المرجع المتقدم، ص ١٦١.

(٥) الكرخي: المصدر نفسه، ص ٤٣/ ابن حوقل: المصدر المتقدم، ص ١٥٤.

(٦) ابن الجوزي: المصدر المتقدم، ص ٩٢.

(٧) الكرخي: المصدر نفسه، ص ٤٣.

جبل الأقرع (كاسيوس)

يشكل أعلى قمة من هذه الكتل الجبلية التي تصل حوالي (١٧٦٨م) وهو أعلى جبال الشام "وفيه الكثير من العيون والهار"^(١) كما يقول ابن بطوطة الذي زار المنطقة^(٢) ومن هذا الجبل وإلى الجنوب سلسلة جبلية تنتهي على مقربة من دير الحميرا وهذه السلسلة تعرف باسم جبال النصيرية نسبة إلى أتباع محمد بن نصير مولى الإمام علي بن أبي طالب الذي زارها في أواخر القرن ٣هـ/٩م وكان هؤلاء يعيشون في منطقة جبلية عرفت بهم كما عرفت هذه الجبال^(٣) اليوم بجبال العلويين^(٤) وقديماً كانت تعرف بجبال بهراء^(٥) وتتوخ^(٦).

تحتفظ هذه الجبال بغاباتها حيث تغطيها أشجار الصنوبر والسنديان^(٧) وتتميز بترية حمراء خصبة غنية بغطائها النباتي وهذا ما عبر عنه أبو الفداء بقوله: "ومعظم تربتها أحمر اللون فهي تفرح النفس"^(٨) ولكن الملفت للانتباه هو أن ابن الجوزي حينما تحدث عن هذه الجبال تحدث عنها كلها تحت اسم (جبل لبنان)

(١) الهار: وتعني الجرف الصخري المتكون بفضل عوامل التعرية وتعني في المعجم الرائد البناء الذي انشق ولم يسقط أي المتصدع الآيل للسقوط، وقد وردت هذه الكلمة بنفس المعنى في سورة التوبة، الآية ١٠٩، في القرآن الكريم.

(٢) ابن بطوطة: المصدر المتقدم، ص ٢٩٤.

(٣) القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٣، ص ٢٤٨، ٢٥١ / أبو الفداء: المصدر المتقدم ص ٣٢٢.

فيشر: الأراضي الساحلية للشرق الأدنى، ترجمة خير الله عمر الشريف، مطبعة دار الإيمان، دمشق، ١٩٦٥ - ١٩٦٦ ص ٨.

(٤) يقول البعض بأن هذه التسمية أطلقها الفرنسيون على المنطقة حينما استعمروها وللمزيد.

انظر فيليب حتي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٢١٩.

(٥) البهراء: قبيلة يمانية من قضاة وفخذ من أفخاذ جذام، هاجرت إلى الشمال نحو الفرات ثم إلى حمص واعتنقت المسيحية.

قلعة الحصن: دار طلاس، دمشق، ط ١٩٩٠م، ص ١٧.

(٦) ابن الجوزي: المصدر المتقدم، ص ٩٢.

(٧) دلال جوهر: جغرافية العالم الإسلامي، مطبعة الصباح، دمشق، ط ١، ١٩٩٢، ج ١، ص ٢٠٤.

(٨) أبو الفداء: تقويم، ص ٣٣٢.

باعتبارها سلسلة واحدة دون ذكر للتسميات الأخرى^(١). وتتميز هذه الجبال عموماً بسفوح شديدة الانحدار وخاصة السفوح الغربية المطلّة على كل من مدينتي اللاذقية وطرطوس ويتدرج ارتفاع هذه السلسلة الجبلية من الجنوب نحو الأعلى حتى أنها تأخذ مظهراً تلالياً إلى الشمال من حمص حتى تصل إلى أقصى ارتفاع لها في شرقي صانفة لتتخفض بعدها بشكل سريع باتجاه الوادي الكبير الشمالي وتتخذ هذه السلسلة شكل كتل جبالية متعددة خلفتها عوامل التعرية المائية التي كانت السبب الرئيسي في تشكيل هذا التضريس الواضح^(٢) وتنتهي هنا لتبتدئ بعدها سلسلة جبال لبنان.

الإقليم النباتية والحيوانية لهذا الإقليم

كما سبق وأسلفنا فإن الساحل الشامي الأعلى يؤلف وحدة طبيعية يتخللها بعض التنوع بمياهه ونباتاته وحيواناته

ومن هنا يمكننا تقسيم هذا الإقليم إلى أقاليم نباتية ثلاثة:

أ. إقليم الأشجار والغابات الزراعية في الجبال:

وتتميز بغابة دائمة الخضرة تنمو على السفوح المواجهة للبحر حتى ارتفاع ألف متر وأهم أشجارها الزيتون والغار والسنديان أو أنها تشكل غابة مخروطية كأشجار الرز والصنوبريات أو اللوزيات والرمان والزيزفون وتتحول إلى أعشاب الاسبس المتميزة بأزهارها ورائحتها العطرية كالأقاي وشقائق النعمان كلما اتجهنا نحو الداخل^(٣) أما بالنسبة للحيوانات التي تعيش في هذا الإقليم آنذاك فلم تذكر لنا المصادر الشيء الكثير عنها لكن أهمها الذئب والثعلب والأسود وغير ذلك من أنواع الوحوش المختلفة^(٤) وعلى ذكر الأسود والسباع تذكر لنا

(١) ابن الجوزي: المصدر المتقدم، ص ٩١.

(٢) محمد غلاب: الساحل الفينيقي وظهره في الجغرافيا والتاريخ، بيروت، ط ١، ١٩٦٩، ص ٣٠٠.

(٣) كرد علي: خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢، ١٩٦٩م، ج ٦، ج ٤، ص ١٧٢.

(٤) القلقشندي: المصدر المتقدم، ص ٩١.

إحدى المصادر قصة تدل على وجودها في منطقة اللاذقية مفادها "كان عندنا أخوان من أصحابنا يقال لهما بنو الرعام رجالة يترددون من شيزر إلى اللاذقية واللاذقية لعمي عز الدولة أبي المرهف نصر، وفيهما أخوه عز الدين أبو العساكر.. قالوا: خرجنا من اللاذقية فأشرفنا من عقبه الميدة. وهي عقبه عالية تشرف على قاعتها من الوطا فرأينا السبع وهو رابض على نهر تحت العقبة... إلخ" (١) هذا بالإضافة إلى الطيور الجارحة كالصقور والبواشق إلى جانب طيور الباز في منطقة (قرب القدموس) حيث يذكر لنا أسامة بين منقذ قصة حول إعداد المصائد لهذه الطيور بالذات تقول:

"إن ابن الأحمر بالعلاء، أحضر قوماً من أهل الجبل القريب من شيزر من أهل بشلي (٢) تحدث معهم في أن يعملوا في مواطنهم (مسايد للزاة) ووهبهم وكساهم... إلخ" (٣) وهذا إن دل/شيء، فهو دليل على وجود مثل هذا النوع من الطيور بالمنطقة أو مروره بها.

ب- إقليم النباتات في السهول الساحلية:

تنمو في هذا الإقليم الأعشاب والرياحين والزنايق، أما حيواناته فكثيرة، وهي آكلة للأعشاب كالخنزير والغزال والسنجاب، وبعضها الآخر من آكلات اللحوم كالذئب والضبع وابن آوى، فضلاً على أنواع عديدة من الطيور المستوطنة، ومنها الحمام المستخدم في البريد، وأنواع أخرى من طيور الماء المختلفة الأنواع (٤).

ج- إقليم المتوسطي الداخلي (السهوب):

يقع هذا الإقليم خلف الجبال الساحلية، ونظراً لاتساعه وتنوع تضاريسه فإنه

(١) ابن منقذ: الاعتبار من خلال الموسوعة الشامية، ج ١٢، دار الفكر، دمشق، ص ٢٩٤.

(٢) بشلي: قرية من قرى جبال العلويين تابعة لناحية عين الشرقية في منطقة جبلة.

(٣) ابن منقذ: المصدر نفسه، ص ٢٩٤.

(٤) القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ط ٩١ - ٨٨.

يضم الشجيرات الحراجية (الماكي)، وهناك الأشجار التي تنمو حول المجاري المائية "وينبت في السهوب وحوالي البحيرات العذبة انقصب والصفصاف وزهر اللينوفر الأصفر المزهر في فصل الربيع حتى تسير الماء عن آخره بورقه وزهره"، كما تنمو فيه الأشجار الحولية^(١).

الثروة الباطنية والمعدنية:

احتوت أراضي هذه المنطقة على ثروات باطنية عديدة منها ما استثمر بشكل بدائي، ومنها ما لم يستثمر أهمها:

الملح: وجد في مواضع كثيرة^(٢) بنوعيه الصخري والنهري.

الحديد: احتوت جبال اللاذقية على كميات كبيرة من هذا المعدن "وفي جبال اللاذقية معادن حديد كثيرة، وفيها رصاص ممزوج بالفضة وخشب فحمي ونيكل، وكان في القديم في ناحيتين البائر وبو جاق معدن حجر الصفار يستخرج منه في السنة ٢٥٠٠ طن ولم يبق له أثر"^(٣).

امتاز معدن الحديد بليونته وسهولة طريقه واستخراجه، فكان يصدر قسم منه إلى دمشق. ومصر من أجل صناعة الأسلحة^(٤).

ويوجد النيكل: في جبل يبعد ثلاثين كيلو متراً عن اللاذقية^(٥).

أما الذهب: توضع خاماته على ضفاف العاصي فيما يلي أنطاكية^(٦) كما وجدت هذه الخامات بشكل أقل في أرجاء أنطاكية^(٧).

(١) القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٨٧.

(٢) كرد علي: المرجع المتقدم، ص ١٦٣.

(٣) كرد علي: المرجع نفسه، ص ١٦١.

(٤) ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ١٩٤.

أحمد الأوتاني: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في شمال بلاد الشام في القرن ١٠ هـ، دمشق، ١٩٩٠م، ص ٧٥.

(٥) كرد علي: المرجع نفسه، ص ١٦٢.

(٦) الغزي: المصدر المتقدم، ص ٥٠.

(٧) كرد علي: المرجع نفسه، ص ١٦٣.

الفضة: وتكثر في جبال اللاذقية^(١)، كما وجدت خامات الفضة في مصياف، وعلى ضفاف العاصي فيما يلي أنطاكية "ومعدن رصاص فضي ومعدن إثمَد وحجر الكحل ومعدن فحم. ومعدن الطفال المعروف بالبيلون"^(٢).

المرمر: دلت المصادر على وجوده في اللاذقية منذ العصر العباسي، ودليل ذلك أن الخافية المعتصم استخدمه في بنائه لمدينة سامراء. واستمر العمل في مقالعه حتى القرن ٧هـ/١٤م^(٣).

الزئبق: وجد في أرض أنطاكية، كما وجد بها معدن الرصاص وعثر عليه أيضاً في صافيتا^(٤).

الرخام: من مواد البناء التي كانت تحتويها المنطقة إلى جانب أحجار البناء التي توافرت في معظم مناطق شمالي بلاد الشام ومعاقله، كما في اللاذقية "إذ أن العسكر شوها عمارتها بسبب ما نقلوه منها من الرخام إلى الشام"^(٥).

ويقال: إن المعتصم لما شرع ببناء مدينة سامراء "أشخص له البناؤون والنجارون والحدادون وغيرهم، وسبق إليهم الساج وسائر الخشب. من البصرة، وما والاها من بغداد. وأنطاكية وسواحل الشام وسبق إليه الرخام والعمد وأقيمت باللاذقية دور صناعة الرخام"^(٦).

مما سبق يمكننا القول: إن معظم هذه المعادن لم تستثمر كلها بالشكل المطلوب باستثناء الملح والرخام والأحجار والحديد، الذي كان ضرورياً من أجل صناعة السيوف والأسلحة اللازمة في هذه الحقبة الهامة، وهي لم تتوافر

(١) الأوتاني: المرجع المتقدم، ص ٧٦.

(٢) كرد علي: المرجع المتقدم، ص ١٦٣.

(٣) الأوتاني: المرجع نفسه، ص ٧٦.

(٤) كرد علي: المرجع نفسه، ص ١٦٣.

(٥) أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين، حققه أحمد اليبسومي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١م، ج ٢، ص ١٨٩/الأصفهاني: الفتح، ص ٢٣٩.

(٦) الحميري: الروض المعطاء في خبر الأقطار، حققه د. إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط ١، ١٩٧٥، ص ٥٠٧.

بشكل كبير، وبالكاد تفي حاجة أهلها منها لذلك لم يلجأ إلى تصديرها.

الثروة المائية:

تعد الثروة البحرية من الموارد الطبيعية الهامة، وكان صيد الأسماك من أهم مصادر هذه الثروة والبحر المتوسط أهم مراكزه إلى جانب البحيرات والأنهار^(١).

١- الأسماك:

وجدت شكل كثيف وكانت:

إما بحرية تصطاد من شاطئ البحر المتوسط أو نهريّة من نهر العاصي^(٢)، وأنهار الساحل أو بحيرية من بحيرة حمص (أفامية) التي اشتهرت بسمك السلور وبها بحيرتان يصاد فيهما السمك^(٣)، وكذلك في بحيرة أنطاكية.

والأسماك مصدر غذائي هام للسكان إلى جانب أن صيد الأسماك يعد حرفة أساسية لسكان المدن الساحلية، وإلى جانب الثروة السمكية وجدت مصائد الإسفنج الطبيعي^(٤) الذي يعد من أجود أنواع الإسفنج في العالم كله. والذي اشتهرت به كل من مدينتي اللاذقية وجبلة وجزيرة أرواد^(٥)، كما استخرج منها المحار والأصداف المستخدم في صباغة الأقمشة، والشيء نفسه فعله الأرواديون الذين

(١) المعجم الجغرافي: المرجع المتقدم، مجلد (٢)، ص ٦٣.

Space image Atlas, Gors, Syria, General organization of Remote sensig, printing, colordruk, salzburg, Austria, DAMAS, ١٩٩٦, p. ١٣٧

(٢) ميخائيل السوري الكبير: روايات ميخائيل السوري الكبير من خلال الموسوعة الشامية، تأليف د. سهيل زكار، ج ٥، دار الفكر، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٩ م. ص ١٥٧

(٣) القلقشندي: المصدر المتقدم، ص ٨٧ - ٨٨.

(٤) الإسفنج: حيوان بحري ينمو في القاع يكثر في البحار الدافئة، وله أنواع كثيرة مختلفة الحجم والشكل. واللمس، وأهم منابته قاع البحار.

للمزيد انظر: الموسوعة الجغرافية للوطن العربي: كمال مورييس شربل، دار الجيل، بيروت، ط ١ ١٩٩٨ ص ٣٦.

(٥) Syria, General organization, p. ١٣٧

كانوا يصطادون الأصداف التي يستخرج منها الأرجوان أو صناع الأرجوان.
أو من أجل التجارة بالأقمشة الأرجوانية المصبوغة بها^(١).

(١) كوكيد: المرجع المتقدم، ص ١٩٣-١٩٤.

موارد
المنطقة الاقتصادية

١- زراعة

٢- حرف

٣- تجارة

٤- المياه

لا نستطيع فهم التاريخ السياسي للحروب في المنطقة ما لم نتعرف على التاريخ الاقتصادي والحاجات المادية والتجارية لهؤلاء المستعمرين من أجل ترسيخ أقدامهم في المنطقة هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى. فإنه ليست هناك دراسة متخصصة واضحة أو معلومات كافية عن الحياة الاقتصادية المعاشة في هذا القرن بالذات إلا ما يمكن استخلاصه في ثنايا كتابات المؤرخين والجغرافيين والتي يتضح فيها أن الاقتصاد كان يقوم على دعامتين أساسيتين هما الزراعة والتجارة بالإضافة إلى الصناعات التي اشتهرت بها المنطقة، وسأقوم بدراسة كل منهما على حدة.

الزراعة:

يعد إقليم بلاد الشام من الإقليم الغنية بمعالمها ومظاهرها الطبيعية. "وهو إقليم مبارك، بلد الرخص، والفواكه والصالحين، كلما علا منه نحو الروم أي باتجاه الشمال، كان أكثر أنهاراً وثماراً وأبرد هواءً... إلخ" (١) مما ساعد على نمو شتى أنواع المحاصيل الزراعية، أما زروعه فغالبيتها على المطر (بعلي)، ومنها ما هو على سقي الأنهار (مروي) وتحتل الزراعة مركزاً هاماً في هذا الإقليم، فهي مصدر للغذاء وللمواد الأولية الخام الضرورية في الصناعة المحلية، كما تعد مورداً للربح والإتجار بالمحاصيل لا سيما لدى سكان السهول الساحلية والتلال المطلّة عليها وحتى أواسط السفوح الجبلية بينما تقتصر أعالي الجبال الساحلية بزراعتها كقمة جبل الأقرع ذات الطبيعة الكارستية التي تجعل الأرض جرداء ووعرة فقيرة بالتربة رغم كثرة أمطارها.

مقومات الزراعة الناجحة:

وللزراعة الناجحة مقومات أساسية يجب توافرها. أهمها المناخ والمياه (٢)، والتربة الخصبة، وجميعها متوافرة بهذا الإقليم.

(١) كرد علي: خطط الشام، ج ٤، ص ١٩٨.

(٢) انظر الفصل السالف عن مصادر المياه المتوفرة.

١ - المناخ: أما المناخ فمناخه مناخ متوسطي رطب. ماطر شتاءً وحار جاف صيفاً، يلائم شتى أنواع المزروعات^(١).

٢- التربة الخصبة: تمتاز تربة البحر المتوسط بأنها تربة أصلية جاء لونها الأحمر الأمغر من أكاسيد الحديد، ويتحول هذا اللون إلى الأسمر إذا ارتفعت فيها نسبة أكاسيد المنغنيز، وتتنوع هذه التربة تبعاً لتنوع التضاريس بدءاً من الشاطئ والشريط الساحلي باتجاه الداخل حيث تظهر فيها التربة الطينية والحمراء والحصوية والسوداء الغنية بالمواد العضوية (التربة البازلتية) الموجودة جنوب بانياس، في حين تنتشر العتبة البازلتية على مجرى نهر العاصي، ونجد التربة اللحية تمتد على طول الشريط الساحلي وعلى أطراف مجرى نهر العاصي وحول بحيرة العمق^(٢)، وتعد هذه التربة بشكل عام من أخصب الترب "ومعظم تربتها أحمر، فهي تفرح النفس"^(٣).

إلا أن تنوع تربتها واختلافها ساعد على قيام زراعات متعددة حيث نجد الحمضيات على الترب الرملية في السهول الساحلية، وعندما ندخل قليلاً باتجاه الداخل نشاهد أشجار الفاكهة والخضروات المتنوعة في الأراضي الأقل والأراضي الأكثر طميًا، وحينما تكون التربة أكثر جفافاً نجد حينها الحبوب والمحاصيل العلفية وأشجار الزيتون واللوز والجوز^(٤).

المحاصيل الزراعية وأهم المزروعات:

انتشرت في هذه المنطقة الكثير من المحاصيل الزراعية الهامة مثل القطن، والفسق، والقمح، والحمضيات.. إلخ.

(١) المعجم الجغرافي: المرجع المتقدم، ص ٤٦٤.

(٢) الأوتاني: المرجع المتقدم، ص ٤٥.

(٣) أبو الفداء: تقويم، ص ٣٢.

(٤) فيشر: المرجع المتقدم، ص ٨.

ففي جبال النصيرية كان يزرع القطن^(١)، والفسق بكثرة إلى درجة أن عدت الشام موطن الفسق الأصلية من خلال وجوداً شجاره الهرمة في قرية - عين التينة-^(٢)، كما اشتهرت مزارع القطن في جوار اللاذقية^(٣) بالإضافة إلى زراعة الفواكه المختلفة أهمها الإجاص وأكثر ما يزرع بها القطن الذي يحمل في المراكب إلى سبته فيعم بلاد المغرب، وقد خضب أرضها بالفسق الكثير وقد خص بالثمر المعروف بالإجاص ماله نظير ولا يستطيعون توصيله إلى حلب لأنه يستحيل الماء في الطريق^(٤) وتنتشر أيضاً زراعة الحبوب وأهمها القمح لأنه مصدر الغذاء الرئيسي للسكان زرعت سنابله تحت شجرة الزيتون، وكانت هذه الزراعة تتم بعلأ وسقياً^(٥) وبها من الفواكه والحبوب كل حسن كثير موجود^(٦).

أما الحمضيات: فيتم زراعتها في سواحل الشام حيث كان لها حصة كبيرة في تلك الزراعات كما في صهيون^(٧) وتعد الحمضيات من أهم الأنواع المزروعة في هذه البيئة المتوسطية ذات الساحل الدافئ المناسب لهذه الزراعة وهي على أنواع متعددة منها الأترج (تفاح فارس) والليمون والكباد والنارنج في السهول الساحلية^(٨) وإلى جانب زراعة الحمضيات وجدت زراعة هامة أخرى هي:

(١) أدخل العرب مزارع جديدة إلى المنطقة منذ القرن ٤هـ/١٠م تقريباً أهمها القطن والحمضيات حيث كثرت زراعتها بالقرب من مصادر المياه المتوفرة.

(٢) كرد علي: خطط الشام، ج ٤، ص ٨٣.

(٣) زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب، دار الكتب اللبناني، ١٩٥٨، ص ١٧٧.

(٤) أبو الفداء: المصدر المتقدم، ص ٣٢.

(٥) الأوتاني: المرجع المتقدم، ص ٦٣.

(٦) الإدريسي: المصدر المتقدم، ص ٦٤٤.

(٧) أبو الفداء: تفويم، ص ١٣٣/ الإدريسي: المصدر نفسه، مجلد (٢) ص ٣٥٥.

(٨) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩٠.

زراعة الكرمة والنخيل:

اشتهرت المنطقة بهذه الزراعة لأن التربة والمناخ فيها يناسبان هذا النوع من المزروعات أما التربة التي تناسب زراعة هذه الشجرة فهي على عدة أنواع. فالعنب الأبيض يناسبه التربة التي يضرب لونها إلى السواد والحمرة مع وجود الرطوبة في التربة، والعنب الأحمر والأصفر يخصبان في الأرض الرقيقة. والعنب الذي فيه شدة توافقه التربة الرطبة، أما الغريب في ثمار هذه الفاكهة فهو لكل نوع منها ما يكون فيها عصيره على لون أرضه لا على لونه^(١).

لقد كانت زراعة الكرمة شائعة في بلاد الشام ولم تخل منها جبال النصيرية، فهي تزرع بعلاً، وتؤكل الفاكهة طازجة أو يصنع منها زبيب أو دبس أو خل نبيذ^(٢)، كما زرعت الكرمة بظاهر حمص "على بعد ميل يجري نهر المقلوب، وهو نهر الأرنت ولهم عليه حسنة وكروم"^(٣)، وللكرمة أصناف مختلفة من أنواعها (عنب الشيخ وأصبع الست)^(٤). أما التين: فاشتهرت أنطاكية بزراعته على قراها ووصف أبو عمر بن أبي داود الطرسوسي في قصيدته الأعلام أثناء خروجه من طرسوس سنة ٣٠٨هـ/٩١٨م عن خيراتها قائلاً:

كثيرة الخيرات والثمار وتينها القلار في الأشجار

كما اشتهرت بزراعته حصن التينات القريب من المصيصة^(٥)، وربما جاءت

(١) أحمد الشنتاوي: المعارف الإسلامية، دار المعرفة، بيروت، لم يرد تاريخ الطبع، ص ٤٠٢ - ٤٠٣.

(٢) كرد علي: المرجع المتقدم، ج ٢، ص ١٨.

(٣) أبو الفداء: المصدر المتقدم، ص ٣٤١.

(٤) كرد علي: المرجع نفسه، ص ١٨٠.

(٥) المصيصة: من بناء الروم تقع على نهر جيحان فتحها عبد الله بن الخليفة الأموي عبد الملك وبنى حصنها، كما بنى فيها مسجداً وكانت من ثغور الإسلام.

القزويني: آثار البلاد، ص ٥٦٤/ ابن الفقيه: البلدان، ص ١٦٢/ لسترنج: المرجع المتقدم، ص ١٦١.

تسمية هذا الحصن نسبة لهذه الشجيرة^(١)، وغطت أشجار التين أيضاً سهول طرطوس^(٢) بالإضافة إلى تلك الزراعات وجدت زراعة أخرى هي:

قصب السكر:

يعد السكر أهم المنتجات الغذائية الرئيسية نظراً لحاجة السكان الماسة إليه، انتشرت مغارسه في المنطقة بكثرة^(٣)، واستفيد من عصيره في عمل المربيات والفواكه المحفوظة وغيرها، كثرت زراعته في مدينة بانياس والمرقب كما استدل على زراعته بمدينة مرقية من خلال وجود معصره للسكر "حيث وجدت معصرة للسكر إلى خارجها من جهة الشرق"^(٤)، وهناك شريط طويل لزراعته، امتد على طول الساحل بدءاً من أنطاكية باتجاه الجنوب وهو من الزراعات المتميزة.

زراعة الزيتون:

"وفيه الغاية من الكثرة، ومنه يعتصر الزيت وينقل إلى أكثر البلاد"^(٥). كثرت زراعته في كل من طرطوس^(٦) وصافيتا وجبله واللاذقية والباير في أرباض^(٧) أنطاكية والسويدية والقصير.. إلخ. وأعمها في اللاذقية الخضيري والظمراني وقلب الطير^(٨).

(١) الحموي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٦٨.

(٢) بورتشارد: المصدر المتقدم، ج ٣٩، ص ١٥٧.

(٣) النقاش: المرجع المتقدم، ص ٧٦.

(٤) الإدريسي: المصدر المتقدم، مجلد ٢، ص ٣٧٥.

(٥) القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ١٩٠ / ابن فضل الله العمري: المسالك دولة المماليك الأولى، ص ٩٢.

(٦) بورتشارد: المصدر نفسه، ج ٣٩، ص ١٥٧ / كرد علي: خطط، ج ٤، ص ٧٩.

(٧) الربض: ربض الناحية من الشيء، وجمعها أرباض، وربض المدينة (أي ما حولها).

(٨) كرد علي: المرجع نفسه، ص ١٧٩.

وعموماً نجد أن معظم المدن الساحلية، وجبالها غنية بالغطاء النباتي وبالأنهار والعيون العذبة، وهذا ما يميزها عن غيرها من المدن الداخلية فقلما نجد ذكراً لها في كتابات المؤرخين والجغرافيين دون ذكر لخصوبتها وأعينها وزراعتها، نظير ذلك نجده عند ابن بطوطة في حديثه عن الجبل الأقرع "وفيه العيون والهار"^(١)، وكذلك لما تحدث الإدريسي عن المرقب قال بأنها "ذات أشجار. وفواكه وحمضيات كثيرة، ويزرع بها قصب السكر وبلنيس" بها من الفواكه والحبوب كل حسن كثير"^(٢)، وغيرها من الأمثلة الكثير الكثير.

وأخيراً يمكن القول: بأن الزراعة كانت المظهر الوحيد والمميز الذي لم يتغير في الشرق حتى الآن. فلا يزال السكان يستعملون الآلات الزراعية الفينيقية القديمة^(٣)، علماً بأن الزراعة قبل قدوم الصليبيين كانت متعطلة بسبب الأوضاع السياسية المتردية في المنطقة على العموم بسبب وجود السلاجقة التركمان الذين تمكنوا خلال ثلاث قرن من تدمير بلاد الشام، وهذا الوضع انعكس على البلاد وهجر الكثيرون منهم الأراضي وتعطل النشاط الزراعي والصناعي والاقتصادي وكانت البلاد في حالة في النداعي والإفلاس.

وإلى جانب الزراعة عرف أهالي المنطقة حرفة الرعي وتربية الحيوان.

الرعي وتربية الحيوان:

تعد هذه الحرفة من الحرف القديمة الهامة، مارسها السكان إلى جانب الزراعة، ولا يزالون بسبب غنى المنطقة خصوصاً لما تقدمه من موارد غذائية، أو ما تقدمه من مواد أولية لازمة في الصناعات الأساسية.

إن مناطق الرعي هي المناطق التي تتلقى أمطاراً متوسطة، أو قليلة لا تكفي لقيام زراعة مستقرة، وتختلف المراعي باختلاف كميات الأمطار وبالتالي

(١) ابن بطوطة: تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، حققه د. عبد الهادي التازي الرباط، ١٩٩٧، ص ٢٩٤.

(٢) الإدريسي: المصدر المتقدم، ص ٣٥٧/ ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص ٢٨٦.

(٣) أحمد أمين: ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٤٥، ص ٢٤٧.

تختلف معها أنواع الحيوانات باختلاف مراعيها، فإذا كان المطر غزيراً والعشب
نضيراً ساعد ذلك على قيام تربية الماشية مثل الأبقار والأغنام^(١) التي تشكل
مورداً اقتصادياً هاماً للرزق، أما الماعز فيلائمها الجبال العالية^(٢). هذا إلى جانب
الغزلان، والأرانب^(٣)، كما وجدت حيوانات الجر والحمل والسفر ومن
أشهرها:

١- الخيول:

لا سيما الخيول العربية الأصيلة "وهي مستقيمة للرأس، متوسطة الجثة، لها
رأس مربع، ووجه مسطح، رشيقة القوام مع شعر لامع"^(٤)، والتي ذاعت شهرتها
لجمالها، وسرعة حركتها فاستخدمت للركوب، والنقل، وازدادت أهميتها في
الحروب. إذ أنها حظيت برعاية فائقة من قبل المسلمين والفرنجة على السواء،
فبنيت اصطبلات خاصة بها، لاسيما في القلاع ومثالها (قلعة بغراس) التي
احتوت على مستودعات لحفظ الأعلاف اللازمة لها، كما استخدمت في السباقات
التي كانت تعد نوعاً من أنواع التسلية لدى الأمراء والولاة وكبار رجال الدولة
وقت السلم^(٥).

٢- الجمال:

وجد الكثير منها في سهول طرطوس "وفي هذا السهل وفره من الجداول
والمراعي، لهذا يسكن التركمان والمدنيون والبدو هناك في الخيم، وزوجاتهم
وأولادهم وقطعانهم وجمالهم، ولقد رأيت هناك قطيعاً كبيراً من الجمال، وأعتقد
أنه كان هناك عدة آلاف من الجمال"^(٦)، ثم الانتقال على ظهورها وحملت

(١) ابن العديم: زبدته، من خلال الموسوعة، ج ٦، ص ٩.

(٢) كرد علي: المرجع المتقدم، ج ٤، ص ١٨٧-١٨٨.

(٣) القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ٩١.

(٤) كرد علي: المرجع نفسه، ص ١٨٣.

(٥) كرد علي: المرجع نفسه، ص ٦١٤.

(٦) بورتشارد: المصدر المتقدم، ج ٣٩، ص ١٥٧/سانوتو: المصدر المتقدم، ج ٣٨، ص ٢٦٦/ أنا
كومينا: الألكسياد من خلال الموسوعة الشامية، ج ٦، دار الفكر، دمشق ١٩٩٥، ص ١٦٤.

بمختلف أنواع البضائع^(١)، فقد كان الانتقال بواسطة الحيوانات أيسر من الانتقال بالعربات، لاسيما وأن حوافر الدواب كانت أفضل، وأكثر ملائمة لو عورة الطرق الجبلية^(٢) التي تكثر في المنطقة، لكن هذا لا يعني عدم معرفتهم الطرق المعبدة.

٣- الحمير :

كانت كثيرة، مختلفة الأنواع، ويعد الحمار حيوان الفقراء يستفاد منه في الركوب، وفي استعمالات أخرى^(٣).

٤- البغال :

صغيرة الحجم لكنها قوية عملياً، استخدمت في الحرث، كما أنها حملت أثقالاً على ظهرها في المناطق الجبلية الوعرة المسالك، هذا إلى جانب قيامها بجر المركبات الضخمة المحملة ببضائع أو أسلحة أو حجارة كما استخدمت لنقل البريد والخرايط^(٤) وكذلك لحمل الأمتعة^(٥)، أما الفرنجة فقد استعملوها استعمالاً آخر من أجل سحب العجلات التي ترفرف من عليها أعلامهم، وهذا ما أشار إليه ابن شداد قائلاً: "وعلم العدو مرتفع على عجلة هو مغروس فيها، وهي تسحب بالبغال، وهم يذبون عن العلم، وهو عال جداً كالمنارة، خرقة بيضاء، ملمع بحمرة على شكل الصليبان..."^(٦) وإلى جانب هذه الحيوانات قام السكان بتربية الطيور الداجنة كالدجاج والإوز والأرانب والحمام^(٧) بأنواعه إذ كانت تربيته

(١) البدر العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان من خلال الموسوعة الشامية، ج ٢٤ دار الفكر،

دمشق، ١٩٩٥م، ص ٢٢٥.

(٢) كاهن: تاريخ العرب و الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، ط ١

١٩٧٢م، ص ٢٢٥.

(٣) كرد علي: خطط، ج ٤، ص ١٨٣.

(٤) ابن حوقل: المصدر المتقدم، ص ١٨٣/ كرد علي: المرجع نفسه، ص ١٨٨.

(٥) الحموي: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٣١٨.

(٦) ابن شداد: النوادر، ص ١٤٩.

(٧) القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٨٨.

هواية محببة لدى الكثيرين من الناس العامة والطبقات الأخرى على اختلاف مستوياتها الاجتماعية، وأكثرها ما اهتم به الأمراء في المراسلة، والبريد، فاقتنوا أجودها وحسنوا سلاتها^(١). لا سيما الحمام الهوادي (المناسيب) التي اقتناها نور الدين زنكي والسلطان صلاح الدين الأيوبي من بعده في سائر البلاد لسرعة وصول الأخبار "وكانت الأخبار تأتيه لوقتها لأنه كان له في كل ثغر رجال همرتبون، ومعهم في حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا أرادوا أو سمعوا أمراً كتبوا لوقتته وعلقوه على طائر وسرحوه إلى المدينة التي يوجد فيها في ساعته، فنقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد التي تجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه فأنحفظت الثغور بذلك"^(٢).

(١) الغزولي: مطالع البدور في منازل السرور، علاء الدين النمشقي، القاهرة، ١٣٠٠هـ، ج ٢، ص ٢٦٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣٧٠/ العيني: المصدر المتقدم، ج ٢٤، ص ١٢٩، ٣٣٦.

الصناعة (الحرف)

شغلت الحرفة حيزاً هاماً في مناحي الحياة المختلفة للمدن الساحلية الشامية نتيجة لتوافر المواد الأولية اللازمة لها المستخرجة من سطح أرضها وبطنها والذي يتوقف عليها نجاح هذه الصناعة أو تلك.

فنهضت الصناعة ونشطت بعض الصناعات القائمة على الإنتاج الزراعي لأنها الأساس الذي يعتمد عليه في تصنيع المنتجات اعتماداً كلياً. لكن هذا لا يعني أنه لم يكن هنالك صناعات أخرى هامة خلال هذه الحقبة، فالحاجة أم الاختراع وهي التي تدفع بالإنسان لصناعة أدواته ومستلزماته بنفسه حيث تعددت أنواع تلك الحرف وفي مقدمتها:

الصناعات الغذائية والنسيجية:

أ. صناعة الزيت:

المستخرجة من ثمار الزيتون الذي تكثر زراعته في المنطقة مما جعل الحصول عليه سهلاً وبالتالي المصدر الرئيسي لصناعة الزيت وما من قرية من قرى هذا الإقليم إلا شوهد فيها معصرة حجرية لعصر الزيتون، فبعد قطف الثمار عن طريق هز الأشجار بالعصي يقوم الفلاحون بجمع المحصول، ثم يرسلونه إلى المعاصر التي كانت تدار بواسطة الإنسان أو الحيوان ويشرف عليها المعصراني وبعد أن يتم عصر الزيتون يأتي الفلاحون ويستلمونه زيتاً خالصاً^(١) نقياً كان الزيت يصدر إلى البلاد العربية والإسلامية بكميات كبيرة ويعرف زيتها بالركابي " لأنه كان يحمل على الإبل ويضرب بالمثل في الصفاء والنظافة"^(٢).

ب. صناعة السكر وعصيره:

تعد هذه الصناعة من الصناعات الغذائية إذ كان يستخرج من قصب السكر

(١) ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب من خلال الموسوعة الشامية، ج ١٦، دار الفكر، ١٩٩٥م ص ٢٢.

(٢) الشامي: لطائف المعارف، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار أحياء الكتب العربية، ص ١٥٦-١٥٧.

والتي استدل على وجودها كثرة معاصره^(١)، ويعرف عن هذه الصناعة وآلية عملها جاك دي فترى قائلًا: "أنا رأيت الكثير منه في هذه الأجزاء في قصب السكر وقصب السكر هو قصب ملئ بالعسل ويحصل الناس عليه على تحضيره على درجة عالية من الحلاوة بوساطة سحق القصب بالضغط ثم يتم تكثيف العصير على النار وبذلك يصنع الناس أولاً نوعاً من العسل ثم سكرًا ويدعى هذا القصب CAN- nameles وهذه الكلمة مكونة من كلمة قصب mel- canna أي عسل لأن هذا القصب يشبه قصب البوص أو النباتات النامية"^(٢).

ج. مه الصناعة الغذائية الرئيسية (الطحينة):

يعد الطحين من المصادر الغذائية الرئيسية للسكان الذي ينتج من طحن الحبوب (كالقمح) الذي تنتشر زراعته في المنطقة، فوجود هذه الزراعة يتطلب طحنها بعد جمع المادة وذلك يحتاج إلى المطاحن التي كانت "عجارة عن أحجار رحي يديرها الماء بقوة اندحاره"^(٣).

بعض هذه الطواحين ركبت على مياه الأنهار كالعاصي مثلاً حيث تعمل وتطحن إذا كان جريان الماء متوفرًا^(٤).

د. صناعة الخل والزيب والخمور والديس:

بطبيعة الحال فإن جميع هذه الصناعات الغذائية الهامة تقوم على أساس نبات الكرمة^(٥) وحينما جاء الفرنجة فيما بعد أظهروا اهتماماً فائقاً بصناعة النبيذ خاصة بسبب حاجة الكنيسة إلى مثل هذا النوع من المشروب، وهذا لا يعني أن صناعة النبيذ لم تكن قائمة في هذه الأراضي قبل مجيء الفرنجة إليها بل كان

(١) الإدريسي: المصدر المتقدم، ص ٣٧٥ / رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٣، ص ٦٠٢.

(٢) دي فترى: المصدر المتقدم، ج ٣٤، ص ١٥٨.

(٣) كرد علي: خطط، ج ٤، ص ١٩٢.

(٤) الإدريسي: المصدر نفسه، مجلد ٢ ص ٦٤٤ / الجموي: المصدر المتقدم ج ١، ص ٤١٩.

(٥) ابن بطوطة: المصدر المتقدم، ص ٢٩٤ / المقدسي: المصدر المتقدم، ص ١٨١-١٨٣.

ينتج في ظل الحكم الإسلامي من قبل التجمعات المسيحية فقط أما أماكن صناعة
الخمور الجيدة فتتمدد على طول الطريق إلى قلعة المرقب^(١).

ويصنع الدبس والزبيب من العنب أيضاً ففي الحالة الأولى يدرس الزبيب في
المعصرة بمدرس من حجر حتى يصير كتلة لزجة ثم يوضع في قدر كبيرة
ويغمر بإناء مدة ٢٤ ساعة ثم يؤخذ ماء الزبيب ويوضع في قدر وتضرم النار
تحتيه حتى يتحصل الدبس ولزم مائه رطل منه للحصول على ٦٠ إلى ٨٠ رطلاً
الدبس^(٢).

الصناعة النسيجية:

أ. القطنية:

نشأت حرفة تصنيع القطن^(٣) التي تتطلب إتقاناً في العمل من حيث التمييز
بين القطن الجيد من القطن الرديء ثم تأتي عملية الندف لتصفيته من الشوائب
بعائلة به وبالتالي تأتي عملية التصنيع^(٤).

وتذكر الأخبار أن الحمدانيين هم الذين أدخلوا زراعة القطن إلى المنطقة مما
ساعد على ظهور صناعة الأقمشة القطنية وانتشارها كما برعت بلاد الشام به.

ب. صناعة الأنسجة الكتانية:

لا سيما الثياب الحفية نسبة إلى بلدة الحفة والحفة كورة^(٥) غربي حلب فيها
عدة قرى "والحف شيء من أداة الحاكة تعمل به هذه الثياب ولا يستعمل في جميع
الثياب"^(٦).

(١) راهب جبل صهيون: المصدر المتقدم، ج ٣٧، ص ١٥٤ / الأكسياد من خلال الموسوعة، ج ٦، ص ١٦٣.

(٢) كرد علي: خطط ج ٤، ص ١٩٠.

(٣) أبو الفداء: تقويم، ص ١٣٢.

(٤) الحلاق: المرجع المتقدم، ص ٤٥.

(٥) كور: انظر فصل التقسيم الإداري عن معناها.

(٦) كرد علي: المرجع نفسه / الحموي: المصدر المتقدم، ص ٣١٩.

كما وجدت صناعة الأنسجة الحريرية التي اشتهرت بها كل من أنطاكية وطرطوس ووجدت أيضاً صناعات حريرية بمدينة اللاذقية ومنها أحيكت الملابس المحلية المختلفة وهذا ما نوه عنه المؤرخ الجغرافي الإدريسي قائلاً: "وكذلك فإن صور وطرابلس وأنطاكية وطرطوس قد حازت جميعها على شهرة واسعة في الشرق والغرب بمصنوعاتها الحريرية"^(١) إضافة إلى المنسوجات السالفة الذكر كانت تصنع في مدن الشام وبخاصة في طرطوس صناعة المنسوجات المخملية الفاخرة المسماة les canelots وهي على أربعة أنواع منها ما هو مصنوع من وبر الجمل الذي توفر في السهل القريب من طرطوس والذي تصنع منه الألبسة التي يرتديها البدو المتواجد هنا^(٢) وبعضها الآخر يصنع من وبر الماعز أو من صوف الغنم أو من الحرير الخالص، ويبدو أن هذه المنسوجات قد لقيت إقبالاً كبيراً على اقتنائها من قبل الأوروبيين والدليل على ذلك هو زيارة جوا نفيل كحاج إلى الأراضي المقدسة حينما كلفه ملك فرنسا لويس أن يبتاع له كمية كبيرة من المخامل من طرطوس ليقدمها لبعض المؤسسات الدينية هناك.

هذا وقد شاع استعمال الملابس الغربية من قبل الفرنجة والتي استوردت من الخارج^(٣).

المصباغة:

لا شك أن هذه الصناعة قد لازمت الصناعات النسيجية لا بل ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بها وبما يتناسب مع جميع الأذواق، وقد برع أهالي الشام في صناعة الصباغ الأرجواني الذي كان يصبغ البرفير ملبس الملوك التي اقتبسوها من

(١) النقاش: المرجع المتقدم، ص ١٨٠.

(٢) بورشارد: المصدر المتقدم، ج ٣٩، ص ١٥٧-١٥٤.

(٣) رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٣، ص ٢٠٣ / فيشر: المرجع المتقدم، ص ٢٩.

أجدادهم الكنعانيين سكان ساحل البحر المتوسط^(١).

ولا زال لصنع الأرجوان دوره الهام من ألوان الملابس المختلفة^(٢) وفي الحقيقة عدت هذه الحرفة من الحرف التي احتكرها اليهود دون سواهم كما في اللانقية حيث انتشرت صناعة الأصباغ والديباغة وتحضير الفراء^(٣).

الحياكة والغزل: كانت النساجة والحياكة راقية في معظم المدن وكان أهلها يسنون غسلها ونقشها وقشطها وحلجها وفتلها ومشقها وحياكتها وشجها أما حلا هو القطن استخدموا القوس والنداف من الحلج والغزل في مغازل أولية^(٤) والحياكة عبارة عن حياكة القماش الخام لتصنع منه قمصان وسراويل... الخ ثم انتشرت هذه الصناعة على حياكة العباءات المخططة بالبياض والسواد المسماة العباءة المدففة ومن المنسوجات الأخرى التي يزداد الطلب عليها من قبل الفلسطينيين والإفرنج على السواء هي البسط والسجاجيد التي دخلت صناعتها إلى المنطقة ثم انتقلت بدورها إلى فرنسا في القرن ١٦هـ/ ١٢م^(٥) وإلى جانب هذه الصناعة القديمة انتشرت صناعات محلية فردية أخرى في كل المدن الساحلية.

صناعة الزجاج:

تعد صناعة الزجاج من الصناعات القديمة وقد اشتهرت بها بلاد الشام منذ أيام الفينيقيين لا سيما الزجاج الشفاف وصنعوا منه أنواعاً مختلفة من الحلي العقود والأواني... الخ^(٦) وذاعت شهرة عدد من المدن بها لا سيما في أنطاكية

(١) الدبس: تاريخ سورية، ج ١، ص ٣١٥.

(٢) رنسيان، المرجع المتقدم، ج ٣، ص ٦٠٣.

(٣) النقاش: المرجع المتقدم، ص ١٨٣.

(٤) كرد علي: خطط، ج ٤، ص ٢٠٠.

(٥) النقاش: المرجع نفسه، ص ١٨٢.

(٦) الدبس: المرجع نفسه، ج ١، ص ٣١٦.

حيث يذكر لنا ولیم الصوري أن هذه الصناعة قد ارتقت إلى الغاية القصوى في القرون الوسطى لدرجة أن الزجاج الشامي يضرب به المثل في رفته وصفائه حتى قيل "أرق من زجاج الشام وأصفى من زجاج الشام"^(١) أما بنيامين التيطلي فيقول: إن صناعة الزجاج كانت حكرًا على اليهود الذين احترفوا مثل هذه الصناعة النفيسة خاصة في أنطاكية^(٢) ويشير جاك دي فتري إلى وجود عمودين رائعين مصنوعين من الزجاج وجدوا في جزيرة أرواد، لكننا لم نعلم منه إذا ما كان هذان العمودان قد صنعا في هذه الجزيرة أم لا "ولقد أخبرنا أيضاً عن عمودين من الزجاج من روائع الصناعة قد أقيما في هذه الجزيرة لإثارة إعجاب جميع الناس"^(٣).

صناعة الصابون:

ارتبطت هذه الصناعة في مناطق صناعة استخراج الزيت^(٤) التي تعتمد بالدرجة الأولى على المواد الدسمة المتمثلة بالزيت المستخرج من ثمار الزيتون حيث يأخذون منه الزيت المسمى بالجفت والجفت هو النخل المتبقي في قعر أحواض ترسيبه ذو لون أسود وهو الذي يستخدم في هذه الصناعة^(٥).

صناعة السلاح:

صناعة السلاح كصناعة السيوف وآلات الحرب المصنوعة من الحديد الموجود في بلاد الشام مما ساعد على قيام صناعاتها في كبريات المدن واشتهرت بها^(٦) كما صنعت إلى جانبها قوالب السكب والصهر والخود الحربية

(١) الثعالبي: المصدر المتقدم، ص ١٥٧/ كرد علي: خطط، ج ٤، ص ٢١٧.

(٢) بنيامين: رحلة بنيامين، ترجمة غفر حداد، المطبعة الشرقية، بغداد، ط ١، ١٩٤٥م، ص ٨٧.

(٣) دي فتري: المصدر المتقدم، ج ٣٤، ص ١٥٠.

(٤) فيشر: المرجع المتقدم، ص ٢٩.

(٥) القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ٩٠/ كرد علي: المرجع نفسه، ج ٤، ص ١٩١/ الأوتاني: المرجع المتقدم، ص ٨٢.

(٦) النقاش: المرجع المتقدم، ص ٩٦.

التي ينسبها الفارس في المعركة والجوشن الذي يوضع على صدور الجند لكي يحميهم من ضربات العدو لا سيما في هذه الحقبة وهناك أيضاً العرادات المستخدمة لرمي الحجارة لمسافات بعيدة كالمجانيق والطارقيات التي استخدمها صلاح الدين في حروبه ضد أعدائه الفرنج^(١).

وهناك أمثلة كثيرة على صناعة الحديد منها الأبواب الحديدية كأبواب الحصون مثل حصن الأكراد وغيرها إلى جانب الكثير من الأدوات الزراعية القديمة كالقووس والقذوم... الخ^(٢).

صناعة مواد البناء :

سادت هذه الصناعة في معظم مناطق بلاد الشام وفي المدن الرئيسية مثل أنطاكية ومما ساعد على انتشارها قيام الحكام ببناء القلاع والحصون والمنازل والحمامات^(٣) وتختلف أحجار البناء من حيث الاستخدام بأحجامها فالكبيرة منها تستخدم في أعمال بناء القلاع والحصون وترميماتها أما الصغيرة فتستخدم من أجل بناء المنازل والدور السكنية.

أما الرخام فله أنواع متعددة واشتهرت بصناعاته مدينة اللاذقية التي توفرت فيها أحجاره بكثرة من أحسن الأبنية زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه^(٤) حتى أن العساكر الإسلامية حينما حرروها من الفرنج شوها عمارتها بسبب ثقلهم الكثير الكثير من رخامها إلى الشام^(٥) واستخدم هذا الحجر لتغطية قصور الحكام والولاية وزخرفتها وهندستها به وبغيره من أحجار الزينة الفاخرة^(٦).

(١) ابن العديم: زبدة، ص ١٣٣-١٧٤/ الغزي: المصدر المتقدم، ص ١١٢.

(٢) كرد علي: خطط، ج ٤، ص ٢١٤.

(٣) ابن حوقل: المصدر المتقدم، ص ١٦٢ / ابن العديم: المصدر نفسه، ص ١١٢.

(٤) أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ١٨٩/ سعادة: المرجع المتقدم، ص ٣١.

(٥) أبو شامة، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٨٩.

(٦) الحميري: المصدر المتقدم، ص ٥٠٧/ أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٨٩.

صناعة الأواني الفخارية :

وتستخدم في الحياة اليومية كأدوات الطعام وجرار خزن الماء والزيت والخمر وهي صناعة قديمة تستخدم المياه الناتجة عن عملية دبغ الجلود لتحضير طين الفخار الذي يعمل بها ثم يصدر إلى بلاد أخرى هذا إلى جانب عدد كبير من الصناعات المحلية الأخرى المتواجدة في كل مدينة في هذه المدن كالحدادة النجارة...^(١).

ومن الصناعات الهامة في هذا الإقليم الصناعات البحرية وأهمها:

صناعة القوارب والسفن :

قامت صناعة القوارب والسفن بشكل رئيسي على الخشب المتوافر في المنطقة كحصن التينات حصن سليمان الذي كان يتبع لدولة أرواد قديماً ولهم شهرة عالمية في حوض البحر المتوسط وخارجيه بامتھانهم صناعة القوارب والاتجار بها^(٢) واستمرت شهرة هذا المكان إلى هذه الحقبة "وفيه مقطع خشب الصنوبر الذي يحمل إلى سائر الأقطار الشامية"^(٣) كما توفرت هذه المادة في سهول طرطوس ومحيطها إلى جانب الكثير من الأخشاب^(٤).

أما السبب الذي دعا إلى الاهتمام بتلك الصناعة فيعود إلى احتياجهم لها باعتبارها أولاً: مدناً ساحلية بالإضافة إلى أنها مصدر رزق بالنسبة لأهاليها ولفائدتها في مجمل الحياة الاقتصادية والحربية والتجارية ونظراً لتزايد الاهتمام

(١) المعجم الجغرافي: المرجع المتقدم، ص ٧٨.

(٢) الموسوعة السياحية: المرجع المتقدم، ص ٢٣٨.

(٣) الإدريسي: المصدر المتقدم، ص ١٤٦ / الحموي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٧٩ / ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ج ٢ ص ١٨٩ / ابن حوقل: المصدر المتقدم، ص ١٦٧.

ملحوظة: وردت عند ابن حوقل 'ينقل إلى الشام ومصر والثغور منه ما لا يحصى'

ابن حوقل: المصدر نفسه، ص ١٦٧.

(٤) بورتشارد: المصدر المتقدم، ج ٣٩، ص ٥٧.

بها كانت الحكومات تتدخل في احتكارها لبعض القطاعات الأساسية وخاصة قطاعي الخشب والحديد الهامين^(١).

(١) أندريه ميكيل: الإسلام وحضارته، ترجمة زينب عبد العزيز، منشورات دار المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٨٨م، ص ٢٥٦.

التجارة

بعد أن تحدثنا عن أهم مظاهر الحركة الصناعية، فإنه لا بد لنا من إلقاء نظرة سريعة على ماهية النشاط التجاري في هذه المنطقة والتي بلغت أوجها في القرنين ٦-٧ هـ / ١١-١٢ م.

وعلى كل حال فإن التجارة حققت دخلاً عظيماً. لأصحابها إن كان قبل أو بعد قدوم الفرنجة إلى المنطقة لا سيما أن مدنها تعد مدناً تجارية بالدرجة الأولى وهي تمتلك كل المؤهلات اللازمة لذلك هذا ما أشار إليه أكثر المؤرخين الحديثين إلى إن سورية استمدت مكانتها الاقتصادية و ثرواتها عن طريق التجارة و ليس عن طريق الزراعة و نظراً لكون المنتجات الشرقية كانت قد اجتذبت انتباه أهل الغرب في أوربة مما أدى إلى توجه أطماع المستعمرين الفرنجة وحلفائهم للسيطرة على هذه المنطقة والتي تعد نافذة الداخل إلى أوربة.

وقد شغلت الأحداث السياسية والعسكرية دوراً هاماً في التأثير على حركة التجارة وطرقها حيث ظلت الطرق التجارية البرية والبحرية غير آمنة وأصابها بعض التخريب، لذا نالت طرق التجارة عناية فائقة من قبل حكامها حيث شكلت فرقة من الخيالة لحفظ الأمن ولحماية هذه القوافل من العابثين بها.

ونظراً لأهمية الموقع لا بد من ذكر أهم الطرق التي تمر إليها أو تصلها بغيرها من المدن الأخرى:

طرق المواطلات الداخلي القديمة:

وهي الطرق التي تربط مدن الإقليم مع بقية المدن الداخلية كافة وأهمها:

١- الطريق الذي يربط حلب مع أنطاكية والمسافة بينهما خمسة أيام ومن أنطاكية إلى اللاذقية ثلاثة أيام^(١).

٢- الطريق من حلب إلى اللاذقية والمسافة بينهما يومان.

(١) المقدسي: المصدر المتقدم، ص ١٦٣/ الحموي: المصدر المتقدم ج ٢، ص ٢٨٤.

٣- طريق تجاري يربط الجزيرة وصولاً إلى الساحل يبدأ من الرقة -
دوسر - جسر منبج - حلب عاصمة شمال بلاد الشام - الأثارب - سهل
العمق - أنطاكية - اللاذقية - جبلة - طرابلس - بيروت - صيدا - صور^(١).

هذا إلى جانب وجود سكة تصل حلب بالثغور الشامية تبدأ من حلب إلى
قنسرين وهي سبع سكاك ثم إلى أنطاكية أربع سكاك^(٢).

٤- طريق حلب - أنطاكية عبر المتوسط إلى الموانئ المصرية وشمال
أفريقيا^(٣).

٥- طريق المواصلات التي تربط شمال منطقة بلاد الشام مع بيزنطة
ومنها:

أ - طريق حلب - قنسرين - أنطاكية - اسكندرونة - المصيصة ومنها
يتفرع الطريق إلى فرعين أحدهما يتجه نحو أدنة ثم طرسوس، ثم الجوزات
عمورية وثانيهما يتجه إلى عين زربة - الهارونية - الكنيسة
السوداء^(٤).

ب - طريق حلب - أنطاكية ومنها إلى الموانئ البيزنطية^(٥) هذا وقد شكلت
شبكة المواصلات هذه بين مدن هامة أدت أدواراً بارزة في تسهيل وانتقال
التجارة بين مختلف المدن سواء بين مدن بلاد الشام، أو مدن المشرق وجنوب
بلاد الشام والأراضي البيزنطية.

(١) هايد (ف): تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ط ١٩٨٥، ص ١٨٠.

(٢) ابن خرداذبة: المصدر المتقدم، ص ٩٩.

(٣) ابن حوقل: المصدر المتقدم، ص ١٧٠ / المقدسي: المصدر المتقدم، ص ١٩٠ / ابن خرداذبة: المصدر نفسه
ص ١١٧-١٥٣-١٥٤.

(٤) ابن خرداذبة: المصدر نفسه، ص ١٠١، ٩٩.

(٥) خسرو: سفر نامه، ترجمة د. أحمد خالد، الرياض، ١٩٨٣م، ص ٤٨.

أهم المواد التي تتاجر بها المنطقة:

لكي نتعرف على ماهية المواد المتاجر بها لا بد لنا من التعرف على التجاريتين الداخلية والخارجية معاً.

١. التجارة الداخلية:

وتعني التجارة مع القسم الداخلي من البلاد الإسلامية وغيرها، وهذا النوع من التجارة يرتبط بالأسواق المحلية المخصصة للبيع والسلع وغيرها، وللسوق دور بارز في التجارة بصفاتها عنصراً أساسياً فيها، ويتركز النشاط الداخلي في هذه الأماكن التجارية المنتشرة في كل المدن الساحلية^(١).

٢. التجارة الخارجية:

أي تلك العلاقات التجارية التي تحصل بين هذه المنطقة والدول الأخرى.

احتل الشريط الساحلي مركزاً استراتيجياً هاماً بين الدول البيزنطية من جهة وبلاد الشام الجنوبية ومصر من جهة أخرى، وكذلك مع دول المشرق كالهند مثلاً التي كانت تتصل بالبحر عن طريق ميناء أنطاكية واللاذقية وبقية الموانئ الأخرى، وقد أعطاهما هذا الموقع أهمية خاصة في ميدان التجارة الدولية في هذه الحقبة الزمنية، وتبعاً لهذا الموقع وأهميته في ميدان التجارة الدولية وجدت جميع مستلزمات التجارة الناجمة من أسواق وخانات وحمامات وفنادق كثيرة... الخ^(٢).

التجارة مع بيزنطة وبلدان أوربة:

تكررت محاولات بيزنطية لفرض سيطرتها على المدن الساحلية والمنطقة بأكملها وكانوا يستغلون الفرص المناسبة ليستولوا على المدن الرئيسية الواقعة فيها مثل: أنطاكية - اللاذقية وغيرها إلى أن تمكن الأسطول البيزنطي من هزيمة الأسطول المصري قرب قبرص سنة ٣٢٥هـ/٩٣٥م وسقطت أنطاكية

(١) الكرخي: المصدر المتقدم، ص ٤٧، ٤٥/الإدريسي: المصدر المتقدم، المجلد الأول، ص ٦٤٨.

(٢) ابن حوقل: المصدر المتقدم، ص ١٦٤-١٦٥/الإدريسي: المصدر نفسه، مجلد ٢، ص ٦٤٤.

سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م ودفعت الأتاوة لحكام بيزنطة^(١) كما كانت اللانقية خاضعة ضرائباً لبيزنطة وتدفع الجزية لهم حين قدوم الفرنجة إليها^(٢) ومع كل هذه الأحداث لم تتوقف حركة التجارة، وكانت توجد مدن تحتل العقدة (المركز) ربطت بين تجار المسلمين وتجار بيزنطة (مثل مدينة طرابزون)^(٣) التي كانت أهم مركز للاتصال التجاري، كما كانت تحتوي على أسواق موسمية يؤمها العدد الكثير من التجار من أجل تبادل السلع مما ساعد على ارتباط المنطقة مع بيزنطة بطرق تجارية بحرية وبرية تحمل إليها ومنها البضائع كالزجاج والصابون والفسقن الفراء الغالي الثمن والقطن والحريز والتوابل والمنسوجات^(٤) كما كانت أنطاكية ترسل إليها الأصواف والأنسجة والحنطة^(٥) وقد تعرض تجار بلاد الشام في بيزنطة لقيود عدة فرضت عليهم من قبل السلطات البيزنطية^(٦).

أما واردات المنطقة من بيزنطة فكانت الذهب والفضة والأحجار الكريمة والمجوهرات واللؤلؤ، الحريز الطبيعي والثياب الحريرية الديباج الرومي والكتان الموشى^(٧).

كما ارتبطت المنطقة بعلاقات تجارية متميزة مع مدن أوروبية فهذه (أماشي) بلد التجار كان لها علاقات تجارية مع مصر والشام، وكان لتجارها في مدينة أنطاكية واللانقية حي خاص بهم وكانوا يهتمون بجلب المنسوجات الحريرة

(١) ابن حوقل: المصدر المتقدم، ص ١٧٩/ ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٦٠٤، ٦٠٣.

(٢) ابن حوقل: المصدر نفسه، ص ١٧٢.

(٣) ابن حوقل: المصدر نفسه، ص ١٨٠.

(٤) بنيامين: المصدر المتقدم، ص ٨٧/ المقدسي: المصدر المتقدم نفسه، ص ١٨١.

(٥) بنيامين: المصدر نفسه، ص ٨٧/ المقدسي: المصدر نفسه، ص ١٨١.

(٦) كرد علي: خطط ج ٤، ص ٢٣٣.

(٧) ابن بسام الشيزري: نهاية الرتبة عن طلب الحسبة تحقيق حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٨م، ص ١٥٤-١٥٥/ النقاش: المرجع المتقدم، ص ٩٧/ كرد علي: المرجع نفسه، ص ٢٣٣.

من الشام لتروج في سوق بيزنطة^(١).

وأهم الصادرات التي كانت تسوق إلى بلدان أوربية

الحاصلات الزراعية: حيث كان الأوروبيون يحملونها معهم إلى بلادهم عن طريق البحر ويبيعونها في أوربية بأسعار مرتفعة جداً من هذه المحاصيل الزيت الذي أخذ من شمال بلاد الشام إلى أوربية عن طريق صقلية وإيطالية^(٢) يلي الزيت في التصدير.

القماش: على أنواعه المختلفة حيث استطاع الإيطاليون شراء المنسوجات الحريرية والكتانية من أسواق سورية ومصر لوفرتها أولاً وانخفاض أسعارها^(٣) عالمياً أشهرها حرير أنطاكية^(٤) وحرائر اللاذقية هذا بالإضافة إلى الأقمشة القطنية التي وجدت في جوار اللاذقية وكان يحمل بمراكب إلى سبته ويعم بلاد المغرب^(٥) أما قدس (قرب بحيرة حمص) فكان يؤخذ منها أنواع أخرى من القماش التي اشتهرت بها هذه المدينة بالذات كالألبيسة المنيرة والبلنسية إضافة إلى الحبال^(٦) كما استورد الغربيون الزجاج التي اشتهرت به مدينة أنطاكية^(٧) وير أنه كان لزاماً عليهم أن يواجهوا منافسة الزجاج المستورد من مصر، وإلى جانب الزجاج كان يجري أحياناً تصدير الأواني الفخارية^(٨) هذا بالإضافة إلى الكثير من الأصناف القادمة من الهند وغيرها والتي تصدر نحو الغرب وبكميات

(١) بنيامين: المصدر المتقدم، ص ٦٨.

(٢) ابن شداد: النوادر، ص ١٥٣ / القزويني: المصدر المتقدم، ص ٢٠٦ / الثعالبي: المصدر المتقدم، ص ١٥٦

إلفنشتدي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ١٩٠.

(٣) عاشور: الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١ ١٩٦٣ م، ص ٣٨٣.

(٤) ميخائيل زابوروف: الصليبيون في الشرق، دار التقدم، موسكو ١٩٨٦، ص ١٤٩.

(٥) أبو الفداء: تقويم، ص ٣٢ / كرد علي: خطط، ج ٤، ص ٢٣٣ / النقاش: المرجع المتقدم، ص ٩٧.

(٦) بنيامين: المصدر نفسه، ص ٨٧.

(٧) عاشور: المرجع نفسه، ج ٣، ص ٦٠٤، ٦٠٢ و ج ١، ص ٣٨٣.

(٨) سائوتو: المصدر المتقدم، ص ٦٥.

كبيرة عن طريق هذه المدن الساحلية كالتوابل والقرفة والجوز الهندي^(١) والعضور والبخور والعاج والأحجار الكريمة والسجاد والمزركشات الشرقية وغيرها^(٢) حيث توزع عن طريق البندقية إلى كولونيا في الداخل حيث المرافئ النهرية على الرين والموانئ على بحر الشمال وكانت المدن والشركات في القرون الوسطى تزدهم على طول هذا الطريق في لومباردية على نهر الرين^(٣).

أما المواد المستوردة من أوربة والتي كانت تصل إلى موانئ الشام أهمها: الأخشاب والمعادن كالحديد والنحاس والقصدير من إنجلترا والجلود والجوخ من مدن فرنسة الجنوبية وكذلك الخيول والعبيد أما التجار البنادقة فحملوا معهم الجوخ والصوف^(٤) ولا ننسى الدور الذي قام به التجار اليهود في هذه العملية التجارية في المنطقة إذ أطلق عليهم اسم الراذانية أو تجار البحر وكانوا يحملون تجارتهم في البحر المتوسط فينزلون أنطاكية ويمضون براً إلى الفرات، ثم يركبون دجلة إلى الإيلة ثم عمان والهند ثم الصين وكانوا يتكلمون عدة لغات كالعربية والفارسية والرومية^(٥).

كما نشطت العلاقات التجارية مع روسية، وقد وصف ابن خرداذبة مسلك هؤلاء التجار الروس من بلادهم إلى المنطقة " فأما مسلك تجار الروس وهم جنس من الصقالبة فإنهم يحملون جلود الخنزير وجلود الثعالب والسيوف من أقصى صقلية إلى البحر الرومي فيحشرهم صاحب الروم"^(٦).

(١) سائوتو: المصدر المتقدم، ص ٦٥.

(٢) الشنتاوي: المرجع المتقدم، ص ٤٤٧/ كرد علي: المرجع المتقدم، ص ٢٤٤.

(٣) النفاش: المرجع المتقدم، ص ١٨٨.

(٤) كرد علي: غرائب الغرب، المطبعة الرحمانية، مصر، ط ١٩٢٣، ص ٢٦.

(٥) ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ١٥٣/ كرد علي: خطط، ج ٤، ص ٢٤٢.

(٦) ابن خرداذبة: المصدر المتقدم، ص ١٥٤، ١٥٣/ كرد علي: المرجع نفسه، ج ٤، ص ٢٤٣.

العلاقات التجارية مع مصر:

نشأت علاقات تجارية واسعة مع مصر بالرغم من توتر الأجواء السياسية بين حين وآخر وكان حجم المبادلات التجارية يزداد أو يقل حسب هذه الأجواء^(١). وكانت منتجات بلاد الشام وغيرها تصدر بحراً إلى مصر عبر المتوسط كما كانت تصدر إليها عن طريق جنوبي بلاد الشام مروراً بالأردن وكانت مادة الأخشاب كخشب الصنوبر من أهم المواد التي تصدر إليها نظراً للحاجة الماسة في صنع مراكبها البحرية وأغراض البناء والعمارة^(٢) وأهم مراكز هذه الأخشاب كما أسلفنا الحديث هو حصن التينات ومنه يتم شحن هذه المادة إلى مصر عبر المتوسط^(٣) كما صدرت إلى مصر الحمضيات الساحلية كالنارنج والأترنج والتمور، أما الواردات من مصر فكانت المنسوجات المصرية الفاخرة الكتانية والحريرية المصنوعة في تيس والإسكندرية المستوردة بكميات كبيرة^(٤).

العلاقات التجارية مع بلدان المشرق الأقصى:

تميزت بروابط تجارية ممتازة حيث كانت معظم البلاد تستلطف على المنسوجات العربية الشامية والمصرية بأنواعها كما كانت لأخشاب الصنوبر والخيول العربية سوقاً رائجة في الهند^(٥).

أما الواردات فكانت المنطقة تستورد من بلدان المشرق التوابل والفلفل والبخور والصدل وخشب الأبنوس وجوز الهند والكافور والقرفة والقرنفل

(١) ابن جبير: رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ١٩٥٩م، ص ٤٨.

(٢) رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٣، ص ١٠١.

(٣) ابن حوقل: المصدر المتقدم، ١٦٧/الحموي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٦٨.

(٤) ابن حوقل: المصدر نفسه، ١٠٥/المقدسي: المصدر المتقدم، ص ٢٠٢/أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٢٢٤/سانوتو: المصدر المتقدم، ج ٣٨، ص ٦٨.

(٥) خسرو: المصدر المتقدم، ص ٥٦/القلشغندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ٩٠.

والذهب والسجاد واللباد^(١).

وهكذا فقد كانت المنطقة مركزاً تجارياً هاماً يربط بين بلدان العالم من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه وعن طريقه حملت البضائع إلى المراكز التجارية الهامة كافة.

المراكز التجارية الهامة في المنطقة:

تهيأت عدة ظروف طبيعية لنشأة مرافئ ومدن تجارية هامة على هذا البحر الذي كان أهم بحار المسلمين في التجارة وبالإجمال كانت المدن البحرية هي مراكز التجارة الرئيسية وأهمها:

آ - ميناء السويدية^(٢):

ميناء أنطاكية الطبيعي، ونظراً لأهميتها وأهمية موقعها لم تكن هجمات البيزنطيين تتوقف عنها^(٣) وكانت "من أحسن الموانئ على البحر المتوسط وهي من عمل الصناعة كانت تدخل إليها السفن من البحر بمعبر عظيم وتبقى بها آمنة"^(٤).

وفي هذا الميناء رست السفن الإسلامية والإفريقية المحملة بمختلف أنواع البضائع ومنها ترفع الأمتعة على الدواب إلى أنطاكية^(٥).

فكان بذلك وسيلة من وسائل الاتصال بالغرب من جهة، والذي زاد من أهميتها التجارية والسياسية أهميتها الدينية أيضاً.

(١) ابن خردادبة: المصدر المتقدم، ص ١٥٢/سانوتو: المصدر المتقدم، ص ٦٥، ٦٦، ٦٨.

(٢) ميناء السويدية: عرف هذا الميناء بأسماء عدة لدى الفرنجة منها على سبيل المثال ميناء القديس سمعان (أمير الحواريين) وميناء سوليم وميناء سان سايمون... الخ.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٦٠٣.

(٤) الغزي: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٣١٥، ٣١٤/الحموي: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٣١٨.

(٥) هايد: المرجع المتقدم، ص ١٨١/كرد علي: خطط، ج ٤، ص ٢٤٨.

ب - ميناء اللاذقية:

من أشهر وأجمل الموانئ السورية^(١). نظراً لأنه صالح لكل مناخ وطقس وفي هذا الميناء رست المراكب والقوارب القاصدة إليه من جميع البلاد^(٢) ولا سيما مراكب الإفرنج التي ذخرت بالتجار والأجناس والحجاج وغير ذلك... الخ^(٣).

ج - ميناء جبلة:

كان ميناء صغيراً. لكن رغم صغره تلقى جزء من البضائع الواردة من الشرق بالإضافة إلى كونه ميناءً صالحاً لرسو السفن ذات الحمولات الصغيرة فقط وبه سوق مركزية^(٤) كان استيطان الجنوبيين بها أكبر دليل على أن لها أهمية تجارية خاصة، كما اشتهرت مدينة بانياس الساحل بميناءها الهام لتصدير الأخشاب وغيره^(٥).

د - ميناء طرطوس:

فهو من الموانئ الهامة على هذا الساحل والذي تميز بنشاطه التجاري والحركة التجارية فيه مستمرة^(٦) كما كان من المنافذ الهامة لتصريف البضائع الداخلية نحو البحر، فلكي تشحن البضائع الواردة من القسم الأعلى لنهر العاصي في الموانئ التابعة للفرنجة.

كان لا بد إيجاد مرفأ كثير النشاط لذلك كان هذا المرفأ هو مرفأ طرطوس على حد قول هايد^(٧).

(١) أبو الفداء: المصدر المتقدم، ص ٣٤٩ / البغدادى: المصدر المتقدم، ص ١١٩٢ / هايد: المرجع المتقدم، ج ١ ص ١٨١.

(٢) سبط ابن الجوزي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٧٤٥ / القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ٥١ / أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٢٢٤ / هايد: المرجع نفسه، ص ١٨١ / ابن شداد: النوادر، ص ٨٩ / الإدريسي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٦٤٥ / دي فترى: المصدر المتقدم، موسوعة ج ٣٣، ص ١٥١.

(٣) ابن القلائسي: المصدر المتقدم، موسوعة ج ٢، ص ٥٤٤ / النويري: المصدر المتقدم، ج ٢٨، ص ٢٦٣.

(٤) هايد: المرجع نفسه، ص ١٨١.

(٥) أثناسيو: سوريا الشمالية، ص ٥٤٦.

(٦) الإدريسي: المصدر نفسه، ص ٦٤٤.

(٧) هايد: المرجع نفسه، ص ١٨١.

هـ - مرفأ وميناء أرواد:

ذاعت شهرته على مر العصور^(١) فكان ميناء ومرفأ موثقاً للمراكب^(٢) بالإضافة إلى احتوائه على مخازن كبيرة للتجار تقع على الميناء الشرقي في هذه الجزيرة^(٣).

و - ميناء مرقية:

كان ثغراً تجارياً هاماً في هذا القرن، وأنت هذه الأهمية من كونه ربط أنطاكية بكل أنحاء أوروبا^(٤) لكن هذا لا يعني أن بقية المدن الداخلية لم يكن لها أهمية تجارية تذكر بل على العكس ولكن المشكلة التي وقفت في وجه مثل هذه المدن هو إمكانية البحث لها عن منفذ بحري قريب منها، فعلى سبيل المثال مدينة حلب التي استخدمت كلاً من مينائي السويدية واللاذقية لتصريف منتجاتها عبر البحر وللتجارة مع بقية البلدان أيضاً^(٥).

د - حصن التينات:

على البحر الأبيض والذي كان مركزاً تجارياً هاماً أيضاً وعن طريقه يتم نقل الأخشاب وتصديرها إلى جنوب بلاد الشام^(٦).

وبالإجمال كانت المدن البحرية جميعها مراكزاً تجارية رئيسية هامة وصلة وصل بين الداخل والخارج، وقد أعاد الفرنج الإستيلاء عليها الواحدة تلو الأخرى في زمن وجيز عملياً وامتلات أسواقهم من جديد، ونشطت الحركة التجارية فيها

(١) وليم الصوري: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٤٧.

(٢) وليم الصوري: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٩١.

(٣) كوكيد: الحواريات، مجلد ١٨، ص ١٩٣ / غلاب: المرجع المتقدم، ص ٣٤٧ / أوتورفروست: استكشافات بحرية، تعريب د. بكري الأسود، الحواريات: مجلد ١٤، ١٩٦٤م، ص ٢٥١-٢٥٢.

(٤) رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٣، ص ٦٠٥.

(٥) رنسيان: المرجع نفسه، ج ٣، ص ٦٠٥.

(٦) ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ١٨٩ / الإدريسي: المصدر المتقدم، مجلد ١، ص ٦٤٦.

كما كانت من قبل وبقي داخل البلاد في أيدي المسلمين، ولم تعد الإمارات التي أسسها الفرنج تشغل سوى شريط ضيق على طول الساحل هذا من ناحية، أما من ناحية الأخرى فإن هذه الموانئ الصليبية لم تستقبل التجار المسيحيين فحسب بل استقبلت أيضاً في هذه الحقبة كثيراً من التجار المسلمين وبخاصة المغاربة الذين أتوا عن طريق البحر وقاموا برحلات داخل الشام بقصد المتاجرة، وكان للتجار المسلمين خانات ينزلون بها في هذه الموانئ^(١).

(١) عاشور: الحركة، ج ١، ص ٣٨٤.

المياه

لا تخفى أهمية المياه بسبب الدور الكبير الذي تلعبه في توزيع السكان ونشاطهم البشري، فحيثما وجدت المياه تكاثف السكان وبالتالي تنوعت مظاهر الحياة العامة.

هذا ما وفرتة الطبيعة لإقليم الساحل والجبال الساحلية الذي يعد من أكثر الأقاليم نصيباً في كمية هطول الأمطار^(١)، وأوفرها ماء في الشام كله، مما جعله غنياً بمياهه السطحية التي تشتمل على الأنهار الجارية والبحيرات والأودية السيلية، إضافة إلى غناه بمياهه الجوفية من ينابيع وعيون عذبة وطبيعية مثل العيون التي تكثر في مدينة السويدية وتحتوي السويدية على عدد لا يحصى من العيون العذبة^(٢) كما وجدت الآبار التي تستغل بحفر الأرض لاستثمارها وهذه الآبار تكثر في السفوح الجبلية، وهذا مرده إلى عاملين أساسيين هما وفرة التهطل المطري من جهة ووجود الجبال الشديدة الانحدار غرباً من جهة أخرى وهذا بدوره ساعد أيضاً على تشكل ما يسمى بـ:

الأودية السيلية: وهي عبارة عن مجار مائية مؤقتة تجف بعد توقف الأمطار.

ولا يفوتني هنا إلا أن أشير إلى وجود المياه الكبريتية في المنطقة التي تشفي من أمراض عديدة كأمراض الأعصاب وتصلب الأعضاء^(٣) كما في حمة^(٤) أنطاكية، وهي مياه غنية بالكبريت والمنغنيز ووجدت مثل هذه المياه أيضاً في القصير "حمام حديدي في القصير من أعمال أنطاكية وهو معروف في زماننا

(١) خسرو: المصدر المتقدم، ص ٥١/ أبو الفداء: التقويم، ص ٣٣.

(٢) الغزي: المصدر المتقدم، ص ٣١٤.

(٣) كرد علي: خطط الشام، ج ٤، ص ١٦٦.

(٤) الحمة: هي العين الحارة يشفي بها الأعلاء والمرضى.

كرد علي: المرجع نفسه، ج ٤، ص ١٦٤.

بحمام الشيخ عيسى^(١).

الأنهار: في الحقيقة كثيرة هي أنهار هذه المنطقة لكنني سأحدث هنا عن أشهرها فأهمها وأكبرها هو:

نهر العاصي:

المعروف باسم orontes أو النهر المقلوب^(٢) ويعرف أيضاً بنهر حمص لحماية ونهر الأرند^(٣) ونهر الرستن هي التسمية القديمة^(٤) له أما عند الفرنجة أطلقوا عليه اسم فرفر ولا يعرف مرد تلك التسمية^(٥) ونهر العاصي نهر قديم شهير، يصل طوله حوالي ٤٦٤ كم اختلف المؤرخون والجغرافيون والرحالة العرب وغيرهم في تسميته وأسباب تلك التسميات، فمنهم من قال: إنه سمي بالعاصي لأن هذا النهر ينحدر من أرض الإسلام إلى أرض الكفر (أي الروم البيزنطيين)، لذلك فهو عاصي^(٦)، أما ابن بطوطة فيقول إنه سمي بالعاصي لأنه خيل لناظره أن جريانه من الأسفل إلى الأعلى^(٧) بينما يسمي ابن الشحنة وغيره نهر بتسميات متعددة حسب الأماكن التي يجري فيها فمثلاً يسمى بـ الميماس في بعلبك، وبعد وصوله إلى حماة يسمى بالعاصي، أما في أنطاكية فيطلق عليه اسم الأرند أو الأرنت^(٨).

(١) الغزي: المصدر المتقدم، ص ٥٠.

(٢) الحسوي: معجم، ج ١، ص ٤١٩/ أبو الفداء: تقويم، ص ٣٤١.

(٣) ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة العجائب، حققه محمود فاختوري، دار الشرق العربي سورية، ١٩٩١م، ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٤) القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ٨٢.

(٥) جون أوف وورزبيرغ: وصف الأرض المقدسة (١١٦٠-١١٧١) من خلال الموسوعة الشامية ج ٣٣، ص ٣٤٩، ٣٥٠/ الأكسياد: من خلال الموسوعة، ج ٦، ص ١٥٨/ وصف ثيودريك للأماكن المقدسة من خلال الموسوعة ج ٣٥، ص ٢٧٠/ حاج مجهول: الموسوعة ج ٣٩، ص ٥٩/ وكذلك وردت في رواية عن الأرض المقدسة، من خلال الموسوعة، ج ٤، ص ٤٧/ يوميات صاحب أعمال الفرنجة من خلال الموسوعة، ج ٦، ص ١٥٨.

(٦) خسرو: المصدر المتقدم، ص ٤٢.

(٧) ابن بطوطة: المصدر المتقدم، ص ٢٧٧.

(٨) ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ١٧٥/ القزويني: المصدر المتقدم، ص ٢٢٣.

ويعمل ابن الشحنة سبب تسميته بالعاصي إلى أنها عائدة لتوجهه نحو الشمال على خلاف بقية الأنهار الأخرى في المنطقة والتي تتوجه بشكل عام^(١) إلى الجنوب، أما ابن خرداذبة فيسمي النهر بنهر أنطاكية بدءاً من أرض دمشق وهو يجري إلى الجنوب إلى أن يصب في البحر المتوسط^(٢)، في حين لم يذكر البغدادي سبب تسميته بالعاصي وعرفه بأنه اسم لنهر أنطاكية وفي أوله من جهة بعلبك يعرف بالميماس^(٣) هناك^(٤). ويختلف ابن الجوزي عن متقدميه قائلاً: "إنه سمي بالعاصي لأنه يجري إلى غير القبلة ومسافة جريانه مدتها ثلاثة أيام" وابن واصل يذكره باسم نهر الأرنايط دون ذكره للسبب أيضاً^(٥) وهكذا فالأكثريّة ترجح سبب تسميته تلك هو اتجاه النهر نحو الشمال، والواقع أن النهر ينبع من نبع اللبوة ومن ينابيع أخرى إلى الشمال من بعلبك، ثم ينزل إلى بحيرة قدس^(٦) التي تقع غربي حمص^(٧)، بينما لم يذكر البغدادي سوى أن منبعه من بحيرة قدس. ومصبه في البحر قرب أنطاكية^(٨) عندها ينحرف النهر نحو الجنوب الغربي ماراً بين جبلي اللكام والأقرع إلى أن يصب في نهاية مطافه في البحر عند مدينة السويدية^(٩).

(١) ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ١٧٥/ للقزويني: المصدر المتقدم، ص ٢٢٣/ البغدادي: المصدر المتقدم، ص ٩١١.

(٢) ابن خرداذبة: المصدر المتقدم، ص ١٧٦.

(٣) وردت تسمية النهر بالميماس أيضاً عند ياقوت الحموي.

انظر الحموي: معجم، ج ٥، ص ٢٨٣.

(٤) البغدادي: المصدر نفسه، ص ٩١٠.

(٥) ابن الجوزي: المصدر المتقدم، ص ١١٥.

(٦) ابن واصل: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٢٦٤.

(٧) ابن الجوزي: المصدر نفسه، ص ١١٥/ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣٠٢.

(٨) ابن خرداذبة: المصدر نفسه، ص ٩١٠/ البغدادي: المصدر نفسه، ص ٩١٠.

(٩) ابن الوردي: المصدر المتقدم، ص ١٥٨، ١٥٩/ ابن الجوزي: المصدر نفسه، ص ١١٥/ القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ٨٢.

يتأثر نهر العاصي بموسم الأمطار فيفيض شتاءً وتقل مياهه صيفاً، وهناك مجموعة أخرى من الأنهار الصغيرة تتبع من شرقي جبل اللكام، وتصب في بحيرة أنطاكية كنهر عفرين، والأسود. ونهر يغرا^(١) نسبة إلى البلدة التي يمر عليها، ويصب هذا النهر في النهر الأسود.

نهر الكبير الشمالي (البوتيروس)^(٢):

من الأنهار الدائمة الجريان ينبع من جبل النصيرية متجهاً نحو الجنوب الغربي إلى أن يصب في البحر الجنوبي اللانقية، طوله حوالي ٥٦ كم وغزارته الوسطى نحو ٣,١ م/ثا، وقد ذكر القلقشندي هذا النهر دون تحديد لاسمه أكان النهر الكبير الشمالي أم هو الجنوبي حيث قال: "وفيها نهر شمال أفامية ويخرج منها مع العاصي"^(٣)، ومن خلال هذا الوصف وتحديد الموقع عرفنا أنه يقصد النهر الكبير الشمالي، وفي جنوب هذا النهر يوجد عدد كبير من الأنهار الصغيرة كنهر القنديل الذي يصب في البحر ما بين السويدية شمالاً واللانقية جنوباً ونهر الصنوبر ونهر المضيق، ثم نهر الروس، فالمسكين يليه نهر البرغل ونهر الملك ثم نهر السن^(٤).

نهر السن:

أو كما يدعى بالأبتر "وهو على سلوقية قريباً من البحر بينه وبين طرطوس مسيرة يوم"^(٥).

يعد هذا النهر من أغزر الأنهار الساحلية وأكثرها فائدة رغم قصره (٦ كم)

(١) من المثير للانتباه عدم اكتراث معظم المؤرخين الجغرافيين بذكر الأنهار الصغيرة ولم يذكروا سوى الأنهار الكبيرة منها فيما يخص كل إقليم من الأقاليم الكبرى.

(٢) أحمد علي إسماعيل: تاريخ بلاد الشام القديم، مركز الشام للخدمات الطباعة، دمشق، ط١، ١٩٩٨ م، ص ٤٨٦.

(٣) القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ٨٤.

(٤) الدبس: المرجع المتقدم، ص ٢٧.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج ٦، ص ٣٩.

ينبع من جبال اللاذقية حيث تتبثق عدة عيون تتجمع وتجري على شكل نهر صغير مكون لما يسمى نهر السن^(١) إلى أن يصب شمالي بانياس يليه نهر مرقية، ثم نهر حسين فنهر الكبير الجنوبي المعروف في كتابات الأقدمين باسم نهر الأليوثرا أو نهر الحرية، وله تسمية أخرى هي الوتاروس^(٢) ينبع هذا النهر من جبال اللاذقية، أو من جبال عكار في لبنان مؤلفاً الحدود بين القطرين السوري واللبناني بطول ٥٠ كم ويتميز كل من الكبير الشمالي والجنوبي ونهر السن بأنها أنهار دائمة الجريان^(٣)، وإلى جانب الأنهار وجدت مصادر أخرى للمياه هي الينابيع المائية ذات الطبيعة الكارستية والتي يرتبط توزيعها حسب كمية الأمطار وتزخر بها مقدمات السطح الغربي للجبال والأودية والحوضات وللهذه الينابيع أهميتها في تغذية الأنهار وري الأراضي الزراعية وما حولها كما وجدت البحيرات الطبيعية التي تعتمد في تغذيتها على مياه الأنهار وأهمها بحيرتان طبيعيتان^(٤).

بحيرة أنطاكية:

أو بحيرة العمق وهي بحيرة منبسطة غنية المياه تقع ما بين أنطاكية وبغراس وحارم في أرض تعرف بالعمق شمالي أنطاكية بينها وبين أنطاكية حوالي ثلاثة أميال^(٥)، وفيها مصب نهر عفرين والأسود الذي يتجه نحو الشمال ماراً تحت دربساك ويمتد حتى يصب في هذه البحيرة ثم يخرج منها ويصب في العاصي^(٦) ويبدو أن طول هذه البحيرة مساو لطول أنطاكية بنحو عشرين ميلاً^(٧)

(١) غلاب: المرجع المتقدم، ص ٣٤٨.

(٢) ادبس: المرجع المتقدم، ص ٢٧.

(٣) غلاب: المرجع نفسه، ص ٣٠٢.

(٤) توجد في الوقت الحاضر بحيرات صناعية في هذا الإقليم كما في سد بلوران وأقيمت سدوداً أخرى على أودية الأنهار الدائمة الجريان وكما في سد تشرين على نهر الكبير الشمالي.

(٥) الحموي: معجم، ج ١، ص ٤١٧.

(٦) القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ٨٤.

(٧) الحموي: المصدر نفسه، ص ٤١٧.

أما عرضها فهي أكثر عرضاً منها بحوالي أربع مرات^(١) إذ يبلغ هذا العرض حوالي سبعة أميال^(٢).

بحيرة أفامية: قلعة المضيق

هي بحيرة كبيرة عظيمة^(٣) قريبة من جسر الشغور بينهما مرحلة^(٤)، ماؤها حلو وأرضها موحلة وقعرها قريب تجلب منها الأسماك كالسلور، تتجمع هذه البحيرة من ماء العاصي^(٥)، وتتألف من عدة بطائح في الغرب شمالي أفامية يحيط بها بحيرتان شمالية وجنوبية، أما الشمالية فهي من عمل حصن برزية وهي أكبر من بحيرة أنطاكية بكثير وسطها مكشوف ينبت حولها نبات اللينوفر في جزعها الشمالي والجنوبي، أما بحيرتها الجنوبية فتسمى بحيرة أفامية سعتها نصف فرسخ تحيط بها غابات القصب والصفصاف وبها أنواع كثيرة من الطيور وفي ناحية الجنوب يصب نهر العاصي فيها^(٦).

الآبار:

وجد الكثير منها، وبعضها نحت في الصخر واستخرجت مياه هذه الآبار الباطنية بحفر الأرض، أما عمقها فبغاوت حسب طبيعة الصخور وكمية الأمطار الهاطلة، ووجدت بحصن الأكراد^(٧) على سبيل المثال "بئر قائمة في الأرض وفي أسفل البئر سرداب يمتد إلى جهة الشمال يفور منها النهر كل أسبوع يوماً واحداً لا غير لتسقى بها أراض ومزروعات وينزل عليه التركمان، وفي بقية الأسبوع

(١) القلقشندي: المصدر المتقدم، ص ٨٨ / الدبس: المرجع المتقدم، ص ٢٩.

(٢) الحموي: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٤١٧.

(٣) اليعقوبي: المصدر المتقدم، ص ٨٦.

(٤) ابن العديم: البغية من خلال الموسوعة، ج ٩، ص ٢٠٧.

(٥) النويري: المصدر المتقدم، ج ٢٢، ص ٤٩٢.

(٦) القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٨٧، ٨٨.

(٧) عرفه ابن فضل العمري. بـ وادي القوار وأنه على مقربة من حصن الأكراد وليس بداخله كما ذكر وللمزيد انظر ابن فضل الله العمري: المصدر المتقدم، ص ٢٠٥.

يابس لا ماء فيه، وذكر من دخل هذا السرداب انه في نهايته نهر كبير في الغرب له موج وريح عاصف^(١).

مسألة المياه:

لافت مسألة المياه اهتمام وعناية الحكام من عرب وفرنجة، وتم التركيز بشكل كبير على الشبكة المائية وأماكن خزن الماء داخل وخارج معظم المدن والقلاع كالحصن، وقلة صهيون والمهيلة وغيرها الكثير^(٢) هذا الاهتمام لم يأت ثباتاً بل أتى من أهمية الماء للحاجات الحياتية الضرورية، كما تأتي من أهمية دفاعية لما يمكن أن يشغل دوراً مهماً في الترتيبات الدفاعية للقلاع في هذه الحقبة بالذات، والتي في غالبيتها اعتمدت خطأ دفاعياً مؤلفاً من خندق مائي يحيط بالقلة، كما في قلعة الحصن التي تميزت بشبكة مائية واستمدت مياهها من بئر متوازية إضافة إلى وجود مجموعة صهاريج فيها تملأ بمياه الأمطار وبوساطة الأقنية^(٣)، في حين امتازت الخزانات أو الصهاريج التي ابتناها الإفرنج في هذا القرن بضخامتها لدرجة أن سعة خزاناتها عندهم أكبر بكثير من تلك التي عند المسلمين، لا بل أنها ميزت قلاعهم عن قلاع المسلمين^(٤) نظراً لتوافر كميات كبيرة من المياه سواء أكانت من الأمطار^(٥) أو أنهار جارية، أو مياه ناجمة عن ذوبان الثلوج في المرتفعات الجبلية، لذلك كان لا بد من طريقة ما للاستفادة من هذه المياه، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ما هي الطريقة التي اتبعتها السكان لجر المياه إلى دورهم ومرافقهم العامة وادخارها والحفاظ عليها من الهدر قدر الإمكان؟

(١) الحموي: المصدر المتقدم، ج ٤ ص ٢١٥ / ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ٢٦٦ / ابن فضل الله العمري: المصدر المتقدم، ص ٢٠٥.

(٢) القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ١٥٠ / الموسوعة السياحية: المرجع المتقدم، ص ٣٧.

(٣) ر.س. سميل: فن الحرب عند الصليبيين، ترجمة العميد وليد الجلاذ، مركز الدراسات العسكرية دمشق ١٩٨٥م، ص ٤٣-٧٧.

(٤) الصغير: المرجع المتقدم، ص ٣٩ - ٤٠ - ٤٢.

(٥) خسرو: المصدر المتقدم، ص ٥١ / أبو الفداء: تقويم، ص ٣٣.

في الحقيقة عمل سكان الإقليم على تجميع مياه الأمطار في برك، أو صهاريج يتم جرّها بواسطة أقنية حفرت في باطن الأرض، وقد تفننوا في طرق إيصالها إلى داخل الدور السكنية وأشهرها قنوات أنطاكية^(١) ومدينة اللاذقية التي تحدث عنها أبو الفداء قائلاً: "وهي بلدة ذات صهاريج"^(٢)، لا بل قلما خلا بيت من بيوتات هذه المنطقة من إحدى وسائل التخزين.

وكل بيت من بيوتها تخزن فيه مياه الأمطار وتدخر فيه حين الحاجة لها"^(٣) لكن أنطاكية تفوقت بنظام مدهش اتبعته في هذا المنحى كونها "تتزوّد بشكل مدهش بالمياه بواسطة أنهر صغيرة تتدفق من نبع (بيت الماء) الذي تندفع مياهه بقوة، وتسيل عبر عدد كبير من الأقنية من جميع أرجاء المدينة وترويه بالمياه تلك بفضل الأعمال الواسعة وذلك خلال الجبال إلى المدينة"^(٤). وبهذه الطريقة كان يتم توصيل المياه إلى كل مكان مراد "إذ كانت مياههم تجري في دورهم يسكنهم ومسجدها معهم"^(٥).

ومن الوسائل الأخرى المستخدمة من أجل إيصال المياه النواعير وطواحين الهواء حيث أشاد الحكام هذه الآلات، أما طواحين الهواء فقد استخدمت في المناطق التي تحفر بها الآبار لافتقارها إلى المصادر الأخرى للسقاية، ويكون فيها الماء قريباً من سطح الأرض واستعملت هذه النواعير بكثرة في كل من أنطاكية، وعلى نهر العاصي^(٦) إذ كانت سقاية الأراضي في منطقة العاصي تتم باستخدام الأقنية الفرعية من هذا النهر لسقاية البساتين بينما استخدمت النواعير أسلوباً آخر لإيصال المياه إلى أراضيهم ومرافقهم المختلفة، فمثلاً "كان يتم رفع

(١) ابن شداد: النوادر، ج ١، ص ١٤٣ - ١٥٠.

(٢) أبو الفداء: تقييم، ص ٣٥٧.

(٣) خسرو: المصدر المتقدم، ص ٥١.

(٤) يوانس فوقاس: رحلة يوانس فوقاس في الأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، ج ٣، دار

الفكر ١٩٩٨م، ص ٣٧٩.

(٥) أبو الفداء: المصدر نفسه، ص ٣٥٧/ ابن حوقل: المصدر المتقدم، ص ١٦٥.

(٦) الأوتاني: المرجع المتقدم، ص ٥٥.

الماء إلى الدور السلطانية ودور الأمراء الأكابر والبساتين الأعلى مستوى وفي بساتينها الغراس والثمار الغريبة عن طريق نواعير ركبت على نهر العاصي تدور بجريان الماء^(١).

أما بالنسبة لجزيرة أرواد تلك الجزيرة النائية في البحر، فكان لها وضع خاص أظهرت من خلاله براعة متميزة في ضمان التزود بالمياه في صهاريج، ففي فصل الشتاء تجمع مياه الأمطار في آبار ضخمة خاصة، وبعد التأكد من نظافة سطوح المنازل تدار المياه إلى بئر بمزrab خاص هذا ما دلت عليه آثار القديمة المنحوتة في الصخر أما بالنسبة للمياه الجوفية فيتم استخراجها عن طريق رشح المياه من أسفل مستوى سطح البحر، وهذه المياه استخدمت للسقاية للأغراض العامة إضافة إلى أنها مياه صالحة للشرب^(٢) أضف إلى ما تقدم مياه الينبوع الحلو الموجود تحت مياه البحر المالحة أما آلية الاستفادة من مياهه فيتم بواسطة قمع ضخ مقلوب صنع من الرصاص المؤكسد خصص لهذه الغاية.

المهم أن هذا الأسلوب ظل متبعاً إلى حين مجيء الفرنج الصليبيين للمنطقة هذا ما أكدته جميع المصادر المعاصرة لتلك الحقبة لكن الحروب المتكررة للمنطقة كانت السبب الرئيسي في إتلاف أعداد كبيرة منها.

(١) الحوي: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٤١٩/ ابن فضل الله العمري: المصدر المتقدم ص ١٩٦/ القلقشندي:

المصدر المتقدم، ج ٤ ص ١٤٥/ كرد علي: المرجع المتقدم، ج ٤، ص ١٤٦.

(٢) خسرو: المصدر المتقدم، ص ٥١/ المعجم الجغرافي: المرجع المتقدم، ص ٧٢/ حسين حجازي: جزيرة أرواد والجذور الفنية على ضوء الاكتشافات الجديدة، دار أماني، ط ١٩٨٩م، ص ١١١-١١٢.

السكان

يعد هذا الإقليم من أقدم مواطن الإعمار البشري، قام العرب بإعمارهم منذ فجر التاريخ. وأقاموا حضارات ودولاً مزدهرة، أما سكانه فإنهم يرجعون في أصولهم إلى قبائل عربية أصيلة أشهرها قبيلتي تنوخ^(١) وطيء، وتلاحقت عليها موجات الهجرة للقبائل العربية الأخرى، والتي خلصت هذا الإقليم من الاحتلال الأجنبي اليوناني. والروماني - البيزنطي. وأعادت له وجهه الصحيح، بعد أشار اليعقوبي في كتابه البلدان إلى بعض هذه القبائل التي سكنت في كل من اللاذقية وجبله وطرطوس وبانياس قائلاً: "واللاذقية وأهلها قوم من يمن من بلح وزبيد وهمدان وعصيب وغيرهم، ومدينة جبله همدان وبها قوم من قيس من إياد"^(٢)، ومدينة بانياس وأهلها أخلاط. ومدينة طرطوس وأهلها من بنة"^(٣)، ثم انضمت إليها القبائل اليمانية التي شاركت في معركة اليرموك. وغيرها فيما بعد، وأخذت الهجرات البشرية تتلاحق إلى هذا الإقليم بين مد وجزر.

لكنه بدءاً من القرن ٥ هـ / ١١م، حدثت هجرات بشرية ضخمة كان لها أثر في تغيير مجرى الأحداث. وأصبحت تقل تدريجياً في القرن الذي تلاه.. ولنتعرف بداية على التركيب السكاني للمجتمع في هذا الإقليم وفي هذه حقبة قبل قدوم الفرنجة الصليبيين. يعد التركيب السكاني لهذه المنطقة غني ومتنوع، حيث ينقسم السكان إلى

تنوخ: قبائل عربية أصيلة أقاموا بالبحرين وهم اسم لعدة مواضع اجتمعوا بالبحرين قديماً. وتحالفوا على التآزر والتناصر. وكانوا على دين النصرانية.

الأسبوطي: لب الأبواب في تحرير الأساب، لوكتمان، ١٨٤٠م، ص ١٧٧.

عبد الرحمن حميدة: محافظة حلب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٢. ص ١٢٥.

(٢) إياد: تعد قبائل إياد وتغلب ونمر والشهاجرة قبائل عربية قديمة تدين بالنصرانية للمزيد انظر إلى:

حميدة: المرجع نفسه، ص ١٢٥.

(٣) اليعقوبي: المصدر المتقدم، ص ٨٦.

حضر وهم الأكثرية وبدو وهم أقلية، وكانوا عبارة عن قبائل مرتحلة يسكنون الخيام ويتنقلون من هنا إلى هناك مع أسرهم طلباً للكلأ والمرعى لمواشيهم التي تعد المصدر الوحيد للرزق^(١).

ويمكننا تقسيم سكان الإقليم حسب مذاهبهم إلى ما يلي:

١- المسلمون:

كانت الغالبية العظمى من السكان في هذا القرن مسلمة شيعية المذهب ومن أجناس الأثنى عشرية^(٢)، مثل أسرة بني عمار التي سكنت في أقصى الشمال في قسيعة وفي جبال النصيرية^(٣) ووادي نهر العاصي^(٤) بينما قطن بقية المسلمين في المدن الكبرى وهم الأقلية، وهؤلاء الشيعة بجميع فرقهم يشكلون مجموعات لها سمات خاصة بها منطقية على نفسها لها طريقتها في الحياة والعادات والتطلعات، فكان منهم النصيرية والإسماعيلية.

أ- النصيرية^(٥) (العلوية):

وجدت النصيرية في جبال بهراء، واعتنق معظم أهالي هذه المنطقة هذا

(١) وليم الصوري: المصدر المتقدم، من خلال الموسوعة، ج ٧، ص ٨٤٢.

(٢) الأثنى عشرية: فرقة شيعية تعتقد بإمامة وعظمة اثني عشر إماماً أولهم الإمام علي بن أبي طالب، وآخرهم المهدي الذي اختفى في سامراء، وسيظهر في وقت ما.

(٣) محمد عزة دروزة: العرب والعروبة، دار البقعة العربية، دمشق ١٩٥٩م، ص ١٧.

(٤) حتى: تاريخ سورية، ص ٢١٩ / كاهن: المرجع المتقدم، ص ٢٥٥.

(٥) كانت حلب مركزاً من مراكز الدعوة العلوية التي انتشرت في منطقة الدولة الحمدانية، والتي شمل سلطانها منطقة اللانقية، وذلك قبل أن يسيطر الفاطميون سلطانهم على بلاد الشام، ويبدو أن القائمين على الدعوة وجدوا في منطقة اللانقية تربة خصبة فجعلوها مركزاً مستقلاً في نشاطها، أما سبب التسمية بالنصيرية فهناك رأيان أحدهما يقول: إنها نسبة إلى جبل النصيرة وثانيهما: نسبة إلى أبي شعيب محمد بن نصير البصري النيميري الذي تمتع بمرتبة عالية لدى هذه النحلة.

ابن بطوطة: المصدر المتقدم، ص ٢٧١ / دروزة: المرجع نفسه، ص ١٥ - ١٦.

وعند القلقشندي النصيرية هم أتباع "نصير" غلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب للمزيد انظر:

القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٣، ص ٢٥٣، وما بعدها.

المذهب، "وأكثر هذه السواحل هم الطائفة النصيرية"^(١) وتشتمل بلاد النصيرية على المنطقة الواقعة شمالي غرب سورية، وتفصل بجبالها الشامخة المناطق الساحلية عن المناطق الداخلية مما أكسبها أهمية استراتيجية.

بـ الإسماعيلية:

قامت في منطقة اللاذقية وما جاورها من أعمال حمص وحماه والسلمية، حملة أخرى إلى جانب النحلة النصيرية عرفت باسم الإسماعيلية^(٢)، كما عرفوا بالباطنية^(٣)، أما القلاع التي تحصنوا بها فعرفت باسم قلاع الدعوة^(٤).

لم تكن النصيرية كما يظهر على ونام في علاقاتها مع الإسماعيلية، كما حاولت الإسماعيلية الاستيلاء على بلاد النصيرية وقلاعها مراراً، فجمعوا برهم ودارت بينهم عدة معارك وظلوا في ضيق معهم، كما أنهم نهجوا منهجاً خاصاً في كل شيء يتلخص: "بأن كل من أطاعهم كان في الجنة ومن عصاهم كان في النار"^(٥).

جـ النصارى:

كان النصارى كثرة مؤثرة في شمال بلاد الشام وغربها ومعظمهم على

(١) ابن بطوطة: المصدر المتقدم، ص ٢٧١ / القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ١٣، ص ٢٢٩.

(٢) القلقشندي: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٣٨، وللمزيد عن هذه الطائفة. انظر من ص ٢٣٨ إلى ٢٥١.

(٣) وكذلك عرفت هذه الطائفة بالفداوية سموا بذلك باعتبارهم يقدمون حياتهم فداءً.

ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص ٢٨٦ / القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٥١.

(٤) ابن فضل الله العمري: المصدر المتقدم، ص ٢٠٤ / ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص ٢٨٦.

(٥) ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ٢٩٤ / ابن العبري: تاريخ الزمان من خلال الموسوعة الشامية ج ٣٥، دار الفكر دمشق، ١٩٩٥م، ص ٤٤٠.

وللمزيد من المعلومات انظر:

ابن جبير: المصدر المتقدم، ص ٢٢٩ / ابن فضل الله العمري: المصدر نفسه، ص ٢٤.

المذهب اليوناني الأرثوذكسي^(١)، يتبعون عادات وأحكام الكنيسة الإغريقية التي تحدث اللغة اليونانية^(٢)، لكن أبا شامة خالف ذلك الرأي، وقال: إن معظم هؤلاء النصارى كان من أصل أرمني^(٣)، والمهم أن نصارى المنطقة شكلوا أعداداً لا بأس بها، كما في أنطاكية و اللاذقية وسكانها من النصارى^(٤) الأرمن^(٥)، أما في بلدة فكان أهلها من الروم النصارى^(٦)، في حين كان أغلب سكان بانياس الساحل من المسيحيين اليونانيين الذين يعترفون بسيادة الإمبراطور البيزنطي^(٧)، طرطوس سكانها من الأرمن^(٨) الذين ينتمون إلى الكنيسة الأرمنية حيث يتقربهم المقام مع أقليات شركسية في الجبال المرتفعة كجبال الأمانوس^(٩) وعلى سواحل اسكندرونة^(١٠)، هذا إلى جانب بعض الأقليات السكانية التي قطنت إلى جانب السكان الأصليين وعلى رأسهم.

اليهود: كانوا أقلية في هذا الإقليم، وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية لم تشير إلى ذكرهم إلا لعدم وجودهم في هذه المدن الساحلية، أو لندرتهم فقد

(١) دي فكري: المصدر المتقدم، ج ٣٤، ص ١٧٧.

(٢) رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٢، ص ٤٧٢.

(٣) أبو شامة: الروضتين، ج ٤، ص ٤٣.

(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، ج ٢، ص ٥٠.

(٥) قال الأنطاكي أنه في سنة ٤٠١ هـ توجه خلق كثير من النصارى المقيمين بالشام وقصد أكثرهم اللاذقية وأنطاكية وقطنوها.

(٦) المزيد انظر: الأنطاكي: المصدر المتقدم، ص ٢٩٢ وما بعدها.

(٧) الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٢٣٩.

(٨) البلاذري: المصدر المتقدم، ص ١٥٨.

(٩) رنسيان: المرجع المتقدم، ج ١، ص ٤٤٩.

(١٠) أبو الفداء: المصدر المتقدم، ص ٣٤٩ / الأنطاكي: المصدر نفسه، ص ٢٣٠.

(١١) رنسيان: المرجع نفسه، ج ٢، ص ٤٧٢.

(١٢) رنسيان: المرجع نفسه، ج ٢، ص ٤٢٩.

استدل عليهم عن طريق شارات وملاح من خلال امتهانهم لحرف معينة مثل التجارة^(١)، أو الصناعة مثل الزجاج^(٢)، والمصدر الوحيد الذي أشار إليهم هو كتاب الرحلة لبنيامين التطيلي حينما تحدث عن العديد من المدن ذكراً عدد اليهود الموجودين فيها: فاللاذقية مثلاً وعلى حد قوله: وجد فيها نحو ٢٠٠ يهودي، أما قلعة الحصن ففيها "نحو ٣٠٠ يهودي" وفي أنطاكية "عشرة يهود يعرفون صنع الزجاج"^(٣) وهنا لم يحدد لنا المصدر أين استقر هؤلاء اليهود فهل استقروا في المدينة أم في ضواحيها؟ وأنا أرجح أنهم استقروا في مركز المدينة ليس في ضواحيها، كما استقرت عناصر بشرية غير عربية تحمل جنسيات وأصول مختلفة أتت إلى المنطقة واستقرت في أجزائها الشمالية مشكلة لأقليات سكانية مثل الأتراك^(٤)، والتركمان^(٥) الذين سكنوا في الجبال^(٦)، لا سيما في جبل

(١) ابن خرداذبة: المصدر المتقدم، ص ١٥٢.

(٢) بنيامين: المصدر المتقدم، ج ٨٧، ١٠٦ / عاشور: الحركة، ج ١، ص ٢٨٣ / كاهن: المرجع المتقدم، ص ٢٢١.

(٣) بنيامين: المصدر نفسه، ص ٨٧، ١٠٦ / عاشور: المرجع نفسه، ص ٢٨٢.

(٤) الأتراك أو الترك: أول ورود لكلمة ترك في القرن السادس علماً على شعب من البدو، وقد أقام الترك في هذا القرن دولة بدوية قوية امتدت في بلاد المغل إلى حدود الصين الشمالية من ناحية وإلى البحر الأسود من ناحية أخرى، وتوفي مؤسس هذه الدولة - تومين - عام ٥٥٢م.

المزيد انظر: الشنتاوي: المرجع المتقدم، ص ٣٤.

(٥) التركمان: قبيلة عظيمة من قبائل الترك من آسيا الوسطى، سكنوا بقاع تركستان، وفارس وأفغانستان، ويمتدون غرباً إلى أناطولي، وهم أصحاب عصبية شديدة. ويدينون بالإسلام، وقد استعمل هذا الاسم منذ القرن ٥ هـ / ١١م بصيغة الجمع الفارسية تركمان* واستعمل في اللفظ العربي - الغز - اعتاد الأوغوز سكن منغوليا، الذين انحدروا من أصلاب البدو الإيرانيين الذين كانوا قد استتركوا.

انظر المعارف الإسلامية: المرجع نفسه، مجلد (٥)، ج ٤٦ - ٢١٢.

بطرس البستاني: دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، ج ٦، ص ٩٨-٩٩.

(٦) دزكار: الحروب، ج ١، ص ٤٢.

الأقارع^(١)، بينما استقر قسم منهم في السهول إلى جانب البدو^(٢)، كما في سهول
طرطوس قرب المياه، والجداول "وفي هذا السهل وفره من الجداول
والمراعي..."^(٣).

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هل حدث تغيير في التركيب السكاني
للمنطقة بعد قدوم الفرنجة إليها؟ هذا ما سوف يتم تبينه في فصل لاحق..

(١) ابن بطوطة: المصدر المتقدم، ص ٢٩٤.

(٢) الصوري: المصدر المتقدم، من خلال الموسوعة، ج ٣٩، ص ٨٤٢ / سائوتو: المصدر المتقدم،
ص ٢٤١، ٢٥٨.

(٣) الصوري: المصدر نفسه، ص ٢٠٩.

النشاط العمراني والثقافي للإقليم

شهدت المنطقة نهضة عمرانية شاملة قبل وبعد قدوم الفرنجة دل عليها قيام العديد من المنشآت الكبيرة المتمثلة في الأبنية والأسواق المساجد والقلاع والجسور والكنائس والخانات والتكايا والأديرة... الخ

١- المساجد:

هي من مراكز التعليم الهامة وعلى الرغم من وجودها في المنطقة بكثرة، إلا أن الزلازل فعلت فعلها بهذه المنشآت الهامة وأصابتها كما أصابت غيرها من أشكال العمران، فلم يبق منها إلا القليل وعلى حد قول كرد علي: فليس في الإسكندرونة اليوم سوى جامعين وكذلك الحال في السويدية واللاذقية والمرقب وطرطوس وجبلة وبانياس خربت جوامعها ومساجدها وعمرت غير مرة في الإسلام وفي اللاذقية اثنا عشر مسجداً^(١) ومن مساجدها الشهيرة الجامع الكبير^(٢) في جبلة جامع واحد هو جامع السلطان إبراهيم المنصوري ومن مساجدها قنطاري والغزالي وجامع واحد في بانياس وفي طرطوس جامع كان على عهد الصليبيين كنيسة وفي صافيتا جامع وحيد^(٣).

٢- الكنائس:

كانت الكنائس كثيرة أشهرها الكنيسة الموجودة في أرواد و"أرواد كنيسة كبيرة شاهقة البناء منيعة ذات أبواب حديد... الخ"

(١) فتح المسلمون اللاذقية وجبلة وطرطوس. وبانياس سنة ١٥٠ هـ وبنوا باللاذقية مسجداً جامعاً بناء عبادة بن الصامت - وتركت لأهلها من النصاري كنيستهم.

انظر حول ذلك ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٣٢٢.

(٢) المسجد: جمعه مساجد وهو مصلى الجماعة والمسجد الحرام، الكعبة الأقصى، ومسجد بيت المقدس.

أما الجامع فهو من أسماء الله الحسنى والمسجد الجامع الذي تقام فيه صلاة الجمعة وتلقى به الدروس أيضاً.

انظر المعجم المدرسي: المرجع المتقدم، ص ٢٠٥.

(٣) كرد علي: خطط، ج ٦، ص ١٥٢/ الموسوعة السياحية: المرجع المتقدم، ص ٤٧.

وكنيسة القديس أندرواس الواقعة على طريق النهر الكبير الشمالي^(١)،
والكنيسة الضخمة التي كرسّت للقديسة مريم العذراء بطرطوس^(٢).

التي غدت سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣م محطة للحجيج الفرنج، كما اشتهرت اللاذقية
بكنيستها^(٣). "وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة بأجزاء الأجزاء
صعبة وبألوان الرخام مجزعة... الخ"^(٤) ووجدت كنيسة صغيرة في مدينة جبلة
غيرها، بالإضافة إلى العديد من الكنائس الهامة الموجودة في أنطاكية منها
كنيسة والددة الله وكنيسة مارجرس^(٥).

٣. الجسور:

كانت الجسور تربط بين الخنادق والأبراج وحتى القلاع^(٦) كما في قلعتي
شغور وبكاس "يعبر من إحداهما إلى الأخرى بجسر"^(٧). وهناك الجسور المائية
المقامة على مجاري الأنهار الصالحة للملاحة والمؤلفة من المراكب القابلة
للفتح^(٨) والتي تشكل معبراً للأنهار لا سيما تلك الجسور المقامة على نهر
الغاصي "وعليه جسور يعبر عليها"^(٩) والجسر الذي يربط بين أنطاكية وأقامية
هو جسر على النهر وهو مشهور وله يجتمع الناس فيه كل أسبوع"^(١٠).

(١) الإدريسي: المصدر المتقدم، مجلد ١، ص ٣٧٥.

(٢) ابن العبري: المصدر المتقدم، ص ٢١٣.

(٣) ابن العبري: المصدر نفسه، ص ١٧٢.

(٤) الأصفهاني: الفتح، ص ٢٣٨/ ابن العبري: المصدر نفسه، ص ١٧٢.

(٥) ابن العبري: المصدر نفسه، ص ١٧٢.

(٦) سانوتو: المصدر المتقدم، ص ١١٨.

(٧) ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ١٧٥.

(٨) كاهن: المرجع المتقدم، ص ٢٢٥.

(٩) الحميري: المصدر المتقدم، ص ٤٠٥.

(١٠) أبو الفداء: التقويم، ص ٣٤١ / ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٥٢ / ابن واصل: المصدر
المتقدم، ص ٢٦٤ / الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٢٤٥.

٤. الخانات:

الخان لفظة تركية ظهرت في زمن لاحق على حد قول كاهن^(١) نتيجة لتوسع التجارة هي من المنشآت العامة التي واكبت التجارة في هذا العصر والخان عبارة عن بناء ضخم يحتوي على مجموعة من الحوانيت الكبيرة والصغيرة مع مستودعات للبضائع، ويتوسط الخسان فناء كبير على هيئة رواق حيث يضع فيه التجار بضائعهم وفي الخان يجد التاجر المأوى له ولدوابه كما كانت بعض الخانات تخصص لأهل مهنة معينة أو سلعة من السلع وبعضها الآخر خصص للتجارة الخارجية، وغالباً ما وجد بجوار الخان ساقية ماء السبيل^(٢).

أقيمت الخانات على الطرق في المدن وعلى أطرافها من أجل خدمة القوافل التجارية المارة وتأمين راحة المسافرين وحفظ بضائعهم^(٣)، فكانت بذلك أشبه بمحطات تجارية^(٤) نذكر على سبيل المثال لا الحصر خانات اللاذقية التي بدا كل خان فيها قد خصص لصنف من الأصناف كخان الحنطة وخان الشام في حي الصليبية والخان الكبير في ميناء اللاذقية وخان الدخان وخان البازار المعروف بخان أبي داود^(٥).

٥. التكايا والزوايا^(٦):

كما في قلعة الحصن وبه "زاوية تعرف بزاوية الإبراهيمي نسبة إلى بعض

(١) كاهن: المرجع المتقدم، ص ٢٢٣.

(٢) كرد علي: خطط، ج ٢، ص ٢/ المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، نشره محمد مصطفى زيادة القاهرة، ١٩٧٠ م ص ٩٢.

(٣) حوراني: تاريخ الشعوب العربية، كمال خولي، بيروت، ط ١٩٩٧، ١م، ص ١٣٧.

(٤) كاهن: المرجع نفسه، ص ٢٢٣.

(٥) الموسوعة السياحية: المرجع المتقدم، ص ٤٧.

(٦) الزاوية: مسجد غير جامع ليس فيه منبر وهو مأوى المتصوفين والفقراء.

انظر المعجم المدرسي: المرجع المتقدم، ص ٤٧١.

كبراء الأمراء^(١). وفي اللاذقية أربع تكايا وزوايا وفي أنطاكية خمس تكايا وفي
 جبلة قبر إبراهيم بن أدهم^(٢) الزاهد^(٣) ومعظم هذه المزارات ما زالت معروفة
 يزورها الناس ويقام عليها شبه زوايا أو تكايا^(٤) وتزايد عددها بكثيرة في ساحل
 الشام هذا ما دل عليه قول ابن شداد نقلاً عن ابن العديم "وبسواحل الشام من قبور
 الأنبياء ألف قبر وبأنطاكية قبر حبيب النجار"^(٥) الزاهد الذي عرف باستشهاده في
 بيل العقيدة المسيحية^(٦) أما جبلها فيقال عنه "بأنه كان معبدًا يزار في الآفاق"^(٧)
 وجدت زاوية خارج صهيون "وبخارجها زاوية في وسط بستان فيها الطعام
 وارد والصادر وهي على قبر الصالح العابد عيسى البدوي... الخ"^(٨).

هذا بالإضافة إلى وجود الكثير الكثير من الرهبان والأولياء الصالحين في
 منطقة كما في حصن جبلة إذ "كان سكان الحصن الرومي رهباناً وقوماً يتعبدون
 دينهم"^(٩) وكذلك كان في جبال الأمانوس^(١٠)، أما طرطوس ففيها قبر الرشيد

ابن بطوطة: المصدر المتقدم، ص ٢٦٦.

هو إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمي البلخي أبو إسحاق كان أميراً على بلخ ثم تحول إلى
 صوف وزهد وعاش بجبلة ومات بها سنة ٦٦٠هـ/٧٧٧م.

البيروني: المصدر المتقدم، المجلد الثاني، ص ٨٤٧ / الهروي: الاشارات الى معرفة الزيارات،
 تحقيق جانين سورديل طومين، المعهد الفرنسي بدمشق، ط ١٩٥٣، ص ٣٠٢٩.

القلقشندي: المصدر المتقدم ج ٤، ص ١٥٤ / ابن شداد: الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام
 بجزيرة، حققه دومنيك سورديل، وزارة الثقافة، دمشق، ج ١٩٥٣، ص ١٠٩٥٣.

ص ٥٩ / الهروي: المصدر نفسه، ص ٢٣ / أبو الفداء: تكويم، ص ٣٥٥.

ابن شداد: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٩ / أبو الفداء: المصدر نفسه، ص ٣٥٥ / كرد علي: خطط،
 ص ١٥٢ - ١٥٥.

ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٥٩ / أبو الفداء: المصدر نفسه، ص ٣٥٥.

ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص ٢٨٤.

(٦) ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص ٢٨٤.

(٧) الهروي: المصدر نفسه، ص ٦.

(٨) ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص ٢٨٦.

(٩) البلاذري: المصدر المتقدم، ص ١٥٨ / أنثاسيو: المرجع المتقدم، ص ٥٤٤.

(١٠) دي فكري: المصدر المتقدم، ص ١٣٩.

وابنه المامون^(١) ووجد بها أيضاً مصحف الخليفة الراشدي عثمان بن عفان رضي الله عنه^(٢).

٦ - الأديرة:

ظهرت الأديرة جنباً إلى جنب مع المساجد والمدارس واشتهرت المنطقة بآيرتها ومعابدها الكثيرة وأشهرها على الإطلاق دير الفاروص باللاذقية "وبها دير مسكون يعرف بالفاروس حسن البناء"^(٣) وهو دير كبير بني في القرون الوسطى، فكان مركز حج للمسلمين من كل الطوائف يبعد عن اللاذقية ٢٢ كم عت شهرته في الشام ومصر "يسكنه الرهبان ويقصده النصارى في الآفاق وهو أعظم دير بالشام ومصر"^(٤) كما اشتهر أيضاً دير عرف باسم دير الحميرة دير ماجرجس الواقع في أسفل قلعة الحصن وكان يؤمه العديد من الزوار الحاج^(٥).

الأبراج:

بنيت الأبراج كما القلاع والحصون فمنها ما شيد على مفترقات الطرق لفاصلة بين المسلمين والفرنج وجعل فيها من يحفظها^(٦) أو على الأطراف لمطلة على البحر من أجل الحراسة ومراقبة البحر^(٧) كما في برج صافيتا وهو برج يرتقي إلى أوائل القرن ٦هـ / ١٢م إذا كان تحت سيطرة الفرنج الصليبيين سان المعبد المشرف على حصون وقلاع جبال النصيرية^(٨) بعض الأبراج

(١) أبو الفداء: المصدر المتقدم، ص ٣٥٧.

(٢) الهروي: المصدر المتقدم، ص ٧.

(٣) أبو الفداء: المصدر نفسه، ص ٢٢٩.

(٤) ابن بطوطة: المصدر المتقدم، ص ٢٩٢-٢٩٣.

(٥) أنقاسيو: المرجع المتقدم، ص ٥٦٣.

(٦) ابن قاض شهية: الكواكب الدريفي السيرة النبوية، تحقيق د. محمود زايد، دار الكتاب الجديد بيروت، ط ١، ١٩٧١، ص ١٦١.

(٧) سائوتو: المصدر المتقدم، ج ٣٨، ص ٨٠.

(٨) أولفر: الاستيلاء على دمياط من خلال الموسوعة، ج ٣٤، ص ٧٦-٧٧/ دي فترى: المصدر المتقدم، ص ١٢٠.

الآخر الأبراج البحرية التي شيدت على الجهات المطلة على البحر عند آخر السور لمنع الأمواج، أو تبنى على جزر صغيرة بالقرب من مداخل الموانئ، أو تقام على مواقع أبراج أو قلاع قديمة^(١) كالبرج الأيوبي في أرواد القلعة الساحلية على الجانب الغربي من المرفأ^(٢) وبرج جبلة الذي شيد فوق القلعة^(٣).

الأبنية:

حافظت المدن على الطابع عام في تنظيمها وهندستها، فبنيت معظم البيوت الحجارة المتوافرة بالمنطقة وإن اختلف منشؤها من مدينة إلى أخرى فاللاذقية مثلاً غلب على عمارتها حجر الرخام نظراً لتوافره فيها ولوجود مصانع للرخام^(٤) وقد تميزت هذه المدينة القديمة بمئانة بنائها وهندستها المعمارية الرائعة فيها أبنية قديمة مكيئة^(٥) أما مساكنها مهندسة مهندمة وأماكنها ممكنة وسقوفها عالية^(٦) أما جبلة فكانت معظم بيوتها مبنية من الحجر الرملي المتوافر^(٧).

في حين امتازت أنطاكية بكثرة أبنيتها وحسن بنائها فهي "بلد كثير العمارة دورها حسنة البناء"^(٨) وتميزت جزيرة أرواد بأبنيتها ودورها السكنية المتلاصقة تفصلها عن بعضها أزقة ضيقة متعرجة^(٩) وأدراجها لولبية الشكل^(١٠) كما جدد دور سكنية مؤلفة من عدة طوابق شيدها الأرواديون لاستيعاب السكان

(١) فيليب حتي: تاريخ لبنان من أقدم العصور إلى عصرنا الحالي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٢، ص ٣٥٦.

(٢) ذكية حنا: القلاع والمواقع الأثرية في محافظة طرطوس، نشر كاتدرائية طرطوس، لم يرد تاريخ الطبع، ص ٢٠.

(٣) امبرويز: صليبية ريتشارد من خلال الموسوعة، ج ٣٢، ص ١٥٨.

(٤) الحميري: المصدر المتقدم، ص ٥٠٧/ أبو شامة: المصدر المتقدم، ص ١٨٩.

(٥) الحموي: المصدر المتقدم، ج ٥، ص ٦/ البغدادي: المصدر المتقدم، ج ٣، ص ١١٩٣.

(٦) الأصفهاني: الفتح، ص ٢٣٨/ الموسوعة السياحية: المرجع المتقدم، ص ٣.

(٧) المعجم الجغرافي: المرجع المتقدم، مجلد ٢، ص ٦٣١.

(٨) ابن بطوطة: المصدر المتقدم، ص ٢٨٤/ الإدريسي: المصدر المتقدم، مجلد ٢، ص ٦٤٥.

(٩) الغزي: المصدر المتقدم، ص ٣١٥، ٣١٤.

(١٠) المعجم الجغرافي: المرجع المتقدم، مجلد ٢، ص ٦٣١.

الكثيري العدد ونظراً لصغر مساحة الجزيرة فإن الناس أخذوا ببناء الدور ذوات الطبقات المتعددة أي أنهم أخذوا بالتوسع علواً عوضاً عن التوسع الأفقي، فقد كان سكان أرواد يسكنون في ذلك الزمان فيما يشبه اليوم ناطحات السحاب، هذا وقد عبر راهب جبل صهيون عن مدى إنبهاره واندعاشه لما رآه من حجم هذه الحجارة وكبرها المستعملة في هذه الأبنية وتساءل في نفسه عن كيفية نقلها أو استخدامها في عملية البناء ورفعها؟ قائلاً:

"وقمت بقياس إحدى الحجارة فوجدت طولها أربعة وعشرين قدماً وعرضها مثل ارتفاع رجل طويل وعلى هذا إنه لأمر رائع النظر إليها" في حين علل طريقة بنائها على "إنه أمر خارق فوق فهم الناس وإدراكهم" ^(١) هذا بالإضافة إلى تتواء الجزيرة على العديد من المنشآت المحفورة في الصخر الأصم من الحجارير والمدافن ^(٢)...

ومن المرافق العامة الأخرى التي كانت موجودة أيضاً الحمامات لم نشر دراسات إليها على الرغم من وجودها مثل حمام القاشاني الموجود في اللانقية جنوب مسجد القبة في حي الصليبية حمام العناية وحمام العشر ^(٣) ويعتقد أن بنياس دعييت باسم بنياس قديماً نسبة إلى حمام شهير كان بجوارها وهذا إن دل على شيء فهو دليل على وجود الحمامات بها ^(٤) وربما إلى كثرتهم في تلك المدينة ويشير ابن الشحنة إلى وجود حمام في القدموس قائلاً "وفي هذا الحمام يخرج حبات كثيرة لا تحصى ولكنها لا تؤذي أحداً" ^(٥).

كما وجدت معاصر الزيتون الحجرية المنتشرة في كل القرن تقريباً

(١) انظر راهب جبل صهيون من خلال الموسوعة ج ٢٧، ص ١٥٨.

(٢) أناسيسو: المرجع المتقدم، ص ٥٦١.

(٣) الموسوعة السياحية: المرجع المتقدم، ص ٤٧/ حنا: المرجع المتقدم، ص ٢٨.

(٤) الحموي: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٤١٩.

(٥) ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ٢٦٥.

والطواحين المائية على نهر العاصي^(١) والهوائية التي أقيمت في أرواد^(٢) أو في المناطق التي تفتقر للمصادر المائية ويكون فيها الماء قريباً من سطح الأرض. وحينما جاء الصليبيون إلى المنطقة بنوا إلى جانب الكنائس البيزنطية والجوامع الإسلامية الفخمة كنائس على الطراز الروماني أو أسلوب البناء القوطي كما تأثر أسلوب البناء عند هؤلاء المحتلين بعد مضي قرن على وجودهم بالمحيط والبيئة. مواد البناء المحلية، فكان ذا سمة خاصة إلا أننا لم نستطيع أن نكون عنها فكرة دقيقة تماماً لأنه لم يبق لهذه المباني أثر على مر الزمان.

الأسواق:

احتوت معظم المدن على أسواق صغيرة مع سوق مركزية وشارع رئيسي. وفيه بعض الحوانيت ولم تكد الأسواق لتتفصل عن الأرياف، غير أن المدن كانت تفتقر في أسواقها العديد من القرى الزراعية ونج عنها تبادل المنتجات البضائع خصوصاً إذا كانت واقعة قرب طريق بحرية أو نهريّة أو إذا كانت برفاً لشحن التجارة البعيدة مما يوفر لها ربحاً تجارياً كبيراً ويجعلها جذيرة لتحمل تكاليف النقل والمخاطرة لهذا كانت المدن الساحلية الأكثر عرضة دون غيرها للهجوم من قبل الأعداء^(٣) كما في أسواق أنطاكية^(٤) ومينائها السويدية التي غدت سوقاً تجارياً دائراً لأنطاكية وأسواق طرطوس^(٥) وبها أسواق عامرة وتجارات دائرة^(٦) بعض هذه الأسواق كان موسمياً كسوق جبلة^(٧) ويقوم بها خارج المدينة سوق عظيم فيه كل شيء ويقوم الفقراء المتجردون من الآفاق لحضور هذا الموسم وكل من يأتي من الزوار لهذه التربة يعطي لخدمها سمعة فتجمع من

(١) المعجم الجغرافي: المرجع المتقدم، مجلد ٢ ص ٧٨.

(٢) نخلة ورد: حضارة أنطاكية عبر العصور، لم يرد تاريخ ومكان الطبع، ص ١٥٢.

(٣) حوراني: المرجع المتقدم، ص ١٣٧.

(٤) الإدريسي: المصدر المتقدم، مجلد ١ ص ١٣٧.

(٥) الإدريسي: المصدر نفسه، مجلد ٢ ص ٦٤٤.

ذلك قناطر^(١) كثيرة^(٢) كما حوت اللانقية على سوق كبيرة واسعة اختصت كل فئة من التجار فيه في قسم من اقسام السوق الرئيسية بنوع معين من البضائع "أسواقها فضية آفاقها مضية ومطالعها مشرقة"^(٣). من أسواقها سوق الدالين وسوق الحدادين والعطارين الصباغين سوق الصاغة السوق الطويلة وسوق بيت الداية^(٤)، وفي هذه الأسواق كانت تعرض منتجات المنطقة وقرائها من منتجات زراعية وصناعية إضافة إلى ما يستورد من المناطق الأخرى على الرغم من الأحداث السياسية والحربية التي عاشتها المنطقة باستمرار فإنها حافظت نوعاً على ازدهارها مدة طويلة.

فماذا عن الناحية الثقافية والفكرية؟

أما بالنسبة للناحية الثقافية والفكرية وبالرغم من إغفال المصادر لهذه الناحية فلا نستطيع أن ننفي وجود حركة علمية ثقافية مزدهرة في المنطقة وسبب إغفال الناحية الثقافية ربما يعود ذلك إما لإنشغالهم بالأحداث السياسية لهذه الحروب أو لأن نور العلم لم يلبث أن خبا بهذه المنطقة بعد عهد قصير من قيام الحروب الصليبية وكل ما يمكن قوله: إن هؤلاء الغرباء اقتبسوا الكثير من المظاهر العلمية والحضارية^(٥) خلال وجودهم في المشرق لا سيما بعد إطلاع الأوروبيين على تلك المعارف والعلوم الجغرافية والفلكية والزراعية عن طريق الترجمات إلى اللاتينية فكان على سبيل المثال الطب العربي أساس علم الطب عند الفرنسيين وأهم المدارس الطبية التي برزت في هذه الحقبة كانت مدرسة

(١) القنطار وجمعها قناطر والقنطار يساوي مائة رطل، وعند المقرئزي القنطار وزن أربعين أوقية

الذهب أو ما يعادلها، وفي بعض المصادر القنطار المال الكثير للمزيد

انظر ابن شداد: النوادر، ص ١٤٢/ المقرئزي: ثبؤور العقود في ذكر النقود، تحقيق محمد السيد بحر العلوم، دار الزهراء، بيروت، ط ٦، ص ١٦٤.

(٢) ابن بطوطة: المصدر المتقدم، ص ٢٩١.

(٣) الأصفهاني: الفتح، ص ٢٣٨.

(٤) الموسوعة السياحية: المرجع المتقدم، ص ٢٣-٤٧.

(٥) التونسي: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تحقيق المنصف الشنوني، دار التونسية للنشر، لم يرد تاريخ الطبع، ص ١٦٩.

الفرنسيين وأهم المدارس الطبية التي برزت في هذه الحقبة كانت مدرسة أنطاكية الطبية التي كان يعلم فيها الطبيب الشهير تيودوسيوس الأنطاكي ومن أشهر أطبائها باسيل الحلبى^(١) كما ذاعت شهرة طرابلس العلمية في الطب والكيمياء وعلم الصيدلة وكان فيها مدرسة لتعليم الطب وأشهر من مارس هذه الصنعة الأسقف يعقوبي الطرابلسي^(٢) ولا ننسى في هذا الصدد دور العلم المكتبات ومساهماتها في نشر العلم والمعرفة منها عل سبيل المثال دار الحكمة التي ازدهرت في عهد آل عمار وقيل إنه كان بها عدة مدارس وخزائن وكتب قد احتوت مكتبتها الضخمة على مئة ألف مجلد وبلغت فيها مكتبة طرابلس الذروة العلمية في الازدهار الاقتصادي^(٣) وكان المعري من بين كبار الأدباء الذين أفادوا مكتبتها ثم أفادوا غيرهم ولم يقتصر طلابها على العرب فقط إنما وفد إليها عدد كبير من الطلبة الأوروبيين^(٤) هذا بالإضافة إلى الكثير من الألفاظ العربية التي انتقلت إلى اللغات الغربية كما انتقلت إلى جانبها العادات الشرقية، سيما لدى سكان جنوب فرنسا^(٥).

وعلى هذا كان اطلاع الفرنجة على تلك المعارف إيجابياً على أوربة بالذات ما هم في تغيير مصيرها المستقبلي^(٦) فانتقلت جراء ذلك من عصر الإقطاع إلى عصر جديد أكثر انفتاحاً هو عصر النهضة.

(١) ورد: المرجع المتقدم، ص ١٥١.

(٢) سميح الزين: تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً، دار الأندلس، بيروت، ط ٣، ١٩٨١، ص ١٥١.

(٣) ابن فضل الله العمري: المصدر المتقدم، ص ٢٠٢/ حتى: تاريخ لبنان منذ أقدم العصور، ص ٣٥٢.

(٤) حتى: المرجع نفسه، ص ٢٣٢.

(٥) عاشور: أوربة العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١، ١٩٨٦م، ص ٤٧٥ — ٤٧٧.

(٦) أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، دار ثقافة، ١٩٧٢م، ص ٢٩، ٣٠.

الفصل الثاني

الاحتلال الصليبي للساحل الشامي

- ١- الأوضاع العامة للساحل الشامي قبيل الاحتلال.
- ٢- وصول الحملة الصليبية الأولى إلى المنطقة واحتلال الساحل.
- ٣- الأوضاع الإدارية والسياسية للساحل تحت الاحتلال.
- ٤- دور المدن الإيطالية التجارية.

الأوضاع العامة للساحل الشامي قبل الاحتلال الفرنسي:

بدأ الفرنج يتدفقون على المنطقة في الوقت الذي كان فيه شمال الشام يحكم من قبل أمراء سلاجقة مستقلين عملياً. فيما كان جنوبها تابعاً للخلافة الفاطمية، وقد كانت البلاد بجمالها لسنوات طويلة موضوع نزاع بين الأتراك السلاجقة والفاطميين في مصر، وكانت أقسام أخرى منها في عهدة زعماء محليين من المغرب، وكانت أنطاكية واللاذقية وجبلية من أهم المدن الواقعة في هذه الأجزاء، وقد دخلت تحت الحكم البيزنطي منذ القرن ٤هـ / ١٠م. زمن الصراع مع الدولة الحمدانية بزعمامة سيف الدولة الحمداني "فقد قصد ملك الروم حمص وكان أهلها قد انتقلوا عنها وأخلوها.. ورجع إلى بلدان الساحل فأتى عليها نهباً وتخریباً".^(١)

وبدءاً من أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد عاشت المنطقة الساحلية حالة من الفوضى السياسية والاقتصادية والعقائدية.

سنعرف الآن إلى تابعة هذه المدن الساحلية مدينة مدينة وبدءاً من الشمال: السويدية: خضعت لسيطرة سلاجقة الروم ٤٧٧ هـ / ١٠٨٥م^(٢) الذين استخلصوها بدورهم من أيدي البيزنطيين^(٣)، ومنذ دخول المدينة تحت حكم السلاجقة لم تنعم بالاستقرار السياسي شأنها في ذلك شأن الشرق الأدنى الإسلامي في تلك الحقبة^(٤) كان يحكمها ساعة إلقاء الفرنجة الصليبيين الحصار عليها حاكم

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٢٩٦/ ابن العديم: زبدة الطلب، ج ١، ص ١٣٢ - ١٤٠/ كردعي: خطط، ج ١، ص ١٨٧.

(٢) كانت أنطاكية بيد ملوك الروم في سنة ٣٥٨ هـ إلى أن افتتحها الملك سليمان بن شهاب الدين بن قتلмыш خلاجوقي في سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤م وبقيت في يده إلى أن تم تداولها أيدي المتغلبين من ملوك الإسلام أمراءهم حتى استقرت بيد يغني سيان وهو يخطب فيها للملك رضوان بن تنش صاحب حلب ولأخيه الملك دقاق صاحب دمشق.

انظر: المقدسي: المصدر المتقدم، ص ٦٢ / النويري: المصدر المتقدم من خلال الموسوعة الشامية، ج ٢٢، ص ٣٧١.

(٣) د. زكار: الحروب الصليبية، ج ١، ص ٥٢.

(٤) عطية: المرجع المتقدم، ص ١٠٩.

سلجوقي يدعى - يغي سيان - في حين كانت اللاذقية في أيدي الروم البيزنطيين^(١) وفي سنة ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م انتزع السلاجقة أنطاكية ثم اللاذقية من أيديهم، غير أن اللاذقية لم تثبت أن انتقلت إلى سيادة أمير شيزر - عز الدولة أبو المرفف - لدخوله في طاعة السلطان السلجوقي ملكشاه سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م، وبقيت في نفوذ المنقذين^(٢) الكنانيين أمراء شيزر^(٣) الذين امتد نفوذهم حتى الساحل، إذ لهم سيطروا على قلاع حصينة كقلعة أبي قبيس وقلعة برزية وصهيون حتى قاوم الفرنجة واستيلائهم عليها في سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م^(٤).

أما بنو عمار الذين اتخذوا من طرابلس عاصمة لهم فاستطاعوا أن يمدوا نفوذهم وسلطانهم وسيطروا على الشريط الساحلي الممتد من قلعة المرقب شمالاً حتى حدود الفاطميين جنوباً، وقد سهل حياض هاتين الأسرتين (بني منقذ وبني عمار) في زحف الصليبيين جنوباً نحو بيت المقدس^(٥) وهذا ما سوف نتبينه لاحقاً أثناء الحديث عن الاحتلال.

أما مدينة جبلة أولى المدن الساحلية الخاضعة لنفوذ خليفة مصر الفاطمي^(٦)

(١) الصوري: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٥٠.

(٢) كانت إمارة شيزر تمتد إلى الساحل إلا أنها في سنة ٤٩٩هـ / ١١٠٦م فقدت معظم ممتلكاتها وكانت لبني منقذ الكنانيين يتوارثونها من أيام صالح بن مرداس وكان الأخير قد ملك حلب سنة ٤١٤هـ وانتهى ملكه سنة ٤٢٣هـ.

(٣) فضل الله العمري: المصدر المتقدم، ج ٢٣، ص ٢١.

(٤) المنقديون هم أعراب من بني كنانة من خزيمة من مدركة من الياس من مضر العدنانية

(٥) النويري: المصدر المتقدم، ج ٢٨، ص ٢٦٨ / معروف رزوق: تاريخ شيزر منذ القدم وأخبار من مر بها من البشر، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٢م، ص ١٤٨.

(٦) النويري: المصدر نفسه، ج ٢٨، ص ٢٦٨.

(٤) معادة: المرجع المتقدم، ص ٢٨ / فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٣، ج ٢، ص ١٥١.

ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٠.

(٥) رنسيما: المرجع المتقدم، ج ٢، ص ٢٦.

(٦) وليم الصوري: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥١.

كان يترعما القاضي ابن صليحة^(١) سنة (٤٩٤هـ / ١١٠١م) فتنازل عنها إلى طغتكين^(٢) (٤٩٧ - ٥٢٢هـ / ١١٠٣ - ١١٢٨م) أتابك دقاق صاحب دمشق (هذا يعني أن جبلة كانت في فترة زمنية من المدن التي تبعت لأتابكيه دمشق، ومنه انتقلت إلى بوري الذي أساء السيرة في أهل جبلة مما اضطرهم إلى شكواه إلى فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس^(٣)) فأنهض إليهم عدة وافرة من عسكره فخلت الثغر واجتمعت مع أهله على الأتراك فقهرهم وأخرجوهم منه ملكوه^(٤).

وملك ابن عمار مدينة جبلة سنة ٤٩٤هـ / ١١٠١م وأسر بوري فأحسن إليه ابن عمار وسيره إلى أبيه طغتكين، أما القاضي ابن صليحة فقصد بأهله دمشق ثم بغداد^(٥).

(١) ابن صليحة (قاضي جبلة): هو أبو محمد عبد الله بن منصور المعروف بابن صليحة، وقد كان والده رئيسها أيام كان الرومان مالكيها لها على المسلمين يقضي بينهم فلما ضعف أمرهم وملكها المسلمون صارت تحت حكم جلال الملك أبي الحسن علي بن عمار صاحب طرابلس.

(٢) ابن الأثير: إنه بعدما توفي منصور قام ابنه أبو محمد مقامه وأحب الجندية فظهرت شهرته حينها أراد بن عمار القضاء عليه فاستنصر منه وعصى عليه وأقام الخطبة العباسية فبذل ابن عمار ندقاق بن تنش مالا ليقتله يحضره ففعل وحضره فلم يظفر منه بشيء وأصيب صاحبه أتابك طغتكين بنشابه في كتفه و بقي أثرها بقي أبو محمد بها مطاعاً إلى أن جاء الفرنج فحاصروها.

ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٤٤٦، ٤٤٧.

(٣) توفي طغتكين صاحب دمشق في ثامن صفر سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٩م.

ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ٩، ص ١١.

(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٤٤٧ / أبو الفداء: المختصر، مجلد (١)، ص ١٢٩ / الأصفهاني: البستان الجامع، ص ٣٣٥ / ابن الوردي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٢٢ / كردعلي: خطط، ج ١-٢، ص ٢٥٦.

(٥) ابن القلانسي: المصدر المتقدم، ص ٢٢٦ / كردعلي: المرجع نفسه، ص ٢٥٧ / د. جوني: المصدر المتقدم، ص ٩٥.

(٥) ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٢.

وفي جبال النصيرية:

قامت إمارتان صغيرتان، حيث حكم بنو محرز في المرقب والقدموس^(١) بينما اقتسم منطقة العاصي كل من خلف بن ملاعب أمير أفامية^(٢) الذي اعترف بسيادة الفاطميين وبنو منقذ أمراء شيزر، وكان أميرها آنذاك - عز الدين أبو عساكر - سلطان المنقذي^(٣) وجناح الدولة أتاك رضوان صاحب حلب استقل مصر، أما حلب فكان بها رضوان ودمشق كان يحكمها دقاق. بينما حكم منطقة الجزيرة شرقي حلب أفراد من أسرة أرتق لجؤوا إليها بعد ما طردهم الفاطميون من فلسطين سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م، أما فيما يتعلق بجزيرة أرواد فمن المعروف أنها ارتبطت مصيرياً بطرطوس، فحيثما تذكر طرطوس تذكر معها أرواد والعكس صحيح^(٤) إلا أن المصادر التاريخية لم تذكر لنا أية معلومات عن تلك الحقبة الزمنية، ومن المعلوم أن البيزنطيين سيطروا على طرطوس مؤقتاً خلال القرن ٤هـ/١٠م، ثم خضعت لأمير طرابلس إلى أن أخذها منهم الفرنجة الصليبيون في منتصف سنة ٤٩٢هـ/شباط ١٠٩٩م أثناء مرورهم عليها في طريقهم نحو القدس إلا أنها استردت بعد انسحابهم على يد أمير طرابلس^(٥)، وقد وجد نزاع حاد وتحاسد بين الجماعات الإسلامية هذا من جانب، إضافة إلى أن مكاتبات الولاية أدت بدورها إلى ولادة حالة من الوضع القلق في المنطقة بعيداً

(١) ذكر ابن الوردي أن الاسماعيلية اشترت في سنة ٥٢٧هـ/١١١٣م.

الوردي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٦٠.

ابن منقذ: المصدر المتقدم، ص ١٢٣.

زكار: الحروب الصليبية، ج ١، ص ٢٥/ رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٢، ص ٢٨ - ٢٩.

عز الدين أبو عساكر سلطان: تولى إمارة شيزر بعد أخيه عز الدولة أبو المرفع نصر بن علي سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م وهو عم الفارم الأمير أسامة بن منقذ وكان والد أسامة قد امتنع عن تولي شؤون الإمارة بعد أخيه لورعه وتقاه..

قلعة الحصن: المرجع المتقدم، ص ٣٦.

(٤) وليم الصوري: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٣٨٧/ دي فثري: المصدر المتقدم، ج ٣٣، ص ١٥٠.

(٥) حتى: تاريخ سورية ولبنان، ج ٢، ص ١٥٩.

عن تكوين جبهة موحدة تقف في وجه كل محتل قادم جديد^(١)، وفي ظل هذه الظروف الحرجة مجتمعة وردت الأخبار بوصول الصليبيين إلى الحدود الشمالية لبلاد الشام سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٨^(٢)، وأوقعهم هذا النبأ في اضطراب فعدلوا عن الدفاع والمواجهة، وتفرق الجيش بدلاً من أن يتوحد مما جعل الفرصة مهيأة أمام الغزاة وسهل دخولهم للمنطقة بيسر، كما كانت بالوقت نفسه الفرصة الكبرى التي عمل على انتهازها كل طرف من الأطراف المحلية المتنازعة لاستخدامها كأداة ضد بعضهم بعضاً.

(١) حجازي: المرجع المتقدم، ج ٢، ص ٢٩١.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٤١٥.

وصول الحملة الصليبية الأولى إلى المنطقة واحتلال الساحل

وصول الحملة الأولى إلى المنطقة (الاحتلال):

تألفت الحملة الأولى من شعوب وأمم أوروبية اتخذت طريقها عبر آسيا الصغرى التي كان قد استولى عليها السلاجقة، وبعدها غادرت الحملة القسطنطينية بعدما بقوا فيها مدة. أثاروا خلالها نقمة السكان عليهم لكثرة الأفعال المشينة التي اقترفوها بحق الأهالي والمدن، وأول مدينة استولت عليها هذه الحملة بعد أن غادرت القسطنطينية كانت مدينة نيقية^(١) سنة ٤٩٠ هـ / شهر حزيران ١٠٩٧ م وذلك بعد قتال عنيف، ثم واصلت الحملة زحفها فاستولت على مدينة اسكي شهر (دوريليوم)^(٢)، وهكذا تمكن الإمبراطور البيزنطي من استرجاع بعض المدن التي فقدتها واستولى عليها السلاجقة، وذلك بناء على الاتفاقية التي عقدها مع زعماء الحملة الأولى حيث تعهدوا له برد ممتلكات بيزنطة، وواصل الصليبيون زحفهم لكنهم ما إن قطعوا جبال طوروس حتى بدأت المنافسة بين قوادهم، فأخذ كل من القواد يضع الخطط اللازمة للاستيلاء على مقاطعة ينصب نفسه أمير عليها. لذلك اتجه بلدوين دي بولليون أحد قواد الحملة البارزين شرقاً نحو مدينة الرها^(٣) التي كانت تحت حكم الأرمن، وتمكن من احتلالها ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م^(٤). وهكذا تأسست الإمارة اللاتينية الأولى، أما القائد النورمندي تكريد فقد اتجه إلى كيليكية التي يقطنها شعب مسيحي فاحتل (طرسوس) كيليكية. والمدن المجاورة لها، أما القسم الأكبر من الحملة فكان هدفه

(١) نيقية: مدينة قديمة في آسيا الصغرى، وكانت عاصمة دولة السلاجقة الروم وهي قريبة من القسطنطينية.

(٢) الأكسياد: من خلال الموسوعة، ج ٦، ص ٩٦، وما بعدها / ابن القلانسي: من خلال الموسوعة، ج ١١، ص ٤ / العظمي: تاريخ حلب من خلال الموسوعة الشامية، ج ١١، دار الفكر للطباعة، دمشق ١٩٩٥ م ص ٤٩ / النويري: من خلال الموسوعة، ج ٢٢، ص ٣٧١ - ٣٧٢.

(٣) بنيامين: المصدر المتقدم، ص ٣٢.

(٤) الأصفهاني: البستان، ص ٣٣٤ / ابن أبي الدم: التاريخ المظفري، من خلال الموسوعة الشامية، ج ٢١، دار الفكر للطباعة، دمشق ١٩٩٥ م ص ٩٦٧٤.

المقدس وكانت مدينة أنطاكية أول مدينة في بلاد الشام على طريق الحملة فتمركز الجيش الصليبي أمام أسوارها في ٢٩ شوال سنة ٤٩٠هـ/ ٢٢ تشرين الأول ١٠٩٧^(١)، وبعد اختلاف وجهات النظر بين قادة الفرنج بشأن الإسراع والهجوم على المدينة، أو إرجائه لمدة من الزمن انتصر الرأي الأخير حيث استمر الفرنج في حصارهم للمدينة ما يقرب تسعة أشهر وقيل ثمانية أشهر^(٢) خلال هذا المدة لم تحدث معارك حاسمة بين يغي سيان والصليبيين إنما كانت عبارة عن مناوشات صغيرة لا غير. فالفرنج ينتظرون سقوط أنطاكية بينما ينتظر يغي سيان وصول النجيدات إليه من حكام المسلمين دون جدوى، وإذا أمعنا الآن في الموقف نجد أنه لم يبق أمام الصليبيين سوى سقوط أنطاكية حتى يبلغوا حلمهم المنشود (بيت المقدس) فأنطاكية كانت بمثابة مفتاح سورية إلى الجنوب وإذا سقط الرأس فني الجسد أي لن تبقى هناك قوة تقف أمام الفرنج وهم في طريقهم إلى بيت المقدس كل ذلك والمسلمون لا يدركون طبيعة الحركة الصليبية وهدفها، والسبب هو الانشقاق السياسي والخلافات المذهبية والمصالح التي كانت أقوى من وجود خلافتين إسلاميتين في المنطقة وأقوى من تفكير الحكام المسلمين في المصالح العام لأمتهم لذا تمكن الفرنج وبمساعدة الأساطيل الجنوبية من أخذ أنطاكية وسلمت المدينة للصليبيين بعد خيانة فيروز الذي كان يتولى حراسة برج الأختين الواقع في الجهة الجنوبية الغربية من أسوار المدينة، فقد تمكن الفرنجة من تسلق أسوار البرج الذي كان أمر الدفاع موكلاً إليه، وقد أثار سقوطها بأيديهم موجة من الذعر في البلدان الإسلامية المجاورة، كما كان لسقوطها أيضاً أثر عظيم على مستقبل العلاقات الفرنجية البيزنطية ونشوء معضلة تسمى المسألة الأنطاكية أو مشكلة أنطاكية.

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩٠، ص ٤١٥ / العظمي: المصدر المتقدم، ص ١٤٩/ ابن العديم: الموسوعة، ج ١٦، ص ٣٢/ عاشور: الحركة، ج ١، ص ١٩١.

(٢) ابن القلانسي: الموسوعة ج ١١، ص ٤/ الأصفهاني: البستان، ص ٣٣٤/ العظمي: المصدر نفسه، ص ١٤٩.

مشكلة أنطاكية

كانت أنطاكية من أغنى المدن جميعها في الشرق بفضل ما امتازت به من موقع فريد جعلها واسطة التجار بين حلب وإقليم الجزيرة هذا من ناحية والغرب الأوروبي من ناحية ثانية فضلاً عما اشتهرت به من صناعات كالأقمشة والسجاد والخزف، لذلك لا عجب إذا اشتد التنافس عليها بين مختلف الأطراف لا سيما الفرنجة الصليبيين على امتلاكها بالذات، وهنا نلاحظ أن مشكلة أنطاكية لم تكن مشكلة داخلية بين زعماء الفرنجة فقط وإنما كان لها وجه آخر خطير يتعلق بحقوق الامبراطورية في تلك المدينة، وهي حقوق لها سندها التاريخي والقانوني حسب زعمهم. ولهذا لم يستطع الأباطرة البيزنطيون مثل الكسيوس كومنين خلفاؤه أن يتناسوا حقوقهم في أنطاكية حتى بعدما سقطت هذه المدينة في أيدي الصليبيين^(١)، وبقيت هذه المسألة في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر للميلاد على رأس المسائل الشائكة لسياسية بيزنطة في بلاد الشام، فقد أدت إلى تعقيد الموقف الصليبيين والبيزنطيين من جهة. وتعقيد الموقف بين زعماء الحملة الصليبية الأولى من جهة ثانية. هذا وقد حاولت قوات الحلفاء السلجوقية بقيادة قربوغا أتابك الموصل إنقاذ المدينة بعد مدة من سقوطها، فحاصروا المدينة بعد حنالتها وخلصوا في السويدية خلقاً كثيراً من الأسرى المسلمين فخرج إليهم الفرنج. وانهزم المسلمون دون قتال. وملك بوهمند وحده أنطاكية^(٢) ورفض عاودتها إلى البيزنطيين، كما أن الصراع والشقاق بين صفوف الحلف الإسلامي أمام قربوغا من ناحية والعرب من ناحية أخرى^(٣) من الأسباب التي أدت إلى

(١) عاشور: المرجع نفسه، ج ١، ص ٣٠١، ٣٠٢.

(٢) ابن العديم: زبدة، ج ٢، ص ١٣١/ ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ٨، ص ٤١٥-٤٢٠ حوادث سنة ٥٤٩١.

(٣) العظيمي: الموسوعة، ج ١١، ص ١٤٩/ الأصفهاني: البستان، ص ٣٤/ البدر العيني: الموسوعة، ج ٢٤، ص ٨/ ابن أبي الدم: الموسوعة ج ٢١، ص ٩٦٧.

الفارقي (أحمد بن يوسف) تاريخ آمد وميا فارقين من خلال الموسوعة الشامية، ج ١١، دار الفكر، دمشق ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص ٢٦٨.

إخفاق تلك الحملة السلجوقية. مما مكن الفرنج على الرغم من ضعفهم^(١) إنزال هزيمة قاسية بقوات الحلف الإسلامي، ولاذقربوغا وجماعته بالفرار في رجب ٤٩١هـ/ حزيران ١٠٩٨م تاركين وراءهم أمتعتهم وأثقالهم، ويمكن القول إن معركة أنطاكية وهزيمة قريوغا وطدت أقدام الإفرنج في أنطاكية وقلعتها، كما أنها أظهرت عجزت السلاجقة عن وقف تيار الغزو الصليبي.

وحدث أن تعرضت قوات روبرت فلاندر عند البارة للهجوم أثناء عودته من حملته مع بوهمند للإغارة على قرى جنوبي أنطاكية من أجل الحصول على مؤن كافية للجيش الصليبي الذي كان يعاني من قلة الإمدادات إلا أن تدخل بوهمند في الوقت المناسب أنقذ روبرت، وكان ذلك في ١٦ محرم ٤٩٢هـ/ ٣١ كانون الأول ١٠٩٧م^(٢) وعاد بوهمند بصحبة روبرت إلى المعسكر الصليبي دون تحقيق الهدف من حملته، أما المسلمون فقد عادوا إلى دمشق مهزومين ولم تحل هذه الهزيمة بهم لو أن دقاق أكمل مسيرته صوب أنطاكية حيث كانت فرصته في الفوز أكيدة نظراً للظروف السيئة التي عاشها الفرنجة، ولاسيما المجاعة في السنة التي احتل فيها الفرنج أنطاكية. "وكان الغلاء العظيم المعروف بعام مجامع"^(٣). لقد أودت هذه المجاعة بحياة الكثيرين إضافة إلى انحطاط الروح المعنوية بين الفرنجة الأمر الذي أدى إلى هروب بعض قادتهم، مما زاد من ضعفهم هو مؤامرة بوهمند التي أدت إلى رحيل الحامية البيزنطية بقيادة تاتيكوس في صفر ٤٩٢هـ/ كانون الثاني ١٠٩٨م ليخلوا الجو أمام بوهمند للاستيلاء على أنطاكية دون منازع^(٤).

(١) ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ٢١٦.

(٢) البارة: أهلها من بهراء وتنوخ، حاصر صنجيل الفرنجي هذه المدينة سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م فقل الماء عنهم مما اضطرهم إلى تسليمها بالأمان.

اليقوي: المصدر المتقدم، ص ٨٦/ ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ٢١٦.

(٣) ابن أبي الندم: من خلال الموسوعة، ج ٢١، ص ٩٦٧٤.

(٤) العظمي: من خلال الموسوعة، ج ١١، ص ١٤٩.

تحديد خط سير الحملة:

وفي ٢٥ ذو الحجة ٤٩١هـ / تشرين الثاني ١٠٩٨م، عقد الفرنجة اجتماعاً في كاتدرائية القديس بطرس لتحديد خط سير الحملة وتقرير مصير المدينة^(١) ظهر الخلاف واضحاً بين بوهمند النورمندي وريموند الصنجيلي حول أحقية كل منهما في ملكية المدينة دون النظر لأحقية بيزنطة في ملكيتها^(٢)، مما أثار السخط والتذمر بين الجند وبقية الفرسان الإفرنج، وخاصة بعد ما وصلتهم الأنباء بسقوط مدينة القدس بأيدي الفاطميين سنة ٤٩١هـ / ٢٦ آب ١٠٩٨م، بعد حصارها ما قرب من الشهر^(٣)، مما ضاعف من غضبهم واتهموا بوهمند وقادتهم بخيانة القضية الصليبية وهددوا قاداتهم بالتخلي عنهم وبهدم أنطاكية وأسوارها^(٤)، لقد صار هنا التذمر والتهديد مخاوف بوهمند وريموند وبقية القادة الذين قرروا في النهاية الاستيلاء على معرة النعمان^(٥)، وهي مدينة كبيرة. عامرة. كثيرة المباني والأسواق^(٦) كانت هذه المدينة بمثابة الحد الشمالي الشرقي لأنطاكية، واستسلمت مدينة للفرنجة بعد حصار دام حوالي الأسبوعين في ١٢ محرم ٤٩١هـ / ١١ كانون الأول ١٠٩٨م^(٧) لكنهم لم يحترموا الأمان الذي منحوه لأهالي المدينة، فارتكبوا بحقهم مذبحه مروعة راح ضحيتها الكثيرون منهم^(٨)، هذا وقد اعترفت

(١) جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، النهضة العربية، بيروت، ٣، ١٩٨١م، ص ٢٤٥ / صلاح الدين نواز: العدوان الصليبي على العالم الإسلامي، دار الدعوة، القاهرة، ١٩٩٣ م، ص ٧١.

(٢) عاشور: الحركة، ج ١، ص ٢١٢-٢١٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ١٩٠ / ابن العبري: المصدر المتقدم، ص ٣٦٩.

(٤) الأصفهاني: البستان، ص ٣٣٤ / الصوري: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٥٧.

(٥) مؤرخ مجهول: المصدر المتقدم، ص ٦٨.

(٦) كانت تسمى ذات القصور أما تسميتها معرة النعمان نسبة إلى الصحابي الجليل - النعمان بن بشير.

الهروي: المصدر المتقدم، ص ٧.

(٧) الإدريسي: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٦٥٢.

(٨) بقيت معرة النعمان بأيدي المحتلين إلى أن فتحها عماد الدين الزنكي ٥٢٦هـ / ١١٣٣م.

ابن الوردي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٦٥ / الألكسياد: من خلال الموسوعة ج ٦، ص ١٦٠.

(٨) ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ٨، ص ٤٢٠ / ابن القلائسي: المصدر المتقدم، ص ٦-١٣ / العظمي: المصدر

المتقدم، ص ٣٧٢ / ابن العديم: زبده، ج ٢، ص ١٤١-١٤٢ / ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ٢١٧ / ابن

أكثرية المصادر بهول تلك المذبحة الرهيبة^(١).

نشوب صراع بين بوهمند وريموند حول هذه البلدة (المعرة):

نشب صراع جديد بين بوهمند وريموند حول مدينة المعرة، وعقد القادة اجتماعاً بها لحل هذا النزاع في صفر ٤٩٢هـ/ أول كانون الأول ١٠٩٩م، مما أدى إلى إثارة السخط ثانية بين الجند على قادتهم بسبب ذلك الصراع عند كل فرصة يستولون عليها، وهدد الجند البروفنسال بالتخلي عن قائدهم ريموند إلا أن الأمر انتهى بخروج ريموند بقواته من المعرة متجهاً إلى القدس، وانضم إليه بذلك أغلبية الجند الصليبي حيث انضم إليه كونت نورمندي تاركين وراءهم بوهمند الذي فضل البقاء في أنطاكية لتحقيق حلمه الكبير في تكوين إمارة له، كما استقر بلدوين البولوني في الرها، ومهما قيل إنما اختاراً ألا يصبحوا بقية الزعماء الصليبيين حرصاً على مصالحهما الخاصة أولاً ورغبة في الاحتفاظ بالمكاسب التي حققوها ثانياً، كما أن بقاءهما حمى ظهور ما بقي منهم من خطر السلاجقة أثناء الزحف^(٢)، وتحركت البقية المتبقية من القوات الصليبية جنوباً نحو القدس بعد أن قضت ما يقرب السنة والنصف في آسية الصغرى شمال الشام في تشرين الأول سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م إلى كانون الأول سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م، وساروا من معرة النعمان إلى كفرطاب^(٣)، وقيل عند البعض آخر أنهم توجهوا إلى حمص^(٤) المهم مكثوا بكفرطاب إلى ربيع الأول سنة ٤٩٩هـ/ كانوا الأول ١٠٩٩، ثم لحق بهم روبرت النورمندي وهناك قدم عليه

(١) ابن القلانسي: المصدر المتقدم، ص ١٣٦ - ١٤٢/ وليم الصوري: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٤. ابن الشحنة: ص ٢١٦-٢١٧/ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٢، ج ٥، ص ١٤٦.

(٢) وليم الصوري: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٤٢/ الانكسباد: المصدر المتقدم، ص ١٦١.

(٣) عاشور: الحركة، ج ١، ص ٣٠١.

(٤) الصوري: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٨٥.

(٥) البدر العيني: المصدر المتقدم، ص ٩.

أيضاً رسل من أمير شيزر يعرضون عليه شروطاً مقابل المرور بأرضهم، وهي ألا يتعرضوا لأحد أثناء اجتيازهم للبلاد، ووعد بتقديم الأدلاء والإمداد مقابل ذلك فوافق ريموند على ذلك وسار الصليبيون إلى حماة بواسطة الأدلاء الذين قنمهم أمير شيزر كما سلف، فطلب منهم صاحب حماة عدم التعرض لأهلها بأذى، ثم تفقد ريموند مجلساً حربياً قرّر فيه تحديد سير حركة الجيش على الساحل، وعدم إضياع الوقت أثناء مسيرهم إلى بيت المقدس. على هذا المنوال كان تقدم الصليبيين خالياً من أية مقاومة على وجه التقريب باستثناء الإغارة على مؤخرة الحملة بين الحين والآخر وسرقة المرضى والشيوخ في حين بدأت رسل بعض الإمارات الإسلامية الصغيرة تفد على الفرنج تخطب ودهم وتعرض عليهم تختلف أنواع الهدايا من ذهب وفضة وقطعان الماشية معلنة خضوعها وولاءها، وذلك حفاظاً على إمارتهم وسكانها من أعمال العنف والتخريب الذي حل ببلداتها، ولعدم وجود قوة إسلامية كبرى تحميهم من الخطر الفرنجي^(١)، وهنا لابد من وقفة قصيرة نستعرض خلالها موقف سكان المنطقة حينما واجهوا هذه القوة العسكرية الجديدة؟

يقول كرد علي: إنه حينما دخل الفرنجة إلى الساحل الشامي اتحدت جميع المذاهب على الرغم من اختلافها في وجه عدوهم المشترك، "اجتمع عربهم وتركمانهم وأكرادهم على قتال عدوهم المشترك فلم يخرج على الجماعة سوى شبيعة الساحل فإنهم اضطروا على ما يظهر إلى بذل الطاعة للصليبيين"^(٢)، كما أنهم عمدوا في مناسبات عديدة إلى نقض ولائهم وقدموا العون للفرنجة^(٣)، ولكن بالمقارنة مع ما ذكره وليم الصوري في كتابه "الحروب الصليبية" نجد اختلافاً واضحاً إذ يقول: "بأن جميع المدن التي مربها الصليبيون تلقوا فيها الهدايا التسهيلات اللازمة.." أي أنها لم تكن مقتصرة كما ذكر الأول على شيعه

(١) الصوري: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٣٨٥.

(٢) كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، القاهرة، ط ٢، ١٩٥٠، ص ٣٠١.

(٣) حتي: تاريخ سورية، ص ٢٥٩.

الساحل إذا صح التعبير، وإذا كان ما ذكره كرد علي وجه الافتراض صحيحاً، فإن وليم الصوري لم يذكر من هذه المدن التي اعتزت بنفسها، وأبت مساعدة الفرنجة سوى مدينة واحدة لم يشر إلى اسمها هي التي امتنعت عن تقديم تلك التنازلات، "ولم توجد مدينة أو بلدة على يمين أو يسار هذا الإقليم الذي سار عليه الصليبيون إلا وبعثت بهداياها إلى الجيش وقواده، مصحوبة بالتماساتها في عقد معاهدة صداقة معه، ولم يشذ عن هذه القاعدة كلها سوى مدينة واحدة قد أخذت العزة أهلها بالثقة في عددهم الكبير وحصانة الدفاع عن بلدهم.." (١).

فإذا كانت وجهة النظر هذه صحيحة، فلماذا إذا هرب معظم سكان المنطقة إلى الجبال؟..

قالت المصادر بأن أول من قدم هذه العروض صاحب شيزر- عز الدين أبو عساكر سلطان بن منقذ (٤٩١-٥٤٨/١٠٩٨-١١٥٤م)، وأرسل لهم بعض الأتراك في ٢١ صفر سنة ٤٩٢هـ / ٦ كانون الأول ١٠٩٩م لإرشاد الجيش الفرنجي في عبور إقليم نهر العاصي (٢)، وبذلك ضمن الفرنج تأييد واحدة من شيوخ الأكراد العرب أو على الأقل حيادها أثناء زحفهم نحو الجنوب خاصة وأن مرة بني منقذ في شيزر كانت تسيطر على البلاد الواقعة مباشرة في طريق الفرنج والتي امتدت من نهر العاصي إلى الساحل (٣)، ولم يبق أمامهم إلا تأمين صداقة وحياد أسرة بني عمار في طرابلس (٤).

(١) وليم الصوري: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٣٨٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ١٩٠، حوادث سنة ٥٤٩٢هـ / مؤرخ مجهول: يوميات صاحب أعمال الفرنجة من خلال الموسوعة الشامية ج ٦، دار الفكر للطباعة، دمشق ص ١٦١.

(٣) مؤرخ مجهول: المصدر نفسه، ص ١٦١.

(٤) رنسيان: المرجع المتقدم، ج ١، ص ٣٧٧.

أسباب اختيار الفرنج الطريق الساحلي:

تابع الجيش الصليبي تقدمه جنوباً نحو القدس. فسلك أحدهما (الكونت ريموند الصنجيلي) الطريق الداخلية، بينما سلك المتبقون في أنطاكية وعلى رأسهم (غودفري) الطريق الساحلية^(١) فيما بعد.

واختلفت وجهات النظر حول ذلك، فقد رأى ريموند الصنجيلي^(٢) أن طبيعة البلاد الجغرافية والظروف السياسية المحيطة بهم تحتم عليهم اتخاذ طريق الساحل^(٣) وذلك من أجل:

— الحصول على مؤن وامدادات كافية من البحر عن طريق الأساطيل الإيطالية^(٤) التي اتخذت من موانئ سورية مثل السويدية واللاذقية قواعدها.

— تأمين اتصالهم بالمدن الأوروبية وبالوطن الأم حصراً.

— من أجل قطع الطريق على الأسطول الفاطمي وأعماله العدوانية عليهم.

— نقل الحجاج والعساكر والنزلاء من الفرنج على سفنهم إلى الشرق أو العكس.

— استهواء الصليبيين شهرة مدن الشرق وموانئه من الحضارة وارتفاع

ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٤٢٠.

كان ريموند رجلاً غنياً يقود جماعة الفرنسيين الجنوبيين البروفنس.

أبو الفداء: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ١٣٥ / ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٩٠.

اعتاد غزاة البلاد الشامية من الشمال سلوك الطريق الساحلية فالتقدم شمالاً أمامه طريقان:

أولى: بحرية تمر في اللاذقية فالساحل الفينيقي وهي الطريق التي اختارها الإسكندر وكثير من غزاة القدماء كالآشوريين.

الثانية: فهي طريق داخلية تمشي نهر العاصي إلى حماة فحمص ثم تتعطف غرباً مع وادي النهر الكبير حتى البحر الشمالي طرابلس وتستمر في حمص وفي سهل البقاع وتتصل أخيراً بالساحل جنوباً عند بداية سلسلة لبنان، وهذه الطريق هي التي سلكها معظم الفاتحين والغزاة وهي التي أثرها أكثر الصليبيين لاحقاً.

ابن منذر: المصدر المتقدم، ص ٨٥.

(٤) وليم الصوري: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٣٩٨، ٣٨٥.

مستوى الحياة فيها^(١).

لكن اتخاذ الطريق الساحلي لم يرق في عيني تنكريد بسبب تناقص عدد الجيش والمؤن، كما أن اتخاذ مثل هذا الطريق يستلزم منهم حصار العديد من الموانئ والمدن الساحلية مثل جبسلة وطرطوس وغيرها مما يتطلب تضحيات كبيرة هم في غنى عنها لهذا اقترح تنكريد اتخاذ الطريق الداخلي (عبر وادي العاصي توفيراً للوقت) والجهد أولاً، وتجنباً للمشاكل ثانياً، خاصة وأن الفرنج كانوا في أشد الحاجة للبقية من جنودهم، فسار على الطريق الداخلية الكونت ريموند الصنجيلي الذي كان يأمل بالفوز بأنطاكية. لكن الآخرين أنكروها عليه لي حين نجد أن وليم يقول إنه بعدما سار الفرنج بضعة أيام في الطريق الداخلي تفقوا جميعاً على العودة إلى الطريق الساحلية من أجل التأكد من وضع القادة الفرنج الآخرين الذين تركوهم في أنطاكية ليلاحقوا بهم فيما بعد، ومن أجل تأمين وراء ما يحتاجونه من مواد تحملها السفن القادمة من أنطاكية واللاذقية^(٢). وفي سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م غادر ريموند الصنجيلي منطقة الروج التي احتلها وهاجم جبسلة^(٣)، وسبى أهلها وفي أثناء سير الفرنج قام أدلاء السلطان المنقذي بإرشادهم إلى الطريق حتى وصلوا إلى مصياف في ٢٥ صفر سنة ٤٩٢هـ/ ٢٢ كانون الثاني ١٠٩٩م، فخرج أميرها العربي وعقد اتفاقية مع ريموند الصنجيلي فتابعوا بحفهم إلى أن وصلوا البقعة^(٤) وهرع سكانها للاحتماء بحصن قريب دعي حصن الأكراد (قلعة الحصن) الذي أسقطه الفرنجة في الثالث من ربيع الأول من السنة نفسها وفيها احتفل الفرنج بذكرى دخول المسيح الهيكل، ووفدت عليهم

(١) رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٣، ص ٥٩٩.

(٢) وليم الصوري: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٣٨٥.

(٣) يوميات صاحب أعمال الفرنجة: من خلال الموسوعة، ج ٦، ص ٢٥٦٦.

ويقول اليعقوبي عن أهل البارة بأنهم من بهراء. وتتوخ.

انظر: اليعقوبي: المصدر المتقدم، ص ٨٦.

(٤) ابن جبير: المصدر المتقدم، ص ٢٨٣/ الحموي: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٦٩٩/ ابن الوردي:

المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٢٢٠/ الألكسياد: المصدر المتقدم، ص ١٦٢.

رسل جناح الدولة صاحب حمص محملة بالهدايا والأموال طلباً للسلامة والأمان^(١)، وبدا هذا الموقف مخزياً للغاية دل على السلبية أمام الزحف الصليبي على بلاد الشام، وسرعان ما نزل الفرنجة على مدينة عرقه الحصينة في منطقة عكار^(٢) الغنية بمياهها وثرواتها الطبيعية فتوقفوا عندها، فلماذا توقف هاهنا الفرنجة ولم يكملوا المسير؟

ذكر وليم الصوري أسباباً جعلت الفرنجة يتوقفون في عرقه ويحاصرونها مائلاً: إنه كان في مدينة طرابلس أكثر من مائتي مسيحي محتجز هناك، وعندما سمعوا باقتراب الجيش المسيحي أبلغوا القادة بوجوب مرورهم على عرقه ومحاصرتها مهما كلف الثمن لأنه من المحتمل أخذها في أيام قليلة، وإذا لم يكن ذلك فبإمكان القادة على الأقل ابتزاز مبلغ كبير من المال من حاكم طرابلس ثمناً لبقاء على المدينة وإطلاق سراح إخوانهم المحتجزين فيها وبالفعل عمل القادة هذه النصيحة وحاصروا عرقه وكان في ذهبنهم هدفان:

الأول: هو التأكد من صحة المعلومات التي وصلت إليهم.

أما الثاني: فهو من أجل انتظار إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم في أنطاكية^(٣)، ضرب الحصار حول عرقه من شهر شباط إلى منتصف شهر أيار يوم الاثنين ٢ ربيع الأول سنة ٤٩٢هـ / ١٤ شباط ١٠٩٩م^(٤) أدرك الأمير فخر الملك أبو علي بن عمار أمير طرابلس) الخطر الذي يهدد إمارته وتوابعها، ورأى

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ١٩ / مؤرخ مجهول: أصل الفرنجة، ص ١٠٩ / الألكسياد: المصدر المتقدم، ص ١٦٣.

(٢) الحموي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٥٣ / خسرو: المصدر المتقدم، ص ٦ / وليم الصوري: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٤٥ / الأنطاكي: المصدر المتقدم، ص ١٢٥.

(٣) وليم الصوري: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٨٧.

(٤) الألكسياد: المصدر نفسه، ص ١٦٣.

ذكر ابن الأثير في الكامل أن حصارها دام أربعة أشهر.

ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ٨، ص ٤٢٠.

سلامة إمارته في مصانعة الفرنج مثله مثل البقية، لذا أرسل بعوثة إلى ريموند يسأل المواعدة والارتباط برباط المودة، فعقد اتفاقية مع الفرنج وأرسل إليهم العديد من الأموال والهدايا^(١)، لكن الذي حصل أثناء حصار الفرنج لعرقة أن انفردت فرقة من الفرسان تقدر بمائة فارس وفرقتان من المشاة تقدر بمائتي رجل بزيادة ريموند ببلييه. وذلك سعياً وراء الحاجات المعيشية الضرورية لهم وبحثاً على العلف لمواشيهم حتى بلغوا مدينة جميلة على ساحل البحر فحاصروها، كانت هذه المدينة انطرطوس (طرطوس حالياً).

حصار طرطوس :

نظراً لأهمية الاتصال بالحامية الفرنجية المتبقية في اللاذقية والاتصال بالبحر، حرص كل من ريموند ببلييه وريموند فيكونت تورين على أن يقوما بحجوم مفاجئ على هذه المدينة التي كانت خاضعة لأمر طرابلس آنذاك^(٢)، كان مينائها الميناء الوحيد الصالح لرسو السفن ما بين اللاذقية وطرابلس فأسرع هذان القائدان صوب طرطوس وبلغاها عند حلول الليل في ١٦ شباط، فأوقدا حولها سلسلة من معسكرات النار كي يوهما الناس أن قواتهما كبيرة جداً ونجحت الحيلة، فقد تسرب الخوف إلى قلوب أهاليها في حال أن يصبحوا عاجزين عن المقاومة غير قادرين على الصمود لذلك تسربوا في الظلام الحالك هربوا طلباً للنجاة^(٣)، وفي صبيحة اليوم التالي دخلها الفرنج وهي خاوية، ولما سمع حاكم مرقية بما حدث في طرطوس بادر بالاعتراف بسيادة ريموند. أثار هذا النجاح الحقد والحسد بين الصليبيين الذين لا يزالون بأنطاكية، وحملهم ذلك على أن يقرروا المسير جنوباً للحاق برفاقهم فقد "أمضهم الشوق للوفاء بأيمانهم فقطعوها على أنفسهم وأرادوا الوصول إلى بيت المقدس، وكنيسة القيامة

(١) مؤرخ مجهول: المصدر المتقدم، ص ١٠٩، ١١٠.

(٢) وليم السوري: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٤٧-٤٨.

(٣) مؤرخ مجهول: المصدر نفسه، ص ١١١/ وليم السوري: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٨٨.

الاكسياد: المصدر المتقدم، ص ١٦٣.

وفاضت نفوس الجميع بالرغبة العارمة في السير إلى الهدف^(١) المنشود، وفي حوالي نهاية شهر شباط توجه غودفري أمير اللورين وبوهمند وروبرت فلاندر من أنطاكية إلى اللاذقية، فلما كان اليوم الأول من شهر آذار تجمع في اللاذقية خمسة وعشرون ألف محارب في أحسن عدتهم الحربية لكن بوهمند قرر العودة إلى أنطاكية خوفاً من أن يتوجه إليها الامبراطور البيزنطي لذلك استأذنهم في الرحيل عائداً إلى إمارته^(٢).

مشكلة اللاذقية:

فكانت هي الأخرى لا تقل تعقيداً عن مشكلة أنطاكية واللاذقية كما أسلفت الحديث من أجمل المدن الساحلية بإطلالتها البحرية "ذات تاريخ موغل في القدم"^(٣)، وكان قد جاءها في سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م قائد يسمى جنيمار من لاونيا^(٤) محاولاً احتلالها، لذلك أرسى أسطوله في مدينة طرسوس من أعمال البشيرة التي وجد فيها آنذاك، لكنه لم ينجح ولم يلبث أن انتزعها منه أسطول غودفري آخر ضم بعض البحارة الإنجليز وعلى رأسهم إدجار اثلنج^(٥) بعد أن أفرغ الأخير حمولته من المؤن للصليبيين في ميناء السويدية وطرد رجال جنيمار ثم الاستيلاء على هذا البلد باسم الإمبراطور البيزنطي^(٦)، وهكذا أخفق جنيمار في تحقيق هدفه فألقي القبض عليه وزج به وبجميع من كان معه في السجن، أما غودفري ووجوه رجاله فقد التمسوا من الحاكم اطلاق سراح جنيمار

(١) ولیم الصوري: المصدر المتقدم، ص ٣٨٩.

(٢) الاكسياد: المصدر المتقدم، ص ١٦٤.

(٣) يوانس فوقاس: المصدر المتقدم، موسوعة ج ٣٤، ص ٣٨٠.

(٤) أوغونيمر أوف بولون

ولیم الصوري: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٨٩.

(٥) عاشور: الحركة، ج ١، ص ٣٠٢.

(٦) رنسيما: المرجع المتقدم، ص ٣٨٠.

لاسيما وأن الأخير من بلده بالإضافة إلى ما قدمه جنيمار من مساعدات وخدمات جلي، لذلك أطلق سراحه ومن معه ورد إليهم الأسطول الذي حملهم جميعاً، فباندروغودفري بإعادة جنيمار إلى قيادة سفنه وأمره أن يتابع رحلته بحراً بينما تابع هو سيره برأ بشكل يوازيه تأميناً للحماية، وهكذا أخذت أيادي المغامرين تتلقف اللاذقية حتى استولى عليها في النهاية ريموند الصنجيلي في شباط ١٠٩٨م / ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م فسلمها بدوره للبيزنطيين^(١).

حصار جبلة والأسباب التي جعلت الفرنجة يتركون حصارها ؟

كان ريموند الصنجيلي أمام أسوار عرقة عندما زحف الدوق غودفري قواته إلى جبلة لحصارها في جمادى الأولى سنة ٤٩٢هـ / آذار ١٠٩٩م، إذ حاول قاضيها ابن منصور إغراء الفرنج بالهدايا والأموال لرفع الحصار لكنه أخفق في ذلك^(٢) فلما أخفق مع الدوق عرض مغرباته مجدداً على كونت تولوز بما يعرفه فيه من الطمع، وقيل إنه قبلها سرّاً فبعث بأسقف البارة على رأس السفارة إلى الدوق وإلى كونت فلاندرز تلح عليه إلحاحاً قوياً في فك الحصار الإسراع لنجدة إخوانهم في عرقة^(٣).

فما الذي حدث في عرقة ؟

كان ريموند الصنجيلي يواجه موقفاً محرجاً أمام عرقة، فقد وجد نفسه محكوماً على فك حصاره لها رغم تحذير تنكريد له، إلا أن ريموند لم يتخل عن حصارها وبعد مرور شهرين لم يستطع إسقاطها نظراً لحصانتها وقوة استحكاماتها، بالإضافة إلى حاجة ريموند إلى جيش كاف من أجل عملية تطويقها من جميع الجهات لذلك كان لابد من الاستجداء بغودفري وروبرت لمساعدته في

(١) عاشور: الحركة، ج ١، ص ٣٠٢.

(٢) وليم الصوري: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٢٥٢.

(٣) عرقة: مدينة قديمة تقوم على مرتفع عند سطح قمة جبال لبنان وعلى بعد أربعة أو خمسة أميال من البحر وهي ذات تربة خصبة ورعوية جيدة بالإضافة إلى جداول المياه الجارية.

انظر وليم الصوري: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٨٦.

وقت كانت فيه صدى الشائعات الكاذبة تعمل عملها بإنزال الرعب بالفرنج لترك حصار عرقة ومؤداها أن خليفة بغداد والسلطان بركيا روق أعلن الجهاد ضد الفرنج وأنهم غادروا ديارهم على رأس جيش قاصدين طرابلس ثم عرقة للقائهم^(١).

صدق ريموند هذه الشائعات وأقنع الفرنجة بترك حصار جبلة والإسراع لمعاونة أصدقائهم في إسقاط عرقة ووافق القادة على إنهاء الحصار، فعدوا اتفاقية مع قاضيها ابن منصور - تعهد فيها بدفع جزية من المال والخيل، ولحقوا بإخوانهم في جمادى الأولى سنة ٤٩٢هـ - آذار ١٠٩٩م^(٢) فاجتازوا بانياس الساحل، ثم مروا بـ مرقية إلى أن وصلوا إلى طرطوس التي هجرها أهلها، وقد حجبته جزيرة مقابلة لها تدعى أرواد^(٣) لذلك رست بعض السفن الفرنجية في صدى المرافئ الملاحية^(٤) وهناك استفاد الصليبيون في الموقع فسلخوا أقصر الطرق المؤدية إلى عرقة، ولما وصلوا إليها نصبوا معسكرهم على مسافة بعيدة عن بعض الشيء عن معسكر رفاقهم الذين تقدموهم.

اتحاد القوات الفرنجية حول عرقة:

تجمعت القوات الصليبية حول عرقة في ١٩ ربيع الثاني ٤٩٢هـ / ٤ آذار ١٠٩٩م، وأصبحت متحدة كجسم واحد لكن المدينة أبدت صموداً كبيراً، تلاومت الحصار الذي ضرب حولها والذي استمر لمدة أربعة أشهر بلا جدوى^(٥) على ذلك قول ابن الأثير: "وحصروها أربعة أشهر ونقبوا أسوارها عدة نقوب

(١) مؤرخ مجهول: المصدر المتقدم، ص ١١١.

(٢) رنسيان: المرجع المتقدم، ج ١، ص ٤٠٤.

(٣) وليم الصوري: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٤٧-٤٨.

(٤) لم نلاحظ في المصادر العربية واللاتينية أنها توقفت عند احتلال هذه الجزيرة أو إعطاء أية تفاصيل عنها في هذه الحقبة بالذات بالرغم من أهميتها.

(٥) يقول المؤرخ المجهول أن حصار عرقة استمر ثلاثة أشهر وليس أربعة.

المؤرخ المجهول: المصدر نفسه، ص ١١٢.

فلم يقدروا عليها^(١) وسرعان ما دب الخلاف التقليدي بين القادة الإفرنج حول استمرار الحصار أولاً لأنه في نفس كل قائد مطمح بأن يكون سيداً لإمارة لا ينازعه عليها منازع، فنجد أن غودفري رفض استمرار الحصار وأراد مواصلة السير نحو القدس، لكن ريموند الصنجيلي وتنكريد عارضاه لأن مجريات الأحداث أثبتت أن كل واحد منهما كان يطمح بتأسيس إمارة له على شواطئ شمال الشام مثلما فعل بوهمند في أنطاكية، ورأى حلمه في طرابلس. هذا في الوقت الذي توالت فيه رسائل ابن عمار أمير طرابلس تعرض عليهم الهدايا مقابل خفض حصار عرقة، وهذا الأمر أدهش ريموند وجعله يصمم أكثر فأكثر على تحقيق آماله وتطلعاته المستقبلية^(٢)، والثابت في المصادر أن ريموند أحس بندم سير لاستعانته بغودفري وروبرت اللذين ناقساه بشدة على زعامة الحملة الأولى^(٢) لاسيما تنكريد، وذكر المؤرخ اللاتيني وليم الصوري أن أمير طرابلس عندما علم بهذا الخلاف بين قادة الجيش الفرنجي عمل على استغلال هذا الموقف لصالحه فبعد أن كان يغري القادة بالهدايا والأموال تراجع عن مواقفه وبدأ يعد عدة لمواجهة محاربتهم، وبينما كان الفرنج على خلافهم أمام عرقة فوجئوا بحودة البعثة الصليبية التي كانوا قد أرسلوها إلى الأفضل الفاطمي وهم في أنطاكية ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م^(٤)، كما فوجئوا بالاتصالات التي تمت بين الإمبراطور المصريين، لاسيما بعدما وقعت رسائل من الإمبراطور البيزنطي للمصريين بأيديهم فاعتبروها دليل خيانة لهم إذ كان فحواها يدور حول ما إذا كانت الحملة تعمل لصالح الإمبراطور أم لا؟ فأجاب الإمبراطور بالنفي وأنه ينكرها جملة^(٥) فتربوا من المدينة حرص أميرها ابن عمار على أخذ الأمان منهم مقابل إطلاق

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ١٩٠.

(٢) المؤرخ المجهول: المصدر المتقدم، ص ١١٢.

(٣) وليم الصوري: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٥٣.

(٤) وليم الصوري: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٦.

(٥) ابن منقذ: المصدر المتقدم، ص ٨٥/ حتى: المرجع المتقدم، ص ٣٥٢.

سراح الأسرى الذين عنده، وتعويض قدره خمسة عشر ألف دينار وخمسة عشر ألف من الجياد مع إمداد الجيش بما يحتاجه - فوافقوا، وبات هدفهم الرئيسي بيت المقدس، لذلك تابعوا سيرهم على الطريق الساحلي لميزاته، فاستولوا على عدد من المدن حتى وصلوا إلى القدس، وسرعان ما حقق الصليبيون حلمهم المنشود، لأنهم لم يصادفوا صعوبة كبيرة في الاستيلاء على المدينة من أيدي المصريين في شعبان سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م^(١)، وهكذا انتهت الحملة الصليبية الأولى بانتهاء مهمتها الأساسية ألا وهي الاستيلاء على القدس حيث قامت ثالث إمارة لاتينية صليبية.

ويبدو أن كثيراً من الصليبيين عادوا إلى بلادهم بعد أن أوفوا بقسمهم واحتلوا بيت المقدس وربما نتيجة للخلافات التي تفجرت فيما بينهم، أما القادة المتبقون فقد أغراهم الطمع بهذه البلاد، ورغبوا في تأسيس إمارات خاصة بهم مع وجود إقطاع كل منهم على الآخر.

فما الذي حدث بعد استيلائهم على القدس ولماذا التفتوا إلى الساحل الشامي مجدداً؟ وجدت مملكة المقدس أنها أمام مأزق حقيقي بالغ الخطورة نتيجة لنقص الرجال وسيطرة المسلمين على سواحل الشام ومعظم الأراضي الداخلية حينها أدرك الصليبيون حكام مملكة بيت المقدس خطورة الموقف، وضرورة الاستيلاء على سواحل الشام وموانئها لضمان الاتصال البحري بأوربة، ولأسباب أخرى ذكرت كان احتلال هذه السواحل أمراً صعباً بغير اسطول، فإن الصليبيين طلبوا مساعدات بحرية من الدول الإيطالية^(٢)، وهذه المدة الزمنية تمثل ذروة النجاحات والانتصارات التي أحرزها الفرنجة في المنطقة، رغم أنها شحيحة بمعلوماتها، متفرقة بأحداثها لاسيما تلك التي تخص هذه المدن الساحلية بالذات، وبناء على ذلك سأقتصر على ذكر أهم الأحداث التي وردت حسب المصادر المتوفرة بين يدي.

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٤٢٤ وما بعدها/ البدر العيني: المصدر المتقدم، ص ١١.

(٢) عاشور: أوربة العصور الوسطى، ص ١٤٥/ حتى: المرجع المتقدم، ص ٣٥٥ وللمزيد انظر الفصل المتعلق بالدول الإيطالية.

بقيت المدن الساحلية تتناقلها الأيدي فتارة بيد المسلمين وأخرى بيد الفرنج. أو بيد الروم البيزنطيين، لاسيما فيما يخص اللاذقية وأنطاكية، فبعد ارتحال الصليبيين إلى الجنوب كان المسلمون يحاولون استعادة ممتلكاتهم وبلادهم هذا ما فعله أمير طرابلس الذي مد نفوذه ثانية إلى طرطوس، وكذلك حال مدينة جبلة التي انتقلت ملكيتها إلى بني عمار^(١) ومن ثم إلى الفاطميين، وكلما كانت تعود الفرنجة تؤخذ منها وهكذا لم تكن تستقر السيطرة عليها.

فبعد أن تمكن الفرنجة من تكوين إمارات لهم في كل من الرها وأنطاكية وبيت المقدس ثم طرابلس. عادوا إلى المدن الساحلية في الساحل الشامي الأعلى واحتلوها من جديد.

حصار بوهمند للاذقية:

بعد ارتحال الصليبيين إلى بيت المقدس انصرف بوهمند إلى توطيد مركزه في أنطاكية على أن اهتمامه الرئيسي كان موجهاً إلى البيزنطيين، وهو يعرف تمام المعرفة أن بيزنطة غاضبة منه وهو لن يشعر بالأمان أبداً طالما ملك الإمبراطور أقوى أسطول في شرق البحر المتوسط فضلاً عن ميناء اللاذقية التي تقع جنوب أملاكه مباشرة لذلك قرر بوهمند حسم الأمر فتوجه لمهاجمتها، لكنه فكر باستحكامات المدينة القوية وإمكانية حصول الحامية التي بها على مدادات ومؤن من قبرص المقابلة لها بحراً، وواتته الفرصة بوصول أسطول بيزانتي، فبادر على الفور إلى الاتفاق مع القادة البيزانتي الذين وعدوه بتقديم المساعدة، وعلى هذا كان الرد البيزنطي في إصدارهم عقوبات بحق اللاتين على أعمالهم، وشاعت الظروف أن تحطم عدد كبير من السفن البيزنطية على الساحل الغربي لكليكية سببها عاصفة شديدة. الأمر الذي ساعد سفن بيزة على انتهاز الفرصة، وإلقاء الحصار على اللاذقية من جهة البحر^(٢) وخلال هذه المدة وصل

(١) ابن الوردي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٢٢ / كرد علي: خطط الشام، ج ٢، حواشي سنة ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م

(٢) وليم الصوري: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٥٠٧ / هاشم عثمان: تاريخ اللاذقية، منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٦ م، ص ٣٠-٣١.

إلى جبلة ريموند تولوز وروبرت فلاندر وروبرت النورمندي، ومن الطبيعي أن يرتاع ريموند الصنجيلي من أفعال بوهمند في اللاذقية لأنه كان يطمح هو الآخر إلى ملكية أنطاكية الأمر الذي أدى إلى اشتداد المنافسة بينهما، ولم يحس بوهمند بالارتياح إلا بعد ابتعاد ريموند عنها، كما كانت سياسته مناهضة لسياسة بوهمند وتقوم على التحالف مع بيزنطة لذلك كان امتلاك اللاذقية خطراً كبيراً على إمارة أنطاكية بموقعها المشرف على وادي العاصي بأكمله^(١)، هذا ما دفع بوهمند عام ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م إلى حصار المدينة، ولكي تتجح العملية كان حاجة إلى مساعدة أسطول بحري فإن الظروف سرعان ما أمدت بوهمند الأسطول البيزي الذي وصل وعلى متنه رئيس الأساقفة دايمبرت إلى أنطاكية في الوقت المناسب^(٢)، ولم يلبث أن تمكن بوهمند من فرض حصار عنيف على اللاذقية بمساعدة الأسطول البيزي حتى أوشكت الحامية البيزنطية الموجودة في المدينة على الاستسلام في الوقت الذي اقترب فيه ريموند إلى المدينة عائداً من بيت المقدس ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م وكان ذلك عند جبلة، وعندما سمع ريموند بهجوم بوهمند على اللاذقية استشاط غضباً وأرسل إنذاراً عاجلاً إلى أمير أنطاكية يطلب منه رفع الحصار فوراً عن المدينة والعودة من حيث أتى وإذ كان بوهمند قد رفض الإنذار آملاً بمساندة صديقه (دايمبرت) لكن الأخير خذله في اللحظة الحرجة. مما اضطر بوهمند إلى رفع الحصار عن اللاذقية والعودة إلى أنطاكية، وهكذا دخل ريموند في اليوم التالي اللاذقية ليرفع رايته إلى جانب إمارة البيزنطية على قلعتها. وتم الاتفاق بعد ذلك على تسوية المسألة بين بوهمند وريموند في مقابلة ودية، أما عن دايمبرت فإن تخليه عن بوهمند أمام اللاذقية لم يؤثر على الصداقة التي جمعتهم والتي تجلت في موقف بوهمند من أطماع دايمبرت للوصول إلى بطركية بيت المقدس^(٣).

(١) عاشور: الحركة، ج ١، ص ٣٠١-٣٠٢.

(٢) عاشور: المرجع نفسه، ج ١، ص ٣٠٢.

(٣) عاشور: المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣٠٣.

والسؤال المطروح هنا: ما هي الأسباب التي جعلت دايمبرت يقلع عن مساعدة بوهمند؟

فكر دايمبرت ملياً بأنه ليس من اللائق أن يستهل عمله وهو المندوب البابوي الجديد في الشرق بشيء مشين ينكره عليه معظم المسيحيين الشرقيين^(١). فتميزت دعوتـه للقـدوم إلى معسكر الفرنجة في جبلة، ورغم المظاهرات العدائية التي واجهته من قبل القادة والزعماء هناك أدرك خطأه واضطر إلى سحب الأسطول البيزاوي، كما أجبر بوهمند على فك حصاره للاذقية بعد انسحاب الأسطول الأخير. أما ريموند الصنجيلي فبقي في اللاذقية.

كان دايمبرت البابوي حريصاً على المضي إلى بيت المقدس، وقرر بوهمند معاقبته لتأدية الحج أولاً، غير أنه فكر ملياً بمستقبل بيت المقدس وذاع الخبر أنهما في طريقهما إلى بيت المقدس لكن طموح بلدوين كونت الرها لم يكن أقل من طموح بوهمند لذلك أراد صحبتهما إلى القدس، كما فكر بوراثه الحكم في بيت المقدس إذ كان شقيق غودفري وهو أقرب الناس إليه في الشرق، وارتحل الحجاج في أوائل تشرين الثاني. فاتخذ دايمبرت وبوهمند الطريق الساحلي برسهما من جهة البحر الأسطول البيزاوي، ولما اجتازا اللاذقية رفض ريموند ربحهما بالمؤونة وعند بانياس توقفا حتى يتمكن بلدوين من اللحاق بهما ثانياً، بيد أن سكان بانياس لم يرحبوا بقدوم الحجاج، كما أنهم لم يبذلوا لهم أية مساعدة كـر بشأن المؤن، ولما توغل الحجاج في المسير اشتد بهم الجوع، والمعروف طرطوس التي سبق واجتازوها عادت إلى أيدي المسلمين، وهاجمت حاميتها تلك الذين ضلوا عن اللحاق بمؤخرة الجيش فأجهزت عليهم. ولم يحصلوا على خـن وطعام من طرابلس أيضاً إذ أن سعر الخبز بلغ من الارتفاع ما لم يستطع أحد أن يشتريه إلا الأغنياء، فالتفتوا على ما ينمو حول طرابلس وتابعوا سيرهم مع المزيد من الجوع والبرد وهلك الدواب ومشاق السفر إلى أن وصلوا في نهاية المطاف إلى بيت المقدس.

(١) رنسيان: المرجع المتقدم، ج ١، ص ٤٤٨.

وصاية تنكريد على أنطاكية واستيلائه على اللاذقية وحصاره لجلبة:

تولى تنكريد الوصاية على إمارة أنطاكية إثر وقوع خاله بوهمند^(١) في الأسر (٤٩٤-٤٩٦هـ/١١٠٠-١١٠٣م) من قبل الدانشمند^(٢).

فما الذي حدث إثر وقوع بوهمند في الأسر؟

تولى تنكريد الوصاية على إمارة أنطاكية بعد أسر خاله بوهمند، الذي أحدث فراغاً كبيراً في شمال الشام، لذلك قرر أمراء أنطاكية ورجال الدين فيها استدعاء تنكريد للقيام بالوصاية على الإمارة، وقد جاء ذلك العرض مغرياً جداً بالنسبة له - بعد أن ساء موقفه مع ملك بيت المقدس الجديد بلدوين الأول، وسرعان ما اتجه تنكريد إلى أنطاكية ليأشر مهمته في أواخره ٤٩٩هـ/ آذار ١١٠١م، أما عن سياسته في هذه الإمارة فقد سار على خطى سياسة خاله نفسها فعمل على تنظيم الإدارة وتركيزها وصيغ كنيسة أنطاكية بالصيغة اللاتينية الكاثوليكية، ثم سيع حدود الإمارة على حساب البيزنطيين والمسلمين جميعاً هذا فيما يتعلق بالسياسة الخارجية^(٣) أما أول عمل عمله فهو اكتساب ود القوى البحرية الإيطالية بعهده اتفاقاً مع الجنوبية ٤٩٥هـ/ في صيف ١١٠١م منحهم بمقتضاها دخل ميناء السويدية وشارعاً في أنطاكية يباشرون فيه نشاطهم التجاري على أن الأكثر أهمية من هذه الاتفاقات هو أن تنكريد وعد الجنوبية بإعطائهم نصف دخل ميناء اللاذقية في الوقت الذي كانت فيه المدينة بأيدي البيزنطيين، هذا معناه مساعدة الأسطول الجنوبي له على انتزاع اللاذقية من البيزنطيين.

حرب تنكريد ضد البيزنطيين:

أصاب مركز الامبراطورية البيزنطية الضعف في آسية الصغرى في

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٥٦٧.

(٢) ابن الوردي: المصدر المتقدم، ص ٢٢ / عاشور: الحركة، ج ١، ص ٣٠٥.

(٣) عاشور: المرجع نفسه، ج ١، ص ٣٠٧.

مستهل هذا القرن ٦هـ / ١٢م، هذا ما سهل مهمة تنكريد للاستيلاء على كيليكية في أواخر سنة ٤٩٥هـ / ١١٠١م. حتى استطاع في مدة قصيرة الاستيلاء على المصيصة واذنة وطرسوس^(١)، ولم تنته سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٥م حتى امتدت أملاكه إلى البارة ومعرة النعمان على حساب بيزنطة^(٢) ضارباً بعرض الحائط شروط الاتفاق والالتزام المبرم بين خاله وبين بيزنطة^(٣).

استيلاء تنكريد على اللاذقية سنة ٤٩٦هـ / ١١٠٢م:

امتازت اللاذقية بقوة تحصيناتها فضلاً عن وجود فرقة من رجال ريموند الصنجلي داخلها للدفاع عنها، وبعض قطع من الأسطول البيزنطي في مياهها الأمر الذي يتطلب من تنكريد حصاراً طويلاً وجهداً عنيفاً كي يستولي عليها. تلك فكر بمحاولة الاستيلاء على جبلة حتى يتمكن من احتلال الأولى، لكن محاولته باءت بالافخاق بسبب الإشاعات التي بثها القاضي ابن صليحة مفادها أن سلطان السلجوقي بركيا روق قد قدم بجيش لنصرة بلاد الشام وطردهم^(٤) فرحلوا عن جبلة إلا أنهم عادوا لحصارها مرة أخرى، فأذاع القاضي نائعة أخرى وهي أن المصريين قد قدموا لنجدة بلاد الشام وطردهم الصليبيين، فهاجرت ابن صليحة لجأ للحيلة وقرر التغرير بالفرنج فاستدعاهم ليتم تسليم المدينة لهم بواسطة العرب المسيحيين فيها، وعن طريق أحد الأبراج تقدم ثلاثمائة منهم

(١) عثمان: المرجع المتقدم، ص ٣٠-٣١.

(٢) وليم النوري: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٥٠٧.

(٣) أو ما سمي بصلح ديفول - Devol ٥٠١هـ / ١١٠٨م وبمقتضى هذا الصلح تعهد بوهمند بأن يصبح تابعاً أميناً لأكسيوس وخلفائه وأن يعملونهم ضد جميع أعدائهم وأن يعيد للإمبراطورية كل أراضيها القديمة ووفقاً لهذه الشروط قبلت إمارة أنطاكية الصليبية أن تصبح قاصرة على أنطاكية ومينائها السويدية ثم المنطقة الممتدة في الشمال الشرقي حتى مرعش مضافاً إلى ذلك ما يستطيع بوهمند الاستيلاء عليه من المسلمين أما اللاذقية ومحيطها فتعود جميعها للإمبراطورية البيزنطية فقط... إلخ.

عاشور: المرجع المتقدم، ج ١، ص ٣٢١.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٤٤٧.

نحو البرج المحدد وعلى سلاسل الجبال تسلقوا الأسوار الواحد تلو الآخر داخلين إلى المدينة، وكان هناك قاضي جبلة يعتقلهم فور وصولهم حتى تمكن منهم جميعاً، ثم أخذ رؤوسهم ورمأها فوق الصليبيين فرحلوا عنها إلا أنهم عادوا الكرة مرة أخرى، وعادوا لحصارها مستخدمين أدوات الحصار وصعدوا أبراجاً وحبسوا بعض الأسوار إلا أن الحامية استطاعت القيام بإغارة على المحاصرين فالتقى النقيب الذي نقيب الفرنج في السور وتحققت المفاجأة وتمت هزيمة المحاصرين، عندما علم قاضي جبلة باستمرار محاولة الإفرنج السيطرة على المدينة اضطر عندها إلى أن يرسل إلى أتابك دقاق (طغتكين) طالباً تسليم المدينة، فاستجاب له وأرسل من يستلمها مقابل ذهب صاحبها إلى دمشق وحمايته، وأرسل طغتكين ابنه بوري فسلمت له البلد ورحل صاحبها إلى دمشق ومنها إلى بغداد، وكان بوري سيئ السيرة مع أهلها. مما جعلهم يرسلون إلى صاحب طرابلس فخر الملك ابن عمار يطلبون منه إرسال من يستلم البلد، فأرسل لهم فخر الملك مجموعة من الجند دخلوا البلد وقتلوا بوري ومن معه إلى أن تمكنوا من أسرهم غير أن صاحب طرابلس أعاده إلى والده في دمشق بعد أن علمه أن خوفه من احتلال الفرنجة للمدينة هو الذي دفعه لذلك^(١)، وشاعت ظروف وحسن حظ تنكريد أن ريموند الصنجيلي لم يكن موجوداً أساساً في الشام كي يدافع عن اللاذقية أو عن حقوق بيزنطة فيها كما سلف ودافع عنها سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، وإنما كان ريموند بمرافقة الحملة اللومباردية في شمال شرق الأناضول، ولم يكد ينتهي ريموند من أمر تلك الحملة ويعود إلى ميناء هويدية حتى وقع أسيراً في قلعة أنطاكية^(٢)، وهنا اتضح تخوف تنكريد من ريموند الذي كان حريصاً كل الحرص على اعتقاله كي لا يطالبه بحقه في أنطاكية، فضلاً عن تهديده لمشروع تنكريد الخاص بالاستيلاء على اللاذقية لذلك لم يطلق سراح خصمه عام ٤٩٦هـ/١١٠٢م إلا بعد أن أقسم له على تخليه عن

(١) ابن الأثير: المصدر المتقدم، ج ٨، ص ٤٤٧ وما بعدها.

(٢) عاشور: الحركة، ج ١، ص ٣٠٩.

مطالبه السالفة وادعاءاته في شمال الشام، وهكذا انصرف ريموند من سجنه ليتجه صوب طرطوس لكنه حينما مر باللاذقية أمر رجاله بالانسحاب منها ومرافقته لتحقيق مشروعه الخاص بتأسيس إمارة لنفسه بعيدة عن أنطاكية وأرادها حول طرابلس فهل استطاع تحقيق حلمه؟

وجدت الحامية البيزنطية نفسها وحيدة في اللاذقية بعد انسحاب اتباع ريموند النجيلي منها في الوقت الذي شدد فيه تنكريد هجماته عليها بمساعدة حلفائه الجنوبيين بحرًا: الأمر الذي أدى إلى سقوطها أخيراً في أواخر ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م وأوائل سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٢م، وبذلك حصلت إمارة أنطاكية على واجهة بحرية عريضة فضلاً عن ميناء بحري رئيسي يربطها بالغرب، ولم يلبث أن تتولى تنكريد على أقامية من الباطنية (الإسماعيلية) بعد اشتداد الصراع داخلها بينهم وبين حاكمها خلف بن ملاعب عندئذ استجد أهالي الحصن من المسيحيين تنكريد لإزالة الصراع لكنه لم يوفق هذه المرة ولم تسقط أقامية إلا سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م. وكذلك سقطت كفرطاب شرقي أقامية.

لم يستطع تنكريد مواجهة البيزنطيين الذين استعادوا اللاذقية أثناء اشتباكاتهم مع المسلمين في حوض نهر العاصي، لكنه بعد أن استرد أرتاح وأقامية عاد يفكر من جديد في طرد البيزنطيين من اللاذقية، ولاسيما أنهم لا يملكون حاميات قوية فيها. لأن الإمبراطور البيزنطي استدعى معظم جيوشه في اللاذقية وكيليكية في صيف ٥٠١هـ/ ١١٠٧م إلى الجهة الغربية من الإمبراطورية بسبب تهديد رومند وهذا كان لابد لتنكريد من أسطول قوي لمحاصرة البيزنطيين وطردهم وأنه هذه المرة من البيزنطة، فقد استرد بمساعدتهم اللاذقية ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م. بذلك كافأ تنكريد البيزنطة على ما قدموه له من معونة بإعطائهم شارعاً في أنطاكية وحياء في اللاذقية فضلاً على أنه كفل لهم حرية التجارة والعمل في جميع موانئ إمارة أنطاكية، وهكذا استطاع تنكريد في مدى أربعة سنوات أن يسترد معظم ما خسره إمارة أنطاكية، وأن يحفظ تلك الإمارة من الضياع، ثم توجهت أنظاره للتدخل في شؤون طرابلس على يده ينجح في السيطرة على تلك الإمارة.

خرج ريموند كما أسلفنا الحديث من أنطاكية، وفي نيته تحقيق حلمه في طرابلس، وقد رأى أنها فرصة سانحة للاستيلاء على المدن التي في طريقه فزحف نحو اللاذقية ومنها تحرك إلى طرطوس^(١) التي سبق له أن استولى عليها سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م لكن بني عمار عادوا فاسترجعوها في سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م أثناء غياب ريموند وانشغاله بغارة، فقام ريموند بالمهمة التي كان قد عهد بها إليه فاستعان به في ضرب الحصار البري والبحري على المدينة الأمر الذي أدى إلى سقوطها عام ٤٩٥هـ/١١٠٢م فدخل المدينة وقرر أن تكون نواة لإمارته التي كان يطمح بتأسيسها في بلاد الشام، واستمر ريموند في تقدمه نحو هدفه التالي (طرابلس) في الوقت الذي كان فيه صاحب طرابلس قد أرسل إلى كل من دقاق صاحب دمشق، وصاحب حمص جناح الدولة يطلب إليهما إرسال قواتهما للقضاء على ريموند ومن معه، شجعهم على ذلك قلة عددهم بحيث لم يتجاوزوا الثلاثمائة فأرسل دقاق ألفين من قوات الفرسان، كما أرسل جناح الدولة ما يزيد عن هذا العدد، وحشدت هذه القوات خارج مدينة حيث وقعت المعركة، وكان صاحب طرابلس وعسكره في القلب يقابله ريموند، وضع مقابل أهل طرابلس مئة من عسكره وكذلك أمام عسكر دمشق وخمسين مقابل عسكر حمص أما هو فكان مع الخمسين المتبقين، وبدأت المعركة بهجوم أهل حمص لكن هجومهم صد وفروا، ثم تبعهم أهالي دمشق عند ذلك أعاد ريموند حشد قواته وهاجم أهل طرابلس وحقق النصر، فدخلوا المدينة في الوقت الذي حاصرها الفرنج^(٢) لكن تكررت بعض المصادرات بأن ريموند أثناء حصاره لطرابلس أتاه أهل الجبل المحيطين لمساعدته فأعانوه على حصاره وكذلك أهل السواد، ولم تغل المصادر سبباً لذلك

(١) فولتشر أوف تشارترز: تاريخ الحملة إلى القدس من خلال الموسوعة الشامية، ج ٦، دار الفكر، دمشق ١٩٩٥م، ص ٤٠٨.

(٢) ابن القلانسي: المصدر المتقدم، الموسوعة ج ١١، ص ١٢/ ابن العبري: المصدر المتقدم، ص ١٢٦ / الأصفهاني: البستان، ص ٢٣٥/ العظيمي: المصدر المتقدم، ج ١١، ص ١٥١/ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر دار الكتاب اللبناني، بيروت، طبع باريس، مجلد (١)، ١٨٥٠م، ص ١٣٢/ ابن السوردي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٢٣/ النويري: المصدر المتقدم ج ٢٢، ص ٣٧٩ حوادث سنة ٤٩٥هـ / كرد علي: خطط، ج ٢-١، ص ٢٥٧، ٢٥٦.

سوى قولها لأن "أكثرهم نصارى"^(١)، لكن هذا الكلام لا يعني بالضرورة أنهم من أهالي المنطقة حصراً لأنه من المعروف قيام الفرنج الصليبيين بإفناء عدد كبير من سكان المدن التي احتلوها دون تمييز، كما أن عدداً آخر من سكان تلك المدن كانوا يتركونها خوفاً من بطش الإفرنج كما سلف وعمرت بعد ذلك بشعوب جديدة جاءت بفعل الغزو؟

لكن ريموند الصنجيلي لم يلبث أن هادنهم على مال حمله إليه أهل طرابلس فزار عنهم إلى مدينة طرطوس واحتلها وقتل من بها من المسلمين، ثم رحل عنها وهناك قرر عزل طرابلس بمحاصرته لقلعة - حصن الأكراد - التي كانت تابعة آنذاك لحمص - جناح الدولة - الذي خرج لإنقاذها لكنه أخفق^(٢)، ثم توجه ريموند الصنجيلي بعد ذلك إلى مقره في طرطوس. إلا أن بعض المصادر ذكرت بأن ريموند الصنجيلي أراد التوجه نحو حمص عندها استعد الحمصيون لمقاومته أعلنوا حالة الطوارئ، فلما دنت قوات الفرنجة من المدينة خرج إليهم أهلها شتبتوا معهم بمعركة دموية فاز على أثرها الأخيرون وأسر عدد من الفرسان صليبيين من بينهم أحد كبار الشخصيات فبذل صنجيل في فدائه عشرة آلاف دينار وألف أسير^(٣)، وما أن عاد صنجيل إلى طرطوس حتى علم أن أسطولاً نوياً نزل في ميناء اللاذقية لذلك أراد الاستفادة منه في مهاجمته لطرابلس، لكن هجومه أخفق وتم له فقط الاستيلاء على ميناء جبيل، ولما كان همه الوحيد احتلال طرابلس وتأسيس إمارة فقد بنى معسكراً حولها وشرع في إقامة قلعة عرفت باسم حصن صنجيل^(٤) وبني تحته ربضاً، كما أقام مراصد لها منتظراً

(١) النويري: المصدر المتقدم، ج ٢٨، ص ٢٦٢.

(٢) لما علم جناح الدولة بمجيء القوات الفرنجية جمع قواته لرد صنجيل وقواته على المدينة لكن الموت حال بينه وبين فعل أي شيء حيال ذلك و تذكر المصادر بأن باطنياً وثب عليه وقتله بالمسجد.

انظر أبو الفداء: المختصر، مجلد (١)، ص ١٣٢/ ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٤٧٥/ النويري: المصدر نفسه، ج ٢٨، ص ٢٦٣.

(٣) المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٢٩٥.

(٤) عمر عبد السلام التكري في تاريخ طرابلس القيسية والحضاري عبر لعصور، ط بيروت ١٩٧٨، ج ١، ص ٢٩٢.

فرصة مواتية تمكنه من تملكها^(١) وأحكم الحصار حولها، إلا أن استحكاماتها كانت قوية جداً، أضف إلى ذلك أن بنى عمار كانوا يملكون أسطولاً تجارياً متواضعاً قدم لهم بعض المؤن واللوازم^(٢)، لذلك فقد استطاعوا شن هجوم على العدو وأشعلوا النار في معسكرات الفرنجة لاسيما في حصن صنجيل، وأحدثوا خسائر فادحة تخلى العدو بنتيجتها عن حصار المدينة بعد أن أصيب القائد ريموند الصنجيلي بجروح بليغة مات على أثرها سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م^(٣) خلفه قريبه ولیم وردان وبعد قليل حضر ابنه برتران بن صنجيل سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م من المغرب وتنازع مع ولیم الإمارة الذي عمل على متابعة سياسة أبيه في تكوينها، وفي سبيل تحقيق ذلك فقد أعاد حصاره للمدينة وساعده في ذلك أسطول بحري^(٤) قدم من قبرص وبیزنطة، فتعرضت طرابلس بالإضافة إلى الحصارين البري والبحري لخطر مجاعة نتيجة لانقطاع الطرق المؤدية منها وإليها، وبقيت الحرب مستمرة بين أهالي طرابلس والفرنج خمس سنين^(٥) فقدت خلالها الأقوات،

(١) ابن الأثير: المصدر المتقدم، ج ٨، ص ٥٢٦.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ٨، ص ٥٧٩/ ابن القلانسي: المصدر المتقدم ص ٢٣/ العظمي: المصدر المتقدم، ج ١١، ص ١٥٥.

(٣) ذكرت المصادر بأن صنجيل وقف على سقوط ربهضه المحروق متأثراً لما رآه فانخسف به السقف ومرض جراء ذلك زهاء عشرة أيام حتى مات وحمل إلى القدس ليدفن فيها.

انظر:

ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ٨، حوادث سنة ٤٩٩هـ، ص ٥٢٦.

والقضاء: المختصر، مجلد (١)، ص ١٣٨ حوادث سنة ٤٩٦هـ،

الوردی: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٢٩، حوادث سنة ٤٩٨هـ.

البدر العيني: المصدر المتقدم، موسوعة، ج ٢٤، ص ٢١، حوادث سنة ٤٩٧هـ.

(٤) ورد عند العظمي بأن أسطول بحري فرنجي ملأ الساحل ولم يذكر الجهة التي قدم منها أكان من بیزنطة أم من قبرص وقيل أنه كان أسطولاً جنوباً فرنسياً.

العظمي: المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٥٢/ عاشور: أوربة العصور، ص ٤٤٥.

(٥) ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ٨، ص ٥٢٦/ البدر العيني: المصدر نفسه، ص ٢١.

وضاق الأهالي على أنفسهم، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية. كما أدى إلى هروب المقاتلين من داخل المدينة، وعلى الرغم من ذلك فقد بقي صاحبها يدافع عنها محاولاً طلب المساعدة من المصريين ومن طغتكين بعد وفاة صاحب دمشق (دقاق) لكنه أخفق في أخذ المساعدة. وقرر التماسها من جهة أخرى من (بغداد) فذهب إليها بنفسه ووعده الخليفة المستظهر في بغداد بمساعدته ولكن بعد حين، حينها أدرك حاكم طرابلس أن حكام بغداد السلاجقة يريدون عازمين على التدخل في شؤون الساحل الشامي بعد كل تلك المحاولات بحريك العواطف من تغلب الإفرنج على الديار الشامية. لم يحظ ابن عمار على نتيجة مرجوة من رحلته لذلك عاد إلى بلاده بخفي حنين بعد أن نشبت في طرابلس ثورة لصالح الفاطميين. هذا وفي الوقت الذي ذهب فيه ابن عمار إلى بغداد كان قد تسلم اللانقية ملك الروم (الكسيوس) (١).

فما الذي حصل أثناء غياب صاحب طرابلس عنها وبعد عودته من بغداد؟ بعد ذهاب ابن عمار إلى بغداد اشتد الضيق بأهالي طرابلس، واستمرت الضغوطات على المدينة من حصار ومجاعة فلم يستطيعوا صبراً، وكان لا بد من مساعدة خارجية لهم لذلك قرروا أن يطلبوها من الوزير المصري الأفضل جمالي أمير الجيوش مقابل تسليمه المدينة فاستجاب الوزير لطلبهم وأرسل لهم قوة تتولى إدارة المدينة، فعين عليهم شرف الدولة بن أبي الطيب والياً على طرابلس عام ٥٠١هـ / ١١٠٨م ومعه كمية وافرة من المؤن اللازمة للسكان تمكن من قيادة المدينة ومن السيطرة عليها في ظل هذه الظروف الصعبة (٢)، ما ألقى القبض على عدد من أصحاب وأهل ابن عمار ومناصريه، واستولى على ما بقي من الآلات والذخائر وحملها جميعها على مصر على ظهر المراكب التي جاء بها من مصر (٣) أما فخر الملك لما علم بما حدث لم يستطع التوجه إلى

(١) العظمي: المصدر المتقدم، ج ١١، ص ١٥٢

(٢) ابن أبي النعمان: من خلال الموسوعة، ج ٢١، ص ٢٣٦.

(٣) الزين: المرجع المتقدم، ص ٩٧.

طرابلس بل توجه نحو دمشق عام ٥٠١هـ/١١٠٨م، وبعد عدة أيام من إقامته فيها توجه منها مع خيل وعسكر إلى مدينة جبلة فدخلها وأطاعه أهلها^(١)، لكنه لم يستطع البقاء فيها طويلاً بنتيجة هجوم تنكريد عليها سنة ٥٠٢هـ/١١٠٩م، "وكان القوت بها قليلاً. فقاتل فيها إلى أن ملكها بالأمان في الثاني والعشرين من ذي الحجة.."^(٢) الأمر الذي أجبر فخر الملك على الانسحاب والتوجه إلى شيزر لما ورد في بعض المصادر، فأكرمه صاحبها (علي بن منقذ) واحترمه وعرض عليه المقام عنده فأبى. حينها توجه نحو دمشق فأكرمه صاحبها (طغتكين) وأنزله بداره وأقطعته الزبداني وأعمالها^(٣)، وبذلك خرجت طرابلس من حكم بني عمار وأنت إلى الفاطميين.

وفي سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م، اجتمع حول أسوار مدينة طرابلس كل أفراد الفرنجة برتران بن ريموند بجيشه ومعه أسطول مشحون بالسلاح والرجال وملك سدس بلدوين وتنكريد صاحب أنطاكية وبلدوين الثاني كونت الرها وكل منهم بجيشه، فتكاثروا على حصار طرابلس من أول شعبان إلى الحادي عشر من ذي الحجة، وأيقن أهالي طرابلس بالهلاك مع تأخر الأسطول المصري عنهم. وأمام الأحوال السيئة التي أخذت تتزايد نتيجة لقلة المؤن أولاً وضعف الروح المعنوية لدى المقاتلين ثانياً، منعهم من حمايتها أو الدفاع عنها الأمر الذي جعلهم يتخلون عن المدينة ويقرر صاحبها تسليمها للفرنجة.

استيلاء تنكريد على بانياس - جبلة - بكسراثيل:

وفي ظل هذه الأحوال والظروف أراد تنكريد انتهاز الفرصة واستغلال الوقت للإغارة والتوسع، فتوجه إلى حصن بانياس واحتله من المسلمين وسلمه إلى المازوير الذي كان نائباً لبوهمند في أنطاكية، وبذلك صارت بانياس بمثابة

(١) الرهاوي المجهول: حولية المؤرخ السرهاوي المجهول من خلال الموسوعة الشامية، ج ٥، دار الفكر، دمشق ١٩٩٥، ص ٥٥٤.

(٢) الحموي: المصدر المتقدم، ج ٥، ص ٧.

(٣) ابن القلائسي: المصدر المتقدم، ص ١٦٥.

الحد الجنوبي لإمارة أنطاكية على شاطئ البحر، كما استولى على مدينة جبلة شمالي منها.

التي كانت في يد فخر الملك بن عمار كما أسلفنا الحديث فاحتلها في الثاني والعشرين من ذي الحجة ٥٠٢هـ / ١١٠٨م بعد أن قُلت أ قواتها وعجز فخر الملك عن حمايتها وعلى مواجهة هذه المدينة، استولى تتكريد على حصن بكترايل سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م^(١)، ثم توجه نحو اللاذقية فاحتلها من يد الروم البيزنطيين دون أن يحسب لهم حساباً^(٢)، لكن لبدر العيني ذكر في كتابه عقد السنين هذه الأحداث سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م إنه بعدما احتل تتكريد لبانياس توجه إلى طرطوس وأخذها، ثم قرر على شيزر عشرة آلاف دينار وتم تسليم تتكريد حصن الأكراد له، ثم عاد من هناك متوجهاً نحو أنطاكية^(٣) وورد لدى بعض المصادر أنه توجه إلى عرقه كي يساعد من هناك الفرنج الذين يحاصرون ببيروت (بغديون بن صنجيل) على عساكر الأمير مودود النازلين عليها، كما ردت المصادر بأنه وقعت مهادنة في هذه السنة بين بغديون صاحب القدس بن طغتكين نتيجة لكثرة فساد الصليبيين في البلاد، وهذا أفضى إلى تقرير موادعة على الأعمال والمسالمة على أن يكون السواد وجبل عوف مثلاً، أثلاً، أكراراً، والثالث للفرنج في الأعمال والأطراف، أما الثلثان المتبقيان للمسلمين أن تكون مصياف وحصن الأكراد وحصن الطوفان داخلة في شرط الموادعة. يحمل أهلها عنها مالا معيناً كل سنة إلى الإفرنج، فأقاموا على ذلك مدة يسيرة لم يلبثوا على ما تقرر وعادوا إلى فسادهم وعنادهم^(٤)، ووصل في ذلك الوقت

(١) عاشور: الحركة، ج ١، ص ٣٢٨.

(٢) الحموي: المصدر المتقدم، ج ٥، ص ٧ / عثمان: المرجع المتقدم، ص ٣١.

(٣) البدر العيني: المصدر المتقدم، ج ٢٢-٢٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٥٧٩ / ابن القلانسي: المصدر المتقدم، ص ١٦٣ / الأصفهاني:

البيستان، ص ٣٣٧ / العظمي: من خلال الموسوعة، ج ١١، ص ٢٥٥ / البدر العيني: المصدر نفسه،

ص ٢٥-٢٦-٢٧ / النويري: المصدر المتقدم، ج ٢٨، ص ٢٦٧ / هذا وقد وردت هذه الأحداث عند

القلقشندي ضمن أحداث سنة ٥٠٤ هـ.

انظر القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ١٦٥-١٦٧.

الأسطول المصري من أجل نجدة بيروت المحاصرة من البحر. محملاً بتسعة عشر مركباً ومعه الميرة والنجدة، الأمر الذي جعل الملك بغدوين يرسل بطلب النجدة من الجنوية ومراكبهم المقيمين في السويدية، فوصله منهم إلى بيروت أربعون مركباً مشحونة بالمقاتلين فزحف الإفرنج وحاصروا المدينة براً وبحراً. ففي يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال، واشتد القتال وسقط الكثير من القتلى على رأسهم مقدم الأسطول المصري والكثير من المسلمين واستطاع الفرنج مهاجمة البلد واحتلاله، ولم تلبث أن توقفت الغارات والقتال في هذه السنة نتيجة زلازل التي تعرضت لها المنطقة، وشغلت كل طرف من الأطراف عن هذه الأعمال ترافق مع هذه الأحداث ظروف اقتصادية سيئة للغاية أسفرت عن جوع شديد عم كل المشرق تقريباً على حد قول المصادر^(١) لاسيما في سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٢م.

حينما تحرك الفرنج على أثرها يجوبون البلاد ويفتكون بالعباد، فاحتلوا جبلة من جديد^(٢)، وقيل في رواية ميخائيل السوري أن ذلك حدث سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٧م^(٣)، كما امتلك بوهمند صاحب أنطاكية حصن القدموس هذه السنة^(٤)، كان الفرنج في كل مرة يريدون فيها حصار مدينة ما أو احتلالها وسواء أكانت من مدن الساحل أو من مدن الداخل: كانوا يستجدون بمدن الساحل وما يصل إليها من أساطيل بحرية باستمرار وهذا ما فعله الفرنجة في الوقت الذي كانوا يهيمون فيه لحصار دمشق^(٥) وغيرها.

وهكذا استطاع هؤلاء المحتلين الغرباء الاستيلاء على المدن الساحلية في الساحل الشامي الأعلى، هذا ما أكد عليه قول دي فثري أحد مؤرخي الفرنجة:

(١) روايات المؤرخ السوري من خلال الموسوعة الشامية، ج ٥، ص ١٣١.

(٢) ابن العبري: المصدر المتقدم، ص ٤٠.

(٣) ابن العبري: المصدر نفسه، ص ١٣١.

(٤) ابن الأثير: المصدر المتقدم، ج ٩، ص ١٩.

(٥) الأصفهاني: البستان، ص ٣٤٤.

"واستولى شعبنا (أي الفرنجة) على هذه المدن (الساحلية) القائمة على شاطئ البحر بكل جرأة ولم يترك شعبنا للمسلمين ولا قلعة واحدة قرب البحر وهكذا تدمرت قوى العدو على شاطئ البحر تماماً"^(١).

(١) دي فتري: المصدر المتقدم، ص ١٥٠.

الأوضاع الإدارية والتقسيمات السياسية والكنسية في ظل الاحتلال الأوضاع الإدارية والسياسية في ظل الاحتلال:

اختلفت التقسيمات في هذه الحقبة عند قدوم الفرنجة الصليبيين للمنطقة وباتت متغيرة إذ أنهم قسموا المنطقة إدارياً وكنسياً.

أما التقسيم الإداري: فقد قسموا المنطقة إدارياً إلى مملكة وثلاث إمارات حسب تأسيسها وهي: كونتيه الرها- إمارة أنطاكية- مملكة بيت المقدس- كونتيه طرابلس، دانت جميعها بالولاء الاسمي فقط لملك مملكة بيت المقدس.. وسأحدث هنا فقط عن إمارة أنطاكية وكونتيه طرابلس من حيث تبعية المدن الساحلية.

إمارة أنطاكية:

حاضرتها أنطاكية، وتشتهر بمساحتها الواسعة^(١) التي شملت على العديد من مدن أهمها: أنطاكية، أفامية، اللاذقية، جبلة، بانياس، حارم، معرة النعمان، كافر طاب.. الخ.

ومن القلاع أهمها: بغراس^(٢)، حارم، القصير، بالإضافة إلى احتواء مدنها على القلاع مثل أنطاكية واللاذقية.. وأفامية.

حدودها:

تمتد حدودها غرباً حتى طرسوس في كيليكية، أما حدها الشرقي فهو النهر الذي يجري بين بانياس الساحل ومرقية وإلى الشمال منها جبل يعرف باسم لأمانوس، وهنا تنتهي حدود أنطاكية إدارياً وليس من حيث كونها بطريركية لتبدأ بعدها ما يسمى بـ"كونتيه طرابلس".

(١) دي فترى: المصدر المتقدم، ص ١٣٨، وما بعدها.

يوانس فوقاس: المصدر المتقدم، ج ٣٤، ص ١٧٩.

(٢) بغراس: حصن مقابل أنطاكية بناها نقفور فوكاس عندما غزا شمالي الشام سنة ٩٥٧هـ/ ٩٦٨م.

انظر الأنطاكي: المصدر المتقدم، ص ١٢٧/ الحموي: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٥٥٢.

كونتيه طرابلس:

عاصمتها طرابلس وطرابلس مدينة ثرية قائمة على شاطئ البحر في مقاطعة فينيقية السورية فيها الينابيع وهي غنية بالقمح وأشجار الفواكه والمراعي الخضراء.

حدودها:

تبدأ هذه الكونتيه عند النهر الذي يجري تحت قلعة المرقب وينتهي عند خدير (أي نهر إبراهيم) الذي يجري بين بيلوس (جبيل) وبين بيروت الواقعتان على شاطئ البحر المتوسط^(١) ومن مدن هذه الإمارة طرطوس، طرابلس، جبيل، صافيتا، عرفة، بشري، العريمة، وغيرها..

التقسيم الكنسي:

جرت العادة ومنذ القرن الرابع الميلادي (أي منذ تم الاعتراف بالمسيحية - على أن يكون في بلاد الشام كرسيان للبطركية أحدهما في أنطاكية، أما الآخر في بيت المقدس واستمر هذا الوضع إبان الاحتلال الفرنسي للصليبي للمنطقة، لم تتبع جميع المدن الساحلية في الشام الأعلى (سورية اليوم) كنسياً بطريركية أنطاكية فقط لذلك سأحدث عن هذه البطركية كونها ضمن البحث المذكور.

كَيْفَ حَدَدَ بَطْرِيْكِيَّةَ أَنْطَاكِيَّةٍ كَنْسِيًّا؟

اعتمد الفرنجة في تقسيم الحدود بين البطريركيات تقسيماً كنسياً لا إدارياً اشتملت البطريركية على عدد من الاسقفيات^(٢) التابعة لها فبطريركية أنطاكية

(١) دي فثري: المصدر المتقدم، ص ١٤٠ - ١٤١.

(٢) الأسقف: كلمة معربة من أبسكوبوس باليونانية ومعناها ناظر أو رقيب فالأسقف والبطريرك كلاهما من أصل يوناني فقد أخذ النصارى الأولون هذه اللفظة من اللغة اليونانية والرومانية التي تعني قاضياً مدنياً أو مفتشاً أما الأسقفية فهي درجة الأسقف ورعيته. وما ينسب إليه والكنيسة والأسقفية فرقة من فرق البروتستانت وكرسي الأسقفية المدينة أو القصبية التي يقيم فيها الأسقف إن لم يكن له فيها رعية وهي قاعدة أبرشيته. للمزيد حول ذلك انظر:

بطرس البستاني: دائرة المعارف، مجلد (٣) دار المعرفة، بيروت، ج ٥٣٠ - ٥٣٢.

تبدأ شمالاً من بوابة سورية ممر بيلان^(١) ويتبع لها عدد من المدن الهامة مثل اللاذقية التي كان فيها أبرشية^(٢) للسريان الأرثوذكس مع كرسي أسقفي، ولما جاء الفرنجة الصليبيون جعلوا من اللاذقية أبرشية في عداد الأبرشيات اللاتينية الستة عشر مع كرسي أسقفي لاتيني تابع للبطريركية اللاتينية^(٣)، أما جبلة فكانت من الأبرشيات البحرية في إمارة أنطاكية^(٤) وامتدت حدود الأبرشية فيها في هذا القرن للمرة الثالثة فأصبحت أبرشية لاتينية مرتبطة ببطريركية أنطاكية^(٥)، وحوت مدينة بانياس على كرسي أسقفي تابع لأفامية امتدت حدودها من نهر مرجية إلى بانياس التي أصبحت كرسياً أسقفاً لأبرشية لاتينية عرفت باسم - فاليني - تابعة لبطريركية أنطاكية اللاتينية إبان الحكم الصليبي^(٦)، كما كانت قلعة المرقب مقراً للأسقف اللاتيني في بانياس^(٧). هذا وقد نشأت بطرطوس أسقفية إبان السيادة الصليبية عين عليها أسقف واحد، وأحياناً أخرى اشتركت مع أرواد بأسقف واحد معها وكأنهما أبرشية واحدة^(٨)، ويبدو أنها تحولت إلى أبرشية فيما بعد بدليل أنها امتلكت عشرة حصون مع القرى الملحقة بها، بلغ تعدادهم نحو

(١) دي فكري: المصدر المتقدم، ج ٣٤، ص ٣٧١.

(٢) الأبرشية: كلمة يونانية ومعناها المجاورة عربت باصطلاحات النصارى الكنائسية وأصلها دائرة الخوري الكنائسية فاستعملها العرب لدائرة المطران أو الاسقف مع انها تسمى بالافرنجية يوسس ومعناها باليونانية الادارة وقد جعلت عند الكاثوليك لدائرة الاسقف اورئيس الاساقفة.

للمزيد حول ذلك انظر:

دائرة المعارف لبطرس البستاني، مجلد (١)، ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٣) اثناسيو: المرجع المتقدم، ص ٥٣٢ - ٥٣٣.

(٤) سائوتو: المصدر المتقدم، ص ٣٧٩ / يوانس فوقاس: المصدر المتقدم، ج ٣٦، ص ٢٥٥.

(٥) اثناسيو: المرجع نفسه، ص ٥٤٤.

(٦) اثناسيو: المرجع نفسه، ص ٥٤٧.

(٧) سيولف: المصدر المتقدم، ص ٢٤٨.

(٨) الروايات الأوروبية اللاتينية والاعريقية من خلال الموسوعة، تأليف د. سهيل زكار، دار الفكر، ١٩٩٨م، ج ٧، ص ١٨٦.

سبعين ألف نسمة، واستتبعتا إلى مطرانية صور^(١) التي كانت " المطرانية، والحاضرة لجميع مقاطعة فينيقيا"^(٢)، وقبالة هذه المدينة تقع جزيرة أرواد التي كانت مقراً للأسقف، ثم نقل منها إلى قلعة المرقب فيما بعد^(٣)، وهكذا إلى أن وصل إلى ممر قائم بين جرف جبلي حاد وبين البحر الذي لا يتجاوز عرضه ثلاثة أرباع الفرسخ يدعى ممر الكلب^(٤)، وهذا الممر لا يمكن عبوره كما يقول بورتشارد إلا بإذن المسلمين " لأن عدة رجال فقط يمكنهم أن يمنعوا العالم كله من العبور هناك"^(٥)، والمقصود بذلك هو ضيق الممر بحيث يكفي بضعة رجال لوقفه، وعند هذا الممر تنتهي الحدود الفاصلة بين بطريركية أنطاكية وبطريركية القدس^(٦).

وتبقى هذه الحدود في الظاهر شكلية أي قابلة للتمدد والتقلص حسب الظروف السياسية والدينية آنذاك.

(١) الروايات الأوروبية اللاتينية والاعربية: المصدر المتقدم، ص ٤٣٣.

(٢) دي فترى: المصدر المتقدم، ج ٣٤، ص ١٤٦.

(٣) بورتشارد: المصدر المتقدم، ج ٣٧، ص ١٥٩.

(٤) ماثونو: المصدر المتقدم، ج ٧، ص ٢٥٩.

(٥) بورتشارد: المصدر نفسه، ص ١٥٤.

(٦) ملاحظة: يتربع الامبراطور على رأس الهرم وهو أعلى سلطة في التقسيم الإداري يليه الملك ثم الدوق ثم الكونت ثم البارون ثم الفرمان ومن ثم الأتباع.

يضع الأدنى للأعلى والأسمى مكانه وبناء عليه اعتقاد اللاتين على تسمية الذين يدعوه الرومان (باسيليوس) بالامبراطور وذلك إشارة منهم إلى منزلته الرفيعة.

بيير دوبوا: المصدر المتقدم، ج ٣٧، ص ٢٢٧.

في حين يتربع على قمة الهرم الإقطاعي الكنسي: البابا من ثم الكرادلة ثم البطارقة يليهم رؤساء الأساقفة ورؤساء الكنائس والأديرة ثم القساوسة ثم الرهبان والشمامسة وصغار رجال الدين

انظر حول ذلك:

يوحنا كينا موس: أعمال يوحنا كينا موس من خلال الموسوعة الشامية، ج ٢٩ ١٩٩٧م، ص ٨١-٨٢.

كنائس البطريكية:

بما أن البطريكية شملت على أراضي واسعة من البلاد مثل أراضي إمارة الرها - أنطاكية - كونتيه طرابلس فمن الطبيعي أن تحتوي على كنائس عديدة فيها وتابعة لها.

بمعنى أن رؤساء هذه الكنائس خضعوا كنسياً لسلطة البطريك الدينية^(١) على رأسها رؤساء أساقفة رؤساء أساقفة طرابلس وطرطوس وجبله والبارة طرسوس والمصيصة فضلاً عن الرها^(٢) وقد أدى التنافس بين البطريكتين (بين أنطاكية وبيت المقدس إلى سعي بطارقة بيت المقدس من أجل السيطرة بسط سلطانهم على أسقفيات طرسوس وجبله وبانياس الخاضعة عملياً بطريكية أنطاكية والتي باعت جميعها بالاختناق على الرغم من مساعدة البابوية^(٣) وقد حدث خلاف بين البطريكتين حول تابعة صور انتصر فيه بطريكية بيت المقدس بمساعدة البابا ووليم الصوري^(٤).

(١) لم يكن عدد الاسقفيات واحد أو ثابت بل كانت عرضة للتغيير وفقاً للأحوال السياسية كما لم تكن المقاطعات مقتصرة على الأراضي الداخلة ضمن نطاق الحدود المرسومة للبطريكية فكثير من الأديرة بفلسطين حازت على ضياع كثيرة في إمارة أنطاكية وضواحيها.

للمزيد حول هذا الأمر انظر:

رنسيمن: المرجع المتقدم، ج ٢، ص ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١.

(٢) رنسيمن: المرجع نفسه، ج ٢، ص ٤٩٩.

(٣) هذا الأمر بحثه بالتفصيل وليم الصوري للمزيد

انظر وليم الصوري: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٥٦١.

(٤) أدى تحديد مناطق نفوذ البطريك إلى إثارة المشاكل لمثلاً جرى العرف أن تدخل صور عملياً في نطاق بطريكية وذلك قبل الاحتلال الغربي لبلاد الشام ولكن سقوط صور بأيديهم سنة ٥١٨ هـ / ١٢٢٤ م، وبحكم عملية الاستيلاء عليها بمساعدة البنادقة عدت جزءاً من بيت المقدس ولذلك جرى التنافس عليها بين البطريكتين وهذا بالطبع لم يخل من المحاولات التي بذلها بطارقة بيت المقدس من أجل السيطرة بسط سلطانهم على أسقفيات أخرى مثل طرسوس وجبله وبانياس وطرابلس.

للمزيد انظر وليم الصوري: المصدر نفسه، ص ٥٦١ - ٥٦٢ / رنسيمن: المرجع نفسه، ج ٢، ص ٤٩٩.

النظم والإدارة في إمارة أنطاكية:

قسمت الإمارة إلى إقطاعات كبيرة وأخرى صغيرة حسب أهميتها ووزعت أغلبها على النبلاء والقادة الصليبيين وعلى رأس هذه الإمارة أمير أنطاكية الذي كان أقوى حاكم في الشرق اللاتيني^(٤) يتحكم في الأمور الإدارية والسياسية العسكرية، كما كان يسيطر على إدارة مركزية قوية، فقد كان يعين لكل مدينة إمارة في إمارته دوقاً^(٥) خاصاً بها له مطلق السلطة في إدارة البلدة، فكان هناك دوق لمدينة جبلة وعلى رأسها رؤساء أساقفة طرابلس وجبلة والبارة وطرسوس والمصيصة فضلاً عن غيرها وكان يساعد كل دوق فيكونت^(٦) وقد أدى التنافس بين البطريركيتين أي بين أنطاكية وبيت المقدس إلى سعي بطارقة بيت المقدس من أجل السيطرة وبسط سلطانهم على أسقفيات طرسوس وجبلة وبانياس الخاضعة عملياً لبطريركية

(٤) سميث: المرجع المتقدم، ص ٣٠٢.

(٥) الدوق: كلمة لاتينية الأصل معناها قائد أو دليل وهو لقب أطلقه الرومان على الولاة والرؤساء الأمراء ونحوهم من الأعيان ورؤساء الجيوش ثم صارت البلاد التي يحكمها الدوق تدعى دوقية في القرون الوسطى وأصبح الدوق مثابهاً للملك ومناظراً له وأحياناً يسنون الشرائع ويقيمون الحرب ويعقدون الصلح ويضربون العملة باسمهم بسيادتهم الداخلية كانت قوية على العكس في الخارج. جميع الدوقات متساوون أمام الملك إلا أن ولايات الدوق أكبر من ولايات البقية الكونت أو البارون أما الكونتات فهم أقوى من الدوقات .

المزيد انظر:

البيستاني: دائرة المعارف، مجلد (٨)، ص ١٤٩ - ١٥٠.

الأنطاكية قبل مجيء الفرنجة واحتلالهم البلاد .

الأنطاكي: المصدر المتقدم، ص ٢٣٠.

(٦) الفيكونت: يعد من أهم موظفين الإدارة المحلية فهو يمثل الملك في كل المدن الواقعة في إقطاعاته كما أنه يمثل السيد في مدن بارونته ويتولى جباية الضرائب المحلية وإرسالها لبيت المال كما كان الفيكونت مسؤولاً عن المحاكم المحلية وعن حفظ الأمن بوجه عام في مدينته ويختار عادة من أسرة نبيلة النسب.

رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٢، ص ٤٨٨.

أنطاكية، والتي باءت جميعها بالإخفاق على الرغم من مساعدة البابوية لهم^(١) هذا وقد حدث خلاف بين البطريركتين حول تابعة صور انتصر فيه بطريرك بيت المقدس بمساعدة البابا^(٢).

النظم والإدارة في إمارة أنطاكية:

قسمت الإمارة إلى أقطاعات كبيرة وأخرى صغيرة حسب أهميتها، وزعت أغلبها على النبلاء والقادة الصليبيين، وعلى رأس هذه الإمارة أمير أنطاكية الذي كان أقوى حاكم في الشرق اللاتيني^(٣) يتحكم في الأمور الإدارية والسياسية والعسكرية، كما كان يسيطر على إدارة مركزية قوية فقد كان يعين لكل مدينة إمارة في إمارته دوقاً خاصاً بها له مطلق السلطة في إدارة البلدة، فكان هناك دوق لمدينة جبلة وآخر للاذقية وهكذا^(٤) أما دوق جبلة والاذقية فيجري اختياره عادة من بين السكان الوطنيين المحليين المسيحيين، في حين يختار دوق أنطاكية بالذات من نبلاء الفرنج عادة على أن الفيكونت الذي يساعده يصح اختياره من بين السكان الوطنيين، وهذا المنصب لم يكن وراثياً، بل كان يحق لأمر أنطاكية عزلهم وتعيين من شاء^(٥) وفي الواقع وصف النظام الإداري في إمارة أنطاكية الجملة بشدته وتماسكه وتأثيره على خلاف بقية الأنظمة الإدارية في سائر الإمارات الفرنجية الأخرى.

الإدارة في كونتيه طرابلس:

قسمت هذه الكونتية إلى إقطاعات باعتبارها إمارة إقطاعية كبقية الإمارات، كان أميرها يقتطع من الأملاك أكثر مما يحوزه أي تابع من أتباعه^(٦) ومنذ

(١) رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٢، ص ٤٩٣.

(٢) د. جوني: المرجع المتقدم، ص ٩٠.

(٣) جوناثان رايلي سميث: الامبتارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص، دار طلاس دمشق، ط ١ ١٩٨٩ م، ص ١٣٠.

(٤) رنسيان: المرجع نفسه، ج ٢، ص ٤٨٨.

(٥) رنسيان: المرجع نفسه، ج ٢، ص ٤٩٣.

(٦) د. جوني: المرجع نفسه، ص ٩٠.

أربعينات القرن ٦هـ / ١٢م بدأت الأخويات العسكرية تتولى مسؤوليات الدفاع عنها^(١)، لذلك كثر بناء القلاع والحصون في هذه الإمارة لتسهيل الدفاع عنها من جهة وإدارتها بقوة أكبر من جهة أخرى.

ومن أشهر تلك الحصون قلعة الحصن وحصن طرطوس، وقد امتلك الاستبارية الحصن الأول. بينما امتلكت الداوية (فرسان الهيكل) الحصن الثاني ملك في سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م، كما تسلم الاستبارية حصن المرقب بينما سلمت الداوية برج صافيتا هذا وقد توارث أمراء أنطاكية وطرابلس حكم الإمارة منصب وفقاً للقانون الإقطاعي المعروف في الغرب^(٢).

فماذا عن النظم الإدارية التي خضعت لها هذه الأماكن إبان تحريرها من قبل المسلمين؟

عند البحث عن النظم الإدارية لأية مدينة أو إمارة إسلامية يجب الوقوف على نقطتين هامتين وأساسيتين في هذا الموضوع؟ أولهما: سكوت المصادر عن بعض التنظيمات والأمور الإدارية لا سيما خلال هذه الحقبة، ومدة تحرير للمناطق من قبل المسلمين كانت قليلة لكن هذا لا يعني عدم وجودها، بل من المحتمل أن المصادر تجاهلتها وركزت على القضايا السياسية والحربية الأكثر أهمية حسب رأيها.

ثانيهما: أن حدوث أي تحول سياسي أو حربي والانتقال من عهد إلى آخر سقوط أمراء وقيام آخرين لا يعني سقوط التنظيمات الإدارية كلية وقيام أخرى جديدة بديلة عنها لا تمت لها بصلة. مما يحتم قوله بأن هذه التنظيمات لم يصحبها تغيير جوهري خلال تلك التبدلات إلا الشيء القليل والنادر^(٣).

وفي الحقيقة لا ندري شيئاً عن التنظيم الإداري الذي اتبعه صلاح الدين

(١) سميث: المرجع المتقدم، ص ١٣٠.

(٢) د. جوني: المرجع المتقدم، ص ٩١.

(٣) عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ٣٧٧.

الأيوبي لا سيما بعد تحريره لمدن الساحل الشامي الأعلى، فما نعرفه أنه كان يعين على كل مدينة أو قلعة محررة وال أو قائد عسكري من قبله يدير شؤونها بحميتها ويحفظها من الأعداء.

وأمام هذه الصورة غير المكتملة والتي لم توضح لنا تماماً ما كان عليه الوضع والآلية التي تتم بها فلا يزال يكتنفها الغموض.

الأوضاع الاقتصادية بعد الاحتلال الزراعة بعد الاحتلال:

على الرغم من قلة المعلومات المستوفرة حول هذا الموضوع لا بد من الإشارة إلى اهتمام الفرنجة بالزراعة وتركيزهم على أصناف معينة أولوها عناية خاصة، هذا ما أشار إليه بعض المؤرخين الأجانب بأن الفرنجة كانوا لا يزرعون إلا الحبوب تقريباً حتى في بعض الأراضي المروية ولا يستثنى من ذلك إلا بعض أشجار البرتقال والرز، في حين بين كاهن أن الفرنجة كانوا يزرعون نبات الكرم زراعة واسعة وبعض الرز. بينما زعم سميث أن القرى التي عاش فيها الفرنجة الصليبيون كانت تنتج محاصيل معاشية^(١).

ومن الزراعات التي لاقى اهتمام لدى الفرنجة.

٦٠٤٩٨٦

زراعة قصب السكر:

حينما وصل الفرنجة إلى سورية تعرفوا إلى هذه المادة وتبين لهم أن قصب السكر تكثر زراعته في مناطق ساحلية عديدة حتى أنهم تعلموا من المواطنين المحليين عملية استخراج السكر من القصب^(٢) كما مر معنا، وانتشرت مصانعه في معظم المدن الساحلية^(٣).

وعندما سقط هذا الشريط بأيدي الفرنجة وبعدما غادروه كان ذلك الشريط ينتج كميات كبيرة من السكر يقوم بتصديرها إلى أوروبا^(٤) ويبدو أن زراعته لقيت رعاية مميزة من قبل الفرنجة لدرجة أنهم أعفوه من الضريبة تشجيعاً لزراعته^(٥).

لهذا يمكن القول بأن المساعدات البشرية والاقتصادية كانت ترد

واطون أندريو: الأبداع الزراعي في بدايات العالم الإسلامي، ترجمة أحمد الأشقر، منشورات جامعة دمشق، ١٩٨٥، ص ٣٢٢ - ٣٢٣.

(٢) دي فترى: المصدر المتقدم، ص ١٥٨ / رنيمان: المرجع المتقدم، ج ٣، ص ٦٠٢.

(٣) الإدريسي: المصدر المتقدم، مجلد ٢ ص ٣٥٥ - ٣٧٥.

(٤) أندريو: المرجع نفسه، ص ٦١.

(٥) النقاش: المرجع المتقدم، ص ٧٦.

إلى الفرنجة من أوربة دون انقطاع^(١) لذلك لم يعتمدوا بشكل رئيسي على المنتجات الزراعية للمنطقة وحدها لكنهم بالمقابل تعرفوا إلى بعض أنواع المزروعات التي لم يألفوها فنقلوا بعضها مثل أشجار الفاكهة وتعلموا طرق وأساليب الزراعة في المنطقة.

الفلاحون:

كانت الأوضاع الاجتماعية للفلاحين متردية بشكل عام^(٢) مرد ذلك أن منطقة كانت ميداناً ومسرحاً للحروب في تلك الحقبة ساهم في هذا التردّي عوامل عديدة منها العوامل البشرية والعوامل الطبيعية.

أ.العوامل البشرية:

تمثّلت بالاحتلال الفرنسي وانعدام الأمن في المنطقة إذ أخذ كل إقليم يسقط نزاعاً الآخر في يد الأمواج المتلاحقة من هؤلاء الغزاة الذين نقلوا معهم إلى الولايات التي أسسوها في الشام.

النظام الإقطاعي الأوربي بعد أن أجريت عليه بعض التعديلات فيما بعد شيئاً مع الظروف القائمة^(٣) وظهور الفرنج في هذه المنطقة أدى إلى هروب كثير من الفلاحين ومالكي الأراضي الزراعية مسلمين كانوا أم مسيحيين تاركين وراءهم مساحات واسعة من الأراضي، أما الأسباب التي دعتهم إلى ذلك فهروب المستمر من أرضهم بعد الاحتلال، فهذا يعود إلى الاضطهاد المحلي ممارس ضدهم وحينما يهاجر خبر الفلاح ويترك أرضه يستعان بغيره من المزارعين الغربيين^(٤) عن طريق السبّاحة البنادقة والجنوبيين الذين جلبوا لهم قوداً كبيرة من أوربة باسم الحج، وكان الفرنجة قد اعتادوا على محاصيل

(١) رفة: المرجع المتقدم: ص ٥٤-٧٩.

(٢) كرد علي: خطط ج ٤، ص ١٤٣.

(٣) أندريو: المرجع المتقدم، ص ٣٢٣.

(٤) زابوروف: المرجع المتقدم، ص ١٣٣.

وتقنيات زراعية تختلف عن الموجودة في هذه البلاد، مما أدى إلى ظهور ملامح أكثر رجعية من سالفاتها مثل استخدام العبيد في حراثة الأرض، وتحول الكثير من هذه الأراضي إلى مزارع زراعية أقل كفاءة، وأصبحت الأرض الآن تزرع مرة كل سنتين^(١) هذا في حال ترك الفلاحين الأصليين لأراضيهم، أما في حال سدم هجرهم لها فإنها كانت تزرع بكثافة أقل في ظل حكم الفرنجة إذ أنهم تركوا هؤلاء المزارعين مزارعهم يزرعونها مقابل أن يقدموا لهم نصف غلال الأرض سند أوان حصاها، كما وقع عليهم عبء فساد النظام الضرائبي المفروض من قبل الجباه المحصلين للضريبة^(٢) فعلى زرعهم ضريبة وعلى ثمار شجرهم ذلك كما كان عليهم دفع ضريبة على كل رأس من الماشية ومقدارها دينار وخمسة قراريط^(٣) بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الضرائب كضريبة العشر وهي للكنيسة^(٤) وكل ما بأيدي الفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل برساتيقهم^(٥) كلها للمسلمين وهي القرى والضياع^(٦) كما ارتبطت حالة الفلاح بعباسية بنظام الحكومات أي أصول الإدارة المتبعة التي لم تؤسس على ما يجب، كانت المظالم أشد تأثيراً عليه^(٧) هذا إلى جانب المعاملة السيئة التي عومل بها ما تعرض إليه من سلب ونهب وتشتيت أسرته نتيجة للصراعات المستمرة بين المسلمين والفرنج.

- (١) اندريو: المرجع المتقدم، ص ٤٩٨/ زابوروف: المرجع المتقدم، ص ١٣٣
- (٢) ابن قاضي شهاب: المصدر المتقدم، ص ٢٠٦.
- (٣) القيراط: جمعها قراريط ويختلف وزنه بحسب البلاد وهو قسمان: شرعي: هو ثلاث حبات من حب الشعير المتوسط مسيرقي: أربع حبات من الشعير أو القمح
- المزيد انظر: القزويني: شذوذ العقود، ص ١٥٢-١٥٣
- (٤) ابن جبير: المصدر المتقدم من خلال الموسوعة، ج ١٤، ص ٦٣٠٨/ كرد علي: المرجع المتقدم، ص ١٣٤/ زابوروف: المرجع نفسه، ص ١٣٤.
- (٥) الرستاق: كلمة معربة غيرها العرب ليكون على منهاج كلامهم وسعناها الريف القرى... الخ
- انظر المعجم المدرسي: المرجع المتقدم، ص ٤٠٩
- (٦) ابن جبير: المصدر نفسه، ص ٦٣٠٨
- (٧) كرد علي: المرجع نفسه، ص ١٣٤

ب. العوامل الطبيعية:

فقد كان لها دورها البارز في تدني الإنتاج الزراعي وانعكست سلباً على أوضاع الفلاحين منها تفاوت كميات الأمطار وعدم انتظامها ، مما يجعل الزراعة البعلية أكثر تقلباً من سنة إلى أخرى أو حتى انقطاعها كما حدث في سنة ٥٧٤هـ / ١٧٨م والتي شملت جميع أنحاء الشام، ففي هذه السنة انقطعت بعلية في سائر البلاد الشامية وغيرها واشتد الغلاء وكان عاماً في سائر البلاد فحدث غرارة^(١) الحنطة بدمشق وهي اثنا عشر مكوفاً بالموصل بعشرين ديناراً سورية عتقاً وفي سائر البلاد ما يناسب ذلك واستسقى الناس في أقطار الأرض ثم يسقوا وتعذرت الأقوات وأكلت الناس الميتة وما ناسبها ودام كذلك إلى آخر سنة خمس سبعين وخمسمائة للهجرة، ثم تبع ذلك وباء عام شديد أيضاً كثر فيه الموت وكان مرض الناس شيئاً واحداً هو السرسام^(٢) وكان الناس لا يلحقون بنون الموتى إلا أن بعض البلاد كان أشد من البعض... الخ^(٣) أضف إلى ذلك الجوع والمواسم أو أيام الجفاف إلى جانب الآفات الزراعية والكوارث الطبيعية ففتش الأمراض والأوبئة هذا ما حدث في سنة ٤٩٣هـ / ١١٠٠م عندما رحل هاجي الشام إلى مصر هرباً من الفقر والغلاء^(٤) وكذلك ما حدث عندما هاجم الجراد المحاصيل الزراعية وإتلافها سنة ٥١٢هـ / ١١٢٩م "وأكل الجراد على الشام والجزيرة أعقبته من غلاء الأسعار"^(٥) ناهيك عن ذلك كثرة الزلازل المتكررة على المنطقة كافة مما أدى إلى تصدع وفقدان قسم كبير من سكانها

(١) الفرارة: للغلات وهي اثنا عشر كيلاً كل كيل ستة أمداد والمد ينقص قليلاً عن الربع المصري
هزید انظر ابن فضل الله العمري: المصدر المتقدم، ص ٨١.

(٢) السرسام أو البرسام: هو مرض لا يتكلم به المريض حتى يموت.

ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية من خلال الموسوعة ج ٢٣، ص ٢٣١ / البدر العيني: المصدر المتقدم، ص ٢٢٨

(٣) ابن الأثير الكامل، ج ٩، ص ٤٣٦

(٤) العظمي: من خلال الموسوعة، ج ١١، ص ١٦٠ / ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ص ٢١٠

(٥) البدر العيني: المصدر نفسه، ص ١٥ / ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ص ٢١٠.

عشية الحروب وهلاك زرعها^(١) وأضيفت الزلازل تتردد في البلاد سبع سنين
وهلك فيها خلق كثير^(٢) وضربت هذه الزلازل المنطقة وخربت مدنها أكثر من
مرة كالزلازل التي حدثت في الأعوام (٥٠٨هـ/١١٢٥م) (٥٥٢هـ/١١٥٧م)
(٥٥٦هـ/١١٦١م) (٥٥٧هـ/١١٦٢م) (٥٦٢هـ/١١٧٧م) (٥٦٥هـ/١١٦٩م)
(٥٧٠هـ/١١٧٠م) التي حدثت في حزيران ١٢ شوال خربت فيها مدناً
بالقاحل^(٣) مثل جبلة وأنطاكية واستمرت مناوبة الزلازل حوالي ٢٥ يوماً^(٤).

ففي هذه الأثناء كانت الأطراف المتنازعة على حذر شديد على سائر البلاد
فما من أي هجوم مرتقب من الطرف الآخر، فنجد مثلاً أن نور الدين الزنكي
قد أحكم تجديد وترميم وبناء الأسوار لهذه الغاية، كما عمل الفرنج عمل نور
الدين نفسه لأن الزلزال فعل فعله في المناطق التي احتلها الفرنج فاشتغلوا
ببنائها أيضاً^(٥).

نظرة الفلاحية إلى الفرنج الصليبية:

نظر الفلاحون إلى هؤلاء الغزاة نظرة عداة ناضلوا ضد أسيادهم الجدد من
للال انتفاضاتهم المستمرة هذا ما أورده الكثيرون من مدوني الأخبار في القرنين
١٢-١٣هـ/١٢-١٣م ففي سنة ٥٢٤هـ/١١٣١م نشبت انتفاضة في كونتية
إربلس وقتل السيد بونتي الطرابلسي الأمر الذي نوه به مدون الأخبار رئيس
الساقفة ولیم الصوري.

كرد علي: خطط، ج ٤، ص ١٣٤.

ابن العديم: زبده من خلال الموسوعة ج ١٦، ص ١٣٣.

ابن الأثير الكامل ج ٩، ص ٣٠٢/ ابن قاضي شهبه: المصدر المتقدم، ص ١٨٩/ ابن العبري:
المصدر المتقدم، ص ١٧٢/ أبو شامة: المصدر المتقدم ج ١، ص ٢٤١/ ابن العديم: المصدر نفسه،
ص ١٣١/ العظمي: من خلال الموسوعة ج ١١، ص ١٥٨/ ابن الأزرقي الفارقي: تاريخ آمد
وميفارقين من خلال الموسوعة الشامية، ج ٢١، دار الفكر، دمشق ١٩٩٥م، ص ٢٧٩، ٢٩٧، ٣٣٠.

(٤) روايات المؤرخ السوري الكبير من خلال الموسوعة ج ٥، ص ٢٢٧.

أثنا سيو: سورية الشمالية، ص ٥٢٥.

(٥) ابن قاضي شهبه: المصدر نفسه، ص ١٨٩.

لكن الفلاحين الذين اضطهدهم الصليبيون لم يطأطئوا رؤوسهم للغزاة، بل إنهم على العكس كانوا مفعمين بالحقدهم عليهم وعلى نظمهم القاسية المتعسفة بحقهم كما كانوا مستعدين للإقدام على كل شيء يخلصهم من ظلم الفرنج وجبروتهم ويجبرهم على الرحيل أجلاً أم عاجلاً، لهذا ذكر لنا أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار أدلة ساطعة على عداوة السكان المحليين لهؤلاء الغزاة واشتباكاتهم مع أسانهم حكى لنا أنه "حدث ذات مرة أن جاء قريب إلى فلاح من محلة الجسر واضعاً تحت رداءه فسألوه أي شيء بيدك؟ قال يا مولاي تقابضت أنا والافرنجي ما معي عدة ولا سيف، فرميته ولكمت وجهه وعليه اللثام الزرد حتى أسكرته وأخذت سيفه فقتلته به"^(١).

هنا أستطيع القول بأنه وبالرغم من توالي المصائب على الفلاحين وتقلقل واضعهم وإرهاق حكامهم لهم بالضرائب، فإنه شعب صامد تعود أن يبقى مالكاً نشيطه جاداً في عمله ليكسب عيشاً كريماً ويحيا حياة طيبة، وهذا ما عرفناه فيه عصور تاريخية قديمة.

فماذا عن الصناعة في هذه الحقبة؟

الصناعة بعد الاحتلال:

تعرف الفرنجة إلى الكثير من الصناعات المحلية الهامة وتعلموها بدورهم من الصناع والحرفيين السوريين المهرة، ومن أهم هذه الصناعات الصناعات الغذائية مثل:

أ. صناعة السكر:

نتيجة لاهتمام الفرنجة بالسكر وتعرفهم إلى هذه المادة التي لم يألفوها في بلادهم^(٢) لقيت زراعته كما أسلفنا القول عناية مميزة من قبلهم لدرجة أنهم أعفوه من الضريبة تشجيعاً لزراعته^(٣) فعندما سقطت المدن الساحلية بأيدي هؤلاء

(١) ابن منقذ: المصدر المتقدم، ص ١٣٩/ زابوروف: المرجع المتقدم، ص ١٣٦-١٣٧-١٣٨

(٢) دي فكري: المصدر المتقدم، ج ٣٤، ص ١٥٨

(٣) النقاش: المرجع المتقدم، ص ٧٦.

المحتالين وبعدها غادروها كان ذلك الشريط ينتج كميات كبيرة من السكر ويتم تصديرها إلى أوربة^(١).

ب - صناعة النبيذ:

من الصناعات الغذائية العامة التي أولوها اهتماماً فائقاً بسبب حاجة الكنيسة مثل هذا النوع من المشروب^(٢).

ج - صناعة الطابون:

في الحقيقة أنشئت العديد من المصاين في أنطاكية وطرطوس وغيرها كما نلاحظ القول في الفصول المتقدمة، لكن استعماله لم يعمم إلا في القرن ١٣/٥٧م أصبحت صناعته على شيء كبير من الأهمية في المستعمرات الفرنجية حتى اتخذوا له المتاجر الخاصة التي تدر أرباحاً هائلة على العاملين بها^(٣).

لكن ذلك لا يعني أنهم لم يعرفوا صناعات أو يعملوا بها رغم إغفال المصادر التعريف بها أو ذكرها.

ومهما يكن من أمر نستطيع القول إنه بعد استيلاء الفرنجة على أراضي هذه المنطقة وجد الكثير الكثير من الصناعات الرائجة وخاصة الحرير والزجاج الورق، فتعلموها من الصانع المتميزين بالبراعة اليدوية والخبرة المهنية والذوق الفني الرفيع وقاموا بنقل الكثير منها إلى أوربة أولاً، كما أنهم اعتمدوا على اليد العاملة السورية في هذه الصناعات واستوردوا من البضائع والأقمشة والأسلحة مما صنعوها في البلاد ثانياً.

(١) عاشور: الحركة، ج ١، ص ٣٨٣.

(٢) راهب جبل صهيون: المصدر المتقدم، ج ٣٧، ص ١٥٤.

(٣) النقاش: المرجع المتقدم، ص ١٨٢.

التجارة بعد الاحتلال

تعرفنا فيما سلف على الأوضاع التجارية قبل الاحتلال وأهم الصادرات والواردات آنذاك لكن ثمة تساؤل يفرض نفسه هنا وهو هل تغير حال التجارة بعد قدوم الفرنجة واحتلالهم للمنطقة وكيف كانت العملية التجارية في الداخل ممن قام بنقل البضائع وما هي الملحقات الضرورية المرافقة لاستكمال ونجاح هذه العملية؟

للإجابة على ذلك أقول إن الحركة التجارية لم تتوقف في المنطقة بعد احتلال الفرنجة للساحل الشامي الأعلى بل على العكس ازدادت قوة ونشاطاً وبقيت غالباً بأيدي التجار الإيطاليين من بروفانس والبندقية وجنوه وبيزه وأمالفي^(١) ومرسيليا^(٢) تقاضوا عن تجارتهم أجوراً ممتازة وامتيازات لا حصر لها أما تجار الإفرنج فلم يكن لهم إلا نصيب ضئيل في التجارة إذ كانت المتاجر تجلب من الداخل إلى الموانئ الساحلية عن طريق تجار مسلمين أو مسيحيين ووطنيين^(٣) أما في شمال سورية فقد نقلها تجار يونانيون وأرمن إلى الساحل أنطاكية اشترى التجار الإيطاليون سلعهم مباشرة من المستوردين المسلمين^(٤) فالأصناف القادمة من الهند تمر عادة ببغداد، ومن هنا تنقل إلى أنطاكية كيليكية على البحر المتوسط، وبعد أن تصل البضائع إلى المراسي ترسل عبر أراضي المسلمين في قوافل جماعية تحمل على ظهور الجمال حتى تصل إلى

(١) أمالفي: ويقال لها 'مالفي' مدينة صالحة وأكثر أموالها من الثياب وشبابها لم ير مثلاً في سائر إيطاليها وهي في مقاطعة سالرنو جنوب شرقي نابولي إيطالية لا تبعد عن مدينة سالرنو أكثر من سبعين ميلاً وكان هؤلاء يجلبون التجارة الأجنبية وقد جعلوا أمير مصر صديقاً لهم بإعطائه الجزية والهدايا وقد حظوا بمكانه لديه فكان أن سمح لهم ببناء كنيسة لاتينية خاصة بهم لأن السوريين كانوا يتبعون تلك أحكام الكنيسة الأرثوذكسية.

انظر: دي فكري: المصدر المتقدم، ج ٣٣، ص ١٧٧ / كرد علي: غرائب الغرب، ص ٢٠٣.

(٢) كرد علي: خطط الشام، ج ٤، ص ٢٤٤ / زا بوروف: المرجع المتقدم، ص ١٤٨.

(٣) سانوتو: المصدر المتقدم، ج ٣٨، ص ٧٤.

(٤) رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٣، ص ٦١٠.

موانئ البحر المتوسط وهناك تحمل بمراكب شرعية كبيرة لتجوب الأفاق والبلدان، وبشكل طبيعي فإن كل البضائع تقريباً تسير نحو الطرق التي يوجد بها أكبر عدد ممن يشتريها وترتب عن تمريرها دفع رسوم وضرائب للفرنجة الصليبيين أثناء عبورهم للبلاد الخاضعة لسيطرتهم، وبالمقابل كان على التجار الفرنجة والأوروبيين الذين يجتازون البلاد الإسلامية ضرائب يدفعونها على تجارتهم^(١) وتجار النصارى يؤدون في أرض المسلمين على سلعهم وقد تعقد المعاهدات مع ملوك الإفرنج وتذكر فيها أنواع المتاجر التي يحملونها إلى موانئ هذه البلاد^(٢) وعبر المكاتب التجارية العائدة للتجار الطليان وتجار أمالفي ومرسليا كانت تتم عملية المقايضة أي مقايضة حاصلات الشرق مع حاصلات الغرب، ويمكن أن تتم مثل هذه الأعمال في المراكز الجمركية وأشهرها الجسر الحديدي بين حلب وأنطاكية وكذلك الجسر الحديدي عند حصن المرقب^(٣) ثم طورت العملية فيما بعد نتيجة لتضخم سبل التجارة و حاجة الحجاج الفرنج إلى النقد وارتفاع نسبة تداوله دفعها إلى منح الاعتمادات المالية، ولعل الدينار البيزنطي المرسوم بكتابة عربية أقدم ما سكه اللاتين من النقود الذهبية^(٤) فقد أتت أنطاكية إحدى المدن التي سك بها هذا النوع تقليداً للدينار الفاطمي وما لبث هذا الدينار أن حمل الشعار النصراني بالأحرف العربية، كما كان البنادقة يسبقون في هذا المضمار. فقاموا بسك دينار عرف بالدينار الصوري نسبة إلى بنة صور وتم التعامل به في جميع أسواق بلاد الشام والعراق^(٥) تسهيلاً

ابن جبیر: المصدر المتقدم، ص ٤٩، ٤٦/ سانوتو: المصدر المتقدم، ص ١١٩/ كرد علي: خطط، ص ٢٤٦.

(٢) كرد علي: المرجع نفسه، ص ٢٤٦.

(٣) النقاش: المرجع المتقدم، ص ١٩٠-١٩٣.

(٤) حتى: تاريخ سورية ولبنان، ج ٢، ص ٢٥٧.

(٥) ابن جبیر: المصدر نفسه، ص ٤٦-٤٩/ سانوتو: المصدر المتقدم، ص ١١٩/ كرد علي: المرجع نفسه، ص ٢٤٦/ رنسيان: المرجع المتقدم ج ٢، ص ٥١١.

لصفقاتهم التجارية وكان الاتفاق بينهم يقوم على هذا الأساس^(١) هذا يعني أن العملات الغربية التي أحضرها معهم التجار الحجاج الوافدون من غرب أوروبا ظلت تتداول إلى جانب تداول النقود العربية الإسلامية والنقود البيزنطية في بلاد الشام طوال الحقبة الصليبية ونجم عن هذه الصلات التجارية وعملاتها أن نمت الصداقة وتوزعت السفارات بين الفرنج والمسلمين حيث لقي كل من هؤلاء طائفة الترحيب والتشريف في بلاط الآخر، بينما لم يحفل بتعلم لغة الفرنج لا سيما فرنسية إلا عدد قليل من المسلمين واليهود، فإن كثيراً من الفرنج والنبلاء التجار كانوا يتحدثون العربية بل أن فئة قليلة منهم شغفت بدراسة الآداب العربية ولغاتها ومن هؤلاء رينالد الصيداوي (صاحب صيدا)^(٢) وبالرغم من حالة المعلومات عن مدى اهتمام الزنكيين والأيوبيين بالتجارة وبالتجار نستطيع نلمح إلى اهتمام كل من نور الدين وصلاح الدين الأيوبي بهذه الناحية بحرصهم كل الحرص على تسهيل وإقامة كل ما يمكنه أن يخدم القوافل التجارية بحفظها من العابثين بها^(٣) نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما حدث سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م "عندما خرج مركبان تجاريان من مصر إلى الشام فرستا على شاطئ بلاد قية فأخذهما الفرنج وهما مملوءان من الأمتعة والتجارة وغدروا بالمسلمين، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه وراسل الفرنج في ذلك وأمرهم بإعادة ما أخذوه فغالبطوه واحتجوا بأمر منها أن مركبين كان قد دخلهما ماء البحر لكسر فيهما وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء وكانوا كاذبين فلم يصل فغالطهم فلم يردوا شيئاً، فجمع حساكر من الشام والموصل والجزيرة وبث السرايا في بلادهم وغنم المسلمون كثير من عانوا إليه فراسل الفرنج وبذلوا إعادة ما أخذوه من المركبين وتجديد لهم الهدنة فأجابهم، قال: وكان لنور الدين في المركبين تجارة مع شخص فلما

(١) عاشور: المرجع المتقدم، ج ١، ص ٣٨٤.

(٢) ابن شداد: النوادر، ص ٧٩ / رنسيان: المرجع المتقدم، ص ٥١١.

(٣) أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

أعادوا إلى الناس أموالهم لم يصل إلى كل إنسان إلا اليسير وكان يحمل المتاع فكل من اسمه على ثوب أخذه^(١).

وفي الحقيقة تضاعفت ثروة المناطق الخاضعة للصليبيين لأن الذين يستلمون تلك البضائع كانوا من المسيحيين، ولأن شعب المسلمين كما وصفه المؤرخ الفرنجي سانوتو "شعب خامل كسول"^(٢) فلماذا امتنع الاتجار مع المسلمين أو الاتصال بهم أو السفر إلى بلادهم؟

أعلن رسمياً الحظر على التجار الإفرنج الذين يذهبون إلى الأراضي الخاضعة للسلطان أو الذين يعودون منها محملين بالبضائع ونص هذا الحظر على المخالفين بحرمانهم من الوصية والإرث وطردهم من جميع الوظائف العامة التي يشغلونها، بل اتسع هذا الحظر ليشمل البر والبحر معاً كما جرى تطبيق الأحكام المخالفة عن طريق البوارج المراقبة التي تشحن بالمقاتلين إضافة إلى تلك أغلقت جميع الطرق في وجه البضائع التي اعتاد التجار على نقلها من أراضي التابعة للسلطان صلاح الدين عبر إفريقية كلها ثم عبر الأندلس حيث يجتمع المسلمون^(٣) ومن الواضح هنا أن الإمارات التي أقامها الصليبيون في الشرق كانت لا تستطيع الصمود طويلاً إزاء هذا الوضع ووسط المحيط الإسلامي دون أن تأتي إليها مساعدات قوية ومستمرة من الغرب.

وهكذا نجد أن العلاقات التجارية تأثرت سلباً أو إيجاباً بما حدث على الساحة السياسية وحسب طبيعة المرحلة لكن الحركة التجارية لم تتوقف بشكل نهائي هذا ما دل عليه قول ابن جبير:

"واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع"^(٤) ولم

(١) أبو شامة: المصدر المتقدم، د، ص ٢٢٥.

(٢) سانوتو: المصدر المتقدم، ص ٧٨.

(٣) سانوتو: المصدر نفسه، ص ٧٨-٧٩-٨٠-٨١.

(٤) ابن جبير: المصدر المتقدم، ص ٤٨.

تكن التجارة على كل حال من الأحوال قبل احتلال الفرنجة بأيدي التجار المسلمين فقط، فالنقل التجاري في البحر المتوسط كان خاضعاً إلى درجة كبيرة لتحكم المراكب والتجار الأوربيين تجار أمارفي أولاً ثم تجار إيطالية من جنوه وبيززه والبندقية، أما بعد قدوم الصليبيين للمنطقة فقد تأثرت حركة التجارة بعوامل عدة منها حالة الحكومات الفرنجية قوة أو ضعفاً أولاً، كما تأثرت هذه الحركة باشتداد المنافسة بين القائمين عليها من جنوبيين وبيزيين وبنادقة وفرنسيين في الجنوب ثانياً، إذ كان التنافس على أشده في اكتساب رضى الحكومات الفرنجية^(١) وعقد المعاهدات معهم طلباً لاحتكار نقل الجيوش أو السلع البضائع بمراكبهم دون سواهم، وتحولت هذه المنافسات إلى صراعات دامية مستمرة لأنها ساهمت في مرحلة تالية إلى فتورها في هذا الجزء^(٢) كما تأثر النشاط التجاري بما كان يحدث في المنطقة من اضطرابات داخلية وتعديات على القوافل كما حدث على سبيل المثال لا الحصر سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م عندما هاجم أرنط صاحب الكرك قافلة لصالح الدين مليئة بالرجال والأموال بعدما ثبت بعهد له ثالثاً^(٣) أضف إلى ذلك التنافس الشديد بين جماعتي الاسبتارية الداوية لاحتكار التجارة أيضاً^(٤).

(١) سانوتو: المصدر المتقدم، ج ٣٨، ص ٩٤/ بيردوبوا: المصدر المتقدم، ج ٣٦، ص ١٠١/ يوحنا بيلاموس: المصدر المتقدم، ج ٢٩، ص ٢٦٧.

(٢) هايد: المرجع المتقدم، ص ٣٢٣/ النقاش: المرجع المتقدم، ص ١٨٩.

(٣) ابن العبري: المصدر المتقدم من خلال الموسوعة، ج ٥، ص ٤٢/ ابن الجوزي: المصدر المتقدم، ص ٣٨٩.

(٤) عاشور: أوربة العصور الوسطى، ص ٤٥١.

الاسبتارية والداوية: عبارة عن تنظيمات عسكرية دينية ولدت في العصور الوسطى خلال الحروب الصليبية.

الداوية **Templiers** : مهمتها حماية الصليبيين القادمين من أوربة إلى بيت المقدس ومحاربة المسلمين وقد عرفت هذه الطائفة بـ فرسان المعبد أو الهيكل وسرعان ما انقلبت إلى محاربين أشداء يرتدي فرسانها أردية بيضاء عليها صلبان حمراء ظهر هؤلاء في أرواد وكذلك أخذت الداوية برج صافيتا ولها حصن بفراس ودريساك. =

أجل في البداية كانت تجارة الإفرنج في عهدها الأول تتقدم باضطراب حتى غدا أربابها ذوي نفوذ سياسي قوي الأمر الذي دفعهم إلى التدخل في شؤون الحكومات أولاً ثم في المنازعات ثانياً، مما أدى بالتجار إلى الفرار إلى عكا بسبب كثرة الحروب والمشاحنات التجارية حيث نزح إليها العدد الكثير من التجار الإفرنج والتي باتت سيدة المدن التجارية لا يضاهاها أي من المدن الساحلية أخرى، لكنه بالمقابل فقدت المدن الساحلية جزءاً كبيراً من تجارتها نتيجة لذلك وتجدد وفود الجاليات الأوربية إليها، فكان بينها الفرنسي والإنكليزي والإيطالي الإسباني^(١) وراحت جميعها تتنافس مما أدى إلى عودة التجارة إلى عهدها السابق واتساعها مما يلاحظ أن السلطات بدأت تتذمر من قناصل الجاليات ومن كلاء التجارة وامتيازاتهم وأخذت تقلل منها شيئاً فشيئاً، وكذلك راحت تزيد في رسوم الجمركية على البضائع المصدرة من بلاد المسلمين هذا فضلاً عما ضتبته من الرسوم على البضائع الواردة إلى بلادهم أو المصدرة منها إلى

الأسبانية Hospitales: أو فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس كانوا في الأصل هيئة غرضها تأسيس الفنادق والخانات لراحة المسافرين والحجاج إلى بيت المقدس لا تأسيس المستشفيات كما عوا فيما بعد لكنهم انقلبوا فيما بعد إلى جنود أشداء يتعاطون مهنة القتال وسرعان ما نمت هاتين - المنظمتين حتى شغلتا دوراً هاماً في حياة الفرنجة الصليبيين وأهم قطاع خص به الأسبانية فهو حصن الأكراد وحصن المرقب ولم تلبث هاتين المنظمتين إلى التنازع فيما بينهما حتى تغلبت مصالح التجارية بينهما على الغرض الصليبي وبذلك امتلكت هاتين المنظمتين أموالاً وموارد هائلة على البحر المتوسط للمزيد انظر في المصادر العربية:

الحموي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٣٥٠ / ابن شداد: النوادر ص ٧٧ / أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٣٠٤، ج ٤، ص ١٧.

المصادر الأجنبية: إ.ج. كنغ ملاحق كتاب الاسبانية في الأرض المقدسة من خلال الموسوعة ج ٣٣، ص ٢٤٨ / أولفر: من خلال الموسوعة ج ٣٤، ط ٧٦-٧٧ / والتر ماب: عن أصل الداوية الموسوعة ج ٣٥، ص ٢٧٩ / سمباط: من خلال الموسوعة ج ٣٥، ص ٣٥ / حاج مجهول قيل ١١٨٧ م، من الموسوعة ج ٣٧، ص ٢٨ وما بعدها / ديبوا: من خلال الموسوعة ج ٣٧، ص ١٠٥ / عاشور: المرجع المتقدم، ج ١، ص ٣٩٢.

(١) بيير ديبوا: المصدر نفسه، ص ١٠١ / هايد: المرجع المتقدم، ص ٣٢٥.

الغرب^(١) ثم ما لبثت أن ظلت بعض العلاقات الاقتصادية تربط بين الغرب وبعض المدن الشامية الكبرى مثل دمشق وحلب^(٢) وما أن انقضى العهد الأول للفرنجة وختم بموقعة حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م حتى أصيبت الحركة التجارية للفرنجة في المنطقة بالضعف والتراجع إثر هذه الهزيمة التي كانت نذير شؤم للنسبة للمستعمرات التجارية على اختلافها وقبل انقضاء السنة كان صلاح الدين يولي سبيلاً على المدن الساحلية ذات الأهمية التجارية مثل اللاذقية وجبله وطرطوس، كما كان صلاح الدين حينها يعقد الاتفاقيات والمعاهدات التجارية مع بعض الجمهوريات الإيطالية أو غيرها مثل بيزة إذ منح السلطان بموجبها البيزيين في ١٥ صفر سنة ٥٦٩هـ/١١٧٢م عدة امتيازات خاصة بالتقاضي في مملكة^(٣) واستقرت حال التجارة في هذه المدن بشكل عام وخاصة بعد عقد الصلح بين ملك الإفرنج ريتشارد قلب الأسد وبين السلطان في سنة ٥٨٨هـ/١١٩٦م وعم الأمن والسلام البلاد جميعها الأمر الذي أثر إيجابياً على التجارة فسلمون إلى بلاد الفرنج وجاءوا هم أيضاً إلى بلاد المسلمين وحملت البضائع المتاجر إلى البلاد^(٤).

أما أهم الصادرات والواردات التي كانت تسوق من وإلى المنطقة كانت الأساطيل التجارية الصغيرة تنطلق بانتظام من وإلى الشرق بعد الاحتلال محملة بشتى أنواع البضائع.

الصادرات:

فأهم المواد التي كانت تسوق إلى أوربة البضائع المشتراة من مدن المشرق بحرية أو من مراكز أبعد للتجارة والأسواق المحلية الإسلامية، وكانوا ينقلون

(١) عائشور: المرجع المتقدم، ج ١، ص ٣٨٣.

(٢) سانوتو: المصدر المتقدم، ج ٣٨، ص ٩٤.

(٣) كرد علي: خطط، ج ٤، ص ٢٤٢.

(٤) ابن تغري: المصدر المتقدم، ج ٦، ص ٤٥.

الأقمشة الحريرية والقطنية من صنع الحرفيين السوريين المهرة والسلال الممتلئة بالفواكه جوز الطيب وأكياس السكر المستخرج من قصب السكر^(١) وهذه المادة من السلع لاقت إقبالا عظيماً في الغرب الأوربي في العصور الوسطى فمعظم السكر الذي كان يستهلك في أوربة في القرنين ٦-٧هـ/١٢-١٣م كان يأتي من بلاد الشام من المدن الساحلية.

أما الزيت فلم يكن يصدر إلى الغرب إلا بكميات قليلة على حد قول رنسيمن^(٢) لم يجلب للبلاد دخلاً يدعو للتقدير.

كذلك كان الغرب يتلقى من المشرق إلى الحرير الخام^(٣) والزجاج المصري والمصنوعات الزجاجية والتوابل والأصبغ من الهند والأعشاب الطبيعية والفواكه وكل هذا وكثير غيره كان يتم تصريفه في الأسواق الأوربية بمكاسب جداً^(٤).

الواردات:

وأهمها الطحين استورد الفرنج الحبوب بكثرة لأنها لم تكن لتكفي حاجة مارات التي أسسوها في هذه المدن الساحلية^(٥) لا سيما بعد انكماش رقعة إدهم في هذه المدن^(٦) وكذلك كانوا يشحنون خشب البناء والمعادن والنحاس القصدير من إنجلترا والجلود والجوخ من مدن فرنسا الجنوبية والخيول

(١) د. محمود الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين ١٢-١٣م القاهرة ١٩٧٩م ص ١٣٤/ كرد علي: خطط، ج ٤، ص ٢٤٤/ زابوروف: المرجع المتقدم، ص ١٤٩/ رنسيمن: المرجع المتقدم ج ٣، ص ٦٠٢.

(٢) رنسيمن: المرجع نفسه ج ٣، ص ٦٠٢/ كاهن: المرجع المتقدم، ص ١٢٨/ الشنتقاوي: المرجع المتقدم، ص ٤٤٧.

(٣) زابوروف: المرجع نفسه، ص ١٤٩.

(٤) بيير دوبوا: المصدر المتقدم، ج ٣٦، ص ٢٤٧.

(٥) عاشور: الحركة، ج ١، ص ٣٨٢.

(٦) زابوروف: المرجع نفسه، ص ١٤٩/ رنسيمن: المرجع نفسه، ص ٦٠٤.

والعبيد أما التجار البنادقة فحملوا معهم الجوخ والصدف^(١).

لقد كان هؤلاء التجار في المقام الأول موردي هذه البضاعة ويبيعونها في الأسواق حتى أنهم كانوا يتغلغلون في أعماق أسواق المناطق الإسلامية^(٢).

أضف إلى ذلك القار الرقيق^(٣) وأنواع الفراء والسنمور في موانئ البحر الأسود وهذه المواد كانت نادرة وغالية الأسعار في الجنوب، وعلى هذا يمكن تبين هذه المنتجات من الشمال على المراكب الإيطالية، كما حملت هذه المراكب معها في أوقات السلم الأسلحة غير الجاهزة والعساكر للفرنجة^(٤) والحجاج والعلماء أيضاً.

(١) كرد علي: غرائب الغرب، ص ٢٦.

(٢) كرد علي: خطط، ج ٤، ص ٢٤٩.

(٣) سائوتو: المصدر المتقدم، ص ٧٩.

(٤) بيير دوبوا: المصدر المتقدم، ج ٣٦، ص ٢٤٧.

السكان بعد الاحتلال

في نهاية القرن ١٥هـ / ١١م ومع قدوم الغزاة الجدد وفد عدد كبير من الفرنجة الصليبيين الذين حضروا مع الحملة الأولى، وكان معظم هؤلاء من ذوي أصول أوروبية متعددة الجنسيات منها الفرنسية، الألمانية^(١)، البريطانية هزوجية... الخ^(٢)، هذا بالإضافة إلى الجاليات الإيطالية القادمة بحراً خاصة من جنوة والبندقية وبيزّه والإيطاليون أكثر جدية وبراعة ويتسمون بالحكمة والحذر ومقصدون بالأكل ومعتدلين بالشراب ويلقون خطابات طويلة ومنمقة والأرض مقدسة بحاجة إليهم فقط من أجل القتال ولكن من أجل الملاحة ونقل التجارات والحاج والاطعمة ولأنهم يقتصدون بالطعام والشراب أمكنهم العيش في الشرق يقول من الأمم الأخرى^(٣)، كما وجدت الجاليات الصقلية التي زحرت بها مدن الكبيرة وشغلت فيها دوراً خاصاً وهاماً على الصعيدين السياسي والتجاري في المنطقة، فنشطت بذلك تجاراتهم الواسعة في المدن الساحلية حتى خصصت لهم أحياء وأسواق بكاملها^(٤) كفلتها لهم المعاهدات التي عقدها مع الفرنجة كذلك المعاهدات التي عقدها الجنوبيون وكفلت لهم إقامة شتات فيها، كما حدث في اللاذقية والسويدية وأنطاكية^(٥)... الخ بينما انحصرت مؤسسات البنادقة على المدن الكبرى ونزلت جاليات من بيزنطة في اللاذقية وأنطاكية، كما حل اللومبارديون (أهل أمالفي)^(٦) في اللاذقية ولم تكن

(١) عرف ابن الأثير الألمان على أنهم جنس من الفرنجة وهم الأكثر عدداً والأشد بأساً.

(٢) أما الأميرة أنا كومينا فتصفهم في الأكسياد كجيش قاتلة: أن بنيتهم الجسدية كانت مفرطة الضخامة ومخططة تماماً بالسوابغ وهم فوضويون وخياليهم لم تكن حقيقية الحركة وسريعة أبداً. ابن الأثير: الكامل، ج ١٠ ص ٨١ / الأكسياد من خلال الموسوعة ج ٦، ص ٨٥.

(٣) دي فترى: المصدر المتقدم، ج ٣٤، ص ١٨٧.

(٤) دي فترى: المصدر نفسه، ص ١٨٦، ١٨٧.

(٥) كرد علي: غرائب الغرب، ص ٢١٠.

(٦) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٨٠ م، ص ١٦٣.

(٧) دي فترى: المصدر نفسه، ص ١٧٧.

هذه المستعمرات سوى قومونات^(١) صغيرة ذات حكومة مستقلة تحدث أهلها اللغة الإيطالية، ولم يحدث أن اختلط هؤلاء بجيرانهم اجتماعياً على أن جميع هذه المستعمرات التجارية في كل المدن لم يتجاوز عدد أفراد الواحدة منها بضع مئات من الأشخاص فقط^(٢).

في حين ذكر بعض المؤرخين أن زمن انتشار الإيطاليين وشهرتهم في المنطقة كانت قبيل قدوم الفرنجة، والدليل على ذلك هو أن اللغة الإيطالية انتشرت في الشام وعرفت لغتهم أكثر من اللغتين الفرنسية والإنكليزية ثم بدأت بالانحسار تدريجياً في القرن ١٢هـ/١٢م^(٣).

فما هو موقف وعلاقة السكان المحليين على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم من قدوم الصليبيين إلى البلاد هل رحبوا بهم أم وقفوا ضدهم ودافعوا عن بلادهم قدر استطاع؟

آ.النصيرية:

لم تكن النصيرية كما يظهر على وئام في علاقاتها مع الفرنجة هذا ما يتدل عليه من كلام بورشارد عنهم قائلاً: "ويسكن في هذه الجبال قوم اسمهم باطنية جفاة وأناس قساة يكرهون الصليبيين"^(٤).

(١) القومون أو الكومون: في الأصل عبارة عن جماعة خاصة تتكون من أهالي مدينة ما، قاموا باختيار فرد أو هيئة مركزية من العنوديين على رأسهم وعاهدوا أنفسهم على أن يدافعوا عن مصالحهم وممتلكاتهم ضد كل المعتدين وقد رأى بعض المؤرخين في نظام الكومون ما ينبئ عن خروج الديمقراطية ومع ذلك فإن أعراض هذا النظام كانت تجارية قبل كل شيء هما الحصول على

الطهر حول ذلك:

فرانسيس وينوار: إيطالية شعبها وأرضها، ترجمة محمد نظيف، ص ٨٥.

(٢) رنسيان: المرجع المتقدم، ص ٤٧١.

(٣) كرد علي: غرائب الغرب، ج ١، ص ٢٠٧.

(٤) بورشارد: المصدر المتقدم، ج ٣٧ ص ١٥٧/سانوتو: المصدر المتقدم، ج ٣٨، ص ٢٥٩.

ب. الإسماعيلية:

كانت لهم اغتيالات كثيرة لشخصيات سياسية صليبية^(١) حتى أضحت كلمة الاغتيال مرادفة لهم^(٢)، لكنها لم تتبع سياسة واحدة في تعاملها مع الفرنجة همزاهم أحياناً معتادين على رمي خناجرهم ضد الفرنجة وهذا حدث في سنة ٥٤٦ م/١١٥٢م حينما قتلوا بشكل متعمد ريمون بن بوهمند كونت طرابلس الذي مدد أمام المذبح بكنيسة العذراء المباركة في طرطوس وبناء عليه قام جيش النابوية بمطاردتهم حتى انتهى الأمر إلى قبولهم دفع جزية سنوية^(٣).

وأحياناً أخرى يتصادقون ويتوددون إليهم والدليل على ذلك حينما شرع سيد الدين سنان بالتقرب من الملك امريك وتحول فيما بعد إلى صداقة ووثام مع الفرنجة تمثل بما عرضه شيخ الجبل وقومه على الملك في رغبته بالتحول إلى المسيحية سنة ٥٦٨هـ/١١٧٧م مقابل إلغاء الجزية المفروضة عليهم التي بلغت مقدارها ألفي قطعة ذهبية^(٤) ومنذ سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م بدأت تسير الأمور لصالح الفرنجة وأصبحت العلاقات ودية معهم.

أما النصاري ومنهم (الأرمن): فقد وقفت هذه الجماعة إلى جانب الفرنجة تعاونت معهم^(٥) لا بل قاتل الأرمن في صفوفهم^(٦) لكن بعض المراجع ترد

(١) رواية شاهد عيان للأرض المقدسة من خلال الموسوعة الشامية، ج ٢١، ص ١٥٢، ١٥٣.

(٢) بنيامين: المصدر المتقدم، ص ٨٨.

(٣) مزيد انظر:

بنيس فوقاس: المصدر المتقدم، ج ٣٤، ص ٣٨٠/ حياة القديس لويس جوافيل من خلال الموسوعة، ج ٢، ص ١٦٨.

(٤) أولفر: المصدر المتقدم، ج ٣٤، ص ٦٩/ رواية شاهد عيان للأرض: المصدر نفسه، ج ٢١، ص ١٥٢-١٥٣/ كرد علي: خطط، ج ٦، ص ٢٥٩.

(٥) جوافيل: المصدر نفسه، ج ٣٥، ص ١٦٨/ وليم الصوري من خلال الموسوعة الشامية، ج ٧، ص ٣٦٧.

(٦) ابن الشحنة: المصدر المتقدم ص ٢١٦/ كرد علي: الإسلام والحضارة، ص ٣٠٢.

(٦) رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٢، ص ٢٦.

أسباب تعاون الأرمن مع الفرنجة إلى عاملين اثنين جعلاً منهم أقرب للفرنج من أية عناصر مسيحية أخرى في الشرق أولهما: طموحهم للتحرر من الحكم السلجوقي.

ثانيهما: أنهم شعب محارب وكثيراً ما كانوا يشاهدون خلال القرن ١٢/هـ ١٢م فحشي زي الجنود الخيالة أو المشاة في الجيش الصليبي يخوضون المعارك في شمال بلاد الشام^(١)، وعلى الرغم من ذلك لم يكونوا كما يبدو موضع ثقة عند الفرنجة على حد قول رنسيان^(٢)، وباعتراف الفرنجة أنفسهم في إحدى هزائمهم وملازماتهم أنه كان من النصاري من خدم المسلمين وناصرهم، وخاشنوا الفرنج الصليبيين الغرباء القادمين والسبب في ذلك كما علقه كرد علي "لما رأوه من خوف المسلمين وعدلهم منذ أن كان الإسلام"^(٣).

هذا وقد وصلت إلى المنطقة أقلية تركمانية وتركية وبعض الأكراد في أواخر القرن ١٢/هـ ١٢م من الشرق واستقروا في السهول كما في سهول صرطوس، وجميع هؤلاء دخلوا المنطقة إما بحثاً عن حياة اقتصادية أرفع شأن، أو بقصد الجهاد ضد الفرنجة فيما بعد^(٤).

لقد كانت العلاقات الاجتماعية التي تكونت في الدول الصليبية عبارة عن تسيبة أو جمعية تقوم على أساس النظام الإقطاعي الأوروبي في صيغته الفرنسية الغالبة وبين البنيان الذي رزخ في سورية قبل مجيء هؤلاء الغرباء^(٥) ذلك أن

(١) سميل: المرجع المتقدم، ص ٨٩.

(٢) رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٢، ص ٢٦.

(٣) كرد علي: الإسلام والحضارة، ص ٣٠٢.

• ملاحظة: أشارت بعض الدراسات إلى أن النصاري المحليين اندمجوا مع الفرنجة القادمين وتزاوجوا معهم، الأمر الذي أدى على ظهور طبقة جديدة دعيت بالبوليان فإذا كانت وجهة النظر هذه صحيحة فإنها لم تحدث في المنطقة الساحلية لأنهم بقيوا مجرد حاميات عسكرية منعزلة ليس إلا وأرجح أنه حدث ذلك إن صح القول في القدس.

لمزيد انظر: دي فكري: المصدر المتقدم، ج ٣٤، ص ١٨٧/عاشور: الحركة، ج ١، ص ٣٨٥ - ٣٨٦.

(٤) زابوروف: المرجع المتقدم، ص ١٣١ - ١٣٢.

الصلبيين الغربيين الذين عاشوا في البلاد غرباء وظلوا دوماً الفئة الأقل عدداً إلى جانب سكان المدن الأساسية على اختلاف طوائفهم، ورغم ذلك استطاعت هذه الأقلية أن تحتفظ بنفوذها السياسي وتجعل من نفسها ارسقراطية حاكمة لكنها فقدت بحكم وجودها في وسط شرقي واسع وقلة عددها الكثير من صفاتها الأصلية.

أما نظام الأسرة وأوضاعها عند الصليبيين فلم يختلف كثيراً عما كان عليه في الغرب الأوربي في العصور الوسطى، بيد أن طبيعة الحرب الطويلة ووجود الكثير من الشبان العزباء أدى أحياناً إلى الانحراف الخلقي بين الصليبيين في الشام هذا الشيء أفصح عنه واندعش منه أسامة بن منقذ في الاعتبار فقال: "ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة"^(١) فماذا عن اللغة التي تخاطب بها هذا الخليط العجيب من السكان؟

اللغة: كانت اللغة العربية هي اللغة الأم للسكان الأصليين، وكان المسيحيون الشرقيون يتحدثون بها إلى جانب لغتهم الروحية فسرّيان المنطقة على سبيل المثال لا الحصر استخدموا اللغة العربية في صكوكهم ورسائلهم التي يكتبونها بينما أنشدوا الأغاني والترانيل الخاصة بهم بالإضافة للأضاحي المقدسة الأغريقية^(٢) أما اللاتينية فهي اللغة المستعملة في الكنائس التي أسسها الصليبيون القادمون وفي الرسائل^(٣)، وفي تدوين القوانين فقد ورد على لسان أحد الحجاج الأوروبيين المجهولين الذين زاروا الأراضي المقدسة في القرن ١٢م أن الصليبيين عرفوا باسم اللاتين لأنهم يستعملون اللغة اللاتينية وهذا يعني أن اللغة اللاتينية كان يتحدث بها في الكنائس المتعلقة باللاتين.

لكن اللغة الفرنسية تغلبت في هذا المجتمع وإن اختلفت لهجاتها فقد استخدم الصليبيون في أنطاكية اللهجة الشمالية من اللغة الفرنسية، بينما استخدم

(١) ابن منقذ: المصدر المتقدم، ص ١٣٥/ عاشور: الحركة ج ١، ص ٣٨٨.

(٢) أولفر: المصدر المتقدم، الموسوعة، ج ٣٤، ص ٩٩/ أناسيو: المرجع المتقدم، ص ٣١.

(٣) رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٢، ص ٤٨٧.

الصلبيون في إماره طرابلس اللهجة الجنوبية من الفرنسية ^(١) أما الأحياء الإيطالية المستقلة فغلب عليها الطابع الإيطالي ^(٢) وكما كان للسكان المحليين محاكمهم الخاصة بهم التي يترأسها رؤساء محليون لكي تنظر في قضاياهم الصغيرة ^(٣) أصبح لهذه الجاليات المستوطنة محاكمها الخاصة بها أيضاً. وفي ثناكن سكنها فقد أقام الملك أمريك الأول ٥٥٧-٥٦٩/١١٦٢-١١٧٤م محكمة عرفاً في كل المدن الساحلية للنظر في كل القضايا المتعلقة بالمرافق والرسوم الجمركية بالإضافة إلى المحاكم القنصلية للنظر في أمورهم الداخلية ^(٤) وأصبحت المنطقة في هذا القرن تحوي أجناساً متعددة من البشر مختلفة اللغات والأديان والأعراق ^(٥) كلوحة سيفسء ملونة، وهنا لا يسعني إلا أن أستذكر قول الشاعر العربي المتنبي الذي مثل هذا الواقع خير تمثيل:

غريب الوجه واليد واللسان

ترى الفتى العربي فيها

سليمان لسار بترجمان

ملاعب جنة لو سار فيها

ومن الجدير بالذكر أنه عند دخول الفرنجة إلى الساحل الشامي اتحدت جميع المذاهب المحلية الموجودة فيه على الرغم من اختلافها في وجه عدوهم المشترك وهم الفرنجة الصليبيون ^(٦) واضطرت جماعات كثيرة من السكان إلى الهروب من وجه الصليبيين وإلى سكن المناطق الجبلية المرتفعة في الإقليم حيث الشروط الطبيعية القاسية والفقر الشديد في الأراضي الزراعية وقلة المياه العذبة عن بقية الأجزاء بسبب وعورة الأرض ولأسباب بشرية أخرى لم تأت عتاً والأغلب يعود في أسبابه إلى ظروف سياسية واجتماعية تعود لقرون سائلة

(١) عاشور: الحركة، ج ١، ص ٢٨٨.

(٢) عاشور: أوربة العصور الوسطى، ص ٤٤٥.

(٣) ابن شداد النوادر، ص ٨٩.

(٤) رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٢، ص ٤٨٥.

(٥) ابن بطوطة: المصدر المتقدم، ص ٢٩٤.

(٦) كرد علي: الإسلام والحضارة، ص ٣٠١.

ومما زاد الطين بلة مجيء الصليبيين إلى البلاد واقترافهم للمذابح الجماعية وتسليخ الخوف إلى قلوب الأهالي، ومثال ذلك ما حدث لأهل مرقية وطرطوس حينما انتقل أهل مرقية إلى الجبل خوفاً من الإفرنج^(١) وخشوا إن وصلت الإمدادات إلى عدوهم تحت جناح الظلام أن يصبحوا عاجزين عن المقاومة غير قادرين على الصمود ففضلوا اللوذ والفرار من أمام عدوهم ليلاً حاملين كل ما ملك أيديهم وانتشروا في المنطقة الممتدة من لواء اسكندرونة حتى مدخل تل كنج ملتجئين بذلك الأمان لأنفسهم^(٢).

فهل تغير حال السكان بعد تحرير صلاح الدين الأيوبي للمدن الساحلية بعد تحرير صلاح الدين لمدن الساحل الشامي سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م حصل مسيحيون الشرقيون من الأرمن وغيرهم في اللاذقية على موافقته بالبقاء في المدينة وترك لهم حريتهم الكاملة مقابل دفعهم الجزية مثل أهل الذمة، أما اللاتين منهم فقد ساروا وتوجهوا نحو أنطاكية^(٣).

لكن المفيد قوله هنا إنه على الرغم من تنوع السيطرة الأجنبية على هذه المنطقة إلا أن السكان بقوا متمسكين بعروبيتهم وهذه حقيقة ثابتة من حقائق التاريخ بقيت خالدة حيث حافظوا على أصالتهم المعهودة فلم ينصهروا أو يتأثروا بالمحتلين الجدد أو غيرهم ممن تلاهم، وبقيت جذورهم العربية متأصلة بهم تمام التماس فكانت الغلبة لهم في النهاية.

السياسة العامة التي تبناها الفرنجة في علاقاتهم مع السكان المحليين:

عندما سيطر الفرنجة على هذا الجزء من بلاد الشام اتبعوا سياسة مكررة في معاملتهم مع سكانه تهدف إلى تثبيت أقدامهم في المنطقة بأي ثمن كان، وهذا لن

(١) الإبريسي: المصدر المتقدم، مجلد ١، ص ٢٧٥/ ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٤٩/ ولیم الصوري: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٤٨.

(٢) ولیم الصوري: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٨/ عبد السلام: المرجع المتقدم، ص ١٨٩.

(٣) الأصفهاني: الفتح، ص ٢٣٩.

يتحقق بالطبع ما لم يقيموا علاقات ودية نوعاً ما مع جيرانهم والسعي للصدقات مع المسلمين، لا سيما في المجال التجاري لضمان تصريف منتجاتهم أولاً ومن أجل استمرار بقائهم في المنطقة ثانياً^(١) لكن هذا لم يمنع من حدوث المصادمات بينهم بين الحين والآخر^(٢) فالمسلمون لم يرضوا ببقاء قوة دخيلة عليهم في بلادهم لهذا تعرضت العلاقات فيما بين الطرفين للخطر والحذر دوماً^(٣).

وانطلاقاً من هذا المبدأ قامت العلاقات بين الفرنجة والسكان المحليين على أساس تجمع بين العداوة المتعصب والتسامح السودي في آن واحد، لكنهم ظلوا منفصلين عن المواطنين الأصليين لا يرغبون في الاندماج داخل البيئة الاجتماعية المحلية لا سيما من حيث اللغة والدين^(٤)، أما من حيث المنفعة الاقتصادية المتبادلة فقد قامت علاقات متبادلة بين الطرفين على هذا الصعيد إذ أدى الفرنجة في طرد ذلك الكم الكبير من السكان من أراضيهم فقداً لليد العاملة الضرورية واللازمة لاستثمار الأراضي الزراعية والقيام بخدمات ضرورية أخرى لهم لا سيما وأن عدد المستوطنين الفرنجة كان يتناقص باستمرار نتيجة الحروب المتكررة مما اضطرهم إلى اللجوء إلى نوع من التعامل القائم على التفاهم مع رعاياهم من السكان المحليين، فتارة يخففون من قيودهم عليهم ويكفون تارة عن اضطهادهم لذلك تركوا لهم جانباً لا بأس فيه من الحقوق والإدارة الذاتية مع منحهم حرية التصرف، لكنهم بالمقابل كانوا مضطرين لدفع ضرائب باهظة للفرنجة^(٥) وبالرغم من كل شيء فإن الحيل وأساليب الدهاء تلك لم تنطل على الأهالي ولم يتقوا في نواياهم فهم يعرفون حقيقة الفرنج وزيف وعودهم^(٦)

(١) نسيم: المرجع المتقدم، ج ١، ص ٨٠ - ٨١.

(٢) رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٢، ص ٥١١.

(٣) رنسيان: المرجع نفسه، ج ٣، ص ٦٢١.

(٤) كاهن: المرجع المتقدم، ص ٣٦١.

(٥) رنسيان: المرجع نفسه، ج ٢، ص ٤٧٨ / سميل: المرجع المتقدم، ص ٤٣.

(٦) ابن جبير: المصدر المتقدم، ص ٢٨٩ وما بعدها.

بدليل أنهم يعاودون القتل والفتك بالأهالي بين الفينة والأخرى، ولم يعرفوا بالتسامح لهذه الأسباب جميعها أخذت فكرة المقاومة والجهاد تبعث في سبيل الدفاع عن الأرض^(١).

(١) كاهن: المرجع المتقدم، ص ٣٦١.

دور المدن والأساطيل البحرية الإيطالية الإيطاليون ودورهم قبل وبعد الحروب الصليبية:

ترافقت الحروب الصليبية مع النشاط الهائل للدول الإيطالية (جنوة*، البندقية*، بيزنطة*)^(١)، الذين برعوا في التجارة ومشاريعها الاقتصادية وإقطاع المستعمرات والمستوطنات، كما برعوا في القتال والأعمال الحربية، وكانت أوربة قد تفوقت بحراً على كل ما سواها، واستحوذت على البحر المتوسط بعد الاستيلاء على جزيرة صقلية^(٢) بعض شواطئ المغرب بالإضافة إلى الأماكن التي احتلها الفرنجة في شواطئ الشام^(٣). كان الإيطاليون رجال التجارة والأساطيل في البحر الأبيض المتوسط قبل وخلال وبعد حروب الصليبية، وقد كان لهم النصيب الأوفر من التجارة في هذا البحر، فقد زودوا

جنوة: تقع على الساحل الشمالي للبحر التيراني وهي ميناء هام منذ عهد لجمهورية الرومانية تبعد عن صقلية مسيرة أربعة أيام والجنوبيون كان يسيطرون على البحار يجوبونها بسفنهم الخاصة المسماة - غاليس- وهميون بأعمال القرصنة على الروم وعلى المسلمين والحرب قائمة بين جنوة وبيزنطة.
(شلمين: المصدر المتقدم، ص ٥٨/ الادريسي: المصدر المتقدم، ص ٧٢.

البندقية: تقع على الجزء الأقصى من خليج الأدرياتيكي وتمتد بعيداً عن الساحل على شكل حزام بري.

بيزنطة: تقع بين الساحل الشرقي للبحر التيراني، وكان ميناؤها واحد من الموانئ التي يزدهم فيها التجار والقرصنة في آن واحد.
شلمين: المصدر نفسه، ص ٥٨.

(مؤرخ مجهول قبل ١١٨٧، من خلال الموسوعة الشامية، ج ٣٧، ص ٢٢٩.

(جزيرة صقلية: جزيرة مثلثة الشكل مقابلة لأفريقية وهي كثيرة الزرع والفواكه والمواشي المعادن وقيل أن لها ثلاثة وعشرين مدينة وثلاثة عشر حصناً أما تسميتها فهي تسمية قديمة تعني تين وزيتون -

أنظر: القزويني: المصدر المتقدم، ص ٢١٥/ البكري: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٤٨٢/ ابن جبير: المصدر المتقدم، ص ٢٩٦/ البغدادي: المصدر المتقدم، مجلد ٢، ص ٨٤٧/ الحميري: المصدر المتقدم، ص ٣٦٦/ ابن حوقل: المصدر المتقدم، ص ١٨٤/ كرد علي: غرائب الغرب، ج ١، ص ٢٠٣.

(٣) بيزر دويوا: المصدر المتقدم، ج ٣٦، ص ٧/ أرشيبالد: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد عيسى، القاهرة، نيويورك، مكتبة النهضة المصرية، لم يرد تاريخ الطبع ص ٣٩١-٣٩٣.

مصر بالخشب والحديد، وبذلوا قصارى جهدهم لنقل التجارة والتجار إلى الاسكندرية، كما أنهم نافسوا القسطنطينية في السيطرة الدولية على أسواق مدن البحر الأبيض المتوسط^(١)، حيث كان لسكان بيزة تجارات واسعة في الشام، ويبدو أن السمة الظاهرة على جمهوريات بيزة - جنوة - البندقية هي أنها أكثر البلاد الإيطالية اختلاطاً بالشرق قديماً، إذ كان المظليون يأتون بلاد الشام ومصر وسواحل البحر منتجين للرزق والإتجار لاسيما (مادة الخوخ)^(٢)، وبقي لهم دورهم الهام في التجارة في كل زمان ومكان، وإن ظهرت إلى جانبهم أمم تجارية أخرى مثل أمالفي^(٣) ومرسيلية (جنوب فرنسا) وصقلية الذين يرجع الفضل إليهم في تغذية التجارة ورعايتها^(٤).

أما بعد قدوم الفرنجة واستيلائهم على المرافئ الشامية هدفت تلك المدن إلى استخدام المنطقة التي تقع تحت النفوذ الصليبي كقاعدة سياسية واقتصادية لهم، وحصلوا بالمقابل على مزايا عديدة من جراء مساعداتهم للصليبيين. فما هي تلك المزايا التي ارتأها الإيطاليون من خلال تقديمهم المساعدة لأولئك الغزاة الجدد؟

فكر الإيطاليون ملياً فيما آلت إليه الحركة الصليبية، وقد أدى قيامها إلى طلب أعداد كبيرة من العساكر والدبلوماسيين فضلاً عن الحجاج، فإذا ما تولى الإيطاليون نقلهم فإن ما بدوره لهم من المال سيهيئ لأرباب السفن من النقد ما يصح أن ينفقوه في موانئ سورية على السلع المستوردة من الجهات القادمة إلى الشرق. لكن لا نستطيع أبداً إغفال النزاع اللبنانية للتجار الإيطاليين رغم ضآلتها الذين آثروا أن يمارسوا تجارتهم في مرفأ مسيحي

(١) كاهن: المرجع المتقدم، ص ٣١٨.

(٢) كرد علي: غرائب الغرب، ص ٢٦/ زابو روف: المرجع المتقدم، ص ١٤٨/ هايد: المرجع المتقدم، ص ١٧٩.

(٣) أمالفي: ويقال لها (ملفي) من مقاطعة سالرنو تبعد عنها سبعة أميال وهي جنوب شرقي نابولي مدينة صالحة وأكثر أموالها من الثياب وثيابها لم يرى مثلها في سائر البلاد وكان الأمالفيون على حد قول دي فترى يطلبون معهم مختلف التجارات الأجنبية وكان أمير مصر صديقاً لهم بإعطائه الجزية من قبلهم وكذلك الهدايا فحظيوا بمكانة عالية لديه الأمر الذي جعل أمير مصر يسمح لهم ببناء كنيسة لاتينية.

دي فترى: المصدر المتقدم، ص ١٧٧/ كرد علي: المرجع نفسه، ص ٢٠٣.

(٤) هايد: المرجع نفسه، ص ١٧٩.

على أن يباشرها في مرفأ إسلامي، ومن الاعتبار العملية أيضاً ما لجأت إليه الكنيسة في التشدد ومنع التجارة مع المسلمين^(١)، وبالفعل حقق الإيطاليون مزايا عديدة (اقتصادية - قانونية بالإضافة إلى المنح المقدمة لهؤلاء من أجل استمرارهم بالقيام بدورهم في المنطقة، فقد جدد تنكريد كل المنح التي حصلت عليها الجنوبية في أيام بوهمند الأول، وأنشئ نفسه قام به بوهمند الثاني (٥٢٠ - ٥٢٥ هـ / ١١٢٦ - ١١٣٠ م) أما بوهمند الثالث فقد جدد المنح لليزاولية عام ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م. في حين منح البنادقة كلاً من بوهمند وتنكريد وبوهمند الثاني الكثير الكثير في أنطاكية وموانئها وجمدت فيما بعد، كما حصل الأماطيون على أول امتيازات لهم من قبل بوهمند الثالث في اللاذقية سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م، هذا وكفلت الحقوق القانونية الممنوحة لهؤلاء كثيراً من التسهيلات كسهولة التعامل مع غيرهم ومنحهم استقلالاً كبيراً في شمال الشام وزيد على ذلك منحهم محاكم خاصة بهم دون المحاكم الأخرى، ففي سنة ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م منح بوهمند البنادقة^(٢) بحكمة خاصة بهم في شمال الشام^(٣)، ومع ذلك كله لم يشعر الإيطاليون أبداً بالطمأنينة في مدين الإسلامية ولا حتى في القسطنطينية نفسها، ومع أن المورد الفعلي للتجارة التي تجري في الموانئ السورية المسيحية أقل من تلك التي تمارس في القسطنطينية، أو حتى في الاسكندرية فإنهم اهتموا بالألا تتوقف تجارتهم أبداً مهما كانت الأسباب على أن مشكلتهم الوحيدة جاءت من التنافس والصراع بين الإيطاليين أنفسهم لا من العداء مع الحكام المحليين^(٤)، وبقيت موثيق تخفيض رسوم الاستيراد والتصدير في المراسي والأسواق

(١) سانوتو: المصدر المتقدم، ٧٩-٨٠-٨١-٨٧/ عطية: المرجع المتقدم، ص ١٦١، ١٨٥.

(٢) عطية: المرجع نفسه، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤.

(٣) كانت البندقية تقدم فيما مضى خدمات جلى لبيزنطة على حد قول أنالا سيما في مجال التجارة مما سهل حصولها على تعويضات مثل منحهم مساحات محددة من بيزنطة والتي تعرف باسم الامبولون (الحى)، وجعلتهم ثرواتهم متعجزين الأمر الذي أغضب الامبراطور البيزنطي من سوء سلوكهم ومعاملتهم فطردهم لذلك رغبوا الانتقام من الرومان وغيرهم لهذا قالت عنهم أحد المصادر حينما وصفتهم بما يلي: 'وهذه الدولة فاسدة الأخلاق لأنها مليئة بالبحارة الزراع'.

انظر: كينا موس: من خلال الموسوعة، ج ٢٩، ص ٢٦٦٦ وما بعدها.

(٤) بنيامين: المصدر المتقدم، ص ٥٨/ حاج مجهول قبل ١١٨٧ م: المصدر المتقدم، ج ٣٧، ص ٣٧/ رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٣، ص ٦٠٧-٦٠٨، ٦٠٩.

داخل المدن لصالح تجار البندقية وأما نفي وبيزة في أنطاكية. إذ منعهم من دفع أية ضرائب على العموم، لكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو:

ما هي الأسباب التي دفعت الفرنجة إلى طلب المساعدة من هذه الدويلات بالذات؟ ولماذا تأخر الإيطاليون عن تقديم هذه المساعدة في بداية قدوم الفرنجة؟

وجدت مملكة بيت المقدس أنها أمام مشكلة بالغة الخطورة نتيجة لأسباب منها نقص الخرجات وسيطرة المسلمين على سواحل الشام وموانئها^(١) ونظراً لقلة الموانئ الصالحة، افتقارها إلى الأخشاب اللازمة لصناعة السفن كان لابد من التماس مساعدة في كل حملة على طلب قوة بحرية للاستيلاء على المدن الساحلية والتي تحتاج إليها الحملات الموجهة إلى مصر، ولما كان الاستيلاء على هذه الشواطئ والموانئ أمراً صعباً بغير أسطول، فإن الصليبيين طلبوا مساعدة وجدوها متوفرة لدى ملاحي الجمهوريات الإيطالية. لاسيما الملاحي البندقية لأن أهلها على حد قول سانوتو: "ولدوا على الماء وعلى الماء تربوا، لذلك لهم خبرة ومهارة أهل البحر ولاسيما في بلدان المشرق، ولهم مراسي موزعة هنا وهناك معهم رجال ملاحه صالحون للعمل في الأنهار والبحيرات، وهم أيضاً عساكر مهرة في استخدام الأسلحة"^(٢)، لكنهم ألفوهم شديدي الطمع واشترطوا عليهم الحصول على نصيب معين من الغنائم والاستيلاء على مناطق خاصة من المدن المحتلة يجعلونها تابعة لتشريع جمهورياتهم ثم إعفاء البضائع التي يستوردونها ويبيعونها من كافة الرسوم^(٣)، أما البيازنة عرفوا بأنهم "مقاتلين ذوي أفعال جريئة"^(٤)، وبشكل عام تميزت هذه الشعوب ببراعتها القتال وقوتها وتفوقها في البحر، لكن ما يعيبهم على حد قول أحد الحجاج أنهم و"فيما بينهم يغارون من بعضهم بعضاً ويتخاصمون بشدة"^(٥).

فلماذا لم يلتفت الفرنجة إلى أساطيل دول أخرى كأسطول الدولة البيزنطية حليفهم مثلاً أو إلى الأسطول الصقلي أو غيرها من الأساطيل الموجودة آنذاك؟

(١) عاشور: أوربة العصور الوسطى، ص ٤٤٩.

(٢) سانوتو: المصدر المتقدم، ج ٣٨، ص ١٠٢.

(٣) حتي: تاريخ سورية ولبنان، ص ٢٢٣.

(٤) امبرويز: المصدر المتقدم، ج ٣٢، ص ٣١٨.

(٥) حاج مجهول قبل ١١٨٧: المصدر المتقدم، ج ٣٧، ص ٣٨، ٣٧.

في الحقيقة وجدت في ذلك الحين أكبر دولتين بحريتين تمثلت بالدولة البيزنطية والفاطمية في مصر، أما بيزنطة فكانت دوماً موطناً للشك والريبة لدى الفرنجة لاسيما بعدما أخل الأخيرون بالمعاهدة التي وقعوها مع الإمبراطور إذ بدأت العلاقات تزداد سوءاً بين الطرفين، وتفاقت الأزمة إبان الحملة الأولى لاسيما بعد قيام إمارة أنطاكية الفرنجية، والتي أثارت امتعاض بيزنطة، مما جعلها تعتدي بين الحين والآخر على حدود هذه الدولة^(١) وبالمقابل نجد أن مصر كانت دائماً دولة قوية مهابة الجانب، وتعد بذلك عضواً خطيراً للفرنج لا يؤمن جانبها^(٢) أما الأسطول الصقلي فلم يعتمد عليه الفرنج كثيراً بالرغم من أن صقلية امتلكت أسطولاً عظيماً وهائلاً وصل أوله على حد قول ابن بطوطة "وقت الظهر ولم يزل متواصلاً متكاملاً إلى وقت العصر، وكان فيه ثلاثون ألف مقاتل بين فارس وراجل في ستمائة قطعة ما بين شيني وطراد وبطوسة.. وفيها آلات الحرب والحصار حتى المجانيق الكبار بحجارتها التي ترمي بها والندابات وغيرها"^(٣).

وبالرغم من أن هذا الأسطول قام مثل غيره من الأساطيل الإيطالية والأوربية بتقديم مساعدات جلى لنصرة الفرنج^(٤) في هذه الحقبة التي غدا فيها البحر المتوسط طريقاً رئيسياً للتجارة المزدهرة، وبالتالي كان السعي إلى فرض الرقابة على المناطق التي تطل على هذه البحار وتقوم بنقل البضائع الفرنجية والأوربية من وإلى أوربة بالأجرة، كما ساهمت في حمل الكثير من المواد التجارية المختلفة اللازمة لهم^(٥)، وإبان الحملة الصليبية الثانية عرض ملك صقلية أفرانك (روجر الثاني) أن ينقل هذه الحملة بواسطة سفنه^(٦) رغبة منه في أن يخرج بمصيب وافر من الأرباح سواء أكان ذلك على حساب المسلمين أم الصليبيين بالشرق، كما أرسل أمير صقلية المدعو وليم الأول نجدة سريعة للفرنجة إبان الحملة الثالثة تحتوي هذه

(١) زابوروف: المرجع المتقدم، ص ١٧٠-١٧١.

(٢) رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٢، ص ٥٠٤.

(٣) ابن بطوطة: المصدر المتقدم، ص ٣٠٢.

(٤) ابن العبري: المصدر المتقدم، من خلال الموسوعة، ج ٥، ص ٤٥٦.

(٥) وليم الصوري: المصدر نفسه، ص ٣٩٨ / رنسيان: المرجع نفسه، ج ٢، ص ٦٠٦.

(٦) شيلرو: السلاطين الأيوبيين، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٤م، ص ١١٣.

النجدة على العديد من الغلايين والجنود والمؤمن، وقدر لهذا الأسطول المساهمة في احتلال طرابلس، فأصبحت بذلك دعامة لمواني فلسطين الفرنجية^(١) هذا من ناحية أما من الناحية الأخرى، فلم تكن صقلية على علاقة طيبة مع البيزنطيين بدليل أن السفن الصقلية كانت تقوم بالإغارة على الأراضي البيزنطية ويتم الاشتباك فيما بينهم^(٢)، ومع كل هذه التفاعلات، وبالرغم من أهمية الأسطول الصقلي في هذا القرن نجد أن سياستها لم تكن موضع ثقة عند الفرنجة مثلها مثل البيزنطيين الذين كانوا يتعرضون لهجوم عنيف من قبلهم^(٣) لذلك لم يتوجه الفرنجة كثيراً في طلب المساعدة منها، إنما توجهوا بأنظارهم نحو الإيطاليين الذين وجدوا فيهم خير حلفاء على حد قول رنسيمن عنهم^(٤)، على الرغم من المنازعات والمنافسات بين هذه المدن التجارية التي كانت تقع بين الحين والآخر^(٥) بالأخص الصراع (الجنوبي مع البنادقة)^(٦) مما انعكس سلباً على العلاقات بين الفرنجة أنفسهم فأصبحت عاملاً قوياً من عوامل تفكك الصليبيين في القرن ١٣هـ/١٣م، ولم ينته ذلك التنافس بين هذه الدويلات إلا بعد سقوط آخر معاقل الفرنج في الشرق عام ٦٩٠هـ/١٢٩٩م^(٧)، فإذا تصادمت المصالح رجحت كفة المصلحة التجارية المباشرة^(٨) لذلك لم ينشأ هؤلاء الأصدقاء ثابتين للفرنج الأمر الذي جعل البندقية تبادر إلى مساعدة المسلمين إلى مساعدة جنوة أو بيزة أو مرسيلية. ولم يختلف أندادها عنها من وجهة النظر هذه على الرغم مما تبذله هذه الدول من مساعدة في بقاء الفرنج في المشرق، فإن قدراً كبيراً

(١) دي فترى: المصدر المتقدم، ص ٢٣١/ دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ١٤، ص ٢٧٢.

(٢) يوحنا كيناموس: المصدر المتقدم، موسوعة ج ٢٩، ص ٩٧.

(٣) يوحنا كيناموس: المصدر نفسه، ج ٢٩، ص ٩٧، ١٢٥/ روايات ميخائيل السوري الكبير من خلال الموسوعة الشامية، ج ٥، ص ١٨٦.

(٤) روايات ميخائيل السوري الكبير، المصدر نفسه، ص ١٨٧.

(٥) رنسيمن: المرجع المتقدم، ج ٢، ص ٥٠٤.

(٦) حاج مجهول قبل ١١٨٧م: من خلال الموسوعة، ج ٣٧، ص ٣٨/ كرد علي خط، ج ٤، ص ٢٤٦/ عاشور: أوربة العصور الوسطى، ط ٤٥.

(٧) حول الصراع الجنوبي مع البنادقة انظر إلى:

يوحنا كيناموس: المصدر نفسه، ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

(٨) حاج مجهول قبل ١١٨٧م: المصدر نفسه، ص ٣٧-٣٨.

من هذه المساعدة قضي عليه بما وقع بين نزلاء المدن الإيطالية^(١)، من مؤامرات وفتن، واستعدادهم لخيانة المصلحة العامة مقابل الربح المادي، وتراعت لهذه المدن التجارية بصفة خاصة فنشطت حركة نقل الحجاج ذهاباً وإياباً بعد قيام الإمارات الصليبية، وكانت أجور النقل على متن هذه السفن بالغة الارتفاع في سبيل الوصول إلى الشرق ومدته وشاق السفر آنذاك^(٢) أمر جدير بدفع تلك المبالغ الضخمة، فحينما يصل المسافر إلى ميناء السويدية يدرك لأول وهلة أنه في بلد شرقي مثير للدهشة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على انبهار واقتتان الفرنجة بما شاهدوه من حضارة وتقدم هائل في مدن الساحل الجنوبية.

أسباب تأخر الإيطاليين عن مساعدة الفرنجة منذ البداية:

حينما وصلت الجيوش الفرنجية إلى المنطقة كانت المدن البحرية الإيطالية في وضع يرقب والتريث للأوضاع والأحداث، فلم تسارع لمساعدتهم في البداية إلا بعد مرور سنوات خوفاً على مصالحها التي كانت أقوى من أي اعتبار آخر، ولم يعرض الإيطاليون لمساعدتهم إلا حين تحقق للحملة الأولى نجاح وقيام مستعمرات الفرنج في الشام لهذا فهي تتسرع وتخاطر بتجارها المربحة في الشرق^(٣) التي تربطها به علاقات طيبة فأمالفي مثلاً كانت على علاقة طيبة مع مصر في حين ترددت البندقية بمساعدة الفرنجة على اعتبارها نصف حليف لبيزنطة^(٤)، ورائر معتاد على الإسكندرية التي ارتبطت معها بأوثق علاقات، وهكذا لم يتلق الصليبيون أية مساعدة بحرية منهم حتى بلوغهم أنطاكية بسقوطها بأيدي الفرنجة^(٥)، والمساعدات التي تلقتها عندئذ جاءت من السواحل الإيطالية القريبة لامن البندقية ومعنى هذا أن البنادقة كانوا يملكون أضخم قوة بحرية إيطالية في مياه البحر المتوسط، فلم يتحمسوا في بداية الأمر لهذا العمل ولم يعينوا الفرنجة إلا بعد

(١) زابوروف: المرجع المتقدم، ص ١٥٢.

(٢) رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٢، ٥٠٤، ٥٠٥.

(٣) رنسيان: المرجع نفسه، ج ٣، ٦٠٧، ٥٩٩.

(٤) كيناموس من خلال الموسوعة الشامية، ج ٢٩، ص ٢٢٧.

(٥) أرشيباند: المرجع المتقدم، ص ٣٨٣ / عطية: المرجع المتقدم، ص ١٢٣.

سقوط أنطاكية، لكن بمساعدة الأسطول الجنوبي وتأيد تلك القوات هو الذي أعان الجيوش الصليبية على متابعة زحفها بمحاذاة الساحل الشامي، بعدها ظهر الأسطول البندقي أمام شواطئ فلسطين لحماية مصالحهم التجارية ضد المنافسة التي يمكن أن يتعرضوا لها من قبل تجار بيزة وجنوة وأما في^(١) وبينما لازالت الحملة الأولى في أنطاكية أبحر أسطول البيزنطة قبل أن يبلغ الغرب نبأ الاستيلاء على المقدس، وما أظهره البيزنطة^(٢) فيما بعد من دور نحو مملكة القدس كان بسبب الشجار بين بلدوين الأول مع رئيس أساقفتهم دايمبرت البيزاوي لا إلى اعتبارات تجارية، وبشكل عام ساهمت هذه السفن (البيزية) في الحصار البحري، كما تولى هذا الأسطول حراسة الفرنجة حينما اتخذوا الطريق الساحلي^(٣). حيث استطاع تكرير أن يظفر بمساعدة هذا الأسطول، وما طلبته بيزة من ثمن لهذه المساعدة هو أن يكون لها شارع في أنطاكية وحي باللاذقية فضلاً عن كنيسة ومستودع تجاري لهما^(٤). على أية حال كان تدخل هؤلاء جميعاً معناه اشتراك العاملين البحري والتجاري مع الدين، وغنمت الأساطيل الإيطالية في الثغور الشامية التي سقطت تباعاً مقادير لا تحصى من التوابل والبضائع الشرقية. الأمر الذي ساعد الإيطاليين على إنشاء الوكالات التجارية لها للإشراف على الشؤون التجارية. ونقل الحجاج بين هذا الإقليم وبين الغرب، وغدت مدن الإيطالية مركز الوساطة الكبرى في التجارة. لهذا يعد العامل الأكثر أهمية في نجاح صليبيين هو ظهور الأساطيل البحرية الإيطالية أمام شواطئ سورية وتقديمهم العون والمساعدات البحرية اللازمة لذلك والتي ساعدت الفرنجة على احتلال معظم المدن الساحلية تقريباً^(٥) فهاهي ذي جنوة ساعدت الفرنجة في احتلال أنطاكية، وقدمت لهم ما

(١) يقول بنيامين في كتابه الرحلة عن أهالي أمان: "ونصارى هذا البلد تجار لا يشتغلون بالزراعة بل يتتبعون كل ما يحتاجونه بالمال".

انظر بنيامين: المصدر المتقدم، ص ٦٨.

(٢) عرف عن البيزنطة بأنهم "مقاتلين ذوي أفعال جريئة".

انظر

امبروز: صليبية ريتشارد قلب الأسد، الموسوعة الشامية ج ٣٢، ص ٣١٨.

(٣) رنسيان: المرجع المتقدم، ج ١، ص ٤٤٦.

(٤) رنسيان: المرجع نفسه، ج ٢، ص ٩٠.

(٥) أرشيبالد: المرجع المتقدم، ص ٣٩٣ - ٣٨٣.

يحتاجون إليه من مؤن وأطعمة، وبدأ بوهمند حينها يتصرف كسيد فتخلص من خصومه بعقده اتفاقية مع الجنوبية في ١١ شعبان ٤٩٢هـ/١٠٩٨م منحهم بمقتضاها امتيازات كبيرة نظير مساعداتهم لهم في دفاعه ضد منافسيه، وبدهاء من بوهمند استطاع استغلال قدوم المندوب الجديد دايمبرت البيزاوي والأسطول المرافق له في التخلص من الخطر البيزنطي المحيط به الموجود في اللاذقية، وفي عام ٤٩٥هـ/١١٠٢م تمكن ريموند الصنجيلي من الاستيلاء على طرطوس بمساعدة الأسطول الجنوبي حيث اتخذ منها قاعدة لإمارته حتى استولى على طرابلس^(١)، وبالاستيلاء على طرطوس تحقق الصليبيين إمكانية الاتصال بالأساطيل الإيطالية الأخرى مثل جنوة والبندقية، التي كانت تجوب الساحل وفي أوائل سنة ٤٩٦هـ/١١٠٣م استولى تنكريد في أثناء وصايته على أنطاكية بمساعدة الجنوبية على ميناء اللاذقية خلال أسر بوهمند، وبذلك ضمن تنكريد أنطاكية واجهة عريضة تربطه بغرب أوربة^(٢)، وفي عام ٤٩٧هـ/١١٠٥م انتهز الصنجيل فرصة وصول قطع بحرية من الأسطول الجنوبي إلى ميناء اللاذقية، فاستعان بها لمحاصرة المدينة مجدداً من البر والبحر، ولكن المدينة صمدت من جديد^(٣) وللمرة الثانية استولى تنكريد على اللاذقية، ولكن بمساعدة البيزاوية هذه المرة في منتصف سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م^(٤)، ومن الملاحظ أيضاً أن معظم الحجاج في النصف الأول من القرن السادس الهجري الثاني عشر للميلاد المتوجهين من أوربة إلى فلسطين كان لزاماً عليهم إما أن يستقلوا سفناً للبنداقية، أو الجنوبيين إلى القسطنطينية، ومنها يسرون براً إلى فلسطين، وإما أن يتخذوا السفن اليونانية التي تلتزم الساحل في سيرها إلى سورية، أو أن يبحروا مباشرة من جنوب إيطالية وفي سفن كثيرة للقيام برحلات منظمة إلى سورية حتى السنوات المتأخرة في القرن ٦هـ/١٢م، فلم تكن السلع التي اجتازت الموانئ السورية وقتذاك بالغة الضخامة، وإن لم تتجاوز رسوم الديوان (الجمرك) وبمساعدة هذه الأساطيل البحرية الاستيلاء على المدن الساحلية

(١) حنا: المرجع المتقدم، ص ١١.

(٢) ابن الأثير: الكامل: ج ١٠، ١٢٨، ١٢٩/ عطية: المرجع المتقدم: ١٢٣-١٢٤-١٢٥.

(٣) أرشيبالد: المرجع المتقدم، ص ٤١.

(٤) ابن العبري: المصدر المتقدم، ص ١٩٩/ سبط ابن الجوزي: المصدر المتقدم، ص ١٩.

لشمال الشام الواحدة تلو الأخرى، إلى جانب حصولهم على أدوات الحصار والبناء والقوات، بالإضافة إلى المواد التجارية فكانت ذات فائدة عظيمة للفرنجة. على حد قول وليم^(١)، ثم إن النشاط التجاري الذي أوجدوه في الإمارة وما تبع ذلك من انتعاش اقتصادي لها، فإنها ساعدت بدورها على استقرار وضع هذه الجاليات بما قدمته لهم من منح وامتيازات متنوعة مكنتها من أداء دورها الكامل في دعم الكيان الصليبي^(٢)، بالإضافة إلى ذلك كله هو ما قدمه هؤلاء البحارة الإيطاليون والمغامرون الإقطاعيون من تشجيع لحصول على السلب والنهب والرغبة في كسب الامتيازات في ميداني النقل والتجارة.

من هنا نعرف أنه ليس من المستطاع فهم التاريخ السياسي للحركة الصليبية في منطقة ما لم نضع في اعتبارنا ما للأساطيل والنزلاء التجار الإيطاليين من حاجات تجارية مالية فيها، ولا سيما في هذا القرن^(٣) حيث كانت للأوروبيين الغربيين السيطرة على معظم المياه البيزنطية والشواطئ الجنوبية لآسية الصغرى، وبهذا وقع طرفا طريق التجارة الدائرية الهامة بين شرق البحر المتوسط وغربه في قبضتهم، وتمكنوا من سيطرة على معظم المراكز الاستراتيجية الهامة وصارت التجارة نشاطاً اقتصادياً رئيساً، ويغلب أن تكون الحركة الصليبية هي نقطة التحول في هذا الموضع حيث أصبح الشرق الإسلامي البيزنطي من وجهة النظر التجارية إقليمياً سلبياً بينما أصبح الغرب معاملاً المؤثر والمحرك تجارياً، وبذلك وضعت الأسس الاقتصادية في هذا القرن والتي مهدت للسيطرة التي اكتسبتها أوربة الغربية في وقت لاحق.

(١) وليم الصوري: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٣٩٨.

(٢) عطية: المرجع المتقدم، ص ١٦٤.

(٣) سانوتو: المصدر المتقدم، ص ٨٧-٧٩-٨٠-٨١.

الفصل الثالث

مرحلة المقاومة والاسترداد

الجهاد الإسلامي ضد الفرنج الصليبيين على يد كل من:

- ١- عماد الدين زنكي ٥٢١-٥٤١هـ/١١٢٧-١١٤٦م
- ٢- نور الدين محمود بن زنكي ٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٣م
- ٣- صلاح الدين الأيوبي ٥٦٩-٥٨٩هـ/١١٧٣-١١٩٣م

توزعت الإمارات الصليبية في شريط طويل امتد من الرها إلى أنطاكية، فطرابلس فبيت المقدس، وحلت بهم هزائم كثيرة الأمر الذي اضطرهم إلى طلب معونة كبيرة من أوربة والكنيسة، وكان البابا أوربان الثاني قد توفي، وقام نزاع بين رجال الكنيسة على كرسي البابوية لهذا لم تستطع أوربة والكنيسة تلبية نداء الصليبيين لهم كما حدث في المرة الأولى، أما في الشام فقد غدت الظروف السياسية والعسكرية تحتم وجود أمير قوي يتمكن من القضاء على تناحر الأمراء المحليين، وتوحيد إماراتهم المبعثرة في جبهة إسلامية واحدة بمقدورها التصدي للصليبيين وتطهير البلاد من رجسهم، وقدّر لعماد الدين زنكي القيام بمثل هذا الدور. بعد أن ولاه السلطان السلجوقي محمود حكم الموصل والجزيرة سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧م وما يفتحه من بسلاد الشام نظراً لقوته ولشجاعته ومواقفه السالفة القتال ضد الصليبيين^(١).

لم يشأ زنكي الاشتباك مع الصليبيين منذ البداية، ورأى أن يسعى أولاً إلى تثبيت إمارته الجديدة وتعزيز إمكاناتها الاقتصادية والعسكرية وتوحيد الإمارات المتناثرة كي لا تشكل عائقاً أمام أية خطة تستهدف من ورائها إعلان الجهاد العام ضد الفرنجة^(٢)، وعلى الرغم من المعارضات التي لاقاها من الأمراء المحليين استطاع زنكي الاستئثار بحكم حلب، وازداد نفوذه في شمال الشام والعراق بصورة باتت تهدد مصالح خصمه (الأرناؤة)، فماذا عن علاقة زنكي بإمارة أنطاكية والأراضي التابعة لها؟

أهم ما ميز علاقة زنكي بهذه الإمارة هي محاولته الاستفادة من فرصة هريذة وهامة وهي المؤامرة التي حاكتها الأميرة إليس من أجل الوصول إلى حكم أنطاكية حيث طلبت من زنكي مساعدته لها، لكن الملك بلدوين الثاني توجه إلى أنطاكية وتمكن من إحباط تلك المؤامرة. مما أعاق زنكي من فرصة الاستفادة من اضطراب أحوال الصليبيين في أنطاكية في ذلك الوقت، هذا وكان زنكي قد

(١) ابن الأثير: الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية من خلال الموسوعة الشامية، ج ١٤، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٥م، ص ١٩-٢٠/ عماد الدين الخليل: عماد الدين زنكي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٢م.

(٢) د. جوني: المرجع المتقدم، ص ١٦٥.

استغل تلك الفرصة وهاجم بعض الحصون القريبة التابعة لإمارة أنطاكية مثل (حارم، ومعرة مصرين)^(١)، وبشكل تدريجي أخذ زكي يوسع نطاق غاراته وهجماته على الصليبيين، ومع ذلك كله لم تذكر لنا المصادر الشيء الكثير من ذلك سوى قيامه بغارات في المنطقة ليس إلا ولم يتطرقوا إلا لذكر المعارك البعيدة، واستمرت هجمات المسلمين وتوالى انتصارات عماد الدين على الفرنجة، وبينما انشغل زكي في الموصل بالخلافات القائمة بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية إذ بنائه في حلب (سيف الدين سواربن أتيكين^(٢)) ٥٢٤ - ٥٢٩ هـ / ١١٢٩ - ١١٤٦ م) مقدم زكي في حلب^(٣) ينتهز فرصة الاضطراب الذي كانت تعانيه إمارة أنطاكية بسبب دخول ملك الروم صاحب القسطنطينية معنا كومنين الثاني (٥١٢ - ٥٣٨ هـ / ١١١٨ - ١١٤٣ م) أنطاكية يريد أخذها واستردادها من الصليبيين عندئذ، ويغزو أراضيها في السنة نفسها حتى فاجأ مدينة اللاذقية وأغار على أعمالها بهجوم مباغت لم يحسب الصليبيون حسابه، ويمكن بذلك من أسر سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي وصبيبة. ثم نال ألف رأس من البقر والغنم والخيول والحمير.. الخ، واجتاح عشرات القرى ومزارع الصليبية قدر عددها عند بعضهم بحوالي المائة قرية^(٤) ملأ خلالها مسلمون أيديهم بالكثير من الأسرى والغنائم، واستبشروا أيما استبشار لهذا نصر العظيم الذي أحرزه سوار^(٥)، وهكذا ساء موقف الصليبيين في أنطاكية

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٢٣، أحداث سنة ٥٢٤ هـ - ١١٢٩ م / ابن العديم: زبدة، ج ٢، ٢٤٧ - ٢٥٩ / عاشور: المرجع المتقدم، ج ١، ص ٤٤٢ - ٤٤٣.

عاشور: المرجع نفسه، ج ١، ص ٤٥٣.

(٢) ابن الوردي: المصدر المتقدم، ج ٢٢، ص ٣٢٥.

(٣) عاشور: المرجع نفسه، ج ١، ص ٤٤٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ١٦ - ١٧ / ابن القلانسي: ذيل تاريخ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ / الحريري: المصدر المتقدم، ج ٢٣، ص ٣٢٤ / ابن قاضي شهاب: المصدر المتقدم، ج ٢٣.

هذا وقد ذكر الحريري هذه الأحداث في سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣١ م.

انظر الحريري: المصدر نفسه، ص ٣٢٤.

وطرابلس في الوقت الذي عاد فيه زنكي سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٧م من العراق إلى الشام لاستئناف الجهاد^(١)، والواقع أن ما شهدته أنطاكية خلال الأعوام (٥٢٩ - ٥٣١هـ / ١١٣٦ - ١١٣٧م) من فتن داخلية ومنازعات على الحكم أسهم إلى حد كبير في عجز هذه الإمارة عن الدفاع عن نفسها إزاء هجمات المسلمين لا بل حتى من مطمع البيزنطيين فيها .

وهنا يمكننا القول : إن سر نجاح زنكي في التكتيك الذي اتبعه في سياسته بين الفرنج والروم بدا جلياً من خلال رسائله إلى ملك الروم يقول له فيها: إن فرنجة الشام خائفون منه ولو فارق مكانه لتخلفوا عنه، ويرسل إلى الفرنج فيقول: " إن ملك الروم في الشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعها... وهذا ما جعل كل طائفة تشعر بالخوف من الأخرى وتحسب حسابها^(٢) .

وفي سنة (٥٣٩ - ٥٤٠هـ / ١١٤٤ - ١١٤٥م) استطاع عماد الدين زنكي أن يستخلص الرها وغيرها من بلاد الجزيرة في سانس جمادى الآخرة^(٣) من الفرنج، وحقق زنكي بفتحها للرها أهم أعماله التي قام بها ضد الصليبيين على الإطلاق وطوال مدة حكمه ، وكان سقوطها إيذاناً ونذير شؤم بتضعضع البناء الصليبي بأكمله ، وإزاء هذا الوضع الذي تعرض له الصليبيون كان لابد من قضاء على هذه القوة الصاعدة قضاءً مبرماً الأمر الذي دفع بنصاري أوربة إلى هجاء والدفاع عن المدن التي احتلها في بلاد الشام والذي كلفهم غالباً، وتحت شعار الدفاع عن المكتسبات التي حصلوا عليها سارت حملة صليبية كبيرة ضمت إليها كلاً من ملك ألمانيا كونراد الثالث ولويس السابع ملك فرنسا متوجهة نحو الشرق، وما أن انطلقت هذه الحملة حتى كان عماد الدين مقتولاً وهو يحاصر مدينة جعبر سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م^(٤)، وهنا يمكن القول بأن زنكي بدأ بعملية

(١) ابن العديم: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٢٦١.

(٢) ابن العديم: المصدر نفسه، ص ١١٠/ التويري: المصدر المتقدم، ص ٣٢٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٣١ - ١٣٢.

(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ١٣١/ ابن سباط: صدق الأخبار، حققه د. عمر عبد السلام

التنمري، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م، ص ٨٠.

انظر ابن أبي الدم: الموسوعة، ج ٢١، ص ٣٠٧.

التطهير، واستطاع أن يحقق قسطاً كبيراً من برنامجه وأن يكون لنفسه مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي كسياسي بارع وعسكري متمكن ومسلم واع مدرك لقضية أمته والخطر الذي أحاق بالعالم الإسلامي من قبل الصليبيين.

استلام نور الدين محمود (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٣م)

على الرغم من روح التفاؤل التي سادت أوساط الفرنجة بعد اغتيال زنكي، عادة احتلالهم للرها إلا أن فرحتهم لم تكتمل بعد ، فقد جابه هؤلاء خصماً يماً أشد صلابة تمثل في شخص ابنه نور الدين محمود الذي راح يسدد درباته الموجهة إلى دويلاتهم، ففي سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م واجه جيش نور الدين محمود الاسبتارية في حصن الأكراد، فتحالف مع جيش دمشق بقيادة معين الدين إرمر ودعمته مفرزة من جيش الدين غازي صاحب الموصل، وأخذ نور الدين بجنيار سهل البقعة لحصار العريمة ذات الموقع المنيع عند مدخل البقعة داخل وهو يقابل حصن الأكراد من الطرف الثاني للبقعة ، فلم يجد هؤلاء في شملهم القدرة على المجابهة لذلك تحصنوا في معاقلهم حتى اضطر المسلمون إلى الانسحاب^(١).

وفي شهر رجب من السنة نفسها أراد السلطان مسعود سلطان قونية مهاجمة مدينة مرعش مستفيداً من هزيمة الفرنج على يد نور الدين ، ولكن أمير أنطاكية ريموند) حشد قواته للقائه. فبادر السلطان إلى طلب العون من نور الدين استجاب نور الدين للطلب، فتوجه للإغارة على أملاك الفرنجة في سواد أنطاكية حتى بلغ أفامسية وظفر بعدد من حصون ومعاقل الفرنجة^(٢). فجمع صاحب أنطاكية ما استطاع جمعه من القوات. واستعان بالاسبتارية والداوية، وهاجم نور الدين على حين غفلة عند موقع يعرف بـ "بغرا" تمكن خلالها الفرنجة النيل

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٢١/ ابن القلانسي: المصدر المتقدم، ص ٤٦٧/ رنسيان، المرجع المتقدم، ج ٢، ص ٤٦٢.

(٢) أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٥٧/ ابن القلانسي: المصدر نفسه، ص ٤٧٠.

من عسكر المسلمين وأتقاهم، وانهزم نور الدين بنفسه وعسكره، وفي سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩م أغار نور الدين من جديد على أراضي أنطاكية وأنزل هزيمة بريموند بواتيه أمير أنطاكية (٥٣٠ - ٥٤٤ هـ / ١١٣٦ - ١١٤٩م) عند قلعة بغراس^(١) المقلبة لأنطاكية^(٢)، ثم توجه جنوباً قاصداً حصن يعرف بحصن إنب* الواقع شرقي نهر العاصي وشمال أقامية. فهب ريموند لنجدة الحصن. وطلب مساعدة من باقي المناطق الفرنجية، فتقاطرت عليه الإمدادات حتى بلغت حوالي مائة فارس وألف رجل، كما أرسل نور الدين في طلب قوة داعمة له من معين الدين أنر صاحب دمشق لأنه كان في أمس الحاجة إلى المساعدة والمعاونة، فندب إليه الأمير معين الدين الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين في طريق وافر من العسكر الدمشقي لمناصرته، ولما وصل عسكر دمشق مع هذا الأمير قويت بوصولهم نفسية نور الدين واشتدت شوكته. ورحل إلى ناحية الإفرنج بعد أن صار عسكرهم يناهز الستة آلاف فارس والتقى الطرفان بموقع إنب^(٣) وطوق المسلمون الإفرنج يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر سنة ٥٤٤ هـ / ٢٩ حزيران ١١٤٩م وكان النصر لحليف المسلمين، وكان ريموند بين يدي كما كان من بينهم زعيم الإسماعيلية علي بن وفا المتحالف معهم وعدد

(١) ابن العديم: زبدة، موسوعة، ج ١٦، ص ١٢٧/ ابن الأثير: الباهر، من خلال الموسوعة ج ١٤، ص ٢٢٦، ٢٢٧/ ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٧٠/ النويري: المصدر المتقدم، ج ٢٢، ص ٣٢٩ / حبل: المرجع المتقدم، ص ٢٧٠.

إنب : حصن من أعمال عزاز في نواحي حلب

انظر الحموي: ج ١، ص ٣٤٨.

(٢) كسرت الفرنج نور الدين على بغراس ورتت عند أبي الدم في حوانث سنة ٥٤٠ هـ.

للمزيد انظر:

ابن أبي الدم: المصدر المتقدم، من خلال الموسوعة ج ٢١، ص ٣٠٧.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٧٠/ ابن الأثير: الباهر، ص ٢٢٦ - ٢٢٧/ ابن العديم: زبدة، موسوعة، ج ١٦، ص ١٢٧.

كبير من فرسان الداوية^(١)، أما بالنسبة للإفرنج فقد كانت نتائج هذه الموقعة خطيرة عليهم في شمال الشام بصفة عامة ولإمارة أنطاكية بصفة خاصة، فعلى الفور توغل نور الدين في أراضيها حتى وصل إلى ميناء السويدية^(٢)

مهاجمة نور الدين لطرطوس سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م وفتحها عنوة:

توجه نور الدين بجيشه في شهر محرم سنة ٥٤٧هـ / نيسان ١١٥٥م وبدأ حصن طرطوس مجتازاً سهل البقيعة من جهة حمص ماراً بحصن كراد حتى وصل إلى طرطوس "فهاجمها واستولى عليها وآمن من بقي فيها على قيد الحياة من الفرنج ورتب فيها من يحفظها، وعاد ومثلك عدة من حصون القريفة بالسيف والسبي والإخراب والحرق والأمان"^(٣) ومن بين هذه الحصون المرقب "وكان على الناس منه ضرر عظيم"^(٤)، وكذلك حصن يحمور. لذا ما ورد لدى أبي شامة نقلاً عن ديوان ابن الدهان^(٥) الذي مدح فيه نور الدين هناك فيه بفتحه لطرطوس ويحمور^(٦) مستغلاً المشاكل التي حدثت في إمارة

كان فيمن قتل البرنس صاحب أنطاكية وكان عاتياً عند الفرنج وذوي التقدم فيهم.

الأثير: الباهر، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ / النويري: المصدر المتقدم، ج ٢٢، ص ٢٣٩.

ابن العديم: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٣٠١.

ابن القلانسي: المصدر المتقدم، ج ١١، ص ١٢٥.

أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٢٨٣ / ابن قاضي شهبه: الكواكب، ص ١٤١ / ابن الجوزي:

المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٧٨٥.

ابن قاضي شهبه: المصدر نفسه، ص ١٤١ / ابن القلانسي: المصدر نفسه، الموسوعة، ج ١١،

١٢٥. وهو المصدر الوحيد الذي أتى على تفصيل هذه الحادثة.

ابن الجوزي: المصدر نفسه، ص ٥٠٣، أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٢٨.

(٥) ابن الدهان الموصلي: هو أبو الفرج عبد الله بن أسعد فقيه فاضل كان مدرساً بحمص وكان نزيل حمص حينما نظم هذه القصيدة.

ابن خلكان: وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه د. إحسان عجل، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠، ص ٥٧.

(٦) ابن الجوزي: المصدر نفسه، الموسوعة، ج ٢، ص ٧٨٥.

طرابلس، لكن نور الدين محمود لم يفرح طويلاً بأخذه لطرطوس لأنه سرعان ما استعادها بلدوين الثالث ومنحها للداوية (٥٤٧-٥٥٣هـ / ١١٥٢-١١٥٨)^(١)، الذين أسسوا فيها مقر قيادتهم الرئيسي، وأعادوا بناء المرفأ والتحصينات الكاملة.

حصار نور الدين بانياس الساحل ٥٤٨هـ / ١١٥٣:

حدث في سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م أن تحرك نور الدين من حمص في جمع كبير يدعمه مجير الدين أتابك دمشق بعسكره قاصداً أراضي الفرنجة من أجل القضاء على أهل عسقلان التي حاصرها الفرنجة وضايقوها مضايقة كبيرة، فتولى على حصن قريب من حصن الأكراد يقال له حصن (فيليسيوم)^(٢)، ثم توجه إلى ثغر بانياس فحاصره يوم السبت التاسع والعشرين من صفر، وقد خلا الثغر من حماه وسهلت أسباب ملكه لكن نور الدين ارتد إلى حمص ونزل بها فمكره عسكره، ثم رجع بسبب سماعه بنياً سقوط عسقلان^(٣) بيد الفرنجة^(٤) في خاتمة المطاف بعد أن ظلت قاعدة انطلاق أممية للقوات الفاطمية أكثر من نصف قرن، وقد كان لهذه الحادثة أثرها العميق في تفكير وتخطيط نور الدين إذ قرر بعدها أخذ دمشق مهما كلفه الأمر حتى يتمكن من إقامة جبهة موحدة ضد الفرنجة، واستطاع فعلاً في العام التالي تحقيق هذا الهدف الاستراتيجي^(٥)، واستطاع نور الدين بجهوده توحيد جبهة بلاد الشام في مواجهة دويلات الفرنجة من حدود

جوني: المرجع المتقدم، ص ٢٤١.

أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٢٩٠.

عسقلان: مدينة عامرة من أرض فلسطين ذات سور وبها أسواق.

البريسي: المصدر المتقدم، ص ٦٥٢.

ميخائيل السوري الكبير من خلال الموسوعة الشامية، ج ٥، ص ٢٢٣، أحداث سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٥٠٩.

(٥) حول حصار دمشق واستيلاء نور الدين عليها انظر إلى:

أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٩٤..... ١٠٢.

بيزنطة وأنطاكية حتى حدود مصر، وشغل في الأعوام التي تلتها بتدبير شؤون دولته الجديدة وتنظيمها فلم يسع إلى القيام بحملات ذات شأن سوى حصاره لحارم سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م الذي انتهى إلى مصالحة بينه وبين الفرنج مقابل حصوله على نصف غلال حارم ورحل عنهم إلى حلب، ثم عاد وفتحها في شهر رمضان من سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٨م^(١).

كما تقرر في نهاية هذه السنة مهادنة بين الفرنج والمسلمين لمدة عام كامل بدأ أولها من شهر شعبان، إلا أن الفرنجة عادوا ونقضوا ما كان قد استقر من أمور تلك المودعة في العشر الأخير من ذي الحجة من السنة نفسها لوصول الإمدادات إليهم من البحر ولم يلبثوا أن هاجموا المسلمين الأمر الذي أثار حفيظة الملك العادل نور الدين^(٢) لكنه في الوقت نفسه تجنب الدخول في معارك فاصلة معهم في السنوات القليلة التي تلت الهدنة لأسباب عدة أهمها الزلازل المتكررة التي حدثت في بلاد الشام مثل زلازل سنة ٥٥١-٥٥٢هـ / ١١٥٦-١١٥٧م، وفقرت كثير من المدن هناك فيها ما لا يحصى فخرّب منها بالمرّة حماة، ولاذقية وطرابلس وأنطاكية، كما تهدمت أسوار القلاع الأمر الذي دفع نور الدين إلى جمع عساكره والإقامة بأطراف البلاد المجاورة للفرنجية مع ترميم الأسوار في سائر البلاد خوفاً عليها من هجمات مرتقبة فلم يزل كذلك حتى فرغ من جميع أسوار البلاد^(٣) وأمن عليها.

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٢٢٧ / ابن العديم: زبدة، ج ١٦، ص ١٣١ / النويري: المصدر المتكبر، ج ٢٢، ص ٣٤١ / دي فري: المصدر المتقدم، ص ٢٢٢.

(٢) أبو شامة المصدر المتقدم، ج ١، ص ١٠٣ / ابن العديم: المصدر نفسه، ج ١٦، ص ١٣٤-١٣٢ / ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٢٧ / النويري: المصدر نفسه، ج ٢٢، ص ٣٤١ / رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٢، ص ٥٥٢.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٣٧، حوادث سنة ٥٥٢هـ / ابن الأثير: الباهر، من خلال الموسوعة، ج ١٤، ص ٦٤ / أبو شامة: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤١ / ابن العبري: المصدر المتقدم، ج ١، ص ١٧٢ / ابن العديم: المصدر نفسه، ج ١٦، ص ١٣٢-١٣١.

والأمر الثاني هو مرضه الذي كاد يؤدي بحياته ، ولكنه لم يغفل في خضم ذلك الأمر عن ترتيب حماية الثغور والعواصم المجاورة لأراضي الفرنجة، والتي خربت الزلازل أسوارها، وأضعفت تحصيناتها فنشر قواته في الشمال والوسط والجنوب، ووضعها في حالة تأهب دائم للرد على أية غارة يقوم بها الصليبيون وتوكل إلى كل منها أمير يهتم بعمارتها وشؤونها حتى تم له تحصينها واطمأن إلى ذلك وحينما وجد في نفسه من القوة والنشاط ما دفعه لمتابعة ما عزم عليه، وتنفيذ مخططه في قصد أعمال الفرنجة وتملكها، بيد أن الظروف عاكسته ولم يتفق كل ما طمح إليه وشاعت الصدف أن تعرض نور الدين لهزيمتين متتاليتين تركتا في نفسه أثراً بالغاً فصمم على الانتقام والثأر أولى هذه الهزائم كانت لهزيمة عند البطيحة سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨، أما الهزيمة الثانية فكانت عند حصن الكراد.

أيقن السلطان العادل نور الدين أن نجاحه في القضاء على الدويلات الصليبية مرهون بالمحافظة على صلات طيبة مع مصر التي كثرت فيها منذ منتصف القرن ٦هـ / ١٢م الاضطرابات والفتن، لاسيما في أواخر عهد الخلفاء الفاطميين من أجل حصر الفرنجة وتسييد الضربات إليهم في الاتجاهين^(١).

ترددت المراسلات بين نور الدين وبين وزراء الدولة الفاطمية أمثال العباس وابنه نصر والملك الصالح طلائع بن زريك وزير العاضد الفاطمي^(٢)، وكان ملك الصالح محباً للعلم والأدب والشعر : وفي شعره قصيدة أرسلها إلى نور الدين يحرضه فيها على قتال الفرنجة ويعلمه عن غزوة ناجحة بعث بها إلى سقلا وعات ظافرة بقصيدة مطولة فيها تفاصيل كثيرة عن تلك الغزوة وفي مطلعها يقول:

(١) أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ١، ص ١١٤-١١٥.

(٢) قتل طلائع بن زريك الأرمني في سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م.

ابن سباط: المصدر المتقدم، ج ١، ص ١١٢.

ألا هكذا من الله تمضي العزائم وتتضي لدى الحرب السيوف الصوارم
وتستزل الأعداء من طول عزهم وليس سوى سمر الرماح سلالم
وتغزي جيوش الكفر في عقر دارها ويوطأ حماها والأنوف رواغم

إغارة نور الدين على الساحل ٥٥٨هـ / ١١٦٣م "هزيمة البقيعة"

زحف نور الدين من دمشق بعساكره وشن الغارة على الساحل حيث الفرنج فقتل وأسر عالماً عظيماً، ثم قصد حلب جاعلاً طريقة حصن الأكراد^(١)، ونزل بالبقيعة محاصراً للحصن، وشن الغارة عليهم فغنم غنيمة عظيمة، وواتى الحظ الفرنجة وجود كل من هيولوزينيان وجفري مارتل شقيق كونت أنجو مع ألباعهما، وهما يجتازان أراضي طرابلس قافلين من الحج إلى بيت المقدس فأنضمما إلى كونت طرابلس، وكان الكونت قد أرسل في طلب نجدة من أنطاكية فبعثه بوهمد الثالث وأنحاز إليه حاكم كيليكية البيزنطي (قسطنطين كولمان) بمئاته الكبيرة، وانطلق ذلك الجيش قاطعاً المراحل على جناح السرعة حتى بلغ حصن الأكراد دون أن يعلم به المسلمون^(٢)، فما كاد نور الدين وعساكره يتقرون إلا وقد باغت الفرنج المسلمين من وراء ظهورهم وقصدوا خيمة نور الدين تحت حصن الأكراد عندها ركب نور الدين فرسه مسرعاً في رجله الشبح^(٣) فنزل إنسان كردي حلاله، فنجا نور الدين وقتل الكردي التفت بعدها

ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٢٩٨ / أبو شامة: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١٩.

قاضي شبيه: المصدر المتقدم، ص ١٦٠ / ابن الوردي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ١٠٤.

ابن أبي الدم: المصدر المتقدم، الموسوعة، ج ٢١، ص ٢٤٣ / رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٢، ص ٥٩٣.

(٢) وصف لنا ابن الأثير هذه المعركة عند حصن الأكراد بتفاصيلها للعز يد انظر:

ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٩٨، وما بعدها / ابن سباط: المصدر المتقدم، ص ١١٢ وما بعدها.

(٣) الشبح: المكان الذي يربط فيه الدابة، وهو عبارة عن خشبتين مغروزتين بالأرض كما ورد في

المصباح المنير انظر:

معجم المصباح المنير: حققه يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، صيدا، ط ٣، ١٩٩٩، ص ١٥٨.

الفرنجة وعزموا على قصد حمص لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها ظنوا أنه لديه قوة كبيرة، فأرسلوا إليه بطلب المهادنة لكنه لم يجبهم إليها، فتركوا عند الحصن من يحميه وعادوا إلى بلادهم وتفرقوا^(١).

هزيمة نور الدين عند حصن الأكراد وعزمه على الثأر وأخذه لحارم ٥٥٩هـ / ١١٦٣م.

عزم نور الدين على الثأر لهزيمة البقية عند حصن الأكراد في أقرب فرصة مؤاتية ولم يطل انتظاره لذلك، فلم تمض ثلاثة أشهر على تلك الهزيمة حتى كان قد أتم استعداداته واجتمع بعساكر الشرق التي اجتمعت عند أرتاح، وكانت في ذلك الوقت قوات الفرنجة المتحالفة قد قصدت حارم لنجدتها وبينهم حبار قادتهم وزعمائهم، فضرب نور الدين المصاف معهم وكسره^(٢) بيد أن صاحب حارم - رينالد سانت فاليري - استنجد بأمر أنطاكية وبقيّة حكام الولايات الصليبية فاجتمع ذلك الحشد العظيم عنده في شهر رمضان سنة ٥٥٩هـ / منتصف شهر آب ١١٦٤م، كل من بوهمند الثالث وريموند كونت طرابلس وصاحب أرمينية طوروس وحاكم كيليكية البيزنطي قسطنطين كولمان وابن أسلين أحد مشاهير الفرنج ومقدموا الاسبتارية والداوية من حصن الأكراد، المرقب وطرطوس وقلعة صهيون (صلاح الدين) وحشد هؤلاء كل ما استطاعوا جمعه من راجل وفارس، وكل ما بقي في الساحل من الفرنج^(٣) لما سمع نور الدين بقدمهم ترك حارم متوجهاً إلى أرتاح طمعاً في أن يتبعوه كي يبعدهم عن بلادهم حين ملاقاته وكان له ما أراد، فتعقبه الفرنجة وحينما نجحوا في لقائه عادوا إلى حارم لكن نور الدين منعهم وناجزهم القتال، فلما اقترب الطرفان اتخذ كل منهما ترتيبه للمعركة. أغارت حملة فرنجية على ميمنة المسلمين التي كان فيها صاحب حصن كيفا وعساكر حلب، فانهزم المسلمون وبعدهم الفرنجة، وكانت هذه المناورة إحدى الخطط المدبرة من نور الدين ليبعدوا

(١) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٣٠٤.

(٢) دي فكري: المصدر المتقدم، ج ١، ص ١١٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣٠٥ / ابن سباط: المصدر المتقدم، ج ١، ص ١١٥.

الفرسان عن الرجالة الفرنجة، فإذا عاد الفرسان لم يجدوا راجلاً يلجؤون إليه، ويرتد المنهزمون في آثارهم فيأخذونهم من بين أيديهم ومن خلفهم ومن يمينهم وشمالهم^(١)، ولم ينتسبه الفرنجة للأمر إلا بعد فوات الآوان إذ ارتد المنهزمون في آثارهم، وأحرق بهم المسلمون من كل جانب واشتد القتال، ودارت الدائرة على الفرنج بالهزيمة "فعدل المسلمون من القتل والأسر ووقع في قبضتهم عدد كبير من كماء الفرنج وأبطالهم"^(٢)، وكان من جملة هؤلاء الأسرى أمير أنطاكية والقمص صاحب طرابلس ودوق الروم^(٣) وابن جوسلين. بينما انهزم الجيش السليبي بأكمله ولم ينج من القتل إلا من هرب، وهنا أصبحت بلاد الفرنج تحت رحمة نور الدين حتى أن بعض مرافقته أشاروا عليه بالزحف إلى أنطاكية^(٤) لكي أضحت ممهدة السبيل للمسلمين مجردة من أسباب قوتها ودفاعاتها لكن نور الدين رفض الأمر مبرراً لرفضه "أما المدينة فأمرها سهل وأما القلعة فمنيعه، وبما سلموها إلى ملك الروم وبيزنطة لأن صاحبها ابن أخيه ومجاورة بوهمند بب إلى من مجاورة صاحب القسطنطينية"^(٥) بعدها أرسل سراياه في تلك أعمال، وتوغلت في البلاد حتى بلغت مدينة السويدية واللاذقية فأسر من فيها، واستولى نور الدين على حارم وإرتاح في الحادي والعشرين من رمضان ٥٥٥ هـ / ١١٦٤ م واتبع نصره هذا بمهاجمته لبانياس واستيلائه عليها في ليلة نفسها في جمادى الآخرة^(٦) في حين أمضى نور الدين الأعوام التي تلت

ابن الأثير: المصدر المتقدم، ج ٩، ص ٨٦.

أبو الفداء: المختصر من خلال الموسوعة، ج ٢٢، ص ٩ / ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٨٦.

ابن سباط: المصدر المتقدم، ج ١، ص ١١٥ حوادث سنة ٥٥٩ هـ / ١١٦٣ م.

(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٣٠٩.

(٥) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٣١٠.

(٦) أبو الفداء: المختصر من خلال الموسوعة، ج ٢٢، ص ٩ / ابن فضل الله العمري: المصدر المتقدم، ج ٢٣، ص ٣٤، في حين ورد عند ابن سباط في ذي الحجة من الشهر.

انظر: ابن سباط: المصدر نفسه ج ١، ص ١١٥.

ذلك (٥٦١ - ٥٦٢ هـ / ١١٦٥ - ١١٦٦ م) بشن هجمات مفاجئة على القلاع والتحصينات التي للفرنجة في كونتيه طرابلس وعلى منحدرات لبنان.

حصار نور الدين لجبل:

وفي عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م أرسل نور الدين إلى أخيه في الموصل (قطب الدين) يطلب منه أن يلاقيه بعسكره عند حمص، فسار هو وزين الدين وجمعوا به عند حمص فدخل بالعساكر الإسلامية بلاد الفرنج واجتاز حصن كراد وأغار على أعماله^(١). وقصد عرقة وحاصرها، ثم حاصر جبلة وضربها واستباح عساكره في تلك الأرجاء يعبثون فيها، واستطاع فتح العريمة صافيتا^(٢) بعدها غادر المنطقة عائداً إلى حمص التي قضى فيها شهر رمضان في السنة نفسها، كما حدث في سنة ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م^(٣) زلزلة عظيمة لم ير إنسان مثلاً عمّت أكثر البلاد في الشام ومصر والعراق إلا أن أشدها كان بالشام سقطت الدور على أهلها، وكان نور الدين شديد الحذر على البلاد من الفرنج فغاد عمارتها وبناء أسوارها وجوامعها وفعلت الزلزلة فعلها ببلاد الإفرنج فاتفوا على بلادهم من نور الدين أيضاً فاشتغل كل منهما بعمارة بلاده.

وفي ١٧ شوال سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م اصطدمت سرية من جيش نور الدين لها شهاب الدين بن يلغازي بن أرتق - صاحب البيرة - بقوة من فرسان لادوية والاسبطارية قوامها ثلاثمائة فارس، كانت تتحرك من حصن صافيتا في

ابن قاضي شبيهة: الكواكب، ص ١٧٣ / النويري: المصدر المتقدم، ج ٢٣، ص ٢٤٨.

ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ٩، ص ٣٣٠ / ابن فضل الله العمري: المصدر المتقدم، ج ٢٣، ص ٣٦ / النويري: المصدر نفسه، ج ٢٢، ص ٣٤٢ / ابن سباط: المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٨.

(١) عرفت هذه الزلزلة بزلزلة حماة لأن أثرها كان الأكثر شدة في هذه المدينة من بقية المدن الأخرى.

انظر ابن العديم: زبدة الحطب، موسوعة، ج ١٦، ص ٥٧.

لكن وردت هذه الزلزلة ضمن أحداث سنة ٥٦٥ هـ في عقد الجمان.

انظر البدر العيني: المصدر المتقدم، ج ٢٤، ص ١١٠-١١١-١١٢.

طريقها للإغارة على بلاد الإسلام ودارت الدائرة على الفرنج وانهزموا فلم ينج منهم إلا القليل، وكان من بين القتلى مقدم الاسبتارية صاحب حصن الأكراد، وغيره من مقدمي الفرنج^(١).

وأكبت هذه الأحداث زلزلة عظيمة^(٢) وعنيفة كانت الأرض تهتز كما تهتز سفينة في البحر الهائج، وانتشر الخوف والهلع والذعر بين الناس وقد تهدمت المدن وتشققت وصارت شقوقاً وسرايب وشكلت تلالاً من الخراب، وكذلك سقط سور أنطاكية على شاطئ البحر وبيعة اليونانيين الكبيرة كلها سقطت، كما سقطت مملكة كلها وفي طرابلس سقط قسم كبير منها البيعة الكبيرة وأحدثت الزلزلة اضطراباً في باقي مدن ساحل البحر وفي دمشق وفي حمص، وحماة...^(٣)

وفي سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م خرج مركبان من مصر إلى الشام فرستا على شاطئ اللانقية فأخذهما الفرنج، وهما مملوحتان من الأمتعة والتجارة وكان بين الفرنج ونور الدين هدنة فنكثوا وغدروا فأرسل إليهم نور الدين بإعادة ما أخذوه من أموال التجارة فغالطوه واحتجوا بأمور منها أن المركبين انكسرا ودخلهما ماء وكان الشرط أن يأخذوا كل مركب ينكسر ويدخله الماء فلم يقبل مغالطتهم جمع العساكر، وبث السرايا في بلادهم، وسار هو من حمص إلى أن تجاوز حصن الأكراد فحاصر عرقة وخرب ربضها، وأرسل سرية من سراياه إلى حصني صافيتا والعريمة فأخذهما عنوة^(٤) وخرب أرباضهما وعاد العسكر إليه،

(١) أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٣٠٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣٥٢ / ابن الأثير: الباهر، ص ٢٨٧.

(٣) فضل الله العمري: المصدر المتقدم، ج ٢٣، ص ٤٢-٤٣.

في حين وردت هذه الأحداث في سنة ٥٦٦ هـ عند ابن العبري وغيره.

انظر: ابن العبري: المصدر المتقدم، ص ١٧٢ / ميخائيل السوري الكبير من خلال الموسوعة، ج ٥، ص ٢٢٦، ٢٢٧-٢٢٨.

(٣) ميخائيل السوري: المصدر نفسه، ص ٢٢٦، ٢٢٧.

(٤) ابن سباط: المصدر المتقدم، ج ١، أحداث سنة ٥٦١ هـ، ص ١١٨.

وهو في عرقة فأتَم فتحها وسار حتى قارب طرابلس عندها تراجع الفرنج وبذلوا ما أخذوه من المركبين وطلبوا تجديد الهدنة فأجابهم إلى ذلك ثم عاد إلى قواعده^(١)، لكن لم يلبث نور الدين أن وافته المنية في يوم الأربعاء الحادي عشر من شهر شوال ٥٦٩هـ / نيسان ١١٧٣م بعلية الخانوق^(٢)، وبعد جهد جهيد استطاع أن يوحد المسلمين في مواجهة الخطر الصليبي، وقد تمكن بفضل مهارته الحربية وبعد نظره السياسي أن يوقف المد الفرنجي، ويسترجع عدداً كبيراً من المعاقل والحصون ممهداً بذلك الدور لخلفه صلاح الدين الأيوبي كي يحقق أثره ويكمل ما بدأه.

صلاح الدين والصليبيون في المنطقة:

خلال حقبة قصيرة وحد صلاح مصر وقسماً كبيراً من سورية وبلاد ما بين النهرين، ففي سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م استولى على دمشق وحماة وحمص وغيرها من المدن وفي سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م أخذ حلب ثم الموصل، وهكذا وقع الشرق في طوق دولة صلاح الدين الذي استهدف في المقام الأول القضاء على مملكة بيت المقدس الفرنجية وإعلان الجهاد على أعداء الإسلام.

شرع صلاح الدين كما أسلفت الحديث في تنفيذ خطته بدخول دمشق في ٣٠ ربيع الأول سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤^(٣)، وفي هذه الأثناء راسل كمشكين - صاحب

أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٢٢٤، ٢٢٥ / البدر العيني: المصدر المتقدم، ج ٢٤، ص ١ / ابن الأثير: المصدر المتقدم، ج ١٤، ص ٢٩٨.

توفي نور الدين زنكي بعلية الخانوق سنة ٥٦٩هـ عند ابن الأثير، بينما وردت عند ميخائيل السوري ضمن أحداث سنة ٥٧٠هـ.

انظر:

ابن الأثير : الكامل، ج ٩، ص ٣٩٣ / ميخائيل السوري: المصدر المتقدم، ص ٢٤٣.

(٣) عن رحيل السلطان إلى دمشق انظر:

ابن واصل : المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ / البدر العيني: المصدر نفسه، من خلال الموسوعة، ج ٢٤، ص ١٨٧.

حلب- راشد الدين سنان زعيم الإسماعيلية من أجل اغتيال صلاح الدين وأطمعه بالمال إلا أن محاولة الاغتيال تلك أخفقت، فبادر كمشتكين إلى مكاتبه ريموند الثالث - صاحب طرابلس بحثه مرة أخرى على مهاجمة صلاح الدين وأطمعه بحمص، فلم يتردد في الاستجابة لطلبه وتوجه بقواته التي انضم إليها فرسان الاستتارية نحو القرى المجاورة يريد - حمص - وهاجم المدينة الأمر الذي جعل صلاح الدين يرفع الحصار عن حلب، ويسارع إلى نجدة حمص لكن ريموند لم يقدر على مواجهة صلاح الدين فانسحب سريعاً ملتجئاً إلى حصن الكراد^(١).

الإسماعيلية وصلاح الدين؟

ارتفعت الإسماعيلية من نجاحات صلاح الدين وجهوده المكثفة لتوحيد بلاد الشام تحت سلطانه وضمه لمصر بعد إسقاطه الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م^(٢). الأمر الذي أضر بهم فنقموا عليه وحاولوا اغتياله مرات عديدة فلم يفلحوا^(٣)، وأعيدت محاولتهم مجدداً في شهر ذي القعدة سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م. أثناء حصار عزاز^(٤). بالمقابل لم يكن صلاح ليسكت على محاولاتهم تلك، فحاصر قلعتهم العظيمة مصياف^(٥) سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م عقاباً لهم على ما فعلوه فنهب بلادهم وأحرقه^(٦)، وهي "من أعظم حصونهم وأحسن قلاعهم،

(١) أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٢٤٠.

(٢) البدر العيني: المصدر المتقدم، موسوعة ج ٢٤، ص ١١٣.

(٣) كرد علي: خطط، ج ٦، ٢٥٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٤١٥ - ٤١٦ / ميخائيل السوري: المصدر المتقدم، ص ٢٥٠.

(٥) امتنكت الإسماعيلية حصن مصياف بالشام سنة ٥٣٥هـ / ١١٤١م وكان واليه آنذاك مملوكاً لبني منقذ من أصحاب شيزر واحتالوا عليه بخديعة ومكروا به حتى توصلوا إليه وقتلوه.

ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ٩، ص ١١٢ / ابن سباط: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٧٢، حوالث سنة ٥٣٤هـ.

(٦) ابن فضل الله العمري: المصدر المتقدم، ص ٥٦ / تاج الدين العسكي: طبقات الشافعية: تأليف د. سهيل زكار، من خلال الموسوعة ج ٢٣، ص ١٣٦.

فانصب عليها المجانيق وضيق على ما بها ولم يزل كذلك إلى أن أرسل مقدم الإسماعيلية المدعو سنان الدين إلى خال صلاح الدين (صاحب حماة)^(١) لكي يتوسط لهم بصلح عنده فشفع لهم صلاح وصفح عنهم وتركهم إلى حالهم، ثم عاد إلى دمشق^(٢)، ويتبادر إلى الذهن سؤال هام عن السبب الحقيقي وراء موافقة السلطان على طلب المصالحة، فهل لخاله علاقة بذلك أم أنه مجرد عاطفة لا أكثر، أم أن هنالك أسباباً قوية أخرى لدى السلطان جعلته يستجيب لهذه السرعة؟!.

بعض المصادر عالت إجابة السلطان لذلك كونهم جيران خاله^(٣)، لذلك لم يغيب رجاء خاله له، وهذه الإجابة بالطبع ليست منطقية. أو قربة التصديق بكل عاطفة أمام قائد عسكري محنك، بل هنالك أمور أخرى أكثر بعداً من هذا جعلته يميل لهذا الأمر، نذكر منها على سبيل المثال أن السلطان أراد ذلك ربما لأنه أراد أن يصفي مشاكله مع الأمراء الزنكيين من أجل التفرغ الكامل لقتال الفرنجة. لقد خطورة على مستقبل البلاد "خوفه من الفرنج أن يهيجوا في الشام الأعلى وهو بعيد عنه، فربما ظفروا من البلاد بطائل. فصالح سنان"^(٤)، ثم أنه فكر ملياً فيما ستؤول إليه الأمور فيما لو حاصر قلاع الإسماعيلية وحصونها القوية. فإن لك سيستهلك كل جهده ووقته، وهو أحوج لها في قتاله مع الفرنجة لذلك ارتأى الصلح معهم في حين ودت الإسماعيلية مصالحة صلاح الدين لأنهم لم يعودوا قادرين على التصدي لقواته المتزايدة يوماً بعد يوم، واستمرت أعمال الصليبيين العدوانية إذ أثارت انتصارات صلاح الدين في الشام مخاوف الغرب، فكان لذلك عظم الأثر في قدوم حملة صليبية جديدة إلى الشام سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م بقيادة

(١) هو شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي ت ٥٧٢هـ / ١١٧٧م

البدر العيني: المصدر المتقدم، ص ٢١٠.

(٢) البدر العيني: المصدر نفسه، ج ٢٤ ص ٢١١ / ابن سباط: المصدر المتقدم، ج ١، ص ١٤٧.

(٣) ابن سباط: المصدر نفسه، ص ١٤٧.

(٤) العيني: المصدر نفسه، ص ٢١١.

كونت فلاندر (فيليب الأكراسي) إلا أن الحملة اخفقت نتيجة لاختلاف الرأي بين الفرنجة أنفسهم فلم تتوجه إلى مصر. كما كان مقرراً ومتفقاً عليه، وإنما توجه فيليب مع قواته شمالاً بتشجيع من ريموند صاحب طرابلس والاسبترارية، وعقد هناك الكونت فيليب مجلساً حربياً حضره مقدم الاسبتارية لقلعة الحصن تقرر فيه مهاجمة حمص وحمص^(١)، كما تضمن الاتفاق على مساعدة بوهمند صاحب أنطاكية للكونت فيليب في الهجوم على حارم ووافقه على ذلك مقدم الاسبتارية، ووضع تحت تصرفه فرقة من فرسان قلعتي الحصن والمرقب، وكانت حارم في موزة سعد الدين كمشتكين المتولي لدولة الملك الصالح في حلب، فنقم عليه الملك الصالح وسجنه، وامتنع منه بقلعة حارم من اتباعه وتحصنوا بها، فظن الفرنجة ومنها أنهم سيستولون عليها لا سيما وأن صلاح الدين في مصر وسوف لن يتمكن من نجدها بسبب الخلاف الذي بينه وبين الملك الصالح واستمر حصار القلعة أربعة أشهر دون تحقيق النتيجة المرجوة غير أن الملك الصالح أرسل لفرسان القلعة للحامية عبر خطوط الفرنجة، كما أرسل مبعوثين من قبله يغري بالفرنجة بالمال كي يرحلوا ويهددهم إن لم يغادروا المكان ويتركوا حصارهم وسلموا القلعة لصلاح الدين، فأجابوه إلى ما طلب ثم رحلوا، فلما عادوا راجعهم سير إليها الملك الصالح جيشاً حاصرها إلى أن سلموها إليه بعدما نزل منهم من الإصابات نتيجة الحصار^(٢).

وفي عام ٥٧٣هـ / ١١٧٨م توجه صلاح الدين إلى حمص : ونزل على عاصي عازماً على الجهاد^(٣) ضد الفرنجة الذين قصدوا المنطقة، وقتلوا واسروا منها الكثير، فأرسل صلاح الدين ناصر الدين محمد بن شيركوه ليسبقهم ويقف على طريقهم ويضع السيف في رقابهم^(٤)، ودخل المسلمون أراضي طرابلس

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٤٤ / رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٢، ص ٦٧٩.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٤٣ / رنسيان: المرجع نفسه، ج ٢، ص ٦٧٠.

(٣) أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٢.

(٤) البدر العيني: المصدر المتقدم، ص ٢٢٢.

لكنه علم نبأ غارة على أعمال حماة قامت بها فرقة كبيرة من الفرنجة تحتوي على عدد كبير من فرسان الاسبتارية والداوية ومقدمهم في شهر ربيع الأول ٥٧٣هـ - تشرين الأول ١١٧٨م، فنهبوا وقتلوا وحرقوا.. فتصدى لهم العساكر المقيمون بحماة، واستطاع المسلمون أن يحققوا نصراً عليهم وانهزم الفرنجة بعد أن كثر قتلهم وأسراهم وساق الأمير منكورس الأسرى إلى عند السلطان بضمير حمص فأمر السلطان بضرب أعناقهم جميعاً جزاء بما اقترفوه^(١)، كما حدث في هذا العام ضائقة اقتصادية أشد فيها غلاء شديد بسبب قلة الأمطار وفت هذه الضائقة الشام والعراق ومصر، واستمرت إلى عام ٥٧٥هـ / ١١٧٩م لكن تبع ذلك وباء شديد عم البلاد وانتشرت الأمراض لاسيما مرض البرسام وابت من جراء هذا المرض خلق كثير^(٢).

ولما كان السلطان ببانياس الداخل تواترت الاخبار بأن الفرنج جمعوا جمعهم بأنهم عازمون على الخروج والهجوم على المسلمين على حين غرة، فبث السرايا فبث تحركاتهم إلى أن اشتبك الطرفان في معركة ضارية عند مرجعيون حقق لها النصر للمسلمين بقيادة ابن أخي السلطان فرخشاه فقتل صاحب تينين منفري، ووقع في الأسر مقدم الداوية (أودسانت أوفان) ومقدم الاسبتارية وابن صاحب مرقية وعدد كثير من بارونات القدس وعكا وما زاد على مئتين ونيف وبعين من كبار القوم^(٣) هذه الأمور والأحداث دفعت ببليدوين الرابع إلى طلب الهدنة مع السلطان فوافق على عقدها لمدة عامين.

وتم التوقيع عليها في مستهل سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م، وفي الحقيقة مكنت هذه الهدنة من التفرغ التام للانتقام من الإمارات الصليبية الشمالية لاسيما في قبرص طرابلس فأغار أسطوله الذي ألقع مين ميناء الاسكندرية على ميناء

(١) البدر العيني: المصدر المتقدم، ص ٢٢٨، ٢٢٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٥٧٤/ البدر العيني: المصدر نفسه، ص ٢٢٨/ أبو الفداء: المختصر، ج ٢٢، ص ٣٠.

(٣) أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٨.

طرطوس وجزيرة أرواد، وتمكن من انتزاعها من أيدي الصليبيين حيث كانوا يضايقون منها على مدينة طرطوس^(١) وبث سراياه في أرجاء الكونتية لتخريب أعمالها، وأنهكت الفرنجة حينها لم يفعل الأخيرون شيئاً سوى الاكتفاء بالاحتواء داخل حصونهم لاسيما (حصن الأكراد) الذي خشي الفرنجة من استيلاء صلاح الدين عليه، الأمر الذي جعل ريموند يسعى لعقد هدنة مماثلة، كذلك التي عقدت مع مملكة المقدس، وغادر السلطان صلاح الدين أراضي الكونتية متوجهاً نحو الشمال الشرقي (الفرات) كي يتفرغ لجمع شمل قواته في هذه الولايات من جديد تحت زعامته تمهيداً للمرحلة القادمة والأهم، فأخضع حلب وسنجار والموصل، وشن الغارات التآديبية على مملكة القدس بين الحين والآخر، وتحول كونت هرايبل ريموند الثالث إلى حليف للمسلمين بسبب تفاقم الخلاف بينه وبين رويسات المملكة حول الإرث والسلطة واختيار هؤلاء الفرنجة (غي لوزينيان) بدلاً منه ملكاً على بيت المقدس (٥٨٢ - ٥٨٦ هـ / ١١٨٥ - ١١٩٥)^(٢) ودخل في صراعته. وصار يناصحه وخالف أهل أمته وبث السرايا في بلادهم ولم يلبث^(٣) استعان بصلاح الدين كي ينصره ضد خصمه لوزينيان " فانتمى إليه واعتضد له وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ففرح صلاح الدين المسلمون بذلك ووعدوه بالنصر". ثم كانت هزيمة الصليبيين في الصفورية عين الجوزة) سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م، وهي الواقعة التي سقط فيها أعداد كبيرة من فرسان الداوية والاسبتارية وعلى رأسهم مقدم الاسبتارية روجر دي مولان سنة (٥٨٣ هـ - ٥٨٤ هـ / ١١٧٧ - ١١٧٨ م) الأمر الذي دفع بالصليبيين إلى تنبيه لخطورة الموقف والتكثف ضد السلطان فسارع ريموند إلى الدخول في مفاوضات لوزينيان ومصالحته، ولم يكد صلاح الدين يعلم بزوال أسباب الخلاف.

(١) أبو شامة : المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٨.

— د. سهيل زكار: تاريخ الدولة العربية في المشرق من السلاجقة حتى سقوط بغداد، مطبعة جامعة دمشق، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م، ص ٢٢٤ / زابوروف: المرجع المتقدم ص ١٩٠.

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٩٢ / ابن واصل: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٧١٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ١٧ - ١٨ حوادث سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٥ م

حتى نكث ريموند للاتفاق الذي أبرمه معه لذلك زحف إلى طبرية في ٢١ ربيع
الآخر سنة ٥٨٣هـ / تموز ١١٨٧م، مستهلاً بذلك موقعة حطين الكبرى التي
حقق فيها نصره المؤزر باسترداد بيت المقدس^(١)، وبذلك لم يبق بأيدي الصليبيين
في تلك المملكة سوى صور وبعض القلاع الداخلية حيث تدفقت فلولهم الهاربة
تجئة إلى صور إلا أن بعضهم توجه نحو كونتيه طرابلس^(٢)، أما صور تلك
المدينة الحصينة على الساحل الشامي فكانت مهابة في قلوب المسلمين أخفق
صلاح الدين في أخذها " فلم يكن لأحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين فإنه
هز إليها جنود الإفرنج وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان
والقدس. وغير ذلك، إذ كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور، فصار فيها
سان الفرنج بالساحل بأموالهم. وأموال التجار وغيرهم فحفظوا المدينة،
وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم
النصر، وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلتجئون إليها
فأداهم ذلك حرصاً على حفظها والذب عنها"^(٣).

هذا الشيء الذي لم يحسب له صلاح الدين أي حساب وأخطأ في تقديره
حسابه، وكاد يدب النزاع بين أفراد جنوده جراءها لذلك تركها أي صور.
سمح لعسكره بالعودة إلى أوطانهم للاستراحة نظراً لاقتراب فصل الشتاء
والعودة في الربيع القادم، أما هو فتوجه مع من معه إلى عكا لقضاء الشتاء فيها.
من هناك تحرك صلاح الدين قاصداً قلعة كوكب المنيرة فحاصرها، ولكنه لم
ينجح بإخضاعها فتركها متجهاً إلى دمشق في السادس في ربيع الأول ٥٨٤هـ
/ تموز ١١٨٧م فمكث فيها خمسة أيام وفي اليوم الخامس بلغه " خير الفرنج أنهم
مصدوا جيل وأغاروا عليها"^(٤)، فخرج من دمشق منزعجاً بعد أن كان قد سير

(١) ابن أبي الدم: المصدر المتقدم، ج ٢١، ص ٣٤٠.

(٢) ابن الأثير: المصدر المتقدم، ج ٩، ص ١٨١.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٨١.

(٤) أبو شامة: المصدر المتقدم، حوادث سنة ٥٨٤هـ ج ٢، ص ١١٢٤.

الكتب إلى الجهات... لاستدعاء الأجناد للجهاد^(١).

ووافاهم عند بحيرة قدس (قطيعة) في طلب الساحل الشامي الأعلى
(الفوقاني) لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل تاريخ هذا الساحل يمكن أن نسميها
مرحلة التحرير والجهاد الأعظم ضد هؤلاء الغزاة.

(١) المقرئزي: السلوك، ج١، ص ١٠٠ .

الفصل الرابع: التحرير (٥٨٤هـ/١١٨٩م)

تحرير الساحل الشامي في عهد صلاح الدين

ولغاية سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م

١. أعمال التحرير:

أ. تحرير حصص الأكراد وبقية الحصون المجاورة له (صافيتا - العريمة - يحمور)

ب. وصول قاضي جبلة إلى معسكر السلطان.

ج. تحرير طرطوس وبتاياس وما حولها.

د. تحرير جبلة.

هـ. تحرير اللاذقية.

و. وصول الأسطول الصقلي إلى اللاذقية.

ز. تحرير بقية حصون الساحل الشمالي

(صهيون - بلاطنوس - العيدو - بكاس والشغر - حصن سرماتيه،

سرمينيه - برزية - دربساك - بغراس)

ي. العودة بين صلاح الدين وبوهمنه حاكم أنطاكية

صلاح الدين وتحرير مدن الساحل الشامي الأعلى^(١) ٥٥٨٤هـ / ١١٨٩م

لم يكن قرار تطهير البلاد من الفرنجة وليد الصدفة، وإنما كان حصيلة تجارب وخبرات وجهود مضنية بعد أن أُيقن صلاح الدين أنه أن الأوان لمنازلة جميع القوى الصليبية في زمن يحدده هو يتيح له إحراز النصر المؤزر سيما وأن دولته أصبحت تمتلك اقتصاداً عسكرياً متيناً، وأصبح لديها نواة أسطول يمكنه أن يؤدي بعض الخدمات في البحر المتوسط التي لا مجال لمقارنتها مع الأساطيل الصليبية والأساطيل الأوروبية الأخرى الداعمة لها، والتي لم تتوقف عن تقديم المساعدات البشرية والحربية والاقتصادية لهؤلاء بالإضافة إلى المساعدات البرية التي تصلهم عن طريق الأناضول، ففي هذا القرن السادس الهجري/ الثاني عشر للميلاد كان الصليبيون كما ذكرنا سالفاً يمتلكون الشريط الساحلي لبلاد الشام الممتد من أنطاكية والذي كان عرضه لا يتجاوز الثمانين كيلومتراً، أما أراضيهم فقد توزعت بين دول ثلاث وهي أنطاكية، القدس، طرابلس^(٢) وبتحرير القدس بعد معركة حطين (٢٥ ربيع الثاني ٥٨٣هـ / ١١٨٧م)^(٣) المعركة الفاصلة التي توجت قمة الإنجازات لأعماله وأعمال سابقيه من آل زنكي.

(١) ملاحظة: الساحل الشامي الأعلى أو كما سماه ابن شداد وأبو شامة بالساحل فوقاني قديماً أما اليوم فيقصد بالساحل السوري فقط وتطل سورية على البحر المتوسط بساحل يصل طوله حوالي ١٥٠ كم دون خليج أنطاكيا ودولة السليبي بعد أن استولت عليه تركيا بمساعدة إنجلترا وفرنسة.

ابن شداد: النوادر، ص ٨٦ / أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٨٦.

رقلة: المرجع المتقدم، ص ٤٤.

أما اسم سورية فكان يطلق قديماً على النطاق الساحلي الشرقي للمتوسط من جبال طوروس حتى سيناء وكان يطلق عليها اسم الشام أما الأوروبيون فسموا هذه المناطق باسم ليفانت دون معرفة معنى أو سبب تلك التسمية.

رقلة: المرجع نفسه، ص ١٣٣.

(٢) الإدريسي: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٦٥٦.

(٣) ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ١٨٧.

استطاع صلاح الدين خلالها تحرير المناطق الجنوبية لبلاد الشام، وتأمين صالها ببقية المناطق الإسلامية الأخرى من ايلة في العقبة جنوباً حتى بيروت عمالاً باستثناء صور وبعدها ملك عكا سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م^(١) أقام بدمشق بعد أن أرسل إلى البلاد جميعاً باجتماع عساكرها لاستكمال عملية التحرير في كل إمارتي طرابلس وأنطاكية^(٢).

ولما اطمأن على الجنوب أصبح الطريق ممهداً أمام جيوش المسلمين لتحرير مدن الساحل الشامي الأعلى، فترك الجنوب بأمان ملتفتاً إلى الشمال الذي كان لا يزال بيد الصليبيين^(٣).

ويتساءل المرء هنا عن السبب الذي دفع صلاح الدين للتوجه إلى الساحل الشامي الأعلى والظروف التي ساعدته في تحقيق هذا النصر العظيم؟ ففي سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م أقام صلاح الدين بدمشق لإجراء بعض الترتيبات الإدارية في أعمال أخرى إضافية، وفي اليوم الخامس من إقامته جاءته أخبار تقول: إن الصليبيين قد تعرضوا لمدينة جبيل من البحر^(٤) وأغاروا عليها، ولعل تعرض الصليبيين لهذه المدينة كان السبب المباشر لأن يعد صلاح الدين العدة لتحريرها الصليبيون فقد تسركوا المدينة ظناً منهم بعدم قدرتهم على ملاقاته السلطان^(٥) فندها استعداد صلاح الدين وقرر ملاقاته العدو بعد أن أرسل الكتب إلى الجهات استدعاء الجيوش الإسلامية للجهاد، ولكن السلطان قرر زيارة مستشاره

الغزي: المصدر المتقدم، ص ٣١٤.

الغزي: المصدر نفسه، ص ٣١٧.

ابن شداد أن السلطان عزم على فتح الساحل ورغب بذلك كثيراً خصوصاً بعدما تيسر له الديار المصرية

شداد: النوادر، ص ٤٠١.

(٣) أنطاسيو: المرجع المتقدم، ص ٥٢٧.

(٤) وردت عند بعض المصادر بأن المدينة هي جبلة على الساحل السوري وليست جبيل على الساحل اللبناني كما وردت لدى بعض المصادر: الأخرى أما عند النويري فوردت (جبيلة) أي جبلة.

انظر ابن تغري: المصدر المتقدم، ج ٦، ص ٣٥ / أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ١٨٦ / النويري: المصدر المتقدم، ج ٢١، ص ٢٦٥.

(٥) ابن تغري: المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٥.

المريض القاضي الفاضل^(١) ليستشير في بعض الأمور الهامة^(٢) "ولما عزم السلطان على الخروج للغزاة بدأ بزيارة القاضي الفاضل ، فاستضاء برأيه فيما يريد أن يفعله وكان لا يأتي أمراً إلا من بابه وأقام عنده إلى الظهر، ثم ودعه ورحل..."^(٣).

كان صلاح الدين قد أعد خطة^(٤) مناسبة في كل من طرابلس وأنطاكية خصوصاً وأن هذه البلاد توقفت فيها العمليات العسكرية منذ قبل حطين، ففي إمارة طرابلس مات حاكمها ريموند الثالث بعد أن هرب من معركة حطين فطأ طي الرأس وارتبطت إمارته مع إمارة أنطاكية التي عقد معها تقي الدين (ابن أخ صلاح الدين) هدنة، وحينما أحس الصليبيون بالخطر أرسلوا على وجه السرعة بطلب النجدة من الغرب الأوربي خصوصاً وأن الربيع مقبل وهو الوقت المناسب عادة لإبحار الأساطيل الكبيرة على السواحل الشامية، هذا ما ذكره لنا ابن الأثير الذي كان شاهداً عياناً لهذه الحملة^(٥) قائلاً: "ولقد حدثني سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٩م أحد المسلمين المقيمين بحصن الأكراد^(٦)، وهو من أجناد أصحابه الذين

(١) ابن الأثير: المصدر المتقدم، ج ١٠، ص ٤٨ / أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ١٢.

(٢) ابن كثير: المصدر المتقدم، ج ١١-١٢، ص ٢٩١.

(٣) ابن واصل: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٢٥٥ / أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢.

(٤) ذكر البدر العيني في عقد الجمان سبباً آخر من أسباب فتوح السلطان للساحل قائلاً: بأن القمص صاحب طرابلس حضر إلى عند السلطان واتفق معه على أن يفتح له جميع الساحل وأطلق له السلطان جميع الأسرى الذين عنده وجرد معه عسكرياً إلى الساحل وفتح الطريق من مصر إلى الشام وسار فيها للتجار لكن القمص خادعهم وأخذ قافلة من التجار ودخل بها بلاد الفرنج فحلف الملك الناصر نثن ظفر به ليقتله بيده وكان ذلك بحسب رأيه سبب فتوح الساحل.

البدر العيني: المصدر المتقدم، ج ١٤، ص ٢٧٣، ص ٢٧٤.

ملاحظة: لم تذكر المصادر تفصيلاً أكثر حول الخطة التي أراد تنفيذها صلاح الدين إنما كان إشارات فقط، والدليل على ذلك هو أنه لما اقترب من مدينة طرطوس لم تكن هذه المدينة ضمن الخطة الموضوعية المتفق عليها مع قاضي جبلة.

ابن شداد: النوادر، ص ٨٧.

(٥) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٤٨.

(٦) لم يحدد اسمه في المصدر.

سلموه إلى الفرنج قديماً، وكان هذا الرجل قد ندم على ما كان منه في الغارة على بلاد الإسلام والقتال معهم قال لي هذا الرجل إنه دخل مع جماعة من الفرنج من حصن الأكراد إلى البلاد التجارية (أورية) التي للفرنج والروم في أربع شون^(١) يستجدون، قال: فانتهي بنا التطواف إلى رومية الكبرى (روما)، فخرجنا منها وهذا ملأنا بالشواني نقره^(٢)، فكان أول المستجيبين لهذا النداء هو ملك صقلية الذي أرسل أسطولاً مكوناً من ستين سفينة يقودها الأمير مرغريتا (المرغريط) كما ذكره ابن واصل وعليها مائتي فارس بكامل عدتهم وماشييتهم الذي وصل عند طرابلس، فنظم دفاعاتها خوفاً من قدوم صلاح الدين إليها وحصاره لها^(٣) في هذه الأثناء كان صلاح الدين قد ودع قاضيه في دمشق، ثم توجه بسرعة مع أتائه فقصد البقاع وسار إلى الطريق المؤدية نحو حمص^(٤) عبر وادي البقاع الخصيب، وعندما وصل قريباً من بعلبك جاءت أنباء بوصول عماد الدين بن دودين زكي صاحب سنجار وعساكر نصيبين والخابور وديار بكر الجزيرة.. وغيرها^(٥) لينضموا إلى صلاح ويشاركوه بفتوحاته في المنطقة قال ابن الأثير إن أول من أتاه هو عماد الدين ثم تلاقت العساكر بالوصول^(٦) لي حين ذكر أبو شامة بأن صلاح الدين ترك دمشق وسلك طريقاً في جبل يبوس إلى عين الجر إلى الدلمية الواقعة على البقاع، ثم أتى بعلبك بعدها خيم بمرج عدوسة، ثم رحل على سمت اللبوة^(٧)، ثم أتى الزراعة في الوقت الذي وصل

(١) شون: مفرداً شونة أو شيني هي مراكب كبيرة تعلوها الأبراج أو القلاع ويتخذ جنودها الأسلحة الحربية، الكلاب والنقط وغيره.

القلشندي: المصدر المتقدم، ج ٣، ص ٥٢٣.

(٢) نقره: وتعني النقود.

ابن الأثير: المصدر المتقدم، ج ١٠، ص ٦٩.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥٥.

(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٤٨/ ابن كثير: المصدر المتقدم، ج ١١-١٢ ص ٢٩١.

(٥) ابن فضل الله العمري: المصدر المتقدم، ص ٩٤.

(٦) ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٤٨.

(٧) اللبوة: قرية من عمل بعلبك.

ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ٩، ص ٣٥٢.

إليه الخبر أن صاحب سنجار وعماد الدين وجيشه قد نزلوا بحيرة قدس^(١) التي تبعد عن حمص حوالي فرسخ^(٢)، فذهب السلطان إليهم وخيم قريباً من مخيمهم ولما حضر تصافت النفوس بينهما.. إلخ^(٣) في حين ذكر ابن تغري في النجوم الزاهرة أن السلطان بلغه الخبر بوصول عماد الدين صاحب سنجار ومظفر الدين بيي زين الدين صاحب إربل وعسكر الموصل إلى حلب، وأنه من هناك توجهوا نحو حصن الأكراد ليجتمعوا مع صلاح الدين وعساكره مشاركين بفتوحاته^(٤) سر صلاح الدين لذلك وأسرع لملاقاتهم جميعاً في مكان تمرّكهم على شواطئ بحيرة القدس، أما العماد الأصفهاني فتحدث هو أيضاً بشكل مطول عن هذا اللقاء وما حدث فيه من تحابي وتصافي للنفوس "ولما تراءى موكبه لموكب السلطان تقابل القمران واجتمع السعدان، وسعد الجمعان فخيم السلطان عند مخيمه وسأله أن يزوره السلطان بموكبه فأجاب دعوته ثم رتب السلطان يوماً لحضوره عنده وبانبا وتصافيا، وكان أيام الممشى وقد وصل من دمشق فأخرج قدومه وطلعتة أبراج الأطباق نجومه"^(٥) ثم تلاقت بقية القوات وبقوا في قدس حتى نهاية شهر ربيع الأول أيار حتى تصل البقية المتبقية منها "حتى اجتمعت الجموع صلت قبائل العربان"، فلما تكاملت العساكر بدأت المحادثات والمشاورات إلى تم الإجماع على اختيار عرقة لتحريرها لأنها كما قيل: "إذا ملكت ملكت

(١) بحيرة قدس: بحيرة قرب حمص في جهتها الغربية طولها اثنا عشر ميلاً في عرض أربعة أميال وهي ما حمص وجبل لبنان.

(٢) طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ثلث مرحلة وفي طرفها الشمالي سد ممتد في طولها بناء الاسكندر بالحجر يصل إليها مياه تلك الجبال ثم تخرج منها لتصير نهراً عظيماً وهو العاصي الذي تقع عليه مدينة حماة وشيزر ينتهي من البحر قرب أنطاكية وهي بحيرة قطينة الحالية.

ابن الأثير: المصدر المتقدم، ج ٩، ص ٢٦٥ / القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ٨ / الحموي: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٤١٩.

(٢) ابن قاضي شهبة: المصدر المتقدم، ص ١٦١.

(٣) أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ١٣.

(٤) ابن تغري: المصدر المتقدم، ج ٦، ص ٣٦.

(٥) الأصفهاني: الفتح، ص ٢١٩ / أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٣ / ابن واصل: المصدر المتقدم، ص ٢٥٠، ٥٥٧.

طرابلس" (١) في تلك الأثناء كان صلاح الدين قد أرسل إلى ولده الملك الظاهر في حلب وإلى صاحب حماه ابن أخيه الملك مظفر الدين الكوكبري بأمرهما بالنزول بتيزين (٢) كي يأمنّا ذلك الجانب (٣)، وبقيت الجموع المحتشدة بقدس حتى نهاية الشهر (ربيع الأول) فتركوها في أول ربيع الآخر وخبموا بمكان يقرب حصن الأفراد يدعى البقيعة (٤) أما ابن واصل فيقول: إن المكان الذي خيموا فيه كان على ثلّة قبالة حصن الأكراد (٥)، ويبدو أن المكان الذي اختير للمعسكر كان له طريق وحيد بين الساحل والداخل في هذه المنطقة (٦) فأقام يومين فيها وأغار صلاح الدين على حصن الأكراد يوماً واحداً بعد أن بقي قبائله شهراً كاملاً ينظم أمّور جيشه "فما رأى الوقت يحتمل حصاره" ثم أشار على صافيتا (٧) والعريمة

(١) أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ١٤ / الأصفهاني: المصدر المتقدم، ص ٢٢٥ / ابن الأثير: المصدر المتقدم، ج ١٠، ص ٤٨ وهنا نلاحظ أن ابن الأثير لم يذكر تلك المشاورات التي حدثت بينهم.

(٢) تيزين: مدينة صغيرة قديمة كان لها سور قديم وتعد من مضائق أنطاكية وهي قبالتها لكنها في المصادر لا تسمى على أنها قرية كبيرة من نواحي حلب. أما القلقشندي فيعدها بليدة صغيرة من أعمال حلب في جهة الغرب وعلى نحو مرحلة منها.

(٣) ابن شداد: النوادر، ص ٨٨ / المقدسي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ١٨٦ / القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ١٨٦.

(٤) ابن واصل: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٢٥٥.

(٥) البقيعة: تقع تحت حصن الأكراد ما بين عرقة وقلعة الحصن وهي أقرب إلى الأخيرة كما أنها قريبة من جبل النصيرية على حد قول أبو الفداء.

(٦) المقدسي: المصدر نفسه، ص ٨٧ / أبو الفداء: التوقيف، ص ٢٥٦.

(٧) وكان الملفت للنظر هنا أنه تم نزول صلاح الدين في سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م لهذا المكان ونصب معسكره وخبامه هناك عندما صمم على دخول بلاد الفرنج وذلك فعل قبله نور الدين الزنكي لكنه منى بالهزيمة أي أنه لم يتابع يبره كما فعل خلفه.

ابن واصل: المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٥.

(٥) ابن واصل: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٥٥.

(٦) مصطفى الحيارى: صلاح الدين القائد وعصره، ١٩٩٤ م، ص ٣٥٦.

(٧) كانت صافيتا من أقوى الحصون التي امتلكتها الداوية وكان صلاح الدين أثناء حصاره لها قد أوصلها إلى حالة من الضعف بحيث أن المدافعين هلكوا من الجوع وقد حصلوا على إذن مقدم جيش الداوية بتسليمها إلى القائد صلاح الدين الأيوبي.

أولفر: المصدر المتقدم، ص ٣٤، ص ٧٦-٧٧.

وبحمور وبقية الحصون المجاورة وبقيت تلك الغارات على هذا المنوال حتى آخر الشهر^(١)، "ولم تزل تلك الإغارات والغنائم وهم في تلك المنزلة إلى آخر ربيع الآخر"^(٢) تمكنوا خلالها من تحقيق النصر المؤزر حتى وصل إلى قريب من طرابلس وأبصر البلاد وعرف جميع طرقها ومسالكها، ثم عاد إلى معسكره تحت حصن الأكراد^(٣) بعدها بدأ باختراق حدود إمارة أنطاكية (غربي العاصي) وفي المنطقة التي لم يفتحها نور الدين محمود ، وسأذكر تلك الأحداث بالتفصيل:

-
- (١) أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ١٤ / الأصفهاني: الفتح ، ص ٢٢٦ / ابن أبي الدم: من خلال الموسوعة ج ٢١، ص ٢٦٨.
- (٢) ابن واصل: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٢٥٥ / الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٢٢٦.
- (٣) أبو شامة: المصدر نفسه ، ص ١٤ / ابن الأثير: الكامل ج ١٠، ص ٤٨ / ابن فضل الله العمري: المصدر المتقدم، ص ٩٤.

وصول قاضي جبلة إلى معسكر السلطان ودوره في عملية تحرير الساحل الشمالي:

وبينما صلاح الدين يقيم بذاك المعسكر قدم إليه في تلك الناحية قاضي جبلة عبد الله بن منصور بن الحسين التتوخي المعروف بأن صليحة^(١) ومعه جماعة، ونفرد ابن الأثير بذكر وصول القاضي الفاضل لوحده دون ذكر للآخرين^(٢)، ومار على السلطان بقصد جبلة واللاذقية وبقية الحصون الشمالية والمعاقل المحيطة، وتكفل له بفتح هذه البلاد التي كان قد سلمه إياها ابرنس أنطاكية وعول فيه فيها^(٣)، وكان هذا القاضي قاضي المسلمين بجبلة وعلى السواحل التي كانت تزال بيد الصليبيين، كما كان يوهمند صاحب أنطاكية وجبلة معاً، كان القاضي منصور كما قال عنه ابن الأثير: "مسموع القول، مقبول الكلمة، له الحرمة والافرة، والمنزلة العالية، وهو يحكم على جميع المسلمين بجبلة ونواحيها..". أما بسبب قدوم القاضي منصور وعرضه ذلك العرض فبعثها ابن الأثير هي الغيرة على الدين الإسلامي^(٤) حيث قال للسلطان: "إن الإشتغال بطرابلس مع حصانتها ومنعتها يذهب الزمان والمسلمين بجبلة راغبون في التسليم منتظرون للسلطان أن يخلصهم من الفرنج"^(٥). وذكر أبو شامة أنه وصل في تلك الآونة إلى معسكر السلطان مقدموا جبل بهراء وتنوخ^(٦)، فأجرى لهم السلطان رواتبهم فندبوا إلى اتباعهم وكتبوا إلى أشياعهم^(٧) المهم أن السلطان أجابهم لطلبهم ولو أنه اضطر بتغيير خطته المتفق عليها مع عماد الدين بن مودود^(٨).

(١) ابن صليحة عند ياقوت الحموي أما عند ابن الأثير وأبو الفداء فورد اسمه ابن صليحة ياقوت الحموي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ١٢٢/ ابن الأثير: الكامل ج ١، ص ٤٨/ أبو الفداء: المختصر، ص ٤٨، ص ١٢٩ (٢) أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ١٤/ ابن واصل: المصدر المتقدم، ص ٢٥٦/ ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٤٨.

(٣) أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٤/ ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٥٦/ ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٤٨.

(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٤٨.

(٥) ابن واصل: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٥٦.

(٦) أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٤.

(٧) أبو شامة: المصدر نفسه، ص ١٤/ ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٥٦.

ملاحظة: لم تذكر لنا المصادر ماهية الخطه.

مما تقدم أستطيع استخلاص الأسباب البعيدة غير المباشرة التي دفعت السلطان لتحرير الساحل وهي على النحو الآتي:

١- انتصار صلاح الدين في حطين عروس المعارك والتي كانت فاتحة لعمليات التحرير والفرصة المواتية لعملية التطهير الشاملة للبلاد.

امتلاك صلاح الدين لدولة ذات اقتصاد عسكري متين وأسطول بحري يمكنه تأدية خدمات بحرية هامة في البحر المتوسط.

وفاة كونت طرابلس الأفرنجي (ريموند الثالث) بعد خسارته في حطين وهروبه منها والذي ارتبطت إمارته مع إمارة أنطاكية مما هيأ الفرصة لاستغلال هذا الوضع.^(١)

وصول قاضي المسلمين بجبله إلى عند السلطان وتشجيعه على تحرير ساحل الشمالي.^(٢)

وخير القول: إنه مهما تعددت الأسباب واختلفت تبقى الخطوة التي قام بها سلطان خطوة جريئة وضرورية لقائد محرر لبيت المقدس أن يتجه حتماً نحو إمارة الأقرب (أي إمارة طرابلس ومن ثم إمارة أنطاكية حسب الظروف المتاحة وبعد إعداد الخطة المناسبة).

فتح طرطوس

كانت البداية بطرطوس إذ خرج صلاح الدين من معسكره وبرفقته القاضي ملاقاته الفرنج في يوم الجمعة الرابع من جمادى الأولى سنة ٥٨٤ هـ الثالث والعشرين من حزيران ١١٨٩م^(٣)، لأنه قال خير عليه قياساً على يوم حطين الذي صادف أيضاً يوم الجمعة المباركة فأخذت منه عادة فنأدى المنادي في المعسكر أن يحملوا الزاد والمؤن ما يكفيهم لمدة شهر "إننا داخلون إلى الساحل،

(١) ابن الأثير: المصدر المتقدم، ص ٤٨ / أبو شامة: المصدر المتقدم، ص ١٢ / ابن واصل: المصدر المتقدم، ص ٢٥٥.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٤٨.

(٣) ابن العديم: زبدة، ص ٥٨ / ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٤٨ / الأصفهاني: الفتح، ص ٢٢٩ /

العلمي: المصدر المتقدم، مجلد (١)، ص ٤٩٥ / البدر العيني: المصدر المتقدم، ص ٣٠٢.

وهو قليل الأزواد والعدو يحيط بنا في بلاده في سائر الجوانب فأحملوا زاد شهر^(١).

تحركت القوات نحو الساحل على أهبة الاستعداد وكانت تسير بثلاث مجموعات أولها الميمنة ومقدمها عماد الدين زنكي بن مودود أما الميسرة فكانت في المؤخرة ومقدمها مظفر الدين صاحب إربل وأخيراً الوسط فكان الثقل^(٢).

بات المسلمون تلك الليلة في بلد العدو وفي صباح يوم السبت رحلوا ونزلوا على حصن العريمة^(٣) فلم يجد السلطان من يقاتلهم عندها قضى ليلة السبت فيها، ثم رحل يوم الأحد ٦ جمادى الأولى في ثلاثة مراحل وفي الطريق توقف صلاح الدين قليلاً قبالة (طرطوس) التي تقع في طريق جبلة متأملاً لها، ويقول ابن شداد: إنها لم تكن ضمن الخطة الموضوعة لكنه وجد بنظره العسكري الثاقب أن الفرصة مواتية لأخذها لذلك أمر ميمنة جيشه بالنزول عليها من جانب البحر من جهة المدينة الشمالية، أما الميسرة فنزلت من الجهة الجنوبية والمنطقة التي بينهما كانت بقيادته، وبذلك أحاطها من جميع الجوانب كما قال ابن العديم "وأحدثت السراكر بها من البحر إلى البحر"^(٤) بعد أن أصدر الأمر بالهجوم على المدينة فترتب السلطان بالقلب والبقية الباقية من العساكر "فلما استتب نصب الخيم حتى طبع الناس السور وأخذوها بالسيف وغنم العسكر جميع ما بها ومن بها، وخرج الناس والأسرى وأموالهم بأيديهم وترك الغلمان نصب الخيم واشتغلوا بالتهريب والكسب، وبذلك وفي صلاح الدين بقوله عندما عرض عليه الغداء قبل الهجوم فقال: "تغدى بطرسوس* إن شاء الله"، ثم عاد إلى خيمته مسروراً وتغدى مع من حضره للتهنئة^(٥)، أما المنهزمون الناجون من الفرنجة فقد تحصنوا ببرجين في

ابن شداد: النوادر، ص ٨٦.

(٢) البدر العيني: المصدر المتقدم، ص ٣٠٢.

(٣) حصن العريمة: هو حصن قريب من ساحل طرابلس.

ابن واصل: المصدر المتقدم، ص ٣٥٨.

(٤) ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٨٧ / ابن العديم: زبدة الطلب، ص ٥٨٠ / البدر العيني: المصدر نفسه، ص ٣٠٣.

* أي طرطوس.

(٥) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٥٦ / البدر العيني: المصدر نفسه، ص ٣٠٣.

المدينة بعد أن نقلوا إليها كل ما استطاعوا أن ينقلوه واستطاع مظفر الدين كوكبري أن يسقط أحد البرجين بعد حصاره له فتسلموه بالأمان ثم خربه، ورمى حجارته في البحر^(١) أما البرج الآخر فقد استعصى على المسلمين بسبب نقل آلات الحصار والقتال إليه^(٢)، وبقي بيد الداوية^(٣) بقيادة مقدمهم الذي أطلق من فرائحه بالإضافة إلى تلك الأسباب فإن مناعة الحصن وبناءه القوي^(٤) الذي يحيط به الخندق المملوء بالماء ساعد في عدم سقوطه حينها أمر السلطان تركه "ليس له قدر يجرح عليه مسلم" لكنه أمر بهدم أسوار المدينة كلها، كما خربت الكنيسة التي كانت مركز للحج والزيارة "وهي بيعة عظيمة عندهم يحجون إليها من أقطار بلادهم"^(٥) وأمر بإحراق المدينة وتخريبها قبل تركها في الثالث من تموز/أبوعشر جمادى الأولى^(٦)، وجعل لحفظها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية (صاحب شيزر)^(٧) أما فيما يتعلق بتحرير جزيرة أرواد المقابلة لطرطوس^(٨)، فلم تكن هذه الجزيرة كمثيلاتها في عملية التحرير هذه لاسيما في عصر صلاح الدين الأيوبي، إنما بقيت بيد الفرنجة وتم تحريرها نهائياً في مرحلة لاحقة إبان

(١) الأصفهاني: انفتح، ص ٢٢٩.

(٢) أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ١٧.

(٣) الداوية والاسبتارية من الطوائف الدينية العسكرية أسست بين (٥١٢ - ٥١٤ هـ / ١١١٨ - ١١٢٠ م) في عهد هولاكو الأول لمزيد عن المعلومات حول هذه المنظمات انظر إلى:

سميل: "فن الحرب عند الصليبيين".

(٤) بني بنوع خاص من الحجارة القوية دعيّت بـ "الحجر النحيت"

ابن واصل: المصدر المتقدم، ص ٢٥٧/ أبو شامة: المصدر نفسه، ص ١٧.

(٥) أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٧.

(٦) أبو شامة: المصدر نفسه، ص ١٧/ ابن شداد: النوادر، ص ١٤٣-١٤٤/ ابن واصل: المصدر نفسه، ج ٢،

ص ٢٥٦/ البدر العيني: الموسوعة ج ٢٤، ص ٣٠٣.

(٧) ابن فضل الله العمري: المصدر المتقدم، ج ٢١، ص ٩٤.

(٨) لم يتم تحرير طرطوس تحريراً نهائياً إلا في سنة ١٢٩٠ هـ / ١٢٩١ م بعد تحرير عكا انظر:

عادل زيتون: تاريخ الممالك، المطبعة الجديدة، دمشق، ١٩٨٢ م، ص ٤٧.

مرقية:

تابع صلاح الدين هجومه على معاقل الصليبيين، وفي الطريق التقاه ولده الملك الظاهر ومعه العساكر التي كانت بتيزين. في حين لم يذكر ابن تغري بـدي ذلك وقال إنه حضر ولده بعساكر حلب بناء على طلب منه فجاء بعساكر مرقية فقط^(٢) فانضموا إليه وتابعوا تقدمهم^(٣) إلى أن وصلوا إلى مدينة مرقية

فقد دخلت هذه الجزيرة بدائمة الصراع العربي - الصليبي وأحياناً الصليبي - الصليبي، ولم تتحرر إلا في عهد السلطان (الناصر محمد بن قلاوون في ٧٠٢هـ - ١٣٠٢م) أي بعد تحرير عكا (٦٩٠هـ - ١٢٩١م) على يد الشريف خليل بن قلاوون، فكانت بذلك آخر المعاقل الصليبية في سورية التي كان فيها ما يعرف باسم "قرسان" (الداوية).

صمد هؤلاء الفرنجة حوالي إحدى عشرة سنة بعد سقوط عكا، وكان شعارهم الأسد والنخلة ظاهراً فوق باب المدينة الخربة لهذه الجزيرة قائماً حتى الآن. ففي محرم سنة ٧٠٢هـ - ١٣٠٢م توجه الأمير سيف الدين اسدمر مرجي نائب السلطنة بطرابلس وعساكره التي بلغت حوالي الخمسمائة لتحريرها منهم لأنها أضرت بطرابلس، بين لنا أبو الفداء سبب هذا الضرر هو أن الفرنجة فيها كانوا يقطعون الطريق باستمرار على المسلمين مترددين على طول ذلك الساحل فتوجه المسلمون بسفنهم إلى هناك، ولقي الفرنجة حتفهم على أيدي هؤلاء فكان ذلك في يوم الجمعة الثامن والعشرين من صفر، في حين خالف ابن تغري وغيره هذا الرأي قائلاً إنه كان في محرم، والمهم أن الكثيرين قتلوا من الفرنجة واستولى المسلمون على الجزيرة بإرسال ما عندهم في تلك الجزيرة من الغنائم والأسرى.

بتحرير هذه الجزيرة تطهرت سورية وبشكل نهائي من رجس هؤلاء الفرنجة فلم يبق لهم فيها مملكة بحمد الله بن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي فتح قبل ذلك أنطاكية* وأسدل الستار نهائياً على آخر حياة صليبيين في سورية.

نظر حول ذلك:

نحسن بن عمر بن الحبيب بن عمر بن حبيب تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنه* حققه د. محمد أمين، طبعة دار الكتب ١٩٧٦م، حوادث سنة ٥٧٠٢.

أبو الفداء: المختصر، ج ٢، ص ٥٧ / المقرئ: السلوك، ج ١، ص ٩٢٧-٩٢٨.

ابن تغري: المصدر المتقدم، ج ١، ص ١٢٣ / ابن الوردي: المصدر المتقدم، ج ٢٠، ص ٢٥٩.

البيستاني: دائرة المعارف، مجلد (٢)، ص ٧٤٩ / حتى: تاريخ سورية ولبنان، ج ٢، ص ٢٤٩.

الدبس: المرجع المتقدم، ص ٧٦ / رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٣، ص ٧١١-٧١٢.

(٢) ابن شداد: النوائد، ص ٨٨ / أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ١٨٦.

(٣) ابن تغري: المصدر المتقدم، ص ٣٦.

فوجدوها خالية من أهلها^(١) الذين تركوها إلى حصن المرقب الحصين للاحتماء به فساروا إليهم، وكانت الطريق على الساحل ضيقة المسلك وهناك حصن للاستتار^(٢) وصف لنا ابن الأثير تلك الطريق الممتدة من مرقية إلى جبلة قائلاً: "وساروا إلى المرقب وهو من حصونهم التي لا ترام، ولا يحدث أحد نفسه بملكه لملوه وامتناعه وهو للاستتار والطريق تحته فيكون الحصن عن يمين المجتاز والبحر عن يساره، والطريق ضيق لا يسلكه إلا الواحد بعد الواحد"^(٣) فلم يكن أمامهم سوى سلوك هذا الطريق الصعب والمكشوف تحت ذلك الحصن، هذا ما سار إليه الأصفهاني واصفاً ذلك الحصن: "وهو عالي المنكب وسامي المنكب سامي المرقى والمرقب، ضيق المذهب، عسر المطلب"^(٤) فكانت محاولة جريئة لتخلو من الخطر المحقق بالمسلمين.

وصول الأسطول الحلي:

حاول الصليبيون عرقلة الجيوش العربية ومنعها من المرور إلى الشمال حيث أرسل غليوم الثاني - ملك صقلية - أميرال البحر (مرغريت) على رأس حملة بحرية لمنع تقدم العرب باتجاه جبلة واتفقت المصادر على أن صاحب صقلية الفرنجي، لما علم بما حدث في الشام أرسل نجدة في ستين سفينة يترأسها مرغريت عند ابن واصل، أو مرغريتا في بعضها الآخر بعشرة آلاف مقاتل وعند وصول هذا الأسطول إلى صور غير وجهته إلى طرابلس ثم توجه إلى البحر تحت المرقب، وصفت قواتهم (من الرماة) على طول الطريق وذلك بمنعوا كل من أراد الاجتياز من هناك بالسهم، وكان مضيق ضيق جداً لا يسلك فيه إلا شخص واحد، ولما رأى صلاح الدين ذلك أمر قواته من الطارقيات

(١) أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ١٧ / ابن واصل: المصدر المتقدم، ص ٢٥٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٢٣٠ / ابن شداد: المصدر المتقدم، ص ٢٩٣ / العلمي: المصدر المتقدم، مجلد (١)، ص ٤٩٦.

ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٥٧.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٤٨ / ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٢٩٣.

(٤) الأصفهاني: الفتح، ص ٢٣٠.

والجفتيات^(١) فصفت قواته من أول المضيق إلى آخره على الطريق الذي يلي البحر وجعل من ورائها الرماة لتأمين حماية مرور القوات الإسلامية، فكان أن اجتازها المسلمون وتحكموا في عبور المضيق بنجاح باهر^(٢)، واستطاع صلاح الدين حماية جيشه ومتابعة المسيرة.

بلنياس و"بلدة":

وفي الطريق مروا على مدينة بلنياس وقد أجفل الناس عنها فنزلوا على أرضها وخيموا فيها "وأنسوا بنهرها وزهرائها"^(٣) وبقوا فيها إلى صباح اليوم التالي، فلما هموا بالرحيل اعترضهم نهر عميق عليه قنطرة واحدة فتصادموا على ذلك الجسر نتيجة الازدحام وأحاطت العساكر بالنهر من جانبيه وتزاحمت الأتقال على القنطرة فما خلصوا تلك الليلة إلى آخرها، فسار السلطان معهم حتى صبر رأس العين ووصل إلى بلدة - بلدة - على بعد فرسخين من جبلة^(٤) غربي النهر على شاطئ البحر "وعلى جانبيين من جوانبها خندق يلتقي به البحران"^(٥) فلم يجد فيها أحداً^(٦) ووصف الأصفهاني المدينة حينما وصلوها قائلاً: "وألفينا بلدة خاوية على العروش، حاوية للوحوش، خالية من الأنس والإنس.. إلخ"^(٧).

(١) الجفتيات: مفردتها الجفتار وهو نوع من أنواع المتراس أو الحاجز المعيق لتقدم العدو أو الذي يستر وراءها الجنود الرماة أثناء القتال.

انظر ابن واصل: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٢٥٨.

(٢) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٥٨ / ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٤٩ / الأصفهاني: الفتح، ص ٢٣١.

في حين ذكر أبو الفداء أنهم عادوا بعد انتصارهم إلى مصر حيث انطلقوا من هناك.

أبو الفداء: المختصر، ج ٢، ص ٥٧.

(٣) الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٢٣٢.

(٤) البلاذري: المصدر المتقدم، ص ١٥٨.

(٥) أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ١٩.

(٦) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٥٨ / ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٤٩.

الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٢٣٠.

(٧) الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٢٣٢.

تحرير جبلة:

تم الاتفاق بين القاضي منصور وصلاح الدين على أن يسير القاضي إلى جبلة قبل وصول المسلمين إليها وبعد ترغيب وتخويف من قبل القاضي استنزلهم بالأمان وسلم الحصن يوم الخميس جمادى الأولى^(١)، بعدها تتابع وصول مقدمي جيش براء (النصيرية) وهو من أمنع الجبال وأشقها مسلحاً^(٢)، وكذلك سكان القدموس وبكسراثيل والجبال يعلنون استسلامهم لصلاح الدين سامعون مطيعون للسلطان، فسلموه حصن بكسراثيل (المشرف على طريق حماة إلى الساحل)، وبقي صلاح الدين أياماً معدودة في جبلة حتى الثالث والعشرين من الشهر^(٣)، ولم يترك المدينة إلا بعد أن قرر أحوالها وأكرم قاضياً الشجاع^(٤)، كما سلم ولاية جبلة إلى سابق الدين عثمان بن الداية صاحب قلعة شيزر^(٥)، وهنا يفرض السؤال التالي نفسه: لم لم يسلم صلاح الدين جبلة إلى القاضي منصور (أي يتركها بيده نيابة عن صلاح الدين) طالما أن هذا القاضي له فضل كبير في تحرير المدينة وعودتها إلى المسلمين...؟ أو هل ترك القاضي منصور في الحكم القضاء وجعلت جبلة تابعة لشيزر...؟

ففي الحقيقة لم تبين لنا المصادر تفسيراً واضحاً حول هذا الأمر أو عن الأسباب التي دعا بها السلطان فعل ذلك، لكن ثمة وجود احتمالات عدة تدعو إلى ذلك أولاً: إن هذا القاضي كان قاضياً للمسلمين في الماضي ومعظم أهل المنطقة من النصاري، فلم يكلفه إلا بما يختص به وضمن مهامه الأولى (إدارة شؤون المسلمين فقط).

ونذكر لنا ابن الأثير بأن قاضي جبلة كان مقرباً إلى يوهنن وهو على حد قوله سياسة غريبة على الفرنج في هذه الحقبة^(٦) وربما تكون هذه إحدى الأسباب أيضاً، وهناك احتمال آخر هو أن جرت العادة وحسب مذهب سكان

(١) ابن تغري: المصدر المتقدم، ص ٣٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٤٩.

(٣) ابن العيني: المصدر المتقدم، ص ٣٠٣.

(٤) ابن واصل: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٢٥٩.

(٥) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٤٩ / ابن شداد: الفوائد، ص ٢٩٣ وعن تحرير جبلة واللائقية. انظر إلى:

ابن واصل: التاريخ الصالح من خلال الموسوعة الشامية، ج ٢١، ص ٥٢٤.

(٦) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٢١٣.

المدينة تعيين القاضي أو الوالي، فإذا كان جل سكانها من المسلمين عين عليها صلاح الدين من يدير شؤونها الدينية، كما كان يعين عليها والياً أو قائداً عسكرياً يديرها بشكل عام^(١)، أما إذا لم يكن كذلك ولم يكن يسكن بها أحد من المسلمين فيكتفي بقائد واحد فقط يدير شؤونها بشكل كامل^(٢).

تحرير اللاذقية

غادر السلطان جبلة متوجهاً نحو الهدف الثاني من الخطة فأتى اللاذقية، وقضى ليلته بالقرب منها في جبل عاصم*^(٣)، فوصلها يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأولى الثالث عشر من تموز سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٩ م^(٤) وعندما دخل المسلمون المدينة كان الفرنج محاصرون بالقللاع الموجودة في الجبال لعجزهم عن حفظ المدينة وقاموا بحصار القلاع، فلما ذكر كل من ابن الأثير^(٥) وأبي شامة وابن شداد هذه القلاع محددين عددها بقلعتين عندما تحدثوا عن هذه المدينة بقولهم "وهي بليد مليح، خفيف على القلب غير متور وله مباء مشهورة، وله قلعتان متصلتان على تل مشرف على البلد .. إلخ"^(٦)، في حين ألفهما الأصفهاني وابن واصل بأنها ثلاث قلاع متلاصقات متناسقات تمتد على طول التل^(٧)، ينزل ... محدقاً بالبلد، وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على

أعداد الصليبيون احتلال مدينة جبلة وبقيت بأيديهم إلى أن تحررت نهائياً بعد تحرير طرابلس سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م على يد السلطان المملوكي قلاوون في النصف الثاني من القرن ١٣ م.

مقريري: السلوك، ج ١، قسم ٣، ص ٧٤٦-٧٤٧.

(١) الأصفهاني: الفتح، ص ٢٣٩.

لم أجد فيما بين يدي من المصادر على موقع هذا الجبل أو معرفة اسمه الحالي

(٢) العليمي: الأئس الجليل لتاريخ القدس والخليل، تحقيق محمود عودة الكعابنة، مؤسسة الكتاب الثقافية، ط ١، ص ١٩٩.

مج (١)، ص ٤٩٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٢٥٩ / ابن فضل الله العمري: المصدر المتقدم، ص ٩٤.

ابن تغري: المصدر المتقدم، ج ٦، ص ٣٦ / العليمي: المصدر نفسه، مجلد (١)، ص ٤٩٧.

البدر العيني: المصدر المتقدم، ص ٣٠٣.

(٥) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥١-٥٠.

(٦) أبو شامة: المصدر المتقدم، ص ٢٠ / ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٥٠ / ابن شداد: النواير، ص ٢٩٣.

(٧) الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٢٣٧.

ابن واصل: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٢٥٩.

القلعتين من جميع نواحيهما إلا من ناحية البلد واشتد القتل وعظم الزحف وارتفعت الأصوات وقوي الضجيج إلى آخر النهار وأخذ البلد دون القلعين وغنم الناس منه غنيمة عظيمة فقد كان بلد تجار ففرق بين الناس الليل وهجومه^(١) وبقيت الأسوار في صباح يوم الجمعة من الجهة الشمالية، فحفر نفقاً طوله ستون ذراعاً وعرضه أربعة أذرع^(٢) وفي الوقت نفسه اشتد الهجوم على السور وأصل القتال بين الطرفين "حتى صاروا يتحاذفون بالحجارة باليد"^(٣) وكان هذا من أطراف ما حدث في معركة هذه المدينة بعد أن نفذ السلاح عن الفرنجة وعرب معاً، حينها أدرك الفرنج أن لا طاقة لهم على الاستمرار في المجابهة، فطلب المحاصرون الأمان لأنفسهم في مساء اليوم نفسه الجمعة الخامس عشر من جمادى الأولى من العام نفسه^(٤) وطالبوا قاضي جبلة ليتفاوضوا فأتاهم القاضي كي يقرروا القواعد وشروط الأمان وبالفعل تم ما أراد وعاد العسكر إلى بيامهم، وفي صباح اليوم التالي (السبت) دخل القاضي منصور إليهم^(٥)، وتم اتفاق بينهم على "أنهم يطلقون بنفوسهم وذرائعهم ونسائهم وأموالهم خلا الغلال الذخائر وآلات السلاح والحرب وأطلق لهم دواب يركبونها إلى شأفتهم" وبالفعل تم تسليم القلاع بما فيها من عدة وذخيرة وخيل ودواب.. وغيرها^(٦) فمن يريد الإنصراف فلينصرف، أما من بقي دخل في عقد أهل الذمة^(٧)، ودفع هؤلاء

(١) ابن شداد: التواريخ ص ٨٩ - ٩٠ / أبو شامة: المصدر المتقدم ج ٤، ص ٢٠-٢١/ البدر العيني: المصدر المتقدم: ص ٣١٤.

(٢) الأصفهاني: الفتح، ص ٢٣٦.

(٣) ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٨٩ / ابن واصل: مفرج الكروب، ص ٢٦٠/ البدر العيني: المصدر نفسه، ص ٢٠٤/ قلجی: المرجع المتقدم، ص ٣٥٤.

(٤) الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٢٣٧/ العلمي: المصدر المتقدم، مجلد ١، ص ٤٧٩/ ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٨٩.

(٥) ابن واصل: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦٠/ ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٩٠.

(٦) ابن واصل: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦٠.

(٧) العلمي: المصدر نفسه، مجلد ١، ص ٤٩٧.

الجزية مفضلين البقاء خوفاً من تهديد مرغيتا وأسطوله لهم باعتراض مراكبهم وأسرهم^(١) أما القسم الآخر منهم غادر البلد متوجهاً نحو أنطاكية^(٢)، وتم رفع الأعلام الصلاحية الصفراء على سور المدينة الجميلة الحصينة وهذا ما ورد في كتاب كان قد وجهه صلاح الدين إلى أخيه صاحب اليمن سيف الدين طغتكين بن ثوب قائلاً فيه "وهذه اللاذقية مدينة واسعة وخطّة جامعة معاقلها لا ترام وأعلامها لا تستام وهي أحسن بلاد الساحل وأحصنها وأزيدها أعمالاً وضياعاً وزينها وما في البحر مثل مينائها ولا المراكب الواردة إليها مثل مرساها، وهي سنة كان يسكنها أهل الجحيم طالما مكثت بالكفر دار بؤس فغادرت بالإسلام دار

وصول الأسطول الصقلي إلى اللاذقية :

تواكب وصول الأسطول الصقلي في سفن كثيرة إبان وصول صلاح الدين إلى اللاذقية ليساعدوا الفرنجة هناك^(٣) فوقف الأسطول الصقلي بقيادة مرغيتا قبالتها مراقباً من بعيد ما ستؤول إليه الأوضاع وكله أمل بعدم تسليم المدينة للمسلمين^(٤) ولكنه عندما علم بتسليم الفرنج المدينة إلى صلاح الدين بهذه السرعة امتلاً غيظاً وحنقاً وهدد باعتراض كل من يخرج من المدينة منهم، وهذا ما جعل قسماً من هؤلاء الموجودين في اللاذقية يفضلون البقاء فيها ودفع الجزية للمسلمين على ألا يقعوا في قبضة هذا الأسطول^(٥) لم يأبه صلاح لما قاله مرغيتا وتهديداته واستخف بكلامه وأجابه مزديراً "إنهم إن خرجوا أذاقهم ما أذاق أصحابهم من القتل والأسر فصالب قائد الأسطول على وجهه ورجع إلى أصحابه على المركب"^(٦) وقد وردت تنمة الحديث عند أبي شامة ما يلي وركب

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٥٠.

(٢) الأصفهاني: المصدر المتقدم، ص ٢٣٧/ أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ٢٢.

(٣) ابن واصل: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٢٦٠.

(٤) ابن العديم: المصدر المتقدم، ص ٢١٣.

(٥) أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٤.

(٦) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥٠/ الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٢٣٩.

(٧) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥١.

بكربة ولم يغن خطابه عن خطبه^(١) وفشلت محاولة هذا القائد في إقناع صلاح الدين عن المضي في فتحه اللاذقية وسائر أملاك أنطاكية. كانت اللاذقية قبل فتحها من قبل المسلمين (من أحسن الأبنية وأكثرها زخرفاً مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه، فخرّب المسلمون كثيراً منها ونقلوا رءسها، وشعثوا كثيراً من بيعةها.. إلخ^(٢)) حتى إذا رآها اليوم من رءسها يكرها^(٣)، ويقال أن المؤرخ عماد الأصفهاني الذي كان يرافق جيش السلطان بكى لما شاهده من نهب للمدينة وتخریب لها^(٤) فكان لابد من إعادة اعمارها، ومن ميمها لذلك عهد السلطان صلاح الدين قبل أن يغادر المدينة إلى ابن أخيه (علي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب) بتلك المهمة^(٥)، أما ولايتها فقد أعطيت للمملوكه سنقر الخلاصي^(٦) "وقد عرف حسن سيرته وأحمد سلوكه" لكنه لم يعين فيها أحداً للولايات الدينية، إذ لم يكن يسكنها أحد من المسلمين فجل سكانها كانوا من النصاري^(٧)، وبعدما تم له ذلك "ركب السلطان، وطاف بالبلد، وقرر أمورها ثم رحل عنها"^(٨) لكنها لم تلبث أن عادت إلى أيدي الصليبيين حتى حررها سلطان المملوكي قلاوون سنة ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م ثم حرر طرابلس أي بعد عشر سنوات من استلامه^(٩)

- (١) أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ٢٥٠ / الأصفهاني: المصدر المتقدم، ص ٢٤٠.
 (٢) ابن الأثير: المصدر المتقدم، ج ١٠، ص ٥٠.
 (٣) أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٨٩.
 (٤) رزوق: المرجع المتقدم، ص ١٩٦.
 (٥) ابن واصل: المصدر المتقدم ج ٢، ص ٢٦١ / ابن شداد: النواتر، ص ٢٩٣ / ابن فضل الله العمري: المصدر المتقدم، ص ٩٤.
 (٦) الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٢٣٨.
 (٧) كان تقي الدين عظيم الهمة في تحصين القلاع والغرامة عليها كما فعل بقلعة حماة.
 انظر ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٢٩٣ / ابن فضل الله العمري: المصدر نفسه، ص ٩٤.
 (٨) الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٢٣٩.
 (٩) العليسي: المصدر المتقدم، مجلد ١، ص ٤٩٧.
 (٩) لم تلبث مدينة اللاذقية أن عادت إلى السيطرة الصليبية بعد تحريرها من قبل السلطان صلاح الدين وظلت كذلك حتى حررها السلطان المملوكي قلاوون سنة ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م ثم حررت طرابلس أي بعد عشر سنوات من استلامه.

سار صلاح الدين عن اللاذقية في السابع والعشرين من جمادى الأولى^(١) في حين ذكر ابن شداد في النوادر إن صلاح الدين تركها في يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من ذاك الشهر^(٢) قاصداً صهيون التي كانت تابعة للاستتارية، إذ كانت طريق إليها صعبة جداً^(٣) قطعوا تلك المسافة في يومين^(٤) فنزلها وهي قلعة صعبة شاهقة في الهواء صعبة المرتقى على قرنة جبل يطيف بها واد عميق فيه ضيق في بعض المواضع بحيث إن حجر المنجنيق يصل منه إلى الحصن الخ^(٥)، والقلعة ذات أسوار خمسة كأنها خمس هضاب..، وأحاط العسكر بها يوم الأربعاء في نواحيها الأربعة^(٦) أما جهتها الشمالية فملتصقة بجبل نزل عليه صلاح الدين وخيم به مصطحباً معه خيرة الرجال الكماء الحماة من الرجالة الحلبيين وهم من الشجاعة بالمنزلة المشهورة ودام رشق السهام من السي اليد والجرج والزنبورك والزيار^(٧) فخرج أكثر من بالحصن^(٨) ووصف أبو شامة إلى جانب هؤلاء أنه استصحب معه أيضاً الحدادين والحجارين النجارين فأظهر على صهيون اليد البيضاء^(٩) بل زاد عليهما الأصفهاني

- (١) ابن فضل الله العمري: المصدر المتقدم، ص ٩٥ / العلمي: المصدر المتقدم، ص ٤٩٧.
 (٢) ابن شداد: المصدر المتقدم، ص ٢٩٣ / أبو شامة: المصدر المتقدم، ص ٢٥ / الأصفهاني: المصدر المتقدم، ص ٢٤١ / العلمي: المصدر المتقدم، مجلد ١، ص ٤٩٧ / البدر العيني: المصدر المتقدم، ص ٣٠٦.
 (٣) ابن العبري: المصدر المتقدم، ص ٢١٣.
 (٤) أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٥.
 (٥) ابن الأثير: المصدر المتقدم، ج ١٠، ص ٥١.
 (٦) أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٧ / العلمي: المصدر نفسه، ص ٤٩٧.
 (٧) الجرج والعقار والزيار: أنواع من القسي الرامية للسهم، والزيار هو أكبر أنواع القسي وأضخمها، وقد وصفت في أحد المصادر على أنها أشدها رمياً وأعظمها حذقاً وأنكاهاً سهماً ويحتاج إيثارها إلى عدة من الرجال.
 الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٦٤ / ابن مماتي: المصدر المتقدم، ص ٤٥١.
 ابن واصل: المصدر المتقدم، ص ٢١٢ / أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٢٧.
 ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٥١ / الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٢٤٢.
 (٨) أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٥.
 (٩) أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٧.

بأنواع أخرى مثل المنجنيقية والجنادرية والخرسانية^(١) ونصب على القلعة المجانيق (هذه المجانيق التي حددها أبو شامة بستة مجانيق)^(٢) أما البقية فنصبها ابنه الملك الظاهر صاحب حلب، فنزل على المكان الضيق من الوادي في تلك الجهة حيث تم رميها من هناك^(٣) أشد القتال وتواتر الرشق بالسهم والنبال فخرج أكثر من في ذلك الحصن ومع ذلك تجلدوا وصابروا دون جدوى، وللمرة الثانية في ثاني جمادى الآخرة زحف المسلمون إليهم حتى ملكوه، أما بقية الأسوار الأخرى فملكوا منها ثلاثة وغنموا ما فيها من ذخائر وغلل وغير ذلك، ما القلعة المتبقية من الفرنج المحتمية بالقلعة^(٤) التي للقلعة قاتلهم فيها المسلمون إلى أن استسلموا طالبين الأمان^(٥)، وهنا ذكر ابن الأثير أن صلاح الدين لم يجبههم بأنهم قرروا على أنفسهم قطيعة كقطيعة أهل القدس^(٦) على حين ذكر المقدسي إليهم أومنوا على أن يسلموا أنفسهم وأموالهم ويؤخذ منهم قطيعة أهل القدس ومقدارها عشرة دنانير عن كل رجل وخمسة عن كل امرأة، أما الأطفال فدناهم على كل طفل ذكر أم أنثى^(٧)، فتسلم صلاح الدين الحصن وسلمه بدوره إلى صاحبه الأمير ناصر الدين منكورس ابن عمر تكين مملوك مجاهد الدين بن بوزان^(٨) صاحب قلعة أبي قبيس^(٩) وتحدث الأصفهاني في الفتح القسي عن هذا الرجل قائلاً: (أسد العرين وأمير المجاهدين المقدام الهمام والمطعان المطعام)^(١٠) ولم يزل مشكور السيرة مرضي الطريقة مقصداً وملاذاً لمن قصده من أهل

(١) الأصفهاني: الفتح، ص ٢٤٢.

(٢) أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ٢٥.

(٣) أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٧.

(٤) القلعة: أعلى القلعة قلة كل شيء (أعلاه) ورأس الإنسان قلته.

أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٢٥/الجوهري: الصحاح في اللغة، مجلد (٢)، ص ٣٣٧.

(٥) ابن الأثير: المصدر المتقدم، ص ٥٢/المقدسي: المصدر المتقدم، ص ١٨٩.

(٦) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥١/ابن شداد: النوادر، ص ٩١.

(٧) الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٤٣/ابن واصل: مفرج الكروب، ص ٢٦٣.

(٨) ابن العبري: المصدر المتقدم، ص ٢١٣.

(٩) ابن فضل الله العمري: المصدر المتقدم، ص ٩٥.

(١٠) الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٢٤٣.

الفضل والدين إلى أن توفي وهو مالك صهيون.. إلخ" (١) والمهم أن السلطان قد تسلم الحصن وسلمه بدوره إلى صاحبه الأمير ناصر الدين منكورس فتسلمه وحصنه وجعله من أحصن الحصون (٢).

حصن بلاطنس

لما ملك المسلمون صهيون تفرقت الجنود الإسلامية في تلك النواحي، وأقام السلطان بهذه الجهات، فملكوا خلالها عدة من الحصون التابعة لها والمرتبطة بصهيون (٣) ومنها حصن عظيم يدعى بلاطنس (٤) الذي تركه الفرنج خوفاً ورعباً (٥) أما الحصن الثاني فهو حصن يدعى العيذو أو العيد عند ابن واصل وابن شداد (٦) وعند العليمي العبد (٧) وحصن العيد وهو قلعة بضواحي حلب، أما الحصن الثالث المرتبط بصهيون فيدعى باسم حصن [الجماهريين] عند المقدسي في عيون الروضتين (٨) وقد ورد عند ابن شداد باسم الجماهونيين (٩)، وهو حصن قريب من جبلة في سواحل الشام، وجميع هذه الحصون حوت في ثالث جمادى الآخرة، وسلمت للسلطان (١٠) بينما خالف ذلك كل من ابن واصل في شامة (١١) قائلين أن قلعة العيد كان تحريرها يوم السبت ثالث جمادى الآخرة، وفي

ابن واصل: المصدر المتقدم، ص ٢٦٣.

(٢) ابن شداد: المصدر المتقدم، ص ٢٩٣.

ما توفي ناصر الدين منكورس، تولى بعده (صهيون) مظفر الدين عثمان وتلاه ابنه سيف الدين محمد إلى أن توفي سنة ٦٧١ هـ ١٢٧٢ م، كما ولى فيها السلطان الملك الظاهر ركن الدين نوابه، فكان مده ملك آل مارتكين لهما نحو سبع وثمانين سنة.

مظفر ابن واصل: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦٣.

(٤) ابن تغري: المصدر المتقدم، ج ٦، ص ٣٧.

(٥) المقريزي: السلوك، ص ٥٧٩ يعرف هذا الحصن اليوم باسم (قلعة المهيلبة) وللمزيد انظر الفصل المتعلق بقلع والحصون..

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٥٢.

(٧) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٤ / ابن شداد: النوادر، ص ٢٩٣.

(٨) العليمي: المصدر المتقدم، ص ٤٩٧.

(٩) أبو شامة: المصدر المتقدم، ص ٢٢ / ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٤.

(١٠) ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٢٩٣.

(١١) أبو شامة: المصدر نفسه، ص ١٩٠.

(١٢) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٤ / أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٢٨.

قائلين أن قلعة العيد كان تحريرها يوم السبت ثالث جمادى الآخرة، وفي يوم الأحد حررت القلعة الأخرى (الجماهريين) أما اليوم الثالث (الاثنين) فكان تحرير بلاطنس في الخامس من جمادى، وندب إلى كل حصن منها من يستلمه^(١) وجميعها مرتبطة وتتبع لقلعة صهيون^(٢) وبفتحها اطمأن على أمن اللاذقية وزداد أمل المسلمين في تحريرهم لأنطاكية كما قال أبو شامة: "فإنه قفل محكم على بابها وسبب قوي من أسبابها..... إلخ"^(٣)، وبذلك اتسعت المملكة الإسلامية بهذا التحرير لكن الطريق إليها على اختلافها صعبة الاجتياز سواء كانت الطريق السهلة التي لم تكن سالكة لأن بعضها مسيطر عليه من قبل الإسماعيلية، وبعضها الآخر تحت سيطرة الفرنج، أما الطريق الواقعة على عقبة كسر ائيل فكانت شاقة للغاية^(٤)

قلعة بكاس والشجر^(٥):

تابع المسلمون السير إلى أن وصلوا إلى قرية تدعى - سمت القرشية - شواحل حمص وهي آخر أعمالها^(٦)، ثم نزلوا إلى قلعة بكاس وهي قلعة مرتفعة حصينة في نواحي حلب على جبل مطل على نهر العاصي. لها نهر (العاصي) من تحتها^(٧) فنزلها السلطان على ذلك الجانب يوم الثلاثاء سادس

(١) ابن واصل: المصدر المتقدم، ص ٢٦٤ / أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ٢٨.

الأصفهاني: الفتح، ص ٢٤٤.

(٢) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٤ / أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٦.

(٣) أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٨ - ٢٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٥١ - ٥٢.

(٥) الشجر وبكاس: قلعتان قريبتان من بعضهما البعض يعبر من إحدهما إلى الأخرى بجسر وحيد لذلك يقترن أسمائهما ببعضهما.

ابن تغري: المصدر المتقدم، ص ٣٧.

(٦) أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٢٩ / ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٤.

ابن تغري: المصدر نفسه، ص ٣٧ / ابن شداد: النوادر، ص ٩١.

أبو الفداء: تقويم، ص ٣٤١ / البدر العيني: المصدر المتقدم، ص ٣٠٧.

(٧) الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٢٤٢ / البدر العيني: المصدر نفسه، ص ٣٠٧.

جمادى الآخرة^(١) في حين نجد أن ابن تغري في النجوم الزاهرة ذكر ذلك قائلاً: إنه كان في السادس عشر من جمادى الآخرة^(٢) صعد إلى قلعتها وأحاط المسلمون بها من جميع الجهات فقاتلها قتالاً شديداً. إلى أن سلمت في التاسع من جمادى الآخرة من يوم الجمعة بعد أن أسروا وغنموا جميع ما كان بها^(٣) في حين خالف هذا الرأي ابن الأثير وأبو شامة وابن شداد قائلين بأن السلطان امتلك قلعة بكاس دون قتال لأن الفرنج تركوها خوفاً من المسلمين وتحصنوا بالشجر^(٤) أفغارها متوجهاً نحو قلعة الشجر والشجر على الطريق السهل المسلك إلى اللاذقية وجبله والبلاد التي افتتحها صلاح الدين من بلاد الشام الإسلامية^(٥) والتي كان على مقربة منها وقبالتها قلعة حصينة منيعة تابعة لها^(٦)، والآخرة ليس لها طريق سوى جسر يوصل إليها^(٧) توجه إليها صلاح الدين واستطاع بعد قتال شديد وضرب بالمنجنيقات من جوانبها الأربع إرغامهم إلى طلب الأمان: كان ذلك يوم الثلاثاء ثالث عشر من ذلك الشهر حينما ينسوا من وصول نجدة لهم، وهنا طلبوا من السلطان أن يؤخرهم ثلاثة أيام كي يستأنفوا من بأنطاكية لأجابهم السلطان لذلك^(٨)، فلم ينجدهم أحد خلال هذه المدة^(٩) في حين نجد أن ابن الأثير لم يذكر سوى منجنيق واحد نصب هناك، وأن ضرباته لم تستطع الوصول إلى القلعة نفسها سوى القليل النذير منها. والذي لا يؤدي أحداً فيها^(١٠) وعلل ابن الأثير سبب استمعالهم هو ارسالهم في طلب صاحبها بوهمند يستمدونه قوة

(١) ابن تغري: المصدر المتقدم، ص ٣٧.

(٢) الأصفهاني: الفتح، ص ٢٤٥ / ابن شداد: النوادر، ص ٩١.

(٣) أبو شامة: المصدر المتقدم، ص ٣٠ / ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٥٢ / ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٩١.

(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٥) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٦) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥٢ / ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٦١ / ابن واصل: المصدر المتقدم، ص ٢٦٤.

(٧) الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٢٤٥ / ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٤.

ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٨) ابن شداد: المصدر نفسه، ج ٩١ / أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٢٠٩ / ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٩٤.

(٩) أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٢٠٩.

(١٠) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥٢ / أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٣٠.

ومساعدة "لأنهم محصنون فلم يمدهم" خاصة وأن القلعة تابعة له، فلم يفعل شيئاً خلال هذه المدة المحددة، وفرح المسلمون "وأصبحوا يوم الجمعة والشجر شاغر والكفر صاغر، فتسلمها المسلمون وتصرفوا فيها وفيما تحويه من ذخائر وعدد ودواب وأنعام وأنعم السلطان بها وبقلعة بكاس"^(١) وسلمت القلعة أخيراً إلى صلاح الدين فتسلمها ثم سلمها بدوره إلى الأمير قلعج وكان أميراً جليل القدر ورد اسمه عند أبي شامة بغرس الدين قلعج وعند ابن واصل كذلك^(٢)، ورفع العلم السلطاني على سورها يوم الجمعة سادس عشر الشهر بعدها عاد السلطان إلى مخيمه يوم السبت^(٣)

سرمينية^(٤) (سرمية)

وبينما كان صلاح الدين مشغولاً بفتح قلعة الشجر وغيرها، كان ابنه الظاهر غازي يحاصر قلعة سرمينية^(٥) سرمانية عند ابن واصل^(٦)، وهي بلدة خصبة شهيرة من أعمال حلب في الغرب منها غير مسورة وبها أسواق ومسجد جامع^(٧) "فحصرها وضيق على أهلها إلى أن استزلهم وقرر عليهم قطعة قبضها وبعد أن تم له ذلك أخرجهم منها هدمها وسواها إلى الأرض"^(٨) وصادف تسليمها له يوم الجمعة في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، ويتفق

(١) أبو شامة: المصدر المتقدم، ص ٣٠ - ٣١.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ص ٢٦٥.

غرس الدين قلعج سلم صلاح الدين الشجر وبكاس له وذلك تطراً لأعماله الناهمة ولأن سكانه من الأرمن لذلك ولاه تلك الحصون الغربية.

(٣) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٤/ أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٩٢٩/ الأصفهاني: الفتح، ص ٢٤٧.

(٤) سرمين: بلدة من أعمال حلب وأهلها من الشيعة ولما ملكها الفرنج تفرق أهلها وتوجه القاضي إلى ابن ملأعب وأقام عنده فأكرمه وأحبه ووثق به فأعمل الحيلة إليها وأخذها منه.

للمزيد انظر الحموي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ٥٢٤/ البدر العيني: المصدر المتقدم من خلال الموسوعة، ج ٢٤ ص ٢٤.

(٥) ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٥٣/ ابن شداد: النوادر، ص ٩٢.

(٦) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٤.

(٧) القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ١٣٠.

(٨) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٤/ ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٢٩٤.

المؤرخون على أن تحرير هذه المدن والحصون من جبلة إلى سرمينية ست مدن وقلاع حررت في ست جمع متوالية، وهذا وإن دل على شيء فإنما هو إشارة على قبول دعاء خطباء المسلمين وسعادة السلطان، وهذا من نواذر الفتوحات التي حدثت في جمع متتالية^(١) وخلال مدة زمنية تقل عن الشهرين^(٢).

وقال أبو شامة "وهذه ست مدن وقلاع فتحت في جمع تباع جبلة واللاذقية وضيون وبكاس والشعر وسمرانية وأطلق بها الأنفس والنفائس العانية"^(٣)

لقد كان في هذه الحصون والقلاع الكثير الكثير من أساري المسلمين بتحريرها تم تحريرهم جميعاً وأعطوا الكسوة والنفقة جميعهم^(٤)، في حين نجد الأصفهاني أقر بأنها خمس مدن فقط فتحت في أيام الجمع الخمسة المتوالية على هذا بات الأمل كبير بفتح ما بقي وخصوصاً أنطاكية^(٥) ويبدو أن جبلة اللاذقية كانتا تعدان عينا أنطاكية وبتحريرهما فقت هاتين العينين ، ولم يبق لهما من الحصون سوى ثلاثة هي (القصور وبغراس ودريساك)^(٦) أما سرمينية فقد فتحها صلاح الدين وسلمها لابنه الملك الظاهر^(٧)

برزية

وسير السلطان جريدة إلى قلعة برزية، وهي قلعة صغيرة مستطيلة الشكل لها منعة في ذيل الجبل المعروف بالخيظ من شرقيه وبرزية من جهة الشرق عن الفتها صهيون وبينهما مرحلة^(٨) "وهي أحسن القلاع وأفرعها وأحسن التلاع

(١) أبو شامة: المصدر المتقدم، ص ١٩٠/ ابن واصل: المصدر المتقدم، ص ٢٦٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٥٣/ ابن شداد: المصدر المتقدم، ص ٩٢/ البدر العيني: المصدر المتقدم، ص ٣٠٨.

(٣) عطية: المرجع المتقدم، ص ٢١٥.

(٤) أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٣١.

(٥) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥٣/ أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٣١.

ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٥/ ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٢٩٤.

(٦) الأصفهاني: الفتح ، ص ٢٤٧.

(٧) ابن الأثير: المصدر نفسه ، ص ٥٣/ أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٣١.

(٨) عطية: المرجع نفسه، ص ٢١٥.

(٩) أبو الفداء: تقويم، ص ٣٤١.

وأرفعها .. إلخ^(١) على قمة جبل شاهق يضرب به المثل في جميع بلاد الفرنج والمسلمين بالحصانة يحيط به أودية من سائر جوانبه^(٢) وهي تقابل حصن أفامية (أباميا) وتتألفها في أعمالها على ارتفاع خمسمئة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً وبين هذين الحصنين بحيرة (وهي بحيرة أفامية)^(٣) من ماء العاصي فثيرون تنفجر من الجبل، وقد كانت هذه القلعة حصينة منيعة لا يمكن مقاتلتها من جهة الشمال والجنوب البتة^(٤) إذا لا يمكن أن يصعد على جبالها من هاتين الشجبهتين فلما رآها السلطان قرر أخذها ، فنزل تحت جبل الحصن ذاك وأرسل مقاتليه يوم الأحد الخامس والعشرين من الشهر لينصبوا المنجنيقات عليها من جهة الغرب ثم ضربها بشكل متوال ليلاً نهاراً^(٥) بيد أنها لم تؤت بنتيجة تذكر عندها أمر السلطان بالزحف عليها يوم الثلاثاء من الشهر نفسه مقسماً عساكره إلى ثلاثة أقسام يتناوبون القتال^(٦) ورتب مرور كل قسم يقاتل بدوره الذي أوكل إليه يقاتل شطراً من النهار ثم يستريح ويسلم القتال للقسم الآخر وهكذا بحيث لا يفتقر القتال عند المسلمين ويبقوا محافظين على تلك القوة، وبالمقابل فإن القتال يستمر يتعب الفرنجة وبالتالي سيؤدي بهم إلى الاستسلام^(٧)، فكانت النوبة الأولى لصاحب سنجار [عماد الدين زنكي بن مودور] فقاتلها قتالاً شديداً حتى

- (١) الأصفهاني: الفتح، ص ٢٤٨/ ابن حوقل: المصدر المتقدم، ص ١٦٤.
 (٢) ابن كثير: المصدر المتقدم، ج ١ و ١٢، ص ٢٩١/ ابن شداد: النوادر، ص ٩٢.
 (٣) ابن واصل: المصدر المتقدم، ص ٢٦٥/ البدر العيني: المصدر المتقدم، ص ٣٠٩.
 (٤) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٧/ ابن تغري: المصدر المتقدم، ص ٣٨.
 (٥) ابن الأثير: المصدر المتقدم، ص ٥٤.
 (٦) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٦.
 (٧) ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٢٩٤/ ابن كثير: المصدر نفسه، ص ٢٩٢/ العلمي: المصدر المتقدم، مجلد (١)، ص ٤٩٨.
 عاشور: الحركة، ج ٢، ص ٦٥١ وما بعدها.
 (٨) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥٤/ العلمي: المصدر نفسه، المجلد (١)، ص ٤٩٨/ ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٩٢.
 من الملفت للانتباه التكتيك الذكي الذي اتبعه صلاح الدين في قتاله المتواصل للعدو فهو سلاح ذو حدين الأول أراد به منغمة جيشه لئلا يتعبه من جراء القتال وبالتالي هذا ينعكس سلباً على الخصم ويؤدي إلى انهائه من جراء القتال المتواصل.

استوفى نوبته^(١) أما النوبة الثانية فقادها صلاح الدين بنفسه^(٢) ومعه خاصته^(٣) وصاح في الناس الذين اشتد الكرب عليهم بسبب الحر الشديد وقتها^(٤) واستمر السلطان بالتجوال على جنوده وابن أخيه الملك المظفر يشجعهم على القتال يرفع من معنوياتهم القتالية فقاتلوا حتى الظهر إلى أن خيم التعب عليهم، فردهم بجماق* يحمله في يده حينما رآهم يترجعون وصاح في النوبة الثالثة الذين ينتظرون دورهم ليساعدوهم فلبوا النداء على وجه السرعة، كما انضم إليهم أصحاب النوبة الأولى التي كانت قد استراحت^(٥) فلم يكن إلا بضع ساعة حتى وصل الناس إلى داخل السور والتفت الجموع هنا فحملوا حملة رجل واحد، فصاحوا صيحة واحدة في الهجوم على القلعة، وكان الفرنج يضعون الأسارى المسلمين المكبلين بقيودهم في سطح القلعة التي للقلعة، فلما سمع هؤلاء الأسرى أصوات حوائهم من المسلمين وتكبيرهم في نواحي الحصن كبروا معهم وتعالن الأصوات لدرجة ظنت الفرنج بوصول المسلمين إلى أعلى القلعة، وأنهم خاسرين لا محالة فألقوا بأيديهم إلى الأسر وملك المسلمون القلعة عنوة يوم الثلاثاء في السابع والعشرين من جمادى الآخرة بعد أن نقبوا وأسروا وسبوا كل ما فيها^(٦) كما ألقى المسلمون النار في بيوتها أحرقوها^(٧)، وأنعم السلطان بولاية الحصن للأمير عز الدين* بن إبراهيم ابن الأمير شمس

(١) ابن واصل: المصدر المتقدم، ص ٢٦٦ / ابن الأثير: المصدر المتقدم، ص ٥٤ / أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ٣٠.

(٢) الأصفهاني: المصدر المتقدم، ص ٢٥٠.

(٣) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٦ / أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٩.

(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٥٥ / أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٤.

* جماق أو جوماق نوع من السلاح يشبه القضيب أو الدبوس انظر هامش:

ابن واصل: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦٦.

(٥) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٦.

(٦) ابن شداد: النوادر، ص ٢٩٤ / أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٤.

(٧) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥٥.

عز الدين بن المقدم هو إبراهيم بن محمد بن عبد الله الملك بن المقدم صاحب منبج قلعة نجم وأقامية وكفرطاب، توفي سنة ٥٩٧هـ وخلفه أخوه شمس الدين بن عبد الملك بن المقدم

أبو الفداء: المصدر المتقدم، ج ٣، ص ١٣٢٥

الدين بن المقدم (صاحب حصن أفامية^(١) السالف^(٢)) ولما كانت زوجة البرنس صاحب أنطاكية [دام سيبيل]^(٣) أو سبيلاً خلية بوهمند على علاقة وطيدة مع صلاح الدين "وتهادي السلطان، وتناصحته وتطالعه على أسرار الفرنج، وكان السلطان يكرمها لذلك ويهدي إليها أنفس الهدايا"^(٤) من أجل ذلك ومن أجل مودتهاله أرسل في طلب أختها التي سبيت أثناء القتال^(٥) وكان معها زوجها وابن لهما وصهرهما مع جماعة من أصحابهما^(٦)، فأنعم السلطان عليهم بمالهم وأرسلهم إلى أنطاكية بناء على طلبهم^(٧) في حين ذكر ابن الأثير أن صاحب برزية وعائلته تفرقتهم العساكر الإسلامية، فأرسل السلطان في طلبهم والبحث عنهم فاشترأهم ولما اقترب من أنطاكية سيرهم إليها^(٨) فشكرته على ذلك ودامت على تلك المحبة والنفع للسلطان وللمسلمين^(٩)

(١) أفامية: نعد من الثغور الشامية وهي حصينة وكورة من كور حمص.

(٢) الحموي: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٢٦٩.

(٣) الأصفهاني: المصدر المتقدم، ج ٢٥٢/ ابن واصل: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٢٦٧.

(٤) أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ٣٥.

(٥) ابن واصل: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦٧/ أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٣٥.

(٦) الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٢٥١.

(٧) الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٢٥٢.

(٨) بلغ عددهم عند ابن شداد حوالي سبعة عشر نفياً من أهله أنظر حول ذلك.

(٩) ابن شداد: النوادر، ص ٩٣.

(١٠) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٧/ أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٣٥/ العلمي: المصدر المتقدم مجلد (١)، ص ٤٩٨.

(١١) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٥٦.

(١٢) أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٥.

ذكرت معظم المصادر بأن سيبيل كانت لها صلات وطيدة مع صلاح الدين فمضت في طريقها تتصل سراً بالسلطان وتطلعه على مواطن الضعف عند الصليبيين وبفضل معونتها استطاع صلاح الدين الاستيلاء على قلعة برزية وربما كان انطلاق سراح صاحب برزية وزوجته ثمناً لذلك التعاون لذلك لم يكن صلاح الدين بحاجة لاستمالة بوهمند وهو الذي اقترب من فتح أنطاكية نفسها

انظر ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥٥٥ / ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٩٤/ أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٤

جسر دريساك:

ورجل السلطان في اليوم التالي لفتح برزية^(١) متوجهاً إلى جسر الحديد^(٢) الذي يقع على العاصي بالقرب من أنطاكية، وأقام عليها أياماً^(٣) بلغت ثلاثة أيام عند ابن واصل^(٤) وسار إلى قلعة دريساك يوم الجمعة ثامن رجب من هذه السنة^(٥) فنصب عليها المنجنيقات وضيق عليها مضايقة شديدة فلم يبال من فيها لك ثم زحف الجنود إليها وكشفوا عن سورها ونقبوا برجاً منها حتى سقط^(٦) فعملوا على حمايته بالرجال والمقاتلة^(٧) وباكر المسلمون زحفهم في غد اليوم التالي^(٨) وفي تلك الأثناء استجد أهالي القلعة الفرنج بصاحب أنطاكية [بوهمند] فنجدهم فطال انتظارهم دون جدوى. ولم يأتهم بمساعدة قط، عندها طلبوا الأمان خوفاً من هجوم المسلمين عليهم وأخذهم بالسيف وقتلهم ونهب أموالهم^(٩)، فأمنهم صلاح الدين بشرط أن لا يخرج منهم أحد إلا بثيابه فقط بغير مال ولا سلاح ولا

(١) ابن الأثير: المصدر المتقدم، ج ١٠، ص ٥٦.

(٢) جسر الحديد: يقع هذا المكان عند شقيف دركوش شرقي العاصي وهو جسر حديد الجسارة.

انظر حول ذلك الأصفهاني: الفتح، ص ١١٧.

أما النويري: فقال: (وهو على العاصي قريب من أنطاكية)

النويري: المصدر المتقدم، ج ٢٨، ص ٤٩.

(٣) ابن شداد: النوادر، ص ٢٩٤ / ابن واصل: المصدر المتقدم، ص ٢٦٧ / أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ٣٨.

(٤) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٧.

(٥) أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٣٨-٣٩ / ابن واصل: المصدر نفسه، ج ٢٦٧.

ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢١٦.

(٦) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥٦ / أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٣٨ / الأصفهاني: المصدر المتقدم، ص ٢٥٦.

(٧) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٨.

(٨) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥٦.

(٩) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥٦-٥٧.

أثاث ... إلخ^(١)، وأمهاتهم ثلاثة أيام ليراجعوا أهل أنطاكية^(٢) ثم أخرجهم وسيرهم إلى أنطاكية بعد أن ردوا ما كان للإسلام معهم من ودبة^(٣) فلما خرجوا منها تسلم الحصن يوم الجمعة لثمان بقين من رجب^(٤) في حين ذكر العلّيمي أنه كان في الثاني عشر من الشهر^(٥) بينما خالف الأصفهاني المتقدمين في رأيهم من أن تسلم الحصن بما فيه كان في الثاني والعشرين من شهر رجب ووافقهم على ذلك ابن شداد^(٦) ورفعت الأعلام السلطانية وسلم صلاح الدين دريساك لعلم الدين سليمان بن جندر^(٧) مغادراً لها صباح السبت الثالث والعشرين من رجب^(٨)

تحرير بغراس/ بغراس

توجه السلطان بكرة السبّ نحو قلعة بغراس التي كانت بيد الداوية^(٩) وهي قلعة منيعة أقرب لأنطاكية من دريساك تبعد عنها حوالي اثني عشر ميلاً^(١٠) لها عين وواد وبساتين وهي على طريق الثغور في الجبل المطل على عمق حارم كان فيه منبر ودار ضيافة لزبيدة، ولم يكن للمسلمين بالشام دارضيافة غيرها^(١١) توجه صلاح الدين إليها صباح يوم السبت فحاصرها بعد أن اختلف

(١) ابن الأثير: المصدر المتقدم، ص ٥٧.

(٢) ابن واصل: المصدر المتقدم، ص ٢٦٨/ أبو شامة: المصدر المتقدم، ص ٣٨/ الأصفهاني: المصدر المتقدم، ص ٢٥٦.

(٣) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٨.

(٤) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٨.

(٥) العلّيمي: المصدر المتقدم، المجلد (١)، ص ٤٩٨.

(٦) ابن شداد: النوادر، ص ٩٣.

(٧) سليمان بن جندر كان صاحب عزاز ومن أكابر أمراء حلب شهد مع صلاح الدين حروبه كلها وهو الذي أشار بخراب عسقلان لما فيه مصلحة للمسلمين وتوفي في سنة ٥٨٨ هـ - ١١٩٢ م.

البدر العيني: المصدر المتقدم، ص ٣١٠.

(٨) أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٣٩.

(٩) ابن العبري: المصدر المتقدم، ص ٢١٣.

ملاحظة: ذكر ابن شداد بأن ابن الأثير كان مرافقاً للسلطان في فتوحاته هذه فهو شاهد عيان لتلك الأحداث.

انظر ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٢٩٤.

(١٠) ابن تغري: المصدر المتقدم، ص ٣٨/ أبو الفداء: التقويم، ص ٣٥٩/ الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٢٥٧.

(١١) أبو الفداء: المصدر نفسه، ص ٣٥٩/ ابن حوقل: المصدر المتقدم، ص ١٦٩.

مع أصحابه في حصارها، فمنهم من أشار عليه بذلك ومنهم من نهاه عنها^(١) "وكان للدأوية جار ضباعها وغاب سباعها"^(٢).. خيم المسلمون قريبا في المرج وتقدم من المعسكر جمع كثير وجم غفير^(٣) فصعد المسلمون جريدة إلى الجبل ونصب المجانيق على قلعتها من جميع الجهات ونقل إليها أحواض الماء^(٤)، لكي يحفظ جانب أنطاكية أرسل مجموعة من الجنود لحفظها "مع إنا احتجنا إلى طررك من تلك المنزلة يحفظ جانب أنطاكية لئلا يخرج من يهاجم العسكر فنضرب برك^(٥) الإسلام على باب أنطاكية بحيث لا يشذ من يخرج منها"^(٦) ويبدو أن ابن شداد كان ضمن المجموعة التي أرسلت لحماية ذاك الطرف هذا ما صرح به أبو شامة نقلاً عن قول القاضي ابن شداد : "وأنا ممن كان في البرك في بعض الأيام لرؤية البلد وزيارة قبر حبيب النجار المدفون فيها"^(٧)، وتناقلت الضربات عليها وقوتت مقاتلة شديدة فلم يؤثر عليها شيء من ذلك لحصانتها ولعلوها، يشق على المسلمين قلة الماء عنهم^(٨)، فيئسوا من فتحها وظنوا أنها صعبة المنال، وبينما هم على هذه الحالة وإذا بباب الحصن يفتح ليخرج منه مقدم الدأوية يستأذنهم في الحضور لطلب الأمان فأجيب إلى ذلك، وسلمت القلعة بالأمان كحكم سألقتها دريساك^(٩) في حين لم يحدد لنا كل من ابن واصل وأبي شامة ماهيه الرجل الذي خرج من هذا الحصن سوى أنه خرج أخذاً الأمان لأهله ثم سلم الحصن بما فيه من الأموال التي قدرت قيمتها حوالي اثني عشر ألف

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٥٧/ ابن واصل: مغرر الكروب، ص ٢٦٨.

(٢) الأصفهاني: الفتح، ص ٢٥٧/ أبو شامة: المصدر المتقدم، ص ٤١.

(٣) الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٢٥٨.

(٤) أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٤١/ ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٧.

(٥) البرك: كلمة فارسية تعني الطليعة كما وردت بأنها عبارة عن جماعات تغير على أخرى من أجل السلب والنهب وهناك أمثلة كثيرة لاستعمال هذا اللفظ

حاثية ابن كثير: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ٣٠٤/ المقرئ: السلوك، ج ١، ص ٣٠٤.

(٦) ابن شداد: النوادر، ص ٩٥.

(٧) أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٤١.

(٨) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٨.

(٩) أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٢٩٤/ الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٢٥٨/ ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٢٩٤.

غرارة^(١) تسلّم السلطان هذا الحصن بما فيه^(٢) وسلمه بدوره إلى علم الدين سليمان بن جندر^(٣) ورفرف العلم السلطاني عليها في ثاني شعبان من شهور تلك السنة أي ٥٨٤هـ/ ١١٩٨م^(٤) ثم أمر السلطان بتخريب الحصن، وكان ذلك عظيماً على المسلمين لأن ليون صاحب الأرمن في الجوار أتى الحصن بعد فتحه من قبل المسلمين، فجرد عمارته ورممه وترك فيه جماعة من عسكره يغيرون منه على البلاد^(٥)، وبقي بأيدي هؤلاء بعد أن كانوا (دريساك وبغراس) بمثابة "جناحين ولطاغية الكفر سلاحين" بالنسبة لأنطاكية^(٦) يحميانها من جهة الشمال وبإتمام فتح هذين الحصنين تم للسلطان ما أراد "حتى خلص ذلك الإقليم وتم الفتح العظيم وعادت الكنائس مساجد والبيع معابد والصوامع جوامع والمذابح لعبدة الصليبان مصارع"^(٧).

فلماذا لم يتابع السلطان فتحه لأنطاكية والسبيل أمامه مفتوح؟ ولماذا وافق على الهدنة مع صاحبها؟ هل كان لهدف في نفسه أم نزولاً عند رغبة جنوده ...؟؟ أو لأنه حسب حساب بيزنطة كون أنطاكية تحت حمايتها (فهم يعدونها بصفة خاصة إمارة تابعة لهم ..) أم إنهم وضعوا في اعتبارهم الخطر البيزنطي عندما كان يتعامل ضد الفرنجة عامة وإمارة أنطاكية خاصة .. أم لكل تلك الأسباب جميعاً؟ هذا ما ستبينه الأحداث اللاحقة ...

(١) أبو شامة: المصدر المتقدم، ص ٤٢/ ابن واصل: المصدر المتقدم، ص ٢٦٨.

العليمي: المصدر المتقدم، مجلد (١)، ص ٤٩٨.

(٢) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٩.

(٣) الأصفهاني: المصدر المتقدم، ص ٢٥٨ - ٢٥٩/ ابن تغري: المصدر المتقدم، ص ٣٨.

أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٤٢/ البدر العيني: المصدر المتقدم، ج ٢٤، ص ٣١١.

(٤) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٩/ ابن الأثير: المصدر المتقدم، ص ٥٨/ ابن شداد: المصدر المتقدم، ص ٢٩٤.

(٥) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥٨/ ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٩.

(٦) أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٤٢/ ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٩.

(٧) أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٤٢/ ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٦٩.

الهدنة بين صلاح الدين وبوهمند صاحب أنطاكية؟

كان السلطان عازماً على متابعة مراحل التحرير، وزخمت همته العالية على فتح أنطاكية لأنه أخذ جميع ما حولها من القرى والمدن، وأصبحت تلك البلاد جميعاً للعرب ولم يبق غيرها في الميدان لكن الهمم قد فترت والجنود ملت بل يئس الكثيرون منهم لا سيما الغرباء إلى بلادهم طالبين الراحة والسلامة هذا ما تكاد به الأصفهاني قائلاً "لكن العسكر الغريب مل الإقامة وأبدى السامة وأراد سلم والسلامة"^(١) أضف إلى ذلك أمور أخرى منها نقص الزاد والمؤن .. "خ"^(٢) وكنتيجة لما آلت إليه الأوضاع لاسيما في إمارة أنطاكية، وبعد كل جهد المبذول كان لابد من هدنة بين الطرفين التمسها بوهمند من صلاح الدين بسبب خوفه الشديد على الإمارة، فقد باتت جميع الطرق والسبل أمامه مسدودة علم أنه إن قصد غلب"^(٣) وأشرف على الهلاك خصوصاً وأن الأوضاع في أنطاكية لم تكن على ما يرام قد أسفر عنها غلاء سعر الغلة وقل ساكنوها لما بانوا فيه من القلة والغرارة"^(٤) تساوي اثني عشر ديناراً والقوم قد شاربوا فيها بباراً، وبواراً" وأمام هذه الظروف السيئة لكلا الطرفين التمس بوهمند أمير أنطاكية عقد هذه الهدنة، لذلك أرسل رسولا إلى صلاح الدين قيل بأنه قريب صلاح (أخو زوجته)^(٥) يطلب الهدنة ويعترف لصلاح الدين بكل فتوحاته مع عده بإطلاق كل أسير مسلم عنده، فاستشار صلاح الدين أصحابه في ذلك. فأجابه لأكثرية واصطلحوا ثمانية أشهر للهدنة بدءاً من شهر تشرين الأول وانتهاء بنهاية شهر أيار"^(٦) أو أن حصاد الغلة فيستريح الجنود حينها ثم يعودون إلى ما

(١) الأصفهاني: الفتح، ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٢) ابن العبري: المصدر المتقدم، ص ٢١٤/ ابن شداد: النوادر، ص ٩٤.

(٣) أبو شامة: المصدر المتقدم، ص ٤٣/ الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٢٦٠.

(٤) الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٢٦٠.

(٥) أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٤٣/ البدر العيني: المصدر المتقدم، ص ٣١١.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٥٨/ أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٤٣.

كانوا عليه^(١) ولكن أبا شامة وابن تغري نقلاً عن قول القاضي ابن شداد وابن كثير ذكرا أن مدة الهدنة سبعة أشهر فقط فإن لم يأتهم خلال هذه المدة من ينصرهم سلموا البلد بما فيه للسلطان صلاح الدين^(٢) وبالفعل أرسل صلاح الدين شمس الدولة إلى أنطاكية حتى يسترجع الأسرى المسلمين من هناك، وقيل بأنهم كانوا ألف أسير^(٣) وكان صاحبها آنذاك من أعظم ملوك الفرنج شأنًا^(٤) وأكثرهم ملكاً لأن الفرنج كانوا قد سلموا إليه طرابلس^(٥) وجميع أعمالها^(٦) بعد موت القمص^(٧) ريموند الثالث - صاحبها السالف، ولم يبق في أيدي الصليبيين سوى أنطاكية وطرابلس وميناء السويدية وكانوا بيد بوهمند بينما احتفظت الاسبتارية بحصن المرقب وقلعة الحصن، أما الداوية فاحتفظت بطرطوس. وبعدما فرغ صلاح الدين من أمر تلك البلاد والهدنة غادرها بعد أن أعطى عماد الدين دستوراً كما أعطى غيره من العساكر دساتيرهم^(٨) أي الإذن لهم بالعودة إلى ديارهم، ثم توجه إلى حلب تلبية لدعوة ولده الملك الظاهر في الثالث من شعبان من ذلك العام^(٩)، أما عند ابن تغري فذكر أنه وصلها في الحادي عشر من شهر

(١) أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ١٩٣/ ابن شداد: الفوائد، ص ٢٥٨.

(٢) أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٤/ ابن تغري: المصدر المتقدم، ص ٣٨.

(٣) ابن واصل: المصدر المتقدم، ص ٢٧٥/ الأصفهاني: البستان، ص ٣٢٠/ أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٤٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٥٩.

(٥) ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٢٩٤.

(٦) ابن الأثير: المصدر نفسه، ج ٥٨/ العيني: المصدر نفسه، ج ٢٤، ص ٣١.

(٧) القمص أو القومص: تعريب حرفي للفظة لاتينية GOMES أي الأمير ومعناها الأصلي الرفيق لأنه في الأصل كان يرافق الملك في حروبه وحركاته ثم سمي الأمير لكن نجد اختلاف بالمعنى عندما ذكر البدر العيني في كتابه أن البرنس تولى طرابلس بعد موت القمص وهنا كأنه يقصد اسم شخص وليس رتبة أو منزلة.

أبو شامة: المصدر نفسه، ص ١٣٧/ البدر العيني: المصدر المتقدم، ص ٣١١.

• ملاحظة: بقيت أنطاكية بأيدي الصليبيين حتى حررها السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٦٦ هـ/١٢٢٨م

ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ٢٢٠/ ابن بطوطة: المصدر المتقدم، ص ٢٨٤.

(٨) ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٢٩٤.

(٩) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٧٠.

شعبان^(١)، فبقي بقلعتها ثلاثة أيام بين أهله وأولاده^(٢) وسر كثيراً لما رآه من كرم وحسن ضيافة وأمان. وكم كان يود أن تطول تلك الأيام السعيدة التي قضاه، لكن حب الجهاد دعاه مرة أخرى إلى غمراته، وبعد أن أطمأن على أحوالها تركها إلى معرة النعمان^(٣) كي يزور الشيخ الزاهد المدعو ابن زكريا الممعزي (بدير النقيرة) وكان من عباد الله الصالحين وله كرامات ظاهرة^(٤)، كما أثار قبر عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) هناك^(٥) بعدها سار متوجهاً نحو حماة بعد أن اعترضه صاحبها أبى أخيه الملك المظفر في الطريق ليأتي معه، فزيارة حماه يرافقه أمير المدينة المنورة الشريف عز الدين أبو قليته^(٦) القاسم بن مهنا العلوي الحسيني^(٧) فاستجاب السلطان لذلك حيث بقي ليلة واحدة أعطى لابن أخيه المظفر خلالها جبلة واللائقية^(٨)، وبعد أن اطمأن السلطان على حصانة حماة غادرها بعد أن قام الملك المظفر بخدمة عمه كما يجب^(٩) ثم توجه عنها نحو

(١) ابن تغري: المصدر المتقدم، ص ٣٨

(٢) ابن واصل: المصدر المتقدم، ص ٢٧٠/ ابن كثير: المصدر المتقدم، ج ١١-١٢، ص ٢٩٢.

(٣) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٧٠/ ابن تغري: المصدر نفسه، ص ٣٨

ملاحظة: كان إيريس أنطاكية من أعظم ملوك الإفرنج في هذه البلاد وكان أهل طرابلس قد سلموا إليه طرابلس بعد موت صاحبها القومص وجعل الإيريس ابنه في طرابلس.

البدر العيني: المصدر المتقدم، ج ٢٤، ص ٣١١.

وقد قيل عن البرنس أنه كان من أبطال الفرنج المشهورين بالفرسية

ابن قاضي شهبه: المصدر المتقدم، ج ٢٣، ص ٢٣٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٥٨.

(٥) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٧٠/ ابن شداد: المصدر المتقدم، ص ٢٩٤-٢٩٥.

(٦) عز الدين أبو قليته: كان يصاحب السلطان في جميع فتوحاته وكان السلطان يحترمه ولا يفارقه ويرجع إلى قوله في أعماله كلها وقيل (كان له فيه اعتقاد عظيم لأجل جده وليمن طلعتة).

انظر حول ذلك ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥٩/ ابن فضل الله العمري: المصدر المتقدم، ج ٢٣، ص ٧٨.

(٧) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥٨/ ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٧٠/ أبو شامة: المصدر المتقدم، ص ٤٥.

(٨) أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٤٤/ ابن تغري: المصدر نفسه، ص ٣٨/ ابن كثير: المصدر نفسه، ص ٢٩٢.

البدر العيني: المصدر نفسه، ص ٣١٢.

(٩) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٧٠.

بعلمك وأقام ببرجها ليلة واحدة، كما أنه دخل حمامها ثم غادرها إلى دمشق^(١) فوصلها في أول شهر رمضان^(٢) في حين خالفه في هذا الرأي كل من ابن واصل وابن تغري وأبي شامة قائلين "بأنه وصلها قبل دخول شهر رمضان بأيام يسيرة، حيث أقام بها حتى دخول الشهر"^(٣) وأغلب الظن أنه وصلها في النصف الثاني من شعبان في شهر تشرين الأول ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م ليتابع ما بدأه^(٤) فإنها أشير عليه بتفريق العساكر لكي يستريحوا^(٥) فقال: "إن العمر قصير للأجل غير مأمون"^(٦).

وقد بقي بيد الفرنج من الحصون كوكب وصفد والكرك، وغيرها .. ، ولابد من الفراغ منها فإنها في وسط بلاد الشام ولا يؤمن شر أهلها وإن أغفلناها ندمنها سيما بعد^(٧) في حين وردت عند ابن واصل "إن القدر غير مأمون والعمر لا يلم كم بقي منه و للفرص أوقات تنتهز وقد بقيت مع الكفر هذه الحصون ولابد من المبادرة إلى أخذها لا سيما صفد وكوكب فإنهما للداوية والاسبتارية في وسط بلاد فنخرج ونشتو عندهما لنفتحهما"^(٨) سار إلى الكرك بعد حصار عسكره لها مدة طويلة "حتى فزيت أزواد الفرنج وذخائرهم وأكلوا دوابهم" فأرسلوا في طلب الملك العادل أخي صلاح الدين لتسليمها إليه بالأمان. فتسلمها بالأمان لشدة الغلاء القحط ثم سار إلى الشوبك وتسلمها بالأمان، كما تسلم ما يجاورها^(٩) ثم سار

- (١) أبو شامة: المصدر المتقدم، ص ٤٤ / ابن كثير: المصدر المتقدم، ص ٢٩٢ / ابن تغري: المصدر المتقدم، ص ٣٩.
- (٢) ابن الأثير: المصدر المتقدم، ج ١٠، ص ٥٨ / ابن كثير: المصدر نفسه، ص ٢٩٢.
- (٣) ابن واصل: المصدر المتقدم، ص ٢٧١ / أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٤٤ / ابن تغري: المصدر نفسه، ص ٣٩ / البدر العيني: المصدر المتقدم، ص ٣١٢.
- (٤) كرد علي: خطط ج ٢، ص ٦٥ / قلججي: المرجع المتقدم، ص ٣٥٦.
- (٥) ابن شداد: النوادر، ص ٢٩٥ / أبو شامة: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٥.
- (٦) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥٩.
- (٧) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥٨ - ٥٩ / ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٧١.
- (٨) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ٢٧١ / ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٢٦٥.
- أحمد بن علي الحريري: خروج الفرنج الملاحين على ديار المسلمين من خلال الموسوعة الشامية، ج ٢٣، دار الفكر، دمشق ١٩٩٥ م، ص ٣٣٥ - ٣٣٦.
- (٩) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٥٩.

وحاصر صفد أوائل شهر رمضان، في الوقت الذي وصل فيه أخوه العادل من مصر، وأخذ صفد في رابع عشر من شوال^(١) بالأمان ثم أخذ حصن كوكب^(٢) بالأمان في منتصف ذي القعدة^(٣) بعدها عاد صلاح الدين إلى القدس، وعمل عيد الأضحى بها ثم سار إلى عسقلان^(٤) في الحادي عشر من ذي الحجة ورتب مصالحها واستتاب بها ثم جهز أخوه العادل إلى مصر خوفاً عليها من الفرنج فاجتاحها مر على بلاد الساحل لتفقد أحواله^(٥)، وبعد أن اطمأن على البلاد توجه حينها إلى دمشق في مستهل صفر، فأقام فيها إلى شهر ربيع الأول. لكن الفرنج جددوا حصارهم على عكا وأواخر السنة^(٦) الذين حشدوا قواتهم من جزر البحر نتيجة لذهاب القدس منهم لهذا اجتمعوا على حرب صلاح الدين فالتقاهم* بحسروه في سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩ م وقتل من المسلمين خلائق كثيرة، وأقامت الفرنج بعكا بعد أن أخذها صلاح فقتلوا من بها من المسلمين وأحاطت الفرنج

(١) صفد: مدينة في جبال عامل في فلسطين مطلة على حصص بالشام وهي بين عكا وبحيرة طبرية

الحسوي، المعجم، ج ٣، ص ٤٦٨/ دي فكري: المصدر المتقدم، ص ١٥٥.

(٢) ابن شداد: المصدر المتقدم، ص ٩٥.

(٣) كوكب: قلعة قائمة على رابية مرتفعة بين بيسان وطبرية

دي فكري: المصدر نفسه، ص ١٥٥.

يقول ابن تغري في النجوم الزاهرة أنه أخذ صفد أولاً ثم أخذ الكرك

ابن تغري: المصدر المتقدم، ص ٣٩.

(٤) عسقلان: مدينة عامرة على ساحل البحر المتوسط، يؤرم ميناؤها عدد كبير من التجار لقربها من مصر

بنيامين: المصدر المتقدم، ص ١٠٩/ امبروز: المصدر المتقدم، ص ٤١٩-٤٧٧.

(٥) ابن تغري: المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٩.

(٦) الحريري: المصدر المتقدم، ص ٣٣٥ - ٣٣٦.

وعكا: بلدة واسعة متينة البناء وتمتلك ميناءاً جيداً.

رحلة الراهب الروسي دانيال من خلال الموسوعة، ج ٣١، ص ٣١٣.

* أو ما عرف باسم الحملة الصليبية الثالثة التي قادها أشهر ملوك أوربة آنذاك ومنهم امبراطور ألمانية فريدريك

بربروسا وفيليب الثاني ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا.

وللمزيد عن هذه الحملة انظر إلى ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٨١، ٨٢.

ابن واصل: مفرج، ج ٢، ص ٢٨٩/ أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ١٣٥ - ١٣٩/ ابن شداد: المصدر

نفسه، ص ١٩٧/ دي فكري: المصدر نفسه، ص ٢٣٨.

عكا براً وبحراً، فنزل السلطان مقابلهم لكن النجذات للفرنج لم تنقطع بحراً حتى ملؤوا البر والبحر، وطال أمر الحصار وعظم الخطب، واشتدت المعارك ودام الحصار على عكا عشرين شهراً والمسلمون يحيطون بالفرنج في عكا وكانت الحرب سجلاً وعساكر الإسلام تقوى وعساكر الفرنج تقوى، ويأتي الفرنج من شبر مراكب بأعداد أمواجه...^(١)، وعندها أرسل صلاح الدين إلى الخليفة يستصر به "وهذا القتال مستمر والنفوس قد استحكمت، وجرى من الحروب على عكا ما يضيق هذا المختصر عن ذكره ولا يسعه واستمر النصاري مالكين عكا دون استطاعة صلاح الدين دفعهم، وقتل نتيجة لهذا الكثير من المسلمين توجه قسم من الفرنج تريد عسقلان فالتقاهم السلطان عند نهر القصب، وانكسرت فرنج وعادت إلى عكا، فدخل السلطان صلاح الدين عسقلان وهدمها كما أنه هدم حصن الرملة^(٢) واللد خوفاً من عودة الفرنج إليها والاستيلاء عليها^(٣)، فإن لم أخذ عسقلان سوف يسهل عليهم أخذ القدس، وبالتالي سوف ينقطع الطريق إلى مصر، وبالفعل توجه السلطان سحر الأربعاء ١٨ شعبان ٥٨٧هـ / ١١٩٢ م إليها مجبراً على ذلك لعجزهم عن حفظها رغم أنه كان "بلداً خفيفاً على القلب محكم الأسوار عظيم البناء مرغوباً في سكنه فلحق الناس على خرابه حزن عظيم"، وخرجوا بأهلهم وأولادهم وتشبثوا حينها أمر السلطان بإحراق البلد وأوكل لابنه الأفضل مهمة مباشرة إحراق البلد وتخريبها بنفسه وخواصه ولم يقتصر أمر صلاح الدين بهدم وإحراق عسقلان وحدها بل أصدر أوامره بإحراق الرملة أيضاً وإحراق قلعتها فأحرقت، كما شمل هذا التخريب قلعة النطرون التي كانت قلعة منيعة للغاية^(٤) فشرع الناس في ذلك الأمر في هذه الأثناء طلب الفرنج الصلح مع المسلمين، فرأى السلطان في ذلك مصلحة الناس والعساكر خوفاً عليهم من الضرر من كثرة القتال نتيجة لهذه الفتوحات، وفوض

(١) الحريري: المصدر المتقدم، ص ٣٣٥.

(٢) الرملة: بلدة عظيمة بفلسطين وكانت رباطاً للمسلمين

بنيامين: المصدر المتقدم، ص ١٠٨/ الحموي: المصدر المتقدم، ج ٣، ص ٧٩.

(٣) الحريري: المصدر نفسه، ص ٣٣٦.

(٤) امبروز: المصدر المتقدم، ص ٤١٩ - ٤٧٧.

ذلك الأمر إلى أخيه الملك العادل^(١) لبحثه.

انتظام الصلح بين الفرنج وصلاح الدين (صلح الرملة ٥٨٨هـ / ١١٩٣م)

تم الاتفاق على صلح الرملة بعد الحروب التي وقعت بين صلاح الدين وبين جنال الحملة الثالثة على هذا الصلح الذي اضطر فيه صلاح الدين إلى التنازل عن جزء من الساحل الشامي للصليبيين^(٢) ففي الحادي والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨هـ / أيلول ١١٩٣م^(٣)، وبعد عدة مناقشات ومراسلات بين الفرنج وصلاح الدين استجاب صلاح الدين لهذا الصلح مع ملك انكلترا (ريتشارد قلب الأسد) وانطلاقاً من المصلحة العامة حتمت إجابته عليه^(٤) مدة الصلح ثلاث سنين وخمسة أشهر نص على ما يلي:

- ١- بقاء الشريط الساحلي الضيق الممتد من يافا حتى صور بيد الصليبيين (أي أن الساحل الشامي الشمالي بمدنه بقي لصلاح الدين الأيوبي).
- ٢- إعادة عسقلان إلى صلاح الدين شريطة هدم أسوارها .
- ٣- امتلاك صلاح الدين للمنطقة الساحلية الجنوبية اعتباراً من عسقلان.
- ٤- احتفاظه بالقدس.
- ٥- السماح للحجاج المسيحيين بالوصول إلى القدس.

(١) قال ابن شداد في النوادر أنه وصل من جانب الملك العادل من أجبر أن الفرنج تحدثوا معه في الصلح، وأنه خرج إليه ابن الهنفرى وتحدث معه في المعنى وأنه طلب جميع البلاد الساحلية فرأى السلطان صلاح الدين في ذلك مصلحة للمسلمين فكتب إليه يسمح له في الحديث بذلك الأمر.

للمزيد:

ابن شداد: النوادر، ص ١٨٧ وما بعدها

(٢) ابن العديم: زبدة الحطب، ج ٢، ص ٥٩٧.

(٣) ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

وردت هذه الأحداث عند ابن الأثير في سنة ٥٨٥ هـ،

ابن الأثير: المصدر المتقدم، ص ١٢٠.

ابن الوردي: المصدر المتقدم، ص ١٥٨ - ١٦٠.

(٤) ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٢٣٥.

٦- حرية انتقال الأمراء والتجار بين البلدين.

٧- السماح لكل من أنطاكية وطرابلس الدخول بهذا الاتفاق إذ رغبتا^(١) ونادى المنادي بانتظام الصلح وأن البلاد الإسلامية^(٢) والنصرانية واحدة في الأمن والمسالمة، فمن شاء من كل طائفة أن يتردد إلى بلاد الطائفة الأخرى من غير خوف أو حذر، وبعد انتظام الصلح أعطى صلاح الدين دساتير العساكر الوافدة عليه (أي الإذن لهم بالعودة إلى بلادهم) فأمن الناس وتردد المسلمون إلى بلاد الفرنج دون وجل وبالعكس. وحملت البضائع والتجارة إلى البلاد، فما كان الصلح توفيقاً وسعادة لصلاح الدين هذا ما أشار إليه ابن شداد^(٣) فقد سرح قواته توجه من الرملة إلى القدس لتفقد أحواله وفي نيته الحج وعقد النية على قصد جميع مناطق دولته في الشام وديار مصر، وبعد تفقده البلاد توجه إلى الديار المصرية، بقي فيها إلى أن علم بمسير مركب للفرنجة إلى بلاد في مستهل شهر شوال عندها أرسل جريدة إلى الساحل الشامي الأعلى لتفقد أحواله وأمنه وأحوال قلاع البحرية فيه حتى بانياس^(٤) وهذا يعني أن هذه المنطقة لم تحظ كثيراً بالاهتمام إلا عندما يدق ناقوس خطر عن أنباء حملة صليبية جديدة فعند ذلك يتفقدونها ويهتمون بتحصينها كونها الممر الأساسي للحملة بعد اجتياز الأراضي البيزنطية، وبعد اطمئنان صلاح الدين عليها عقد العزم على الذهاب إلى دمشق إلى القدس عائداً منها إلى مصر للدفاع عن مصالحها.

ووصل السلطان دمشق الأربعاء ١٦ شوال "بعد الفراغ من تصفح أحوال قلاع الساحلية بأسرها والتقدم بداخلها وإصلاح أجنادها وشحنها بالرجال الأجناد"^(٥) وفيها اجتمع مع أولاده جميعاً ورجالته كما اجتمع بأخيه العادل بعد

(١) د. زكار: الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٣٩٧.

(٢) ابن شداد: النوادر، ص ٢٣٥.

(٣) ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٤) ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٢٣٩.

(٥) ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٢٤٠.

غياب طويل، وقاما برحلة صيد معاً^(١) حول غباغب القريبة من الكسوة وبعد هذه الرحلة عادوا جميعاً إلى دمشق يوم الأحد ذي القعدة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م، فكان ذلك بمثابة الوداع لأهله وكأنه أحس بذنو أجله فبقي فيها واستقر في قلعتها، وسرعان ما حل به المرض قرابة أسبوعين حتى وافته المنية في الثالث عشر من محرم سنة ٥٨٩هـ / ٤ آذار ١١٩٣م^(٢) انقضت هذه السنة^(٣) وبوفاته علا الناس الحزن والكآبة حسرة عليه، كما أنه ترك دولة شائعة مترامية الأطراف وفراعاً كبيراً لم يستطع أحد من أبنائه السبعة عشر أو أخواته أن يملأه، وأصاب ابن شداد حين قال: "لم يصب الإسلام والمسلمين بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين"^(٤)

لقد أُنذرت وفاة صلاح الدين بقيام نزاعات بين ورثته وتقسيم التركة الضخمة فيما بينهم.

فماذا حدث في أمر هذه الفتنة وحرب الوراثة تلك؟؟

وزع صلاح الدين خلال حياته السياسية أي في سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م البلاد الواقعة تحت سيطرته على أفراد عائلته مانحاً إياهم سلطة فعلية لممارسة السيادة عليها، وكان القسم الأكبر من دولته من نصيب أولاده الثلاثة، أما البقية المتبقية من الأمراء الأيوبيين فقد حصلوا على إقطاعات صغيرة تتبع لسلطة هؤلاء الأولاد الثلاثة.

وهنا يتساءل المرء عن التناقض الواضح في فكر صلاح الدين الوحدوي وبين الموقف الذي اتخذه سواء في توحيد مصر وبلاد الشام قبل مواجهة الصليبيين، أو في التنسيق بين قيادته في المشرق العربي والإسلامي وبين موقفه هذا الذي تجلّى في وحدته السياسية قبل وفاته بتقسيم البلاد بين الأبناء والأخوة،

(١) ابن شداد: المصدر المتقدم، ص ٢٤١.

(٢) عند ابن الأثير وابن العديم إنه توفي في السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م.

ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١١٨ / ابن العديم: زبدة، ج ٢، ص ٥٩٩ / د. زكار: الحروب، ج ٢، ص ٤٠٠.

(٣) ابن العديم: المصدر نفسه، ص ٥٩٩ / زكار: المرجع نفسه، ج ٢، ص ٤٠٠.

(٤) ابن شداد: المصدر نفسه، ص ٢٤٦.

فهل أصاب صلاح الدين بعمله هذا أم لا ؟..

في الحقيقة مهد توزيع التركة الذي بدأه السلطان في حياته السياسية إلى تقويض أركان دولته وبذر بذور الشقاق فيما بينهم، الأمر الذي فتح السبل أمام الصليبيين لإعادة احتلالهم لهذه المدن من جديد، وسنرى صورة الأحداث التي عانت منها بلاد الشام ومصر والجزيرة بعد وفاة صلاح الدين الذي سبب تلك الصراعات بين أبناء البيت الأيوبي.

المهم تقاسم هؤلاء التركة بعد وفاة السلطان، وبدأت المؤامرات والحروب هناك بينهم إذ أن كلاً منهم يطمع في أن يكون نصيبه يضارع نصيب جاره أو يفوقه.

وكان صلاح الدين قد أعد ابنه الأفضل علي ليخلفه في الحكم. بمعنى أن تكون السلطة العليا في يده في جميع أنحاء الدولة الأيوبية. لذلك احتفظ الأفضل بمرور الدين علي الابن الأكبر لصلاح (٥٨٩ - ٦٢٢ هـ / ١١٩٣ - ١٢٢٥ م) دمشق ومدن الساحل الشامي الأعلى كانت من نصيبه ، وكذلك بيت المقدس وبلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين إلى الداروم^(١) في حين تقاسم بقية خوته والأبناء ما تبقى من الإمارات. حيث تمكن الابن الثاني العزيز عثمان (٥٨٩ - ٥٩٥ هـ / ١١٩٣ - ١١٩٨ م) الذي كان في مصر عند وفاة والده من الاحتفاظ بها، أما الابن الثالث الظاهر غازي (٥٨٩ - ٦١٣ هـ / ١١٩٣ - ١٢١٦ م)، فسلم حلب وجميع أعمالها بالإضافة إلى شمالي الشام مثل دريساك، وحارم... الخ)، واستطاع أخو صلاح الدين الأصغر سيف الدين أبو بكر العادل (٥٨٩ - ٦١٥ هـ / ١١٩٣ - ١٢١٨ م) الذي كان في الكرك ساعة وفاة صلاح الدين الاحتفاظ بها وبالأردن فضلاً عن الجزيرة وديار بكر وكلها أقطاعات ثانوية، ويبدو أن صلاح الدين الذي كان يخشى من أطماع العادل وطموحه ارتأى إيعاده عن قلب الدولة دمشق^(٢) لأنها محور العلاقات العامة بين الشرق الأدنى الإسلامي ودورها في توجيه السياسة الأيوبية .

(١) ابن شداد: النوادر، ص ٣٦١ - ٣٦٣ / ابن الأثير: المصدر المتقدم، ص ١٢٠.

(٢) الأصفهاني: الفتح، ص ٦٣٦.

وسرعان ما دب الخلاف بين الأفضل نور الدين علي صاحب دمشق والملوك
العزیز صاحب مصر الذي أثر على مجريات الأحداث السياسية فلم يكن العادل
راضياً عن نصيبه من تركة أخيه صلاح وأراد الاستيلاء على ما بيد أبناء أخيه
فراح يحرضهما على بعضهما البعض^(١)

وأغرى العزیز عثمان صاحب مصر على استخلاص الشام لنفسه من أخيه
الأفضل منتهزاً الفرصة المناسبة، فالأفضل لم يكن مناسباً لضعفه وسوء سيرته
شربه للخمر وحببه للهو "واحتجب عن الرعية واشتغل بلهوه"^(٢) وبدأت العلاقات
تتدهور بين الأخوين شيئاً فشيئاً^(٣) لا سيما بعد خروج العزیز من مصر سنة ٥٩١
هـ / ١١٩٤ م محاصراً للدمشق. وتم انتزاع المدينة من يد أخيه، وهذا ما جعل
الأفضل يستنجد بعمه العادل الذي رأى في هذا الاستجداد الفرصة التي ينبغي
الاستفادة منها، كما حرض الوزير ضياء الدين الأفضل على قتال أخيه، وارتاع
صاحب دمشق ليستنجد بعمه العادل الذي أتته الفرصة على طبق من ذهب
فاستجاب له ملبياً، كما حظي الأفضل علي بمساعدة كل من صاحب حلب
وصاحب حماه وصاحب حمص، وبعليك^(٤)، واتفقوا معه على منع العزیز أخذ
دمشق لأن ذلك يهدد ممالكهم جميعاً^(٥) وهنا تكون حلف أيوبي مناهض لحركة
التمرد الأيوبي التي قادها العزیز عثمان في مصر. لكن العزیز عثمان مال إلى
التفاهم فاجتمع بعمه العادل غربي دمشق في المرة ٢٤ شعبان ٥٩١ هـ / ١١٩٥
م حيث نصحه عمه بالعودة إلى بلاده قائلاً له: "لا تخرب البيت وتدخل

(١) ابن العديم: زبدة، ج ٢، ص ٦٠١.

(٢) ابن تغري: المصدر المتقدم، ص ١٢٠.

أبو شامة: المصدر المتقدم، ص ٤١٩.

(٣) للمزيد من المعلومات حول هذه الخلافات انظر:

أبو شامة: المصدر نفسه، ص ٢٥ وما بعدها.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٤٣ - ٤٧ / أبو الفداء: المصدر المتقدم، ص ٩٠ - ٩١.

كان صاحب حلب الظاهر غازي وناصر الدين محمد صاحب حماه وأسد الدين شيركوه الثاني صاحب حمص
وصاحب بعليك الأجد

(٥) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ١٢٩ - ١٣٠.

الآفة والعدو وراعنا من كل جانب" وجرّت تسوية^(١) بين جميع الأطراف لإحلال السلام بينهم^(٢) تقرر خلالها وضع ترتيب جديد لحكم الاسرة الأيوبية على أساس أن:

١- يحتفظ الأفضل علي بدمشق وطبرية وأعمال الغور.

٢- يتخلى الأفضل علي عن بيت المقدس وما جاورها من أعمال لأخيه العزيز عثمان.

٣- يتخلى الأفضل علي عن جبلة واللاذقية وبلاطنس وأعمال ذلك كله لأخيه الظاهر غازي - صاحب حلب^(٣).

مما تقدم نجد أن العادل علي لم يفز من هذه الصفقة إذا صح التعبير بشيء سوى ما حازه من مكانة بأن أصبح الحكم والقاضي بين أفراد الأسرة الأيوبية، (أي المحرك)^(٤) والواقع أن هذا الصراع لم ينته بهذه التسوية أو بهذه البساطة لأن الأفضل سرعان ما تمادى وعاد إلى لهوه ومجونه: مما أغرى العزيز عثمان بغزوه مرة أخرى على مهاجمة دمشق سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م، ولتعود الخلافات عن جديد لذلك لم يكن أمام الأفضل علي الضعيف إلا أن يحيى الحلف القديم الذي أجبر العزيز عثمان على التراجع والارتداد عن دمشق، فتوجه الأفضل مسرعاً إلى قلعة جعبر واجتمع بعمه ليساعده كما طلب المساعدة من صاحب حلب أخيه الظاهر غازي^(٥)، ففي سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٥م سير الملك الظاهر أخاه الملك الزاهر داود وقاض حلب بهاء الدين و صاحب شيزر سابق الدين إلى العزيز لتسكين الفتنة والتوصل إلى حل فوصلوا إلى هناك والملك العادل والعزيز وتعجبا مع بعضهما للهدنة مع الأفضل، ولما وصلوا إلى حلب راسل الملك الظاهر أخاه الأفضل في تجديد الصلح معه وتحالفا على المناصرة

(١) ابن العديم: زبده، ج ٢، ص ٦٠٣.

(٢) ابن تغري: المصدر المتقدم، ج ٦، ص ١٢١.

(٣) الأصفهاني: البستان، ص ٣٨٦ / ابن العديم: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٠٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ١٣٠.

(٥) ابن العديم: المصدر نفسه، ٦٠٦ - ٦٠٧ / الأصفهاني: المصدر نفسه، ص ٣٩٢.

والمعاضدة، كما وصل إلى الملك الظاهر مع الأمراء الملك الناصر - علم الدين قيصر الناصري - فأقطعه اللاذقية وأخذها من ابن السلار^(١) كما سير العلم بن ماهان لإحصاء ما بالقلعة لتسليمها إلى الأمير قيصر، وتحليف الأجناد للسلطان الملك الظاهر، وكان العلم بن ماهان آنذاك في محل الوزارة لدى الملك الظاهر فلما وصل إلى اللاذقية ودخل قلعتها طمع فيها وحدثته نفسه بالعصيان فاستخلف الأجناد لنفسه لكن بعضهم خالفه، وأعلموا الملك الظاهر بذلك، فقبضوا على ابن ماهان ريثما يصل الملك الظاهر، فلما وصل الملك إلى اللاذقية ودخل قلعتها ضروه له فقطع يده وقلع عينيه^(٢) وهنا سنحت الفرصة للمرة الثانية للعلم العادل لكي يتدخل في شؤون أبناء أخيه، فراح ينثر بذور الشقاق بين صاحب مصر وأمرائه من الأكراد والأسدية الذين كانوا على جفاء معه بسبب ميله إلى صلاحية واتفق معهم على نبذ طاعته والدخول في طاعة حكام بلاد الشام، وجد العزيز عثمان نفسه وهو في الطريق نحو دمشق، وقد انفض عنه أمراؤه فلما جعله يضطر للعودة إلى مصر ونجحت خطته، وهنا قرر العادل والأفضل المضي في خطتهما^(٣) واتفقا على أن يمتلك الأفضل مصر مقابل تخليه عن شقيق لعمه العادل، وهذا مطمح طالما حلم به وتطلع إليه ذاك العم، وهنا ضحت بشكل جلي نواياه وتشجيعه على الصراعات بين ولدي أخيه لإضعافهما حتى لا يطغى أحدهما على الآخر، ونظراً لأنه خشي من أن لا ينفذ الأفضل هذه بتسليمه دمشق أرسل إلى عثمان سراً يشجعه على الثبات بموقفه، ويتعهد

(١) ابن السلار: هو وزير الظاهر بالله في مصر الفاطمية أبو الحسن علي بن السلار المنعوت بالملك العادل سيف الدين تولى الوزارة للظاهر في رجب سنة ٥٤٣ هـ ونعت بالعادل أمير الجيوش كان ابن السلار شهياً دائماً مانلاً إلى أرباب الفضل والصلاح عمر بالقاهرة مساجد.

زيد أنظر:

ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٢٠٦/ ابن خلكان: وفيات الأعيان، حققه احسان عباس، لم تاريخ الطبع مج (٢)، ص ٤١٦-٤١٧.

القفقشندي: المصدر المتقدم، ج ١٣، ص ٢٤٦.

(٢) ابن العديم: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٦٠٦ - ٦٠٧.

الاصفهاني: البستان، ص ٣٩٢.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

بأن يمنع الأفضل من دخول مصر^(١) وشاعت الظروف والأقدار أن تدخل القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني في التوفيق بين الأخوين إذا كان ذا كلمة مسموعة في الأسرة الأيوبية واستقر الصلح على الشكل التالي:

١- يأخذ الأفضل علي بيت المقدس وجميع بلاد فلسطين وطبرية والأردن بالإضافة على ما بيده من البلاد.

٢- يبقى للعادل إقطاعه القديم على أن يقيم في مصر عند العزيز عثمان^(٢) الحقيقة أن اختيار العادل لمصر لم يأت عبثاً لأنه كان يمهد للاستيلاء عليها ضمها إلى أملاكه، وهكذا عاد الأفضل إلى دمشق واستقر العادل بمصر جاعلاً من نفسه سيد الموقف والحكم مما مكنه من فرض كلمته عليهما^(٣)، ولم يلبث أن ضحى واضحاً أن الأفضل علي لم يكن مؤهلاً للحكم إذا أصبحت حكومته كلها في يد وزيره ضياء الدين ابن الأثير^(٤)

وهنا وجد العادل أن الظروف باتت مهيأة لعزل الأفضل علي، وبخاصة أن المصالح الأيوبية لا تريد أن يكون على رأس الأسرة شخص ضعيف مثل الأفضل لذلك غير العادل سياسته وتحالف مع العزيز عثمان الذي أشار عليه بضرورة الاستيلاء على دمشق وتسليمها له، وفي شهر رجب سنة ٥٩٢هـ / حزيران ١١٩٦ م خرج العادل متوجهاً إلى دمشق وفتح لهم بابها ٢٧ رجب ٢٩٥ هـ / ٢٥ حزيران ١١٩٦ م فدخلها العزيز من باب الفرج في حين دخلها العادل من باب توما^(٥)

ومن هنا نجد أن الدولة الأيوبية مرت بتطورات سريعة انتهت بتوحيدها مرة أخرى تحت زعامة العادل. لكن سرعان ما عادت النزاعات الأيوبية بين أبناء البيت الأيوبي، وبذلك تركت شراً استطاع من خلاله الفرنجة تحقيق أطماعهم

(١) ابن الأثير: المصدر المتقدم، ج ١٠، ص ١٣٧ - ١٣٨.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص ١٣٨ / ابن واصل: المصدر المتقدم، ص ٥٣ - ٥٤.

(٣) عاشور: المرجع المتقدم، ج ٢، ص ٩١٦.

(٤) المقرئ: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٢٤٣.

(٥) ابن العديم: زبدة، ج ٢، ص ٦٠٨.

من أجل استرداد بعض القلاع والحصون، كما حدث سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٧ م
عندما تواترت الأسماع بحركة الفرنج تريد جبلة واللاذقية الأمر الذي جعل
الملك العادل يطلب نجدة عاجلة من الملك الظاهر من أجل هدم حصني^(١) جبلة
واللاذقية معاً^(٢)، كما أفادتهم تلك النزاعات أي الفرنجة في عقد اتفاقيات جانبية
الحصول على تنازلات من أمراء بني أيوب.

وهذا معناه أن محور الأحداث السياسية في تلك الحقبة كان في دمشق
ومصر. لذلك كانت منطقة الساحل الشامي الأعلى لا تحظى كثيراً بالمقدار نفسه
من العناية والاهتمام الذي اهتم به المؤرخون إلا عند حدوث حملة صليبية
جديدة.

وبقيت النزاعات الأسرية مستمرة الأمر الذي جعل الفرصة مهيأة للفرنجة
للاستعادة ما فقدوه بعد حطين، وهذا ما نلمسه من قراءة الأحداث التي وقعت فيما
بعد هذه الدراسة المحددة زمنياً.

(١) اتبعت عادة هدم الحصون وإخلائها كثيراً خلال هذه الحقبة وذلك من أجل منع الصليبيون العودة والاعتصام
بها مرة أخرى

ابن فضل الله العمري: المصدر المتقدم، ص ٤١.

(٢) ابن العديم: المصدر المتقدم، ص ٦١٠.

الفصل الخامس

القلاع والحصون

١. لمحة تاريخية عن بناء القلاع والحصون حتى القرن السادس

الهجري / الثاني عشر للميلاد .

٢. أهم وأشهر القلاع :

١. قلعة صهيون (قلعة صلاح الدين الأيوبي) .

٢. قلعة المرقب .

٣. قلعة حصه الأكراد (قلعة الحصه) .

٤. قلعة يحمور (حصه وادي ابنه الأحمه) .

٥. قلعة المعالبة (حصه بلاطنوس) .

٦. قلعة العرمة .

٧. قلعة أرواد .

٨. برج صافيتا .

٩. قلعة المنبقة (وادي القلاع) .

١٠. حصه القصير .

١١. حصه سليمان .

١٢. قلعة بني قحطان (بتسرايل) .

القلاع والحصون^(١):

إن تاريخ القلاع والحصون جزء لا يتجزأ من تاريخنا الحضاري والعسكري وكل دراسة تاريخية لمدن الساحل الشامي في هذه الحقبة التاريخية بالذات لا تستكمل دون العودة لها، وانطلاقاً من هذه الناحية سوف أقوم بتقليب صفحات أشهر تلك القلاع للوقوف على حال كل واحدة وهي في ذروة مجدها إلا أنني لم أستطيع ذكرها كلها وذلك يعود إما لنقص في المعلومات حولها أو لاندثارها.

لذلك كان لا بد من إعطاء ولو لمحة تاريخية بسيطة عن بناء القلاع وصولاً إلى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر للميلاد الذي هو موضوع الدراسة.

لمحة تاريخية عن بناء القلاع والحصون حتى القرن ١٢/٥م:

كانت متطلبات الموقف السياسي الجغرافية والاستراتيجية والمستوطنات التحصينات السالفة والطرق والمضائق الجبلية على وجه العموم هي التي

(١) القلعة: وهي الحصن على الجبل وجمعها قلاع.

أجوهري: الصحاح في اللغة والعلوم، تقديم الشيخ عبد الله العلايلي، مجلدان، دار الحضارة بيروت، مجلد ٢ ص ٣٣٥.

أيعرف ياقوت الحموي القلعة على أنها السحابة الضخمة والحجارة الضخمة هي القلاع.

أحموي: معجم البلدان ج ٤، ص ٤٤١.

القلعة بشكل عام هي من بناء الإنسان للاحتواء فيها وتكون في المدينة والسهل والجبل وقد تبنى القلعة على الحصن نفسه فيزداد مناعة مثل قلعة الحصن.

ما الحصن في اللغة: فهو كل مكان محرز ومنيع لا يوصل إلى جوفه. أو هو عبارة عن مكان معد للدفع الحملات والمهاجمات وقد تكون أسباب حصانته طبيعية كالأنهار أو صناعية مثل الأسوار المتاريس وهناك حصون ثابتة إي معدة لإقامة المدافعين عليها وإذا لم تكن إلا للدفاع مدة قصيرة تعرف بالحصون المؤقتة أو حصون ميدان القتال.

للمزيد حول ذلك انظر إلى:

أحموي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤/ بطرس البستاني: المرجع المتقدم، مجلد ٧ من ص ٩٠ إلى

٩٥

وبشكل عام نستطيع القول إن الحصن هو المكان الطبيعي الذي يكون عادة في رؤوس الجبال وهو في الغالب لا دخل للإنسان فيه.

تفرض موقع كل قلعة من تلك القلاع^(١) فوجود القلعة في مكان استراتيجي، وإن كانت صغيرة الحجم يعطيها أهمية فائقة، والمتربح لمواقع القلاع والأبراج المنتشرة في ربوع الساحل الشامي الأعلى وفي منطقته الجبلية الوعرة يجد أن معظمها قد بنى في السهول الخصبة لمجرى نهر العاصي الأوسط وفي جبال الحمير^(٢) وعلى مفترقات الطرق التاريخية الهامة أو في مناطق الحدود، أو في المفاصل الطبيعية التي هي ممرات للجيش الغازية.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هل ظهرت القلاع والحصون فقط في هذه الحقبة الزمنية بالذات أم أنها وجدت قبل ذلك بمدة وجيزة أم أنها تعود إلى حقبة تاريخية موغلة في القدم؟

في الحقيقة هنالك الكثير من القلاع التي تعود إلى العهود القديمة الأولى وكانت خطأ دفاعياً ضد الغزوات حيث بقيت معها الأسوار البسيطة ثم دخلت الحواري الخشبية في البناء، فازداد ثخن الأسوار إلى أن أصبحت فيما بعد تبنى فوق منحدرات صخرية، واستمر تطورها مع الأيام في تقنيات بناء القلاع المعالمها أيضاً^(٣).

وكسائر القلاع مرت كل قلعة من القلاع بحقب تاريخية مختلفة كما تأثر بناؤها بالتقاليد المعمارية الراسخة وفق مقتضيات كل مرحلة^(٤) فمنها التأثيرات الرومانية أو البيزنطية أو العربية أو الفرنجية، ووجدت التحصينات في معظم المدن تقريباً إلا أنها لم تحظ بالرعاية من قبل أصحابها بعد الفتوحات الإسلامية، ما أنه لم تبين دفاعات جديدة إلا في عدد محدد من المدن الساحلية في سورية وفلسطين أو في مناطق الثغور المتاخمة للحدود الإسلامية مع بيزنطة حيث كان يطرهم جائئاً باستمرار^(٥).

(١) فولفغانغ: القلاع أيام الحروب الصليبية، محمد وليد الجلال، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، ١٩٨٥م، ص ١٠/ رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٣، ص ٦٣.

(٢) ابن بطوطة: المصدر المتقدم، ص ٢٨٦.

(٣) الساطع: المرجع المتقدم، ص ٧.

(٤) حمصي: قلعة المرقب، منشورات مديرية دمشق، ١٩٨٢م، ص ١٨.

(٥) الإدريسي: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٦٥٢.

ومنذ القرن ١٠/هـ بدأ البيزنطيون والحكسام المسلمون المحليون يشيدون القلاع الجديدة التي تميزت عن سالفاتها البيزنطية بموقعها المنعزل فوق مرتفعات وعرة صعبة المسالك والتسلق لارتفاع أسوارها المحيطة بها، وكانت هذه المعاقل تجمع بين مقر السيد الاقطاعي والمستوطنة المحصنة ومثالها (قلعة صهيون).

وفي القرن ٥ هـ / ١١م أسست منشآت مماثلة كيفت ظروفها وطرزها بشكل أفضل من مثيلاتها لتكون معاقل محصنة حتى نجد أن الأفراد المتنازعين في سورية يضطرون إلى إصلاح المعاقل القديمة البالية أو تعديلها لأغراض دفاعية^(١) ولما جاء الفرنج إلى المنطقة ازدادت أعداد القلاع والحصون بشكل كبير سواء من الجانب الإسلامي أو من الجانب الصليبي إذ لم تترك مدينة دون من يبنّي حماها خارجها أو على جبل مشرف عليها حصناً منيعاً لها^(٢) وعلى هذه الصورة قامت قلاع متنوعة على الساحل... حتى طرابلس^(٣).

ومع أفول القرن ١٠/هـ ودخول الفرنج المنطقة بدؤوا يشيدون قلاعاً حصوناً وأبراجاً في المناطق التي احتلّوها لإكمال سلسلة التحصينات اللازمة للحماية الإمارات التي أسسوها فلقبوا في كثير من الأحيان إلى تغيير بعض معالمها لاسيما تلك التي تعرضت لكوارث طبيعية كالزلازل أو نتيجة الحروب المستمرة^(٤) مما أدى إلى تصدع أقسام كبيرة منها وأحياناً إلى انهيارها هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد استجبت ظروف أخرى فرضت على ساكنيها إدخال تعديلات عامة في البناء كتنقية الجدران أو الأسوار لتأمين متطلبات الدفاع الكافية وهذا ما يفهم من وصف لياقوت الحموي عندما تحدث عن أحد الحصون قائلاً:

"إن أهله أوجسوا خيفة في أنفسهم من غزوات العدو فحصنوه وزادوا من

(١) فولفغانغ: المرجع المتقدم، ص ٢٠.

(٢) سميل: المرجع المتقدم، ص ٣١٦.

(٣) فوقاس: المصدر المتقدم من خلال الموسوعة، ج ٢٤، ص ٣٨٠.

(٤) سبط ابن الجوزي: المصدر المتقدم، ص ٩٥.

مناعته^(١) ومن هنا كان لا بد من معرفة الدوافع والأسباب التي جعلت الفرنج الصليبيين يهتمون لهذه المواقع ويكثرّون من بنائها، فقد تنبه هؤلاء الغزاة المحتلون لأهمية موقع هذه البلاد فأولوا معابرها وقمم جبالها اهتمامهم غير المألوف خصوصاً تلك التي شيدت فوق شواطئها^(٢) هذا ما أعطى دافعاً قوياً على ظهور القلاع بكثافة في بلاد الشام بل استمر ذلك في حقب تاريخية لاحقة^(٣).

لقد اضطر الفرنجة وتحت ضغط الحاجة بوجودهم في أراضي بعيدة عن بلادهم ورغبة منهم في المحافظة على ما امتلكوه خشية أن يسترده أصحابه الأصليون المخرجون من ديارهم إلى شغل هذه المواقع والمدن المسورة هذا من جانب أما الجانب الآخر فنستطيع القول إن القلعة كفيلة بتأمين الحماية لهم للمواشيهم كما مكّنهم ذلك من وضع خصومهم تحت رقابتهم المستمرة، وهذا بالطبع لم يتم عشوائياً وإنما كانت هنالك سلسلة مترابطة من المواقع القوية متقدمة التي تحرس بعضها بعضاً على امتداد السواحل الشرقية للبحر المتوسط^(٤) وفي بعض الأراضي الداخلية فيه، لا سيما على المدن الداخلية التي لم يستطع الفرنجة الاستيلاء عليها "وبنوا قلاعاً قوية جداً لا ترام بينهم وبين عدائهم وذلك في أطراف البلاد للدفاع عن حدودهم"^(٥).

لقد كانت القلعة وحاميتها تسيطران على المنطقة المحيطة بها فأضحت بذلك طريقاً للتوسع الصليبي أول الأمر ثم أصبحت وسيلة للدفاع وجميع تلك القلاع هيمت لتكون قواعد هجومية أو مراكز للقوات الفرنجية التي تحاصر المدن الساحلية الحصينة، أو أن تكون بمثابة نقاط انطلاق للحملات الجديدة والغارات السريعة، وكلما تقدم القرن ١٢هـ/١٢م حدثت بعض التغييرات في تصميمات

(١) الحموي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٣٤/ رنسيان، المرجع المتقدم، ج ٣، ص ١٢٩.

(٢) سانوتو: المصدر المتقدم، ج ٣٨، ص ٢٤٠/ أناسيو: سورية الشمالية، ص ٥٧٢.

(٣) الصغير: المرجع المتقدم، ص ١٤.

(٤) الإدريسي: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٦٥٢.

(٥) دي فترى: المصدر المتقدم، ج ٣٢، ص ١٥٥/ فولفغانغ: المرجع المتقدم، ص ٩/ حنّي: تاريخ

لبنان، ص ١١٢-٣٥٢

القلاع إذ أضحي البرج عامة مدوراً لا مستطيلاً نظراً لأن السطح المدور كان أكثر صلابة في مقاومة ما يتعرض له من قذائف، وازداد عدد الأبواب للقلاع لا سيما الأبواب الخلفية ونزع حجم القلعة إلى الضخامة لا سيما حينما شيدت الطوائف الدينية العسكرية الاستبارية والداوية لها قلاعاً أو آلت إليها قلاع من قبله (١) فعلى سبيل المثال أهم القلاع التي حازتها الاستبارية حصن الكراد (٢) والمرقب (٣) وامتلكت الداوية حصن صافيتا (٤) والعريمة وأرواد وغيرها وبالرغم من هذا فقد ارتبطت أهمية القلاع الصليبية بمجال تاريخها الحربي لا تاريخها الجمالي والمعماري (٥).

واعتباراً من أواسط القرن ٦هـ / ١٢م أصبح في مقدور المسلمين بناء قلاع أكثر مناعة حيث نلاحظ أن التوسع الفرنجي بدأ يتراجع نتيجة للمجابهة الحاسمة من قبل المسلمين وتنامي قوتهم حينها أخذت التحصينات الصليبية تفقد دورها الهجومى لتتحول إلى طابع دفاعي بصورة مضطربة كما أخذت هذه القلاع تنتقل ملكيتها إلى الرهبانيات الفرسانية قبل نهاية القرن ٦هـ / ١٢م حيث انتقلت معظم القلاع التي بناها الإقطاعيون إلى أيدي هذه الطوائف الدينية أو خضعت إلى تغير جذري لأنه ليس من السهل أبداً تسديد الفواتير العالية التي استخدمت في التحسينات أو الإصلاحات العامة الضرورية بين حين وآخر والناجمة عن عوارث متلاحقة، فقد تحتم على السادة الإقطاعيين الذين يملكونها وحدهم تسديد مثل هذه الفواتير وفي سنة ٥٥٥هـ / ١١٧٠م أقام فرسان الهيكل (الداوية) مقرهم في طرطوس، فقاموا بربط ممتلكاتهم الواصلة بين الريف والمدينة بسلسلة من المعاقل الصغيرة مثل العريمة وصافيتا كما كان على الفرنجة البدء أيضاً ببناء قلاع حصينة كقلعة الحصن التي امتلكوها سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٢م وكذلك حال

(١) يعد الاستبارية أول من استخدموا في البناء الدائر المزدوج لا سيما في القلاع المستقلة انظر

رنسيمن: المرجع المتقدم ج ٣، ص ٦٣١.

(٢) العلمي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ١٥٦.

(٣) زيتون: تاريخ المماليك، ص ٤٧.

(٤) أولفر: من خلال الموسوعة الشامية، ج ٣٤، ص ٧٦-٧٧.

(٥) رنسيمن: المرجع نفسه، ص ٦٣١ - ٦٣٢.

قلعة المرقب التي حاز عليها جماعة الفرسان سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م^(١).

أما القلاع التي تحصن الطائفة المدعوة بالإسماعيلية فنجد أن أتباعها تحصنوا بقلاع في جبال بهراء دعت بقلاع الدعوة كما أسلفنا الحديث عنها^(٢) وظلوا بها حتى نهاية القرن ٥٧/١٣م.

وفي عهد صلاح الدين الذي عرف كخصم عنيد للصليبيين وبعد معركة حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م تابع عملياته الحربية التحريرية ضد معاقل الصليبيين ضد المرافق البحرية التي بأيديهم واستطاع أن يحقق النجاح السريع بتحريرها باستثناء برج طرطوس الذي استعصى عليه (وما لم تحرر القلعة لا تحرر المدينة).

ومن هنا يمكن القول إن هذه القلاع برهنت على مناعتها من جهة وعلى التطور التقني الكبير الذي بلغته القوات المتحاربة في فن التحصين والبناء خاصة في فن الحرب، لذلك كان لكل متأمل لهذه القلاع ولمواقعها وبنائها الشامخ من أن يرسم صورة واضحة في ذهنه للوقائع الحربية الضارية التي دارت رحاها في تلك الأزمنة.

ونل من أهمها وأشهرها:

- | | |
|------------------------------|---------------------------------|
| ٦- العريمة | قلعة صهيون (صلاح الدين الأيوبي) |
| ٧- قلعة أرواد | قلعة المرقب |
| ٨- برج صافيتا | حصن الأكراد (قلعة الحصن) |
| ٩- قلعة بني قحطان (بكسراثيل) | قلعة يحمور |
| | المهالبة |

(١) فولغانغ: المرجع المتقدم، ص ٢٠، ١٧-٢١/سميل: المرجع المتقدم، ص ١٦٧.

(٢) انظر الفصل المتعلق بالتقسيمات الإدارية

وللمزيد حول هذه القلاع العودة إلى: ابن بطوطة: المصدر المتقدم، ص ٢٨٦/الإدريسي: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٣٧٥/ ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ٢٦٥/ ابن فضل الله العمري: المصدر المتقدم، ص ٢٠٤-٢٠٥.

قلعة صهيون (صلاح الدين)

تشمخ فوق جبال اللاذقية قلعة من أمتن القلاع في زمنها إنها قلعة صهيون وصهيون بلدة ذات قلعة حصينة مكيئة لا ترام وهي على صخر أصم^(١) وبالقرب منها واد شرقي اللاذقية بحوالي ٣٣ كم، وهي من أشهر قلاع الشام كثيرة النصب والمياه تمتاز بموقعها الهام وبطرازها المعماري الفريد، تشرف من عليائها على مناطق شاسعة وتتحكم بأحد الممرات بين البحر وحوض العاصي لحماية أنطاكية كانت القلعة من أعمال حمص^(٢) "خنادقها أودية واسعة هائلة عميقة ليس لها خندق محفور إلا من جهة واحدة مقدار طوله ستون ذراعاً ولها ثلاثة أسوار سوران دون مريضها وسور دون قلعتها"^(٣).

التسمية:

سميت هذه القلعة باسم صهيون نسبة إلى قرية مجاورة عرفت بهذا الاسم ونسبة إلى روبرت سيد صون الصليبي من أمراء أنطاكية في القرن ٦هـ/١٢م عرفت بقلعة صلاح الدين أي باسم محررها.

تاريخها:

كان الحصن تابعاً للدولة الحمدانية في حلب في منتصف القرن ٤هـ/١٠م إلى أن احتلها البيزنطيون أثناء غزوهم لسورية ٣٦٤هـ/٩٧٥م وبقيت بأيديهم إلى حين قدوم الفرنج^(٤) وظلت كذلك إلى أن حررها صلاح الدين في ٢٩ تموز سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م^(٥) بعد أن بقيت في قبضتهم قرابة سبعين عاماً.

(١) أبو الفداء: تقويم، ص ٣٥٧/ رنسيان: المرجع المتقدم، ج ٣، ص ١٣٢.

(٢) ملاحظة: هناك كنيسة حملت الاسم نفسه كنيسة صهيون لكنها تقع في بيت المقدس وطولها حوالي الفرسخ.

ابن الفقيه: المصدر المتقدم، ص ١٦١/ الحموي: المصدر المتقدم، ص ٤٩٦.

في حين ذكر البغدادي بأن صهيون هو اسم جبل

البغدادي: المصدر المتقدم، مجلد ٢، ص ٨٦١.

(٣) الحموي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٩٦/ الأصفهاني: الفتح، ص ٢٤١.

(٤) الموسوعة السياحية: المرجع المتقدم، ص ٣٠٥.

(٥) انظر الفصل المتعلق بتحرير مدن الساحل الشامي.

حصنها البيزنطيون حوالي ٣٨٩هـ/١٠٠٠م بثلاثة أسوار سمكية،^(١) وبعدها احتلها الفرنج زادوا من حصانتها ومنعها فحفروا خندقاً في الجهة الشرقية منها ليفصلوا القلعة عن الهضبة تاركين في وسط الخندق عموداً يرتكز عليه جسر متحرك يصل إلى الهضبة بالباب المفتوح في واجهة القلعة الشرقية وبنوا فيها أبراجاً مربعة ومستديرة ضخمة للغاية بالإضافة إلى وجود كنيسة مسيحية قديمة تعملها الفرنج خلال مدة احتلالهم للقلعة^(٢) واسطبلات وخزانات للمياه وتركوا حدود القلعة في الشمال على حالها، وتفيد المصادر بأن موقع المدينة الواقع شرقي القلعة كان يسكنه عامة الناس في حين سكنت القلعة من قبل الملك وحاشيته الخاصة بهم^(٣).

قلعة المرقب Margat التسمية:

المرقب هو اسم الموضع الذي يرقب منه، بلدة وقلعة حصينة عظيمة تشرف على ساحل البحر المتوسط^(٤) وعلى مقربة من بانياس الساحل إلى الجنوب الشرقي منها بحوالي الفرسخ^(٥) وبين حصن المرقب وطرطوس ثمانية أميال^(٦) وكانت المرقب تشرف على الطريق من اللاذقية إلى طرابلس، وهذا ما جعلها على قدر كبير من الخطورة على الفرنج إذا ما بقيت في أيدي المسلمين وذكرت المصادر على أن الإسماعيلية عمروها من قبل رشيد الدين سنان عام ٤٥٤هـ/١٠٦٣م والحصن المعروف بالمرقب هو "حصن يحدث كل من رآه أنه لم ير

(١) ذكر الأصفهاني أن للقلعة خمسة أسوار وكأنها خمس هضاب وليس ثلاثة هذا يعني أنها زيدت إلى خمسة فيما بعد من أجل الزيادة في الحصانة.

الأصفهاني: المصدر المتقدم، ص ٢٤١.

(٢) أناسيو: المرجع المتقدم، ص ٥٧٧.

(٣) الموسوعة السياحية، المرجع المتقدم، ص ٣٠٦.

(٤) القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ١٥١.

(٥) أبو الفداء: تقويم، ص ٣٥٥/ البغدادي: المصدر المتقدم، مجلد ٣، ص ٢٥٩/ ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ٢٦٧/ ابن بطوطة: المصدر المتقدم، ص ٢٩٤/ القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٥٠.

(٦) الإدريسي: المصدر المتقدم، مجلد ٢، ص ٦٤٤.

مستله^(١) أبداً إذ أنها تشكل صلة وصل بالعين المجردة مع قلاع القدموس والعليقة وأرواد ومرقية^(٢) وتصدعت إثر الزلازل التي ألمت بها فأعيد ترميمها وأضيف إليها الأبراج والتحصينات.

احتلها الفرنج الصليبيون سنة ٥٠٥ هـ/ ١١٢٠م^(٣) ثم أصابها زلزال مدمر دمر هضماً منها، وفي عام ٥٩٦ هـ/ ١١٨٩م منح بوهمند المرقب إلى الاسبتارية^(٤) فسلمها ليوحنا^(٥) فرممها وامتوا بها كونها ثغراً منيعاً فوق رأس جبل هق يزيد ارتفاعه ٥٠م فوق سطح البحر.

"وكان على الناس منه ضرر عظيم"^(٦) فأصبحت قلعة المرقب القاعدة الأولى والأكثر أهمية لدولة الاسبتارية وهو من حصونهم التي لا ترام ولا يحدث أحد منه بملكه لعلوه وامتناعه وهو للاسبتار^(٧) وبقيت القلعة بأيديهم حتى فتحت على يد السلطان الملك المنصور قلاوون في ٢٧ آيار عام ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥م^(٨) وبدأ القلعة بأبراجها الأربعة عشر القائمة على سور هائل وكأنها بذلك سفينة ملاقة حطت على ذروة الهضبة العالية لتسرف على البحر. للقلعة سوران خارج الحصن وجد "ربض ينزله الغرباء ولا يدخلون قلعته"^(٩) خططت القلعة لتوعب ألف شخص عدا الحامية مع مؤونة تكفيهم مدة خمس سنين، كما شيد سورسان الاسبتاريون بداخل القلعة كنيسة ٥٧٩ هـ/ ١١٨٦م وغيرها إضافة إلى برج يدعى برج الصبي المطل على الطريق الساحلي لحماية مرفأ القلعة هذا عدا من الآبار والمطاحن والمساكن،^(١٠) عاشت القلعة عهد ازدهار ورخاء في أيام

(١) الحموي: المصدر المتقدم، ج ٥، ص ٢٧/ البغدادي: المصدر المتقدم، ص ٩-١٢.

(٢) الموسوعة السياحية، المرجع المتقدم، ص ١٤٢.

(٣) العظمي: من خلال الموسوعة، ج ١١، ص ١٥٦.

(٤) عادل زيتون: تاريخ المماليك، ص ٤٧.

(٥) ابن قاضي شهاب: المصدر المتقدم، ص ١٤١.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٤٩.

(٧) ابن بطوطة: المصدر المتقدم ص ٢٩٤/ العظمي: المصدر نفسه، ص ١٥٦.

زيتون: المرجع المتقدم، ص ٤٧.

(٨) ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص ٢٩٤.

(٩) الموسوعة السياحية: المرجع نفسه، ص ١٤٢.

الفرنجة الصليبيين، والمرقب اليوم هي قرية في منطقة بانياس تتبع لمحافظة طرطوس^(١).

قلعة الحصن

فوق جبل شامخ أشم وعلى ارتفاع يزيد عن ٦٥م تجثم قلعة حصينة غربي حمص بحوالي ٦٥كم، و٧٥كم عن طرطوس إلى الجنوب الشرقي منها هي قلعة الحصن^(٢) أو حصن الأكراد وهو بلد صغير^(٣) في شعاب وادي النصاري وسط سورية^(٤) يصل هذا المكان سهول البلاد الداخلية في وادي العاصي، كما أنها على اتصال مباشر بالنظر مع قلعة صافيتا المجاورة لها والتي من خلالها يغرون على حمص وحماة وهو بمرأى العين منهما^(٥).

التسمية:

سميت بالعربية قلعة الحصن، والحصن مأخوذ من الحصانة أي المنعة^(٦) كما سمي بحصن الأكراد نسبة إلى أمير حمصي ابتناه ووضع فيه حامية من الجنود الأكراد سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م^(٧).

أما الفرنجة فقد أطلقوا عليه اسم الحصن أو كراك ويبدو أن اللفظة محرفة من لفظة الأكراد، وحينما سكن الحصن فرسان المشفى الاسبتارية تسمى crades opital أي حصن الاسبتارية أما التسمية الأجنبية الحديثة فهي حصن الفرسان أو كراك دي شفالیه^(٨).

(١) أثاسيو: المرجع المتقدم، ص ٧٦.

(٢) أبو الفداء: تقويم، ص ٣٥٩/ القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤ ص ١٤٦.

(٣) الحموي: المصدر المتقدم، ج ٢ ص ٣٠٤/ أثاسيو: المرجع نفسه، ص ٥٦٩.

(٤) ابن بطوطة: المصدر المتقدم، ص ٢٦٦.

(٥) فولفغانغ: المرجع المتقدم، ص ٧٦.

(٦) ابن جبير: المصدر المتقدم، ص ٢٢٩.

(٧) الحموي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤/ فولفغانغ: المرجع نفسه، ص ٧٦.

(٨) ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص ٢٦٦/ حتى: تاريخ لبنان، ص ٣٤٦.

(٩) فولفغانغ: المرجع نفسه، ص ٧٦/ أثاسيو: المرجع نفسه، ص ٥٦٩٨.

أهميتها:

من أشهر قلاع القرون الوسطى في العالم، وتعد من أفضل نماذج التحصينات في المشرق لضخامتها واتساع المنطقة المسورة وحصانتها إذ أنها صمدت الفرنج عن كثير من غاراتهم^(١) فهي تتحكم في معبر استراتيجي يصل بالبحر بالسهول الساحلية السورية.

تشرف أبراجها العالية على مسافات واسعة حيث تمكن رؤية بحيرة حمص البحر وميناء طرابلس وبرج صافيتا وحصن المرقب وعكار نظرياً إذ كانت تتم على أعلى الحصن تبادل الإشارات والرسائل والتحذير... الخ ويمكن أن يرى شرقي الحصن سهل البقعة (أعزاز) الذي يخترقه وادي النهر الكبير المتواجد كما كانت القلعة من طليعة الحصون التي أنشئت لتسيطر على المعابر مثل مصياف والقدموس والكهف والخابي وكذلك قلعة الشقيف^(٢)، تمتاز القلعة بشعبها وأطلال بقاياها فتبدو وكأنها مكتفية بذاتها وحاجاتها، شيدت من الأحجار الكلسية فوق قاعدة صخرية بركانية بارزة اتخذت شكل مضلع غير منتظم الطول تبلغ مساحتها حوالي ثلاثة هكتارات طول قطره الكبير ٢٠٠م/أما الصغير فيبلغ قطره ٤٠م أجري عليها عدة توسعات وترميمات نتيجة للهزات الأرضية التي تعرضت لها المنطقة على مر الأزمان فأعيد بناء أبراجها وسورها^(٣) وينتصب ثلاثة أبراج نصف دائرية ضخمة تقع في الواجهة الجنوبية للقلعة العلوية تشرف على الدفاعات الخارجية للقلعة^(٤) تستوعب القلعة حامية لا تقل عن ألفين مقاتل مع خيولهم ومؤنهم التي تكفي لمقاومة الحصار مدة خمس سنوات^(٥)، وللقلعة حصنان داخلي وآخر خارجي^(٦).

(١) الحوي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٣٠٤.

(٢) أنثاسيو: المرجع المتقدم، ص ٥٦٩.

(٣) فولفغانغ: المرجع المتقدم، ص ٧٦.

(٤) أنثاسيو: المرجع نفسه، ص ٥٦٩.

(٥) فولفغانغ: المرجع نفسه، ص ٧٧.

(٦) للمزيد من المعلومات: أنثاسيو: المرجع نفسه ص ٥٧٠/ المعجم السوري: المرجع المتقدم، ص ٧٥.

تاريخ القلعة:

في عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م احتل الفرنج الحصن لمدة قصيرة وهم في طريقهم إلى القدس لكن سرعان ما استردته حاميته بعد مضي الفرنجة واستطاع الفرنجة أن يستعيدوه فيما بعد سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م الفرنجة واستطاع الفرنجة أن يستعيدوه فيما بعد بقيادة أمير أنطاكية تنكريد^(١) وفي عام ٥٠٥هـ/١١١٢م تمكن القلعة كونت طرابلس ريموند الثاني في عام ٥٠٨هـ/١١١٥م هاجمها ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل السلجوقي وحاصرها لمدة قصيرة ثم عاد بعدما انس من ذلك، وفي عام ٥٣٥هـ/١١٤٢م تخلى ريموند الثاني عن الحصن إلى أخويه فرسان الاسبتارية وجميع ما يحيطها من أراضي وإقطاعات في شمال شرق القلعة أما مالكة القديم غليوم دي كراتوم الحصيني فعوض عنه بمنحه إقطاعاً آخر من الأرض في مكان مغاير، ويبدو أن الاسبتارية قد مارست نشاطها في مقرهم الجديد حصن الأكراد على أوسع نطاق لأنهم اتخذوا الحصن نقطة ارتكاز رئيسية وانطلق لنشاطها تحتشد فيه قواتهم عند التخطيط لعمل عسكري كبير في المنطقة^(٢) في عام ٥٥٨هـ/١١٦٣م و٥٦٢هـ/١١٦٧م حشد نور الدين زنكي جيوشاً وسار إلى هذا الحصن لغزو ضواحيه^(٣) أما في عام ٥٦٢هـ/١١٦٩م و٥٦٣هـ/١١٧٠م.

فقد أصبح للداوية كما روى ابن قاضي شهبة في الكواكب مع حصن العريمة صافيتاً وهو المصدر الوحيد الذي أتى على ذكر ذلك وإذا كان هذا الأمر صحيحاً يفترض أن تكون المدة التي حكمت فيها الداوية هذا الحصن قصيرة على الأرجح، ويبدو أنه جرت عادة من قبل الحكام منع ملكية إقطاعاتهم إما لبعدها عن مكان حكمهم، أو تهرباً من تكاليفها الباهظة التي يتحملونها للدفاع عنها نتيجة

(١) الحريري: المصدر المتقدم من خلال الموسوعة، ج ٢٣، ص ٣٢٤.

(٢) فولفغانغ: المرجع المتقدم، ص ٧٧-٧٨.

(٣) ابن العبري: المصدر المتقدم، ص ١٧٦/ ابن قاضي شهبة: المصدر المتقدم من خلال الموسوعة الشامية، ج ٢٣، ص ١٦٠.

ابن الوردي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ١٠٤.

للكوارث التي حل بها^(١) فقد أعيد إعمار القلعة بعد الأضرار البالغة التي لحقت بها من جراء الزلازل المدمرة وتم ذلك بمساعدات مالية قدمها لهم ملك بوهيمية (فلايسلاس الثاني).

وفي سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م زحف صلاح الدين الأيوبي وقرر محاصرته فحاصره شهراً واحداً لكنه امتنع عليه^(٢).

وبقي الحصن بيد الفرنجة الصليبيين حتى سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٧١م أي حوالي ١٦٢ عاماً إلى أن أجلاهم المسلمون بقيادة الظاهر بيبرس، وبقيت القلعة محتفظة بمكانتها بعدما انتقلت إلى أيدي العرب وأصبحت مقراً لنائب السلطنة مركزاً لحامية كبيرة، فسكنها أهل المنطقة إلى أن أجلاهم عنها الاحتلال الفرنسي سنة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م.

قلعة يحمور أو (حصن وادي ابن الأحمر):

قلعة صغيرة تقع على طريق طرطوس ريفيه وتبعد مسافة ٢٠ كم غربي خبافيتا وإلى الجنوب الشرقي من طرطوس بحوالي ١٨ كم، وتشرف القلعة على سهل الساحلي من طرطوس إلى جبل لبنان، وتتألف من طابقين الطابق العلوي وفيه صالة ضخمة يطل مدخلها على سطح الطابق الأرضي.

أما الطابق الأرضي فيحتوي على صالة مساوية للصالة العلوية ويحيط بها من الجهة الغربية قاعة بطول ٧٠م تحمل البرج الصغير في أعلاها^(٣).

يحيط بالقلعة سور مربع الشكل يتوسطه برج مربع أيضاً ارتفاعه ١٥م^(٤) منح ريموند الثالث هذا الحصن لفرسان الاسبتارية سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٧م عرفاناً الجميل لهم لإسهامهم في دفع القسط الأكبر من فديته حيث كان هذا الحصن من

(١) ابن قاضي شهبة: المصدر المتقدم، ص ٢٦٤.

(٢) ابن العبري: المصدر المتقدم، ص ٢١٣.

(٣) الموسوعة السياحية: المرجع المتقدم، ص ١٤٦.

(٤) أناسيو: المرجع المتقدم، ص ٥٧٢.

جملة الحصون الساحلية التي حررها صلاح الدين عام ٥٨٤هـ/١١٨٧م^(١).

قلعة المهالبة أو (حصن بلاطنس)

يقع على قمم جبل النصيرية^(٢) وعلى بعد ٤٠ كم شرقي اللاذقية بين اللاذقية وبلد برزية، بناه قوم من بني الأحمر^(٣) يرتفع عن سطح البحر حوالي ٧٥٠ م اسم بلاطنس اسم مشتق من اللفظة الفرنجية Platanus كان من أعمال حلب بيه نائب وقاض من طرابلس، ويعد هذا الحصن من مضافات جبلة^(٤) قال عنه ياقوت الحموي في معجم البلدان بأنه "حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية"^(٥) بني الحصن فوق كتلة صخرية شاهقة وبهندسة معمارية متناهية في الدقة والجمالية على طريقة الأقواس التي تحمل السقوف، يحيط بالقلعة سور ضخام مبني على الحجر المنحوت ويبلغ عدد أبراجها اثني عشر برجاً متوزعاً حول القلعة لضرورات دفاعية كالمراقبة ولرمي السهام والنبال أما الطابق الأرضي من القلعة فيحوي على مستودعات وخزانات للمياه وممرات وسرايب، كان هذا الحصن من جملة الحصون العظيمة^(٦) التي حررها صلاح الدين من الفرنجة سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م^(٧).

قلعة الحرمة:

تقع القلعة جنوب غرب صافيتا على بعد ١٥ كم جنوب شرقي طرطوس حوالي ٢٥ كم، وتتحكم القلعة ببوابة نهر الأبرش وفي أول المضيق على سهل مكاف.

(١) تاريخ ابن أبي الدم: المصدر المتقدم، ج ٢١، ص ٢٦٨

(٢) الأنطاكي: المصدر المتقدم، ص ٤٢٠ - ص ٤٢١

(٣) ابن الشحنة: المصدر المتقدم، ص ٥٦٧/ الموسوعة المباحية: المرجع المتقدم، ص ٣٧

(٤) ابن الشحنة: المصدر نفسه، ص ٥٦٧/ الحموي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٥٦٦

(٥) الحموي: المصدر نفسه، ص ٥٦٦

(٦) المقرئ: المصدر المتقدم، ج ١، ص ٥٧٩

(٧) للمزيد من التفاصيل انظر الفصل المتعلق بالتحريز

التسمية:

سميت بالعربية أرايمة وبالأجنبية أريما

تاريخها:

قلعة قديمة يرجع تاريخها إلى أوغاريت^(١) كانت إبان الاحتلال الفرنسي مرة حفيد ريموند الصنجيلي واسمه برتران الذي أسر مع أخته بجيلة ٥٤٢هـ / ١١٤٩م حررها نور الدين زنكي ٥٦٢هـ / ١١٦٦م من الداوية^(٢) حدثت هزات أرضية أودت بمعظمهم ٥٦٦هـ / ١١٧٠م، فرجع نور الدين إليها وأطبق على قلعتها ثم استرجعها فرسان الهيكل إلى أن حررت نهائياً على يد الظاهر بيبرس سنة ٦٨٠هـ / ١٢٧١م.

أقسامها:

تضم القلعة عدة أسوار وما تزال أساسات المنازل واضحة بالإضافة إلى برجين من الحجر الكلسي مع بعض الغرف والقاعات الطويلة يمكن أن يشاهد منها برج صافيتا بوضوح بالإضافة إلى رؤية قلعة طرابلس في لبنان وقلعة أرواد وبرج ميعار^(٣).

قلعة أرواد الساحلية:

وتقع القلعة المركزية في وسط الجزيرة بنيت على صخرة طبيعة ويعتقد أنها أقيمت مكان برج أو حصن للمراقبة أقدم زمناً منها يعود إلى حقبة الحروب الصليبية، يحيط بالقلعة سور قديم يقوم على حماية الجزيرة من العواصف البحرية ومن غارات المعتدين عليها^(٤) ظهر فيها الداوية بعد أن استولى بلدوين الثالث سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م ثانياً على طرطوس ومنحهم إياها^(٥) فكانت مركز

(١) الموسوعة السياحية: المرجع المتقدم، ص ١٤٦.

(٢) ابن قاضي شهبة: المصدر المتقدم، ج ٢٣، ص ٢٦٤.

(٣) أنثاسيو: المرجع المتقدم، ص ٥٧٤.

(٤) إسماعيل: المرجع المتقدم، ص ٢١٤ / الموسوعة السياحية: المرجع نفسه، ص ١٣١ - ١٣٢.

(٥) أبو شامة: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ١٧.

للقيادة وبعد معركة حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م تمكن صلاح الدين كما أسلفنا القول من استعادته معظم الموانئ على الساحل باستثناء طرطوس وأرواد استطاع أن يحتل المدينة فقط لكنه لم يتمكن من أبراجها بحيث احتوى فرسان الأخوية في أحد الأبراج وركزوا دفاعهم فيه، بالإضافة إلى الدعم المستمر لهم من البحر من بنيادتهم المتمركزة في جزيرة أرواد^(١) وهكذا بقيت الداوية في هذه الجزيرة وظلوا تحصينين فيها محافظين على موقعهم اثني عشرة سنة بعد هروب فلول الفرنجة من عكا إلى طرطوس وغيرها سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م ولم يغادروا الجزيرة إلا سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م^(٢).

قلعة مرقية:

عرفها يا قوت الحموي على أنها قلعة حصينة من سواحل حمص تبعد عن طرطوس ٢٠ كم، كانت قد خربت فجدها معاوية رتب بها الجند وأقطعهم القطائع.

التسمية:

يقال إن مرد هذه التسمية نسبة إلى إبراهيم بن هبة الله أبو إسحاق القرشي الطرابلسي المرقاني فنسبت إليه^(٣) أما البغدادي فيقول إن تسميتها مشتقة من مرق^(٤) وسميت بعد ذلك بخراب مرقية^(٥) نسبة إلى الخراب الذي حل بالحصن واليوم تسمى بالشرفة^(٦).

قامت القلعة على أنقاض قلعة رومانية قديمة، وكانت على الدوام حصناً منيعاً يحمي المدينة من الغزاة الطامعين بالإضافة إلى دورها الحربي، كان لها دور تجاري لأن مرقية عدت عكاز الغرب ونافذة للشرق.

(١) حجازي: المرجع المتقدم، ص ٢٩٢.

(٢) أبو الفداء: المختصر، مجلد (٢)، ص ٥٧/الحنين بن عمر: المصدر المتقدم، ص ٢٥٢/

رئيسمان: المرجع المتقدم، ج ٣، ص ٧١١، ٧١٢.

(٣) الحموي: المصدر المتقدم، ج ٥، ص ١٢٨/الموسوعة السياحية: المرجع المتقدم، ص ١٤٨.

(٤) البغدادي: المصدر المتقدم، مجلد ٣، ص ١٢٦.

(٥) الأنطاكي: المصدر المتقدم، ص ٣٥٢.

(٦) الموسوعة السياحية: المرجع نفسه، ص ١٤٨.

تاريخ القلعة: تعود القلعة إلى أيام الفينيقيين والكنعانيين وإن استعملها كل من اليونانيين والمسلمين والفرنجة والفاطميين دل على ذلك العثور على قطع فخارية ولقى أثرية فيها، وهي لا تقل أهمية عن بقية القلاع الساحلية الأخرى، تحتوي القلعة على برج حربي لكنه يعود إلى عهود متأخرة أيام المماليك، فإذا كانت القلعة قد بنيت لحماية المدينة فقد بني البرج لحماية القلعة والمدينة معاً.

وعند قدوم الفرنجة الصليبيين أنهكهم احتلالها وبعد جهد جهيد استسلمت حاميتها لهم وأضافوا إليها الجناح الحربي مثلما فعلوا بقلعة المرقب وأكثرها من أبراجها وحاميتها والأبراج المجاورة لها^(١) وحصنوا الأسوار سنة ٥٢٣هـ/ ١١٣٠م في عهد القائد الفرنجي المازوري أو رينو مازوير *Renond masore* قرب بوهمند بحصن المرقب وبمساعدة بوهمند نفسه^(٢)، وعندما أعلن صلاح الدين الحرب على الفرنج تجمعت جيوشه في حطين فكانت الفصيل الفاصل في تاريخ هذه الحروب ومن نتائج هذه المعركة أن أسر حاكم مرقية ولیم سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م وبعد معركة حطين رُهنت المدينة وتبعت إلى حكام صفد نتيجة لليون الصليبية المتراكمة إلى الاستتارية.

كانت القلعة ومينائها نافذة يطل منها الفرنجة على أوربة بالإضافة إلى كون بناء هذه المدينة من أنشط الموانئ حركة حتى صور، كما كانت القلعة ملجأ لفرسان الصليبيين القاصدين من طرابلس والقادمين إلى المرقب لأنها القلعة الوحيدة على الساحل بعد البترون لذلك حصن الصليبيون أبراجها وعملوا على تعزيز حاميتها من هذه الأبراج أبراج صغيرة تستوعب حوالي المئة محارب أما أبراج الجبلية فكانت نقطة إشارة أو استعمال للأبراج الساحلية الأخرى^(٣).

(١) الياس يعقوب: عكا الساحل (خراب مرقية)، حصص، ط ١٩٩٠م، ص ٣٠.

(٢) عطية: المرجع المتقدم، ص ١٩٩.

(٣) يعقوب: المرجع نفسه، ص ٣١.

برج طافيتا

الموقع:

يقع وسط سورية بين طرطوس وقلعة الحصن^(١) فهي بذلك صلة وصل وتسيطر على حصون وقلاع جبال النصيرية^(٢).

التسمية:

تسميته بالبيزنطية أرجيرو كاسترون وقد تعني القلعة الفضية أو الحصن الفضي أما الفرنجة الصليبيون فسموه بالحصن الأبيض والقصر الأبيض^(٣) لكن بعضهم يعزي أن هذه التسمية أطلقها الفرنج على البرج وليس على القلعة، وتوسط القلعة برج أثري مستطيل الشكل يبلغ ارتفاعه ٢٨م، شيده الصليبيون بطو مركز البلدة يرتفع عن سطح البحر ٤٠٠م.

تبعد القلعة عن طرطوس ٢٧كم إلى الجنوب الشرقي منها ويتألف البرج من باقين الأول تحول إلى كنيسة لا تزال قائمة إلى الآن يصعد إليها بدرج حجري الجهة الشرقية ويستند على جدران ضخمة^(٤).

أما الطابق الثاني مهمته دفاعية وهو عبارة عن صالة مفتوحة منها منافذ مرامي للسهم بلغ عددها حوالي عشر مرامي في نهايتها قبة تستند على ركائز مصلبة، أما السور فقد تعرض للهدم على مر الأيام ولم يبق منه إلا بعض أجزاء^(٥).

استولى الصليبيون على القلعة حيناً من الزمن ثم حرره وهدمه نور الدين

الصغير: المرجع المتقدم، ص ١٢١.

(٢) أثاسيو: المرجع المتقدم، ص ٥٧٢.

(٣) دي فترى: المصدر المتقدم، ج ٣٤، ص ١٤١.

أولفر: المصدر المتقدم، ج ٣٤، ص ٧٦، ٧٧.

الموسوعة السياحية: المرجع المتقدم، ص ١٤٣.

(٤) أثاسيو: المرجع نفسه، ص ٥٧٢، ٥٧٤.

(٥) قتيبة الشهابي: هنا بدأت الحضارة، ط ١٩٨٨م، ص ٢٤٤.

الزنكي سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٦م وقيل سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م^(١). فاسترجعه الصليبيون ثانية وكان تحت تصرف فرسان المعبد (الداوية) وكانت من أقوى الحصون التي تملكها هؤلاء ينطلقون منها بغارات على البلاد الإسلامية^(٢) وفي سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٨م دمر صلاح الدين جوار صافيتا وأوصلها إلى حالة من الضعف^(٣) وبقي كذلك إلى أن حررها الظاهر بيبرس سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٧١م^(٤) وصافيتا اليوم مدينة مزدهرة ومركز منطقة في محافظة طرطوس.

قلعة المنيقة (وادي القلع):

قلعة منيعة تقع على جبل مرتفع^(٥) تبعد عن اللاذقية ٦٣ كم وعن جبلة ٣٧ كم. انضم إلى الآن مبان بيزنطية وفرنجية وإسلامية بنيت فوق جبل صخري وعمر المسالك وحصين، وتحتوي على برج رئيسي وبرج للمراقبة بالإضافة إلى خزان ماء وسلام، وكذلك حوت على اسطبل للخيل في الطابق الأرضي وقاعات للجنود.

يبلغ طول قاعدتها ٤١ م وسماكة جدرانها ٢٢ م أما محيطها العام ٤٨٩ م تشبه هذه القلعة من حيث طريقة بنائها قلعة صلاح الدين مما يؤكد على تواصلها التاريخي معها^(٦).

حصن القصير:

حصن حصين في جبل النصيرية جنوب أنطاكية والقصير تصغير لقصر من أعمال حلب على نحو أربع مراحل منها وهي لأنطاكية^(٧) وقد أطلق عليه الصليبيون اسم كورزات Cursat وبقي بأيديهم إلى أن حرره بيبرس سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م^(٨).

(١) ابن قاضي شهبة: المصدر المتقدم، موسوعة ج ٢٣، ص ٢٦٤.

(٢) ابن شداد: الفوائد، ص ٧٧/ حاج مجهول قبل ١١٨٧م: المصدر المتقدم، ص ٣٨.

(٣) أولغر: المصدر المتقدم، ج ٣٤، ص ٧٦-٧٧.

(٤) ابن شداد: الأعلام، ص ١١٩/ الصغير: المرجع المتقدم، ص ١٤١/ أناسيو: المرجع المتقدم، ص ٥٧٣.

(٥) القلقشندي: المصدر المتقدم، ج ٤، ص ١٥٢.

(٦) الموسوعة الميمنية: المرجع المتقدم، ص ٣٨.

(٧) القلقشندي: المصدر نفسه، ص ١٢٧.

(٨) ابن بطوطة: المصدر المتقدم، ص ٢٨٥.

حصن سليمان:

حصن قديم يقع جنوب جبال اللانقية على مسافة ٤ كم شرقي دريكيش و ٥ كم عن طرطوس بارتفاع ٨٠٠م^(١) يعود تاريخه إلى القرن ٥ ق.م وكان من مملكة أرواد ومعبدا لسكانها، وهو أكبر هيكل للإله المحلي عشتار الذي عرف قديماً بمعبد البعل^(٢) يحيط بالمعبد سور مستطيل طوله ١٤٤م وعرضه ٩٠م شيد بالحجارة ضخمة ينفذ إليه من أضلاعه الأربعة بوابات مزينة بزخارف وكتابات ومحاريب صدفية جميلة مع ربات النصر ويقع المدخل الرئيسي في المضلع الشمالي يصل من الداخل إلى المعبد بدرج يتخلله سطحيتان فوق إحداهما لتقديم النذور وفي شمال المعبد الوثني أطلال كنيسة أطلق عليها اسم الدير وكانت كنيسة في العهد البيزنطي سنة ٢٥٠م وعليه كتابة تعود إلى سنة ١٧١م وتشير إلى السكان الذي بنوا المعبد من أموالهم الخاصة كتقدمة إلى الآلهة أما الباب إلى الشمالي فوجد عليه كتابة محفورة تعود إلى عام ٢٥٠م توضح الامتيازات التي منحها الإمبراطورات الرومانيان فاليريانوس وغاليانوس للسكان بينما بني الباب الجنوبي بطراز هلنستي وبشكل قوسي نصر يحملان كورنثياً رائعاً في زاويتي وجه الشمالي للسور يوجد نقشاً لأسدين وعلى الوجه الشمالي الغربي وجد مثال شجرة نخيل منقوشة.

حصن بكسراثيل (بني قحطان):

حصن يقع فوق جبل منيع على الطريق بين حماة وجبله "وهو من أمنع جبال وأشققها مسلكاً وفيه حصن يعرف بكسراثيل"^(٣) عرفه ياقوت الحموي على أنه من سواحل حمص مقابل جبله^(٤) حوالي ٢٠ كم أما عرضها فيبلغ ٥٧ متراً. يحيط بالقلعة سور محصن ببعض الأبراج أهمها البرج الرئيسي له شكل شبه

(١) أناسيو: المرجع المتقدم، ص ٥٧٥

(٢) الموسوعة السياحية: المرجع المتقدم، ص ١٤٧

(٣) ابن الأثير الكامل ج ١٠، ص ٤٩/ ابن شداد: الأعلام، ص ١٤٦، ١٤٤، ١٤٠

(٤) الحموي: المصدر المتقدم، ج ٢، ص ٥٦٢

منحرف وفيه برج المراقبة وهناك البوابة الغربية التي بنيت على شكل قوس مقنطر كبير لا يزال يحافظ على شكله حتى الآن^(١).

بنى البيزنطيون تحصينات القلعة الأولى عام ٤٢١هـ/١٠٣٠م وفي عام ٥٠٤هـ/١١١١م احتلها الفرنجة بقيادة تنكريد^(٢) فشيّدوا فيها بعض التحصينات القوية وبقوا فيها حوالي عشرين سنة إلى أن استولى عليها سكان الجبل (أهل هراء) من يد القائد الفرنجي المازوير سنة ٥٢٥هـ/١١٣٢م^(٣).

لكن الطريق إلى هذا الحصن كان صعب المرور عليه في تلك الحقبة "وكان الناس يلقون شدة في سلوكه"^(٤) ومع ذلك فقد بقي من جملة الحصون والمدن الساحلية الشمالية التي حررها صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م.

(١) الموسوعة السياحية: المرجع المتقدم، ص ٣٩.

(٢) العظمي: المصدر المتقدم من خلال الموسوعة ج ١١، ص ١٥٦.

(٣) العظمي: المصدر نفسه، ص ١٧٤.

(٤) ابن الأثير: المصدر المتقدم، ص ٤٩.

خاتمة

وفي النهاية لا أدعي بأنني وفيت الموضوع حقه من الدراسة، لكني وإن تعثرت قليلاً أو لم أحقق الأمثل فإنما يعود ذلك إلى قلة المعلومات بالنسبة إلى ضخامة الموضوع والمكانة التي يشغلها لذا اكتفيت بالإشارة السريعة إلى المعلومات حين الافتقار إليها سواء في المصدر أو في المرجع علها تفي بالغرض المطلوب قدر المستطاع.

ومن خلال دراستي لهذا البحث توصلت إلى عدة نتائج هامة منها:

— كانت المدن الساحلية في الساحل الشامي الأعلى على مر الأزمان هدفاً للغزوات والهجمات المباغتة ابتداءً من أنطاكية في الشمال حتى الجنوب بسبب موقعها الجغرافي الممتاز والاستراتيجي الهام بين القارات الثلاث القديمة، فكانت جسر عبور لتأثيرات الحضارية منها وإليها عبر نافذتها المشرفة على البحر المتوسط كما أن احتلالها يؤمن نوعين من الحماية:

أ — الحماية البعيدة عن طريق احتلال الجزر القريبة من السواحل (أرواد) ووضع جامية فيها تقوم بواجبات الرصد والإنذار والتعرض للأساطيل المهاجمة عنها عن طريق أسطول يتحرك باستمرار على الشواطئ لحمايتها.

ب — الحماية القريبة وتكون من خلال إقامة حاميات في المدن الساحلية المتمركز قريباً من الشواطئ هذا إلى جانب غنى الإقليم بمظاهر الحياة الطبيعية لا سيما في مجال المياه والزراعة والمواد الأولية الهامة في الصناعة المحلية.

أما على الصعيد التجاري فلم يذكر المؤرخون سوى الأماكن والمدن ذات الأهمية الكبيرة للتجارة مثل اللاذقية وجبله وطرطوس التي بفضلها نشطت حركة المبادلات التجارية، لكن النزاعات والصراعات والمعارك كانت بلا شك عاملاً من العوامل المباشرة المؤثرة على زيادة حركة التجارة أو بطئها لهذا سعى الفرنجة الصليبيون ومنذ البداية إلى احتلالها لكن ذلك لا يعني مطلقاً أن المدن الداخلية لم تكن تعنيهم البتة أو لم تكن هدفاً لهم لأنها لم تقع بأيديهم لا بل كانت هذه المدن هدفاً لغارات شنت عليها بين الحين والآخر وأجبرتهم أحياناً على دفع

الجزية والخراج شأن دمشق ومصر وغيرها.

وعلى الرغم من تنوع السيطرة الأجنبية على المنطقة وتقسيماتها الإدارية المختلفة التي طبقها المحتلون والتي ارتبطت بالتبدلات الجغرافية والسياسية لبلاد الشام بشكل خاص بقيت لها شخصيتها المستقلة ووحدتها الجغرافية المتميزة تساعد في ذلك عروبة سكانها الوطنيين الذين بقوا متمسكين بجذورهم وأصالتهم المعهودة وهذه حقيقة ثابتة خالدة من حقائق التاريخ، فلم ينصهروا أو يتأثروا بالمحتلين الجدد أو غيرهم ممن تلاهم فكانت الغلبة في النهاية لهم .

— حمص كانت نقطة الانطلاق ومركز تجمع الجيوش الإسلامية الفاتحة لاسيما مدن الساحل كما كانت مركز الانطلاق لنور الدين حينما أراد تحرير مدن الساحل كانت كذلك بالنسبة لصلاح الدين الأيوبي فيما بعد وهذا عائد لعمقها وموقعها الاستراتيجي الهام وسط البلاد.

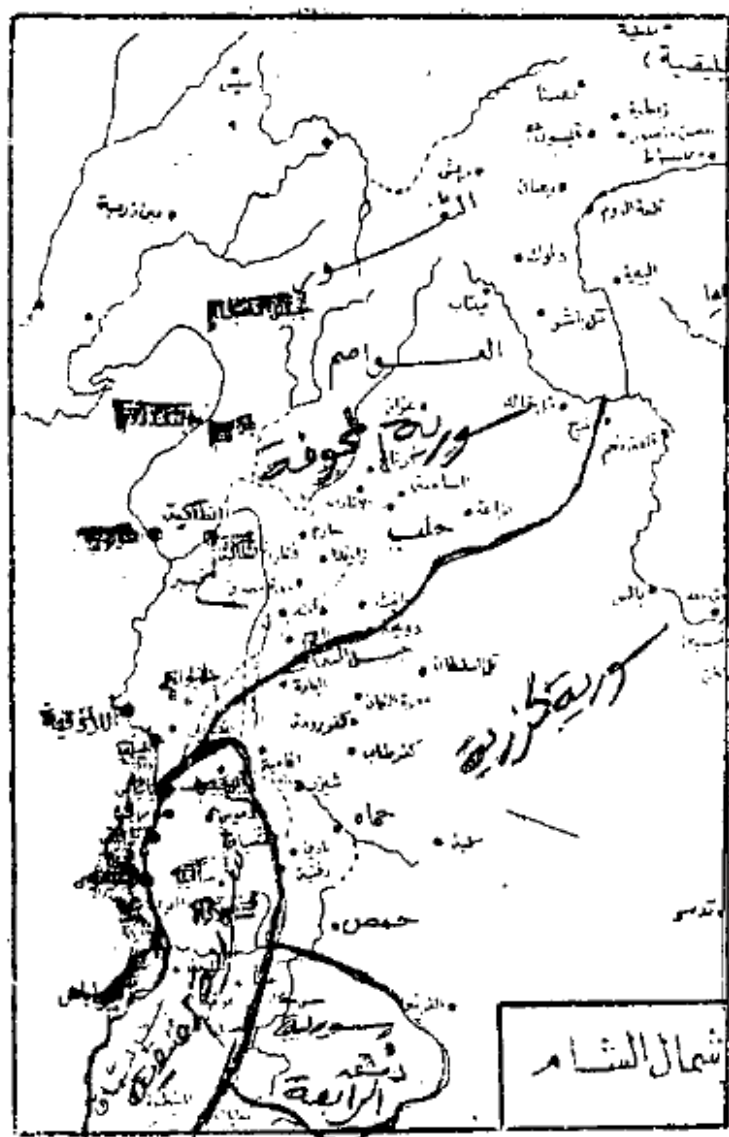
ثم زاد الأمر وعظم الشر إلى أن التقت الأسطورة بالتاريخ لتجعل من المعارك معارك تحرير برز خلالها المسلمون الأبطال مثل عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين في حقبة من أروع الحقب وأشدها إثارة في تاريخنا المشرق استطاع صلاح الدين خلال مدة وجيزة تحرير البلاد وإحراز النصر الكبير ساعده في ذلك قوة إيمانه بالله وبالوطن وتصميمه على تحرير البلاد.

— لكن المثير للانتباه هو وقوف كل من صلاح الدين ومن قبله نور الدين وإيلغازي بن أرتق عند أنطاكية وعدم إكمالهم فتحها وإن اختلفت أسباب كل واحد عن الآخر، فبعد أن أضحت أنطاكية ممهدة السبيل مجردة من أسباب قوتها ودفاعاتها ومع ذلك امتنعا عن تحريرها، فهل كان ذلك بمحض الصدفة أيضاً أم ماذا؟

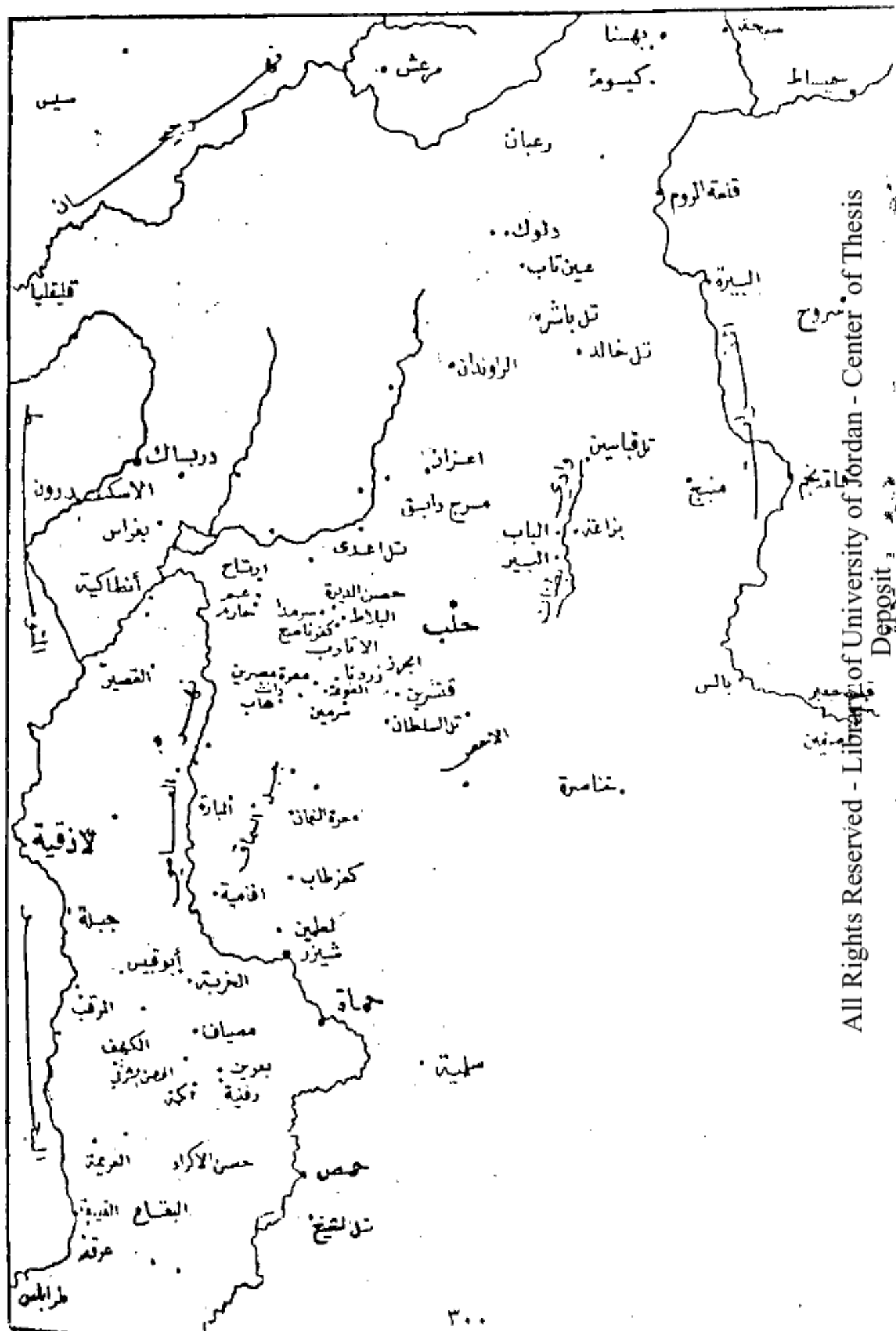
هذه الانتصارات كانت مدعاة للافتخار لدى الكثيرين لهذا تناولتها المصادر العربية بمزيد من الاهتمام والتفاصيل على خلاف بقية المعلومات الأخرى، لا سيما الاحتلال التي أفقدناها، وربما يعود هذا إلى أن التاريخ يكتبه المنتصرون وليس المنهزمون ففوة أية أمة في وحدتها وتوحيد صفوفها وإن خلافتها سبب ضعفها وتفككها، ونحن أمة المقاومة أمة البطولات العظيمة وأمة الحضارات

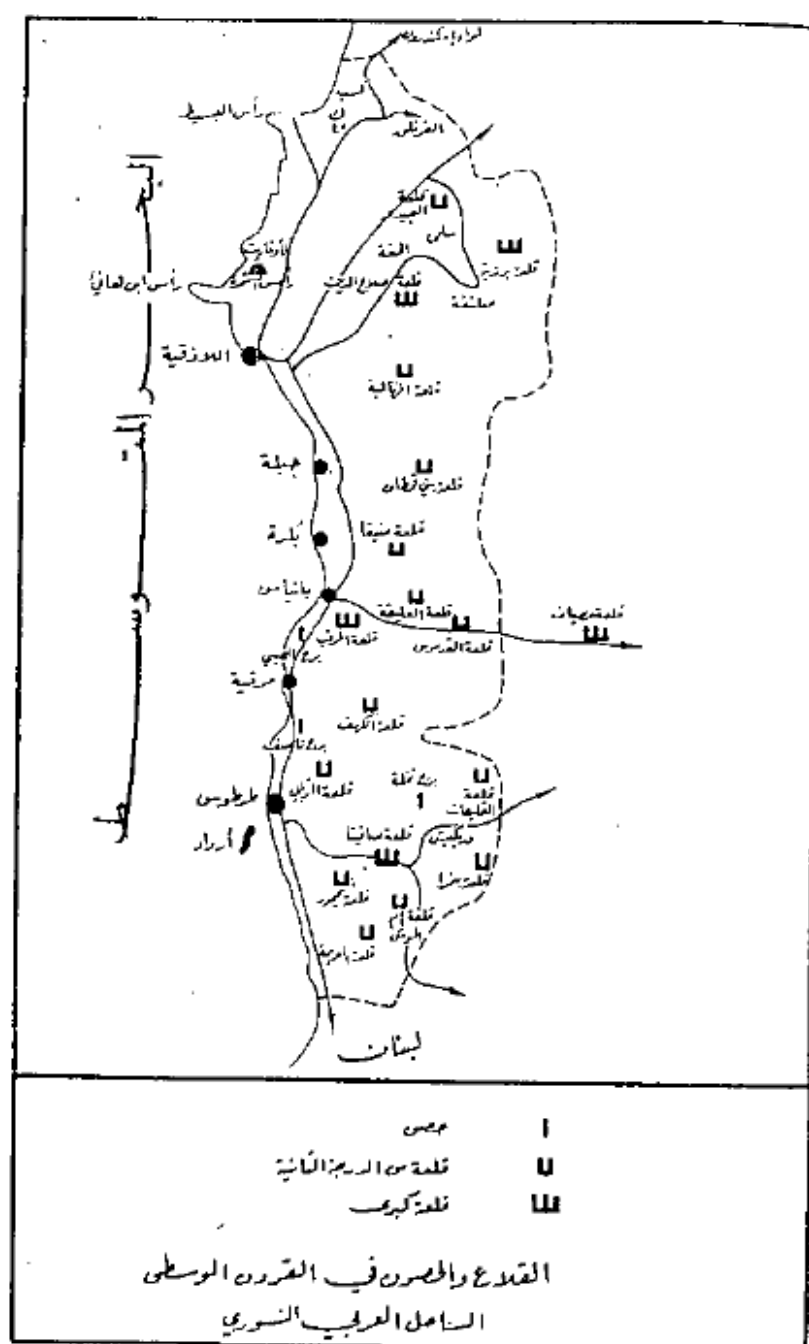
— أكثر المستفيدين بلا شك من هذه الحروب كانت الدويلات الإيطالية، فكما أسهمت منذ البداية في مساعدة الفرنج للاستيلاء على البلاد وإقامة الكيان الفرنجي على أرضها وترسيخ دعائمه، كانت سبباً في انهياره في بلاد الشام بسبب التنافس والتناحر بين بعضها من جهة وبين الفرنج من جهة أخرى، فبدلاً من توجه الحملة نحو مصر حول البنادقة تلك الحملة إلى القسطنطينية ليثاروا من الجنوية أصحاب العلاقات الطيبة مع البيزنطيين التي امتلكت أقوى أسطول شرقي البحر المتوسط، وكان همها يكمن في مدينتي انطاكية واللاذقية في شمال سورية لأهميتها التجارية وتحقيق مصالحها فيهما بالمقابل أدرك الفرنجة مدى حاجاتهم إلى مساعدة بيزنطة في مسألة نقل جيوشهم عند العودة إلى أوربة، أما بيزنطة فقد رأت في هذه الجيوش قوة مساعدة لها من أجل استرجاع أملاكها التي فقدتها على يد السلاجقة التركمان، أما القلاع والحصون التي تحصن فيها كلا الطرفين المتصارعين فبقيت جزءاً لا يتجزأ من تاريخ المنطقة السياسي والعسكري تبعث من روح الآباء والأجداد لتصل ما انقطع من ذاك التاريخ الثري بالعلم والمعرفة، فقد اتبع المسلمون عادة غريبه بعض الشيء هي هدم حصون وإخلاؤها خلال هذه الحقبة فعندما يدق ناقوس الخطر منذراً بقدوم حملة صليبية جديدة يسارع المسلمون ويعملون على تقويض الأسوار وهدم القلاع والحصون الساحلية وذلك من أجل منع الصليبيين من العودة إليها أو الاعتصام فيها، فإذا لم يستطيعوا منع هؤلاء من الدخول إلى هذه المعاقل فإنهم على الأقل سيحرمونهم من استخدامها كقواعد هجومية ضد المسلمين.

إن الصورة المأساوية التي يعيشها وطننا العربي لخير مثال على استمرار المد الصليبي إلى يومنا هذا المتمثل بالصهاينة في فلسطين والعدوان الأنجلو أمريكي على العراق لذا على العرب والمسلمين إذ أرادوا الانتصار على أعدائهم الأخذ بأهم سبب من أسباب النصر ألا وهو الوحدة بين أقطار الوطن الأم أقطار الوطن العربي الكبير.



الشام الشمالي





Medieval Castles and Citadels — Syrian Arab Coast

المصادر العربية:

- ١- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن محمد (٦٣٠هـ — ١٢٣٣م) "الكامل في التاريخ"، حققه د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط١ بيروت، ١٩٩٧م.
- ٢- "الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية"، من خلال الموسوعة الشامية تأليف سهيل زكار، ح ١٤، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٥م.
- ٣- الإدريسي: (أبو عبد الله محمد بن عمر بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني) "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٩.
- ٤- الاسيوطي: (جلال الدين عبد الرحمن الأسيوطي الشافعي) "لب الألباب في تحرير الأنساب" لوكتمانس ١٩٤٠.
- ٥- الأصفهاني (عماد الكاتب الأصفهاني) "الفتح القسي في الفتح القدسي"، تحقيق محمد محمود صبح، دار القومية، لم يرد مكان وتاريخ الطبع.
- ٦- الأصفهاني: (محمد بن محمد) "البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان"، لم يرد تاريخ ومكان الطبع.
- ٧- الأنطاكي: (يحيى بن سعيد الأنطاكي) "تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تواريخ ٤٥٨هـ/ ١٠٦٧م"، حققه أ.د. عمر عبد السلام التدمري، طرابلس، لبنان/ ١٩٩٠.
- ٨- البدر العيني: (بدر الدين محمد) "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان" من خلال الموسوعة الشامية، د. سهيل زكار، ح ٢٤، دار الفكر، دمشق ١٩٩٥م.
- ٩- البغدادي: (صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي) ٧٣٩هـ، "مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع"، تحقيق علي محمد البجاوي، ط٦، ١٩٥٤م.
- ١٠- ابن بسام المحتسب: (نهاية الرتبة في طلب الحسبة)، تحقيق حسام الدين السامرائي، حققه أ.د. عمر عبد السلام التدمري، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٨م. طرابلس لبنان ١٩٩٠م.

- ١٠- ابن بطوطة: (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد اللواتي الطنجي) "تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" حققه د. عبد الهادي التازي، الرباط ، ١٤١٧ هـ ١٩٩٧ م.
- ١١- البكري: (أبو عبيد البكري) "المسالك والممالك"، حققه د. أدريان فان بوفن وأندري فيري، الدار العربي للكتاب، تونس ١٩٩٢ جزأً.
- ١٢- البلاذري: (أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي)، "فتوح البلدان"، دار ابن خلدون، الاسكندرية.
- ١٣- ابن تغري بردي الأتابكي: (جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري)، "النجوم الزاهرة من ملوك مصر والقاهرة"، قدم له محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١، ١٩٩٢، ١٦ ج.
- ١٤- التونسي: (خير الدين) "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، تحقيق المنصف الشنوني، دار التونسية للنشر، لم يرد تاريخ الطبع.
- ١٥- الثعالبي: (أبي منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل ٣٥٠هـ- ٤٢٩هـ): "لطائف المعارف"، تحقيق إبراهيم الأبياري - حسن كامل الصيرفي، دار إحياء الكتب العربية.
- ١٦- ابن جبير: (أبو الحسن محمد بن أحمد جبير الكنايني)، "رحلة ابن جبير"، دار صادر، بيروت ١٩٥٩ م.
- ١٧- ابن الجوزي: (شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغي) "مرآة الزمان"، حققه د. إحسان عباس ، دار الشروق لم يرد تاريخ مكان وتاريخ الطبع.
- ١٨- الحريري: (أحمد بن علي) "الأعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاحين على ديار المسلمين" من خلال الموسوعة الشامية، ج ٢٣، دار الفكر، ١٩٩٥ م.
- ١٩- الحسن بن عمر: (ابن حبيب بن الحسن بن عمر بن حبيب) ب ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م، "تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه"، دار الكتب، ١٩٧٦ م.

- ٢٠- الحموي: (ياقوت) ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م "معجم البلدان"، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، دار صادر- بيروت، ط ١، ١٩٧١م.
- ٢١- الحميري: (محمد بن عبد المنعم الحميري) "الروض المعطار في خبر الأقطار"، حققه د. إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط ١، ١٩٧٥م.
- ٢٢- الحنبلي: (أحمد بن إبراهيم الحنبلي)، ت ٨٧٦هـ "شفاء القلوب في مناقب بني أيوب"، تحقيق ناظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، ١٩٧٨م.
- ٢٣- ابن حوقل: (أبو القاسم بن حوقل النصيبي) "صورة الأرض"، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م.
- ٢٤- ابن خرداذبة: (أبو القاسم عبید الله بن عبد الله بن خرداذبة)، "المسالك والممالك"، مطبعة بريل، لندن، ١٨٨٩م.
- ٢٥- ابن خلکان: (أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلکان) ت ٦٨١هـ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه د. إحسان عباس، دار صادر، لم يرد تاريخ الطبع.
- ٢٦- ابن أبي الدم: (إبراهيم بن عبد الله) "التاريخ المظفري" من خلال الموسوعة الشامية، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.
- ٢٧- ابن سباط: "صدق الأخبار"، حققه د. عمر عبد السلام التدمري، طرابلس، لبنان، ط ١، ١٩٩٣، جزآن.
- ٢٨- تاج الدين السبكي: "طبقات الشافعية" من خلال الموسوعة الشامية، ٢٣، دار الفكر، دمشق ١٩٩٥م.
- ٢٩- أبو شامة: (أبو القاسم عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي ت ٦٦٥ هـ) "عيون الروضتين في أخبار الدولتين"، حققه أحمد اليبسومي، منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٩١م.
- ٣٠- ابن الشحنة: (أبو الفضل محمد بن الشحنة محمد أبو الوليد ت ٩٢١ هـ) "الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب"، دار الكتاب العربي في سوريا، ١٩٨٤.

- ٣١- ابن شداد: (يوسف بن رافع بن تميم) "النوادر السلطانية"، تحقيق د. جمال الشيال، ط١، ١٩٦٤م.
- ٣٢- ابن شداد: (عز الدين محمد بن علي) "الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة" ج١ حققه دومنيك سورديل، ج٢ حققه يحيى عبارة، وزارة الثقافة دمشق ج١/١٩٥٣ ج٢، ط١، ١٩٧٨م.
- ٣٣- ابن العديم: (كمال الدين) ت ٦٦٠هـ "زبدة الحلب من تاريخ حلب"، حققه د. سهيل زكار، دار الكتاب العربي دمشق، ط١، ١٩٩٧م، جزآن، من خلال الموسوعة الشامية، ج١٦، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- ٣٤- الغنيمي: (مجير الدين الحنبلي العليني ٨٦٠ - ٩٢٧هـ) "الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل"، إشراف د. محمود علي عطا الله، تحقيق محمود عودة الكعابنة، مؤسسة الكتاب الثقافية، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م. مجلدان.
- ٣٥- الغزولي: "مطالع البدور في منازل السرور"، علاء الدين الدمشقي، القاهرة لم يرد تاريخ ومكان الطبع.
- ٣٦- الغزي: كامل البالى الحلبي: "نهر الذهب في تاريخ حلب"، مطبعة الصباح، ١٩٩١م.
- ٣٧- الفارقي: (أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق) "تاريخ آمد وميا فارقين" من خلال الموسوعة الشامية، ج٢١، دار الفكر، دمشق ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- ٣٨- أبو الفداء: (عماد الدين إسماعيل بن محمد المعروف بأبو الفداء) ت (٧٣٢هـ-) "المختصر في أخبار البشر"، دار الكتاب اللبناني، بيروت، طبع مدنيه باريس ١٨٥٠م "تقويم البلدان" دار الطباعة السلطانية، باريس ١٨٤٠م.
- ٣٩- ابن الفقيه: (ابي عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني)، "كتاب البلدان"، تحقيق د. يوسف الهادي، عالم الكتب، ط١، ١٩٩٦م.
- ٤٠- ابن قاضي شهبه: (تقي الدين أحمد) "الكواكب الدرية في السيرة النبوية"، تحقيق د. محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ١٩٧١م.
- ٤١- القزويني: (الإمام زكريا بن محمد بن محمود القزويني ١٢٠٣-

- ١٢٨٣م) "آثار البلاد وأخبار العباد"، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.
- ٤٢- ابن القلانسي: (أبو يعلى حمزة بن القلانسي ت ٤٦٤هـ - ٥٥٥هـ) "ذيل تاريخ دمشق"، تحقيق د. سهيل زكار، بيروت، مطبعة، الآباء اليسوعيين، ط ١٩٨٣، ١م.
- ٤٣- القلقشندي: (أحمد بن علي ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٣، ١٤ ج.
- ٤٤- ابن كثير: (أبو الفداء الحافظ بن كثير اسماعيل بن عمر)، "البداية والنهاية"، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٤م.
- ٤٥- الكرخي أو الاصطخري: (ابن اسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري، "المسالك والممالك"، تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحيني، دار الفلم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
- ٤٦- معجم المصباح المنير: حققه أ. يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط ٣، ١٩٩٩م.
- ٤٧- المقدسي: "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، حققه د. محمد فخروم، دار إحياء التراث، بيروت ١٩٨٧م.
- ٤٨- المقرئزي: (تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي) "السلوك لمعرفة دول الملوك"، نشرة د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٧٠م، ط ٢، ج ١، قسم ٣.
- "شذور العقود في ذكر النقود"، تحقيق السيد محمد بحر العلوم، دار الزهراء، بيروت، ط ٦، ١٩٨٨.
- ٤٩- ابن مماتي: (أسعد بن مماتي ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) "قوانين الدواوين"، حققه عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي القاهرة، ط ١، ١٩٩١م.
- ٥٠- ابن منقذ: (أسامد بن منقذ مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكناني الشيزري "الاعتبار"، حرره فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة، ١٩٣٠م، ومن خلال الموسوعة، ج ١٢، ١٤١٦هـ / ١٤١٦هـ.

٥١- ناصر خسرو القبادياني (أبو معين الدين خسرو القبادياني المروزي)، "سفر نامه"، ترجمه د. أحمد خالد، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٣م.

٥٢- النويري: (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ٦٧٧- ٧٣٣هـ)

نهاية الأرب في فنون الأدب"، حققه د. محمد محمد أمين، القاهرة، كلية الآداب، ١٩٩٢م، ٣١ ج.

٥٣- الهروي: (أبو الحسن علي بن أبي بكر): "الإشارات إلى معرفة الزيارات"، تحقيق جانيب - سورديل طومين، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، ط ٣، ١٩٥٣م.

٥٤- ابن واصل: (جمال الدين بن سالم ت ٦٥٩هـ) "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب"، حققه د. جمال الدين الشيال، مطبوعات دار الإحياء التراث، القديم، مطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧م.

٥٥- ابن الوردي: (سراج الدين أبي حنفي ت ٨٦١هـ) "خريدة العجائب وفريدة الغرائب"، حققه محمود فاخوري، دار الشرق الغربي، سوريا، ١٩٩١م.

٥٦- اليعقوبي: (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب ت ٢٨٤) "كتاب البلدان"، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٩٨٨م.

المصادر الأجنبية المعربة

- ١- الأكسياد: الأميرة أنا كوميثا من خلال الموسوعة الشامية، ج٦، دمشق، ط ١٩٩٥ م.
- ٢- أرنولد: رواية أرنولد عن فلسطين من خلال د. سهيل زكار، الموسوعة الشامية ج ٣٧، ١٩٩٥ م.
- ٣- أولفر (أوف بادربورن): "الاستيلاء على دمياط" من خلال د. سهيل زكار، الموسوعة الشامية، ج ٣٤/ دار الفكر، دمشق ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م.
- ٤- (بنيامين التطيلي): الرحالة بنيامين التطيلي النبار الأندلسي (٥٦١ هـ / ١١٦٥-١١٧٣ م) "رحلة بنيامين"، ترجمة عزرا حداد، المطبعة الشرقية، بغداد، ط ١ ١٩٤٥ م.
- ٥- بورتشارد: "وصف بورتشارد راهب جبل صهيون للأرض المقدسة"، من خلال د. سهيل زكار، ج ٣٧، دار الفكر، دمشق ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- ٦- بيردوبوا: "استرداد الأرض المقدسة" من خلال د. سهيل زكار، الموسوعة الشامية، ج ٣٦ دار الفكر، دمشق ١٤٢٠ / ١٩٩٩ م.
- ٧- ثيوديرك: "وصف ثيوديرك للأماكن المقدسة ١١٧٢ م" من خلال د. سهيل زكار، ج ٣٤، دار الفكر، دمشق ١٤١٩ / ١٩٩٨ م.
- ٨- جون أوف وورز بيرغ: "وصف الأرض المقدسة" من خلال الموسوعة الشامية ج ٣٣، دار الفكر، دمشق ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م.
- ٩- جون (بولونير): "وصف الأرض المقدسة" من خلال د. سهيل زكار، الموسوعة الشامية، ج ٤٠، دار الفكر، دمشق ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م.
- ١٠- دانيال الروسي: "رحلة حج الراهب الروسي دانيال من خلال الموسوعة الشامية"، ج ٣١ (١١٠٦-١١٠٧ م) دمشق، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م.
- ١١- دي فترى (جاك): "المنتقى من تاريخ القدس من خلال الموسوعة الشامية" ج ٣٣، دار الفكر للطباعة، دمشق ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م.

- ١٢- ساتوتو (مارينو): "الأسرار" من خلال الموسوعة الشامية، ج ٣٦ دار الفكر، دمشق ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م
- ١٣- سمباط: " (التاريخ المعزو إلى القائد سمباط الأرمني) من خلال الموسوعة الشامية ، ج ٣٥، دار الفكر ١٤٢٠هـ /١٩٩٩م
- ١٤- سيولف: " رحلة حج سيولف إلى القدس" من خلال الموسوعة الشامية ج ٣١، دار الفكر ، دمشق ١٤١٨هـ /١٩٩٨م
- ١٥- الصوري (وليم): " الأعمال المنجزة فيما وراء البحار (١١٣٠- ١١٨٥م"، تحقيق د. سهيل زكار، دار الفكر ١٩٩٠م ج تحقيق حسن حبشي.
- ١٦- ابن العبري (أبو الفرج): " تاريخ الزمان " من خلال الموسوعة الشامية، دار الفكر دمشق ١٤١٦هـ /١٩٩٥م.
- ١٧- فابري (فليكس): " جولات الراهب الدومنيكاني فيليكس فابري ورحلاته حوالي ١٤٨٠هـ — ١٤٨٣" من خلال الموسوعة الشامية، دار الفكر، دمشق ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- ١٨- فولتشر أوف تشارترز: " تاريخ الحملة إلى القدس" من خلال الموسوعة الشامية ج ٦ ١٤١٦هـ /١٩٩٥م.
- ١٩- فيتلوس: " رسالة فيتلوس في وصف الأرض المقدسة (١١٣٠م) من خلال الموسوعة الشامية، دار الفكر، دمشق ١٤١٨هـ ١٩٩٨م
- ٢٠- لويس جو انفيل: " حياة القديس لويس جوانفيل" من خلال الموسوعة الشامية ج ٣٥، دار الفكر، دمشق ١٤١٩هـ /١٩٩٩م.
- ٢١- ميخائيل السوري الكبير: " روايات ميخائيل السوري الكبير " من خلال الموسوعة الشامية، دار الفكر ١٤١٦هـ /١٩٩٥م.
- ٢٢- وولترماب: " ما جاء عند وولترماب عن الحروب الصليبية" من خلال الموسوعة الشامية، دار الفكر ١٤١٩هـ /١٩٩٩م.
- ٢٣- يوانس فوقاس: " رحلة يوانس فوقاس في الأرض المقدسة " من خلال الموسوعة الشامية، ج ٣٤، دار الفكر، ١٩٩٨م.
- ٢٤- يوحنا كيناموس: " اعمال يوحنا كيناموس من خلال الموسوعة الشامية، ج ٢٩، دار الفكر، ١٩٩٧م.

المراجع العربية (١)

- ١- (اسماعيل) أحمد علي: "تاريخ السلاجقة في بلاد الشام في القرنين ٥ و ٦"، ط١، ١٩٨٣م.
- (اسماعيل) أحمد محمد: "تاريخ بلاد الشام القديم"، مركز الشام للخدمات الطباعة دمشق، ط١، ١٩٩٨.
- ٢- (الأوتاني): أحمد محمد: "الحياة الاقتصادية والاجتماعية في شمال بلاد الشام في القرن ٤هـ / ١٠م"، دمشق، ١٩٩٠م.
- ٣- أثناسيو (مصري هاجي): "سوريا الشمالية" مكتبة النبل، دمشق، ط١، ١٩٩٧م.
- ٤- أمين (أحمد): "ظهر الإسلام"، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٩٤٥م.
- ٥- بدوي (أحمد أحمد): "الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام"، دار النهضة، مصر، القاهرة، ١٩٧٢م.
- ٦- البستاني (بطرس): "دائرة المعارف"، دار المعرفة، بيروت لم يرد تاريخ الطبع.
- ٧- جوني (وفاء): دمشق والمملكة اللاتينية في القدس، دار الفكر، ١٤١٧، ١٩٩٧م.
- ٨- جوهري (دلال): جغرافية العالم الإسلامي، مطبعة الصباح، دمشق، ط١، ١٩٩٢، جزآن.
- ٩- حتي (فيليب): "تاريخ لبنان من أقدم العصور إلى عصرنا الحالي"، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٢م.
- "تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين"، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م.

١٠- حجازي (حسين): "جزيرة أرواد والجذور الفينيقية" على ضوء الاكتشافات الجديدة، دار أمانى، ط١، ١٩٨٩م.

١١ - حبيب (مالك): إبراهيم شعيبان: "الموسوعة السياحية للساحل السوري"، دار المنارة للدراسات، اللاذقية، ١٩٩٨م.

١٢- أبو حرب (محمد خير): "المعجم المدرسي"، وزارة التربية، دمشق، ١٩٨٥م.

١٣- الحلاق (نورية): "حوران والسود منذ بداية الحروب الصليبية حتى عكاظين"، رسالة ماجستير بإشراف د. سهيل زكار، دمشق ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

١٤- الحمصي (أحمد فايز الحمصي): "قلعة المرقب"، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ١٩٨٢م.

١٥- حميدة (عبد الرحمن): "محافظة حلب"، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٢م.

١٦- الحميدي (عبد العزيز بن عبد الله الحميدي): "التاريخ الإسلامي لمواقف وعبر"، دار الدعوة، دار الأندلس، جدة، ط١، ١٩٩٨م، ١٦ج.

١٧- الحويري (محمود): "الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين ١٢- ١٣م" القاهرة، ط١، ١٩٧٩م.

١٨- الحيارى (مصطفى): "صلاح الدين القائد وعصره"، ط١، ١٩٩٤م.

١٩- الخليل (عماد الدين): "عماد الدين زنكي"، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م.

٢٠- الخوري (منير): "تاريخ حمص"، نشر في مطرانية حمص الأرثوذكسية، ط١، ١٩٨٤م.

٢١- الدبس (المطران يوسف): "تاريخ سوريا القدماء"، مراجعة د. مارون رعد، دار نظير عبود، ١٩٩٤م.

- " من تاريخ سوريا الدنيوي والديني من أواخر القرن ١١ إلى أوائل القرن ١٦ م " المطبعة العمومية، بيروت، ١٩٠٢م.
- ٢٢- دروزة (محمد عزة): " العرب والعروبة"، دار البقعة العربية، دمشق ١٩٥٩م.
- ٢٣- ذكية (حنا): " القلاع والمواقع الأثرية في محافظة طرطوس"، نشر كاتدرائية طرطوس، لم يرد مكان وتاريخ الطباعة.
- ٢٤- رزوق (معروف): " تاريخ شيزر منذ القدم وأخبار من مربها من البشر"، وزارة الثقافة دمشق، ١٩٨٢م.
- ٢٥- رفة فيليب: " الدول العربية (اقتصادياتها وجغرافيتها)، سعد الدين للطباعة والنشر، القاهرة، ط ١/١، ١٩٨٥م.
- ٢٦- زيتون (عادل): " تاريخ العصور الوسطى الأوروبية"، منشورات جامعة دمشق، ط ٥، ١٩٩٢ م.
- "تاريخ الممالك"، المطبعة الجديدة، دمشق، ١٩٨٢م.
- ٢٧- الزين (سميح): "تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً"، دار الأندلس، بيروت، ط ٣/٣، ١٩٨١م.
- ٢٨- سعادة (جبرائيل): "المختصر في تاريخ اللانقية"، ط ١٩٨٤م.
- ٣٠- شبارو (عصام): " تاريخ المشرق العربي الاسلامي"، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط ١ ١٩٩٩م.
- ٣١- شيلرو: " السلاطين الأيوبيين"، دار النهضة العربية، بيروت، ط ١٩٩٤م.
- ٣٢- الشنتناوي: " المعارف الإسلامية" دار المعرفة، بيروت.
- ٣٣- الشهابي: (فتية) "هنا بدأت الحضارة"، ط ١، ١٩٨٨م.

- ٣٤- الصغير (أجفان): "القلع في فترة الحروب الصليبية ودورها الاقتصادي والاجتماعي والإداري عند المسلمين في بلاد الشام"، دار الينابيع، دمشق ١٩٩٥ م.
- ٣٥- طقوش (محمد سهيل): "تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة" (٥٦٩ - ٦٦١ هـ / ١١٧٤ - ١٢٦٣ م)، دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٩٩٩ م.
- ٣٦- عاشور: (سعيد عبد الفتاح) "الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى"، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢ ج، ط ١٩٦٣
- "أوروبا العصور الوسطى" (التاريخ السياسي) مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١٩٨٦ م، جزآن .
- "مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك" ط القاهرة ، ١٩٧٢ م
- ٣٧- عبد الحميد (رأفت): "بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة" عين للدراسات والبحوث الإنسانية ، ط ١ ١٩٩٧ م .
- ٣٨- عبد السلام (عادل): "الأقاليم الجغرافية السورية" مطبعة الاتحاد، دمشق ، ١٩٨٩ م.
- ٣٩- عثمان (هاشم): "تاريخ اللاذقية" منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٦ م
- ٤٠- العسلي (بسام): "فن الحرب الاسلامي في عهود الحلفاء الراشدين والأمويين"، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨ م ، ٥ مجلدات.
- ٤١- كرد علي: "غرائب الغرب" المطبعة الرحمانية، مصر ، ط ٢ ، ١٩٢٣ م ، جزآن.
- "الإسلام والحضارة العربية" ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥٠ م.
- "خط الشام" ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٢ ١٩٦٩ ، ٦ ج

٤٢- غلاب (محمد) : " الساحل الفنيقي وظهيره في الجغرافيا و التاريخ "

بيروت ، ط ١ ، ١٩٦٩ م

٤٣- قلعجي " صلاح الدين وقصة الصراع بين الشرق والغرب خلال

القرنين ١٢ و ١٣ " ط ١٩٩٢ م

٤٤- المعجم الجغرافي: لسوريا " مركز الدراسات العسكرية ، ط ١ /

١٩٩٢ م ، ع مجلدات

٤٥- موسى (علي حسن) : " في ربوع سوريا جغرافياً وسياحياً " ، مطبعة

الشام، دمشق ، ١٩٩٥ م

٤٦- الموسوعة الإسلامية الميسرة: المشرق العام د.محمود عكارم ، دار

صحارى.

٤٧- نوار (صلاح الدين محمد) : " العدوان الصليبي على العالم الاسلامي

(١٠٩٧-١١٢١م) دار الدعوة ، القاهرة ، ١٩٩٣ م

٤٨- ورد (نخلة): " حضارة أنطاكية عبر العصور " ، لم يرد تاريخ و مكان

الطبع.

٤٩- يعقوب (الياس): " عكاز الساحل (خراب مرقية) " ، حمص ، ط ١ ،

١٩٩٩ م.

المراجع الأجنبية المعربة

- ١- (اندرينو) واطون: " الإبداع الزراعي في بدايات العالم الإسلامي"، ترجمة أحمد الأشقر، منشورات جامعة حلب، ١٩٨٥م
- ٢- أرشيبالد.ر. لوس: " القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م)"، ترجمة أحمد محمد عيسى، القاهرة، نيويورك، مكتبة النهضة المصرية، لم يرد تاريخ الطباعة.
- ٣- حوراتي (ألبرت): " تاريخ الشعوب العربية"، كمال خولي، بيروت ط ١ ١٩٩٧ م
- ٤- رنسيما (ستيفن): " تاريخ الحروب الصليبية"، ترجمة د.الباز العريني، ١٩٨١م، ٣ ج.
- ٥- زابوروف (ميخائيل): " الصليبيون في الشرق"، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦ م.
- ٦- سميث (جوناثان رايلي): " الاسبتارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص ١٠٥٠-١٣١٠م"، دار طلاس، دمشق ط ١، ١٩٨٩م
- ٧- (سميل) ر. سي: " فن الحرب عند الصليبيين"، ترجمة العميد وليد الجلاذ، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، ١٩٨٥م
- ٨- فولفغانغ مولر - فينر: " القلاع أيام الحروب الصليبية"، محمد وليد الجلاذ، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، ط ١ ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م
- ٩- د. فيشر: " الأراضي الساحلية للشرق الأدنى"، ترجمة خير الله عمر الشريف مطبعة دار الإيمان، دمشق ١٩٦٥-١٩٦٦م.
- ١٠- فروست (أوتون): " استكشافات بحرية"، تعريب د. بكري الأسود، مجلة الحوليات الأثرية، مجلد ٤/ ١٩٦٤ م
- ١١- كاهن (كلود): " تاريخ العرب والشعوب الإسلامية"، نقلة إلى العربية بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، ط ١ نيسان ١٩٧٢م.
- ١٢- كوكيد (جان بول ري): "كتابة جديدة من أرواد" تعريب عدنان البني، مجلة الحوليات الأثرية مجلد ٨، ١٩٦٨م.
- ١٣- لسترنج: " بلدان الخلافة الشرقية"، نقلة إلى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مطبعة الرابطة، بغداد ١٩٥٤م.

١٤- ميكيل (أندريه): " الإسلام وحضارته " د. زينب عبد العزيز، منشورات دار المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٨١م.

١٥- هايد (ف): " تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى " ط ١٩٨٥، جزآن.

١٦- وينوار (فرانسيس): " إيطالية شعبها وأرضها " ترجمة د. محمد نظيف مؤسسة فرانكلين ، القاهرة ، نيويورك، ١٩٦٣ م.

Space image atlas, gors, syria, general - orgami zation of remote sensing, printing.

Colordaruk, Salzburg, Austria, Damas, ١٩٩٦.

The high alshami coast cities

Since the last of the century 11c till the end of the century 12c .
884 b.c – 591\ 1095 – 1195 a.c .

-introduction

Our arabic countries were and it still takes the interest of invaders forces in the past and in modern times . That was because of what these countries are famous of an important position in the middle of the world . Also, because of what it has such as natural goods and the mineral metals. So, at the end of the fifth century b.c, and the eleventh christian century c, the arabic eastern faced an aggressive movement from the west countries which it didn't see before in the middle ages this aggressive movement took from religion as a curtain to hide what ever it looks forward and it was known under the name of "crusade, s wars", these wars made an actual exchange in the general circumstances of the area in a form which it didn't know it before . Thus , salageka were foreign muslims , while the crusade's ferengh , they were foreigners and this sense pushed every political force to build great buildings such as citidals . Since the appearance of muslims on the theater of the mediterranean sea as a political force and as a war attacked the christendom and it weakened some basis. Further more the europ's people don't hesitate and made their best to attack muslims and fighting them . On the other hand, when the crusade came to the

East, they didn't face one unite only but they faced a different variety of all colours. Never the less , muslim's salagekas whom they have no connection between them at all , they did not find any common language with fatimia's caliphate which controlled the south of alsham's countries , even though there was a deep struggle among fatimeens themselves . In addition to that the neighbouring of roman empire which was waiting for the right chance to attack on muslims and what gave hope for that is the spread of disorder in salageka's country which is divided in to small estates almost independence , especially in the coast area and that was an easy matter for al ferengh to stay for pong years in alshami coast wealth areas which it was an

important strategic aim in the beginning to look forward it . So, the occupation was a good interest for the civil land lords in the west europe . Man is asking here , why did the crusade choose to occupy the coast area only not other ones ? And what are the aims for ? And were their aims suit with the practical result of their occupy to the alshami coast ? And why arab failed to stay with this position and to challenge the crusade's invaders after a long time? Thus , to give answers to such questions and a lot of these questions, face all who are interest in studying of history certainly . More over that , the relation ship between east and west throughout the crusade's wars. As we have said before, that the alshami coast was one of the basic aims of these direct wars . That history of these wars made a lot of scientists , politicians and diplomatists , and all what they took by force was to keep arabic east people under the invader's rule . So that the his torical science and political science are coherent in this age study.

Throughout this great challenge which arabic muslims faced it ,so the occupied forces have to union the raws and to carry the war flags until they could in hatteen's battle in 583 b.c \ 1187c .

To win the battle with the leader salah al din al aiobi . Therefore that was an important historical change for the crusade's existence in the area. From this general basic interest, was the choosing of this address of the high al shami coast cities and to study its history between : (488-591 b.c \ 1095c - 1195c) it took place about one century for that subject and that thing is usefull for the researcher in history . This territory didn't has the opportunity for that single studies only , but it has a common evidence too , that was from one point of view . On the other hand, the study of this coast interest was because of its importance and the role which that coast cities played in many different political, economical and scientific types . Especially the mediterranean, was well known for the external world and it was and still interested in aspecial interest . Because it was a center to great and old civilizations and a means between east and west too. From this evidence was the insist of al ferengh upon that cities of the coast which made it an open way to the east on the mediterranean and on

europe . Therefore one of the first objects according to the
 crusade armies was to occupy that cities in order toresque
 traveling and bring food , weapons and armies. Also , inorder
 to save the arrival of al ferengh pilgrims travelers who believe
 in private regligious thoughts belong to them . Moreorer that
 ,we must not forget the strong europ navies activities , like
 french ,english , cicily and italy's navy . And the most
 important role which the states of trade run especially (al
 genwia, albyzia and vienice). And this trade activity , whlich
 that states spread , based on their countries navies when the
 muslim,s navy was weak through the appearance of aiobi's
 state and what made it more weak is al ferengh seizure upon
 most of the import ant parts of al sham's countries and that
 made the arabic leader, salah al din al aiabi , to have attention
 for that matter and to build a strong navy has everything is
 useful and that became more strength in mediterranean since
 (575b.c\1179c). Even though, this subject was full of aspects
 but it has less information . Although of the whole best and the
 continual research which i made ,i found myself before , it is
 incomplete picture . This means that there are many subjects
 need more research and study until the thoughts and the
 research's co here.

i depended on more arabic sources of muslims , even it were
 important , but it didn't help me to get that scientific subject
 completely . That was a reason for me to do my best in
 research and to made me to read what ever is between the lines
 and to make size of it which it may be useful in this subject .
 So , i have to do my best and look for less information and to
 see how it is very important. That is because the whole events ,
 in that age , were about damascus and egypt. Therefore , the
 syrian coast area didn't take care of it by the intrest of
 historians, only they do that when they hear a bout a new
 crusade's war, a fter that they take care of its fortification and
 talk about it.

because it is the main path to the war after crossing by zantian
 lands by air and by sea through these cities .

Furthermore , i found a difficulty through my research a bout
 that cities of the coast or a bout the rivers and the mountains .

That was because of their old different names in the past and their new names now a days for example , lat a kia , today , its name was lalish , and banias was blenias and the name of this city like the name of banias city in damascus , so to distinguish between them becomes necessary according to the researcher or according to the improvement of the events and its places . Where as for the rivers , such as orantes , it didn't have the same name in the past but it was called al arnad or al arnot and al orant . And it some times called by the upside river etc , and there are a lot and lot of examples in the letter

According to the foreign sources , it were less in general and ifaced difficulties to get it from the libraries or from others and all that things which i have got were from translated studies . Such as what did by ana komina in al oxide , the unknown historian and william alsori . More orer that i pick it up from foreign references and sources which are translate into arabic . ٧٠٤٩٨٧

Whom their news had written in al shamia's book which is belongs to doctor sohil zakkar , and iused to make good of it to look for that missing sides in arabic sources especially it represents foreign point of views between the two sides and giving my openion and my notice about the event . But what i have to say that there is an important matter to me that

I used some books have the same printing and that reason is for the difficutties which i faced in the systems of library such an time , and the numbers of the the books till the time is finished then i couldn't continue the information so i have to ask for the same book in a nother day . On the other hand when i take again the book i find it was the same one but in a new different print orit has another historian's name . Finally , i say , that history has its laws and the right must comy back in a condition of a strong force . That what gives us hope as an arabic people and islamic people , and our occupied right will come back to us but what it really we lack to, is a strong force for this right and the bestexample for that is the days of al zenkeen , al aiobian whom led by salah al din al aiobi , who could to make the small states into one unite and asa strength in the face of

crusades al ferengh and they get victory on the enemy of god .
And he comes back .

"al makdis house " to arab again . Perhaps this study put us under spot light even it is a simple side from that history sides that we need to remember it , and perhaps it is used to make good of it today like yesterday . So that was a reason to me to choose this subject to add simple addition to that source which it has more chance in studies and in historical research belongs to the crusade's war and in historical research belongs to the crusade's war and which are found more in our arabic library .

Meanwhile that i consider that i did my best to make my research more scientific and objective to achieve that scientific aim which is wanted from it .

The research has : -

first of all , i divided the research into preface then into an introduction to an analytic study and a definition of the most important research sources what ever it was arabic or foreign ones and my usefull of it . And after that introduction the first part from this letter was under this address : "a geographic show a bout the coast area " and i divided this part in to many researches.

The first research : it was a bout its place , the geographic border land and a bout the administrative divisions for this territory before and after the crusade war then there is an explanation a bout administrative position and its divisions untill the crusade's arrival and a bout the exchanges after the freedom of the area by salah al din al aiobi .

- the second research in this part is a bout the economical sources of the area discussing a lot of main subjects before and after the war such as :

1-water, agriculture , jobs and trade . And i finish this research a bout its

population , their first native , their population buildings and their demographic change who crusades made it when they came . Religion

also , i talked a bout buildings and cultural activity of the coast cities such as those buildings markets, mosque , churches

and bridges in addition to cultural and thought sides . While the second part of this letter is divided into two parts: the first part has the name of " occupation " in which i discussed the general positions of the area before the coming of al ferengh to it, and a bout their occupation to al shamia's coast cities one after one and the building of crusade's estates .

But for the second part of this part is about the relation between al ferengh and the other sides which are found in that time . Further more , i looked for the diplomatic relations between byzantine and al ferengh and the reasons of its weakness and the important role of the cities and the italian sea envays throughout and before the wars. And the reasons which pushed these states to give help to al ferengh .

On the other hand , the third part of the letter has the name of "resistance and restoration stage " with the

Help of : emad al din al zenki :521-541 b.c \1127- 1146 c .

And his son :noor al din mahamood : 541- 965 b.c \1146 – 1173 c .

And salah al din aliobi : 569 – 589 b.c\1173- 1193 c .

Thus each role was explained and the most of achievements which they achieved in the area . After that i made the fourth part under the name of "freedom " in which i talked a bout the most of victories which salah al din had achieved and leads it in "hatteen battle " : 583 b.c -1187 c, which was called" the bride of battles " which decided all latin's existence in the east , and its continuity of freedom jobs , reaching to wards north . That is to say , to" the coast cities " and the role of gadle's judge in this matter and stopping at antakia and the truce which made between salah al din and bohomend his ruler . And the most of events until the death of salah al din after two years nearly where the limited period of research is finished .

At last , the fifth part , it is the last part about the most important of the citidals of the coast area and its citadels which are followed to it with a brief description to each one of it after giving a historian preface a bout the building of these citadels in the past arriving to this century : 6 b.c \ 12c

But for the conclusion , which i finished in it my research it has my hardworking and my job and the most important

conclusions which i made and reached in general form .
 Moreover that ,my study was pointed in a newspaper
 remembering in it the names of sources and the references
 which i depended on it . At the and , i hope that what ever i did
 in this research has an acceptable conviction . Finally , i thank
 and praise my good mo there , my teacher who took care of my
 and stood by me along that period and her continuous advice to
 me to continue this way and her advice to me all the time . So i
 hope that god rewards her all the best . Also i thank very much
 , my respectable and high teacher important in formation and
 who opened to me his library and also i thank all my parents
 whom help my in the practical assistance.

God help us and stand by us